www.quranonlinelibrary.com

د. محمد محمد أبو موسى

أستاذ ورئيس قسم البلاغة
بكلية اللغة العربية
جامعة الأزهر

من أسرار التعبير القرآني

دراسة تحليلية لسورة الأحزاب

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

www.Quranonlinelibrary.com

الطبعة الثانية

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

حقوق الطبع محفوظة

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله ، له الحمد كلُّه ، والأمرُ كلُّه ، والخلق كلُّه ، والصلاة والسلام على خير خلقه صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

وبعد . .

فإنه لم يَصْبِرْ علماؤنا على كلام يدرسونه ويتدبَّرُونه ، ويستخرجون معانيه ، ويبحثون فى أَسْرَارِه ، كَمَا صبروا على كلام الله سبحانه .

ولا أحسب أن علماء أُمة من الأُمم صبروا على دراسة كلام كما صبر المسلمون على دراسة القرآن ، وما كتبه الأحبار فى التوراة ، وما كتبه القسيسون والرهبان فى الإنجيل هو قليل من قليل حين يقاس بما كتبه الكملة رضوان الله عليهم حول القرآن الكريم .

بَذَل علماؤنا الجهدَ الجاهدَ فى دراسة القرآن ، لأن ما فيه هو دين الله وحلاله وحرامه ، وبيانه وتجليته تكليف لا مَفَرَّ من إحكامه ، والالتزام به ، والتقصير فى هذا مَهْلَكَةٌ لا يَدْفعها دافع .

وهذا الاعتقاد فى دراسة القرآن وما يتصل به ، هو الذى شكَّلَ المنهج ، وبذل العلماء أقصى ما عِندهم من فكر وتدبُّرٍ ، وتدقيق وسلامة منهج ، لمعرفة مراد الله سبحانه - وهو أعلم بمراده - والتسامح والتساهل فى شئ من هذا يُفْضِى إلى أن يُسْتَخْرَجَ مِنْ كلام الله ما ليس فيه ، وهذا كذب على الله ، وإضافة لدين الله ما ليس منه ، أو يُفْضِى إلى أَنْ نترُكَ من معانى كلام الله ما يَدُلُّ عليه ، وهذا ضياع لجزء من التكاليف ، ونَقْصٌ فى دين الله ، وهذان

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

- أعنى الكذب على الله ، وإضافة ما ليس من دينه ، أو إهْدَارُ جُزْءٍ من تكاليف الدين - لا يقع فيهما مَن صار من أهل القِبْلة ، فضلاً عن العلماء العاملين ، والأئمة المهديين ، رضوان الله عليهم .

ولهذا تَرى أصح المناهج وأسدَّهَا ما كان من علومنا قريباً من مركز الدائرة ، الذى كان عقل الأُمة يتحرك فى محيطه ، وهو القرآن وما يتصل به من علوم شرعية ولُغوية وغيرها .

والتفسير المنقول عن رسول الله ﷺ وعلماء الصحابة الذين فَقِهُوا عنه صلوات الله وسلامه عليه ، هو أصل التفسير كله ، يستوى فى ذلك ما نسمِّيه تفسيراً لُغوياً ، أو بَيانياً ، وكثير من المأثور فى التفسير كان يتضمن فَهْماً بَيَانِياً للتركيب ، وتحليلُ هذا الفهم البيانى مما نشأ منه علم البلاغة ، وتفسير الطبرى مشحون بهذه المرويَّات التى يُعَدُّ كثيرٌ منها ، بمثابة متون مركزة المضمون لأصول لُغوية وبيانية ، وكان الطبرى رحمه الله شديد العناية بالإشارات اللُّغوية والبيانية التى كانت تكون فى كلامهم رضوان الله عليهم ، كالرمز ، والإيماء ، والإشارة فى خفاء ، وكان تحليله لهذه الذخائر المبهمة مَدْخلاً ظاهراً لمسائل علم البلاغة ، وخاصة ما يتصل منها بعلم المعانى ، ولهذا صار تفسيره كنزاً من كنوز البلاغة ، سبق فيه إلى كثير من المسائل ، والأصول البلاغية ، ولا يزال بمثابة الواحة الخصبة المذخورة بأبكار الأفكار ، التى تحتاج إلى باحث له دربة وخبرة بلغة العلماء ، وقد فتح باب هذه الواحة الباحث السورى المتمكن « محمود الزينى » برسالة علمية جيدة فى مباحث الصيغ التى ترجع أصولها إلى إشارات المأثور من كلام الكملة رضوان الله عليهم ، وكان شديد الحفاوة بهذا الجانب فوجب ذكره ، والمسائل البلاغية التى هَدىَ إليها التدبر فى التفسير ، إنما استخرجت بعد حذر ، واحتياط ، ومراجعة ، وهى ثمرة الطريقة المحتاطة ، التى راجعها العلماء ، واستدلوا لوجوهها ، وأكدوا دلالاتها ، وكان هذا شأن علمائنا - كما قلنا - فى كل علم يتصل بالقرآن ، وكان هذا

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

شأنهم فى علوم البلاغة ، لأنها ما دامت من أدوات المفسر ، فلا بُدَّ أن تكون قد رُوجعت وحُقِّقَتْ وأُحْكِمَتْ ، وإلا ضلت وأضلَّت .

ولهذا نرى عبد القاهر وهو يحدثنا فى أصْغَرِ المسائل ، وأوضحها ، مثل قوله : إن قولنا : « هو يفعل » آكد من قولنا : « يَفْعَلُ » ، نراه يقف ، ويحتشد ، ويستدل ، ويستشهد ، حتى يؤكد من كل وجه صحة ما ادعاه من الفرق بين : هو يفعل ، ويَفْعَل ، فيذكر مواقع « هو يفعل » فى الكلام الفصيح ، ويستخرج منها بالبرهان الظاهر ، أنه إنما جيئَ بها فى مقام يحتاج إلى التقوية ، والتأكيد . ثم يعود إلى ما بقى فى سلائق الناس من صيغ اللغة ، فيقول لك : تراهم يقولون : هو خرج ، إذا كان الخُرُوج فى هذا الوقت ليس من عادته ، وحينئذ يؤكدون خروجه لغرابته ، ويَقُولون : خرج ، إذا كان الخروج فى هذا الوقت من عادته ، وهكذا يحيط بالمسألة ، وينظر فى كل زاوية منها ، نظر الناقد المُتفَقِّد ، حتى يطمئن إلى سلامتها ، وسدادها ، لأنه يعلم أن مثل هذه القاعدة ستدور فى تفسير كلام الله ، وأنك ستقول فى قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ (١) : ما قلته فى « هو يفعل » ، وأن تقديم لفظ الجلالة يفيد التوكيد ، فلو كانت القاعدة غير مؤسسة على سداد ، وصحة ، واستقامة ، لكان قولنا فى آية ﴿ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِم ﴾ ، وأن التوكيد جزء معناها ، ومرادها ، من باب الكذب على الله سبحانه ، وهذا أخوف ما يخافه العلماء ، وقد كان منهم مَن أحْرَق كتبه قبل موته خشية أن تكون قد تَسَلَّلَتْ إليها غفلة ، فيضل بها قارئ غير قادر على النقد والتمييز .

ولما كانت علوم العربية كلها داخلة فى باب التفسير ، فقد سيطرت هذه الروح الحذرة عليها ، وكان علماؤنا يراجعون أصولهم ، وفروعهم ، ويُدَقِّقُونَ فى المراجعة ، وكانت قراءتهم لما يَقْرَءُون من مُصَنَّفَات كأنها هى الأخرى مراجعة ، فكثرت التعليقات ، والاستدراكات والشروح ، وكان كل ذلك كأنه

---

(١) البقرة : ١٥

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

نقد دائم ، ودائب للمعرفة ، حتى صارت القراءة لا تعنى تحصيل المعرفة فقط ، وإنما تعنى بجانب هذا نقد المعرفة ، وهذا كله ظاهر فى كلامهم ، وهو مما يجب أن نأخذ أنفسنا وطُلّابنا به ، ولا يشغلنا التحصيل فقط ، لأنه مع أهميته ، ونفاسته يعتبر الجانب المسالم فى المعرفة ، وإنما تكون حيويتها ونماؤها وتصفيتها فى المراجعة ، والاستدراكات ، والنظر الناقد ، وإذا كنا فى دراسة الشعر والأدب نستخرج الصور والمعانى والخواطر والهواجس والرموز ، ونحتشد لذلك بكل ما نحكم ، وما لا نحكم ، من مناهج البحث وجهات النظر حتى نقترب من جوهر الشعر ، ونتعرف على عناصر تكوينه ، وألَقِ أحلامه ورؤاه ، فإننا فى دراسة القرآن نحتشد أضعاف هذا الاحتشاد لنستكشف حلاله وحرامه ، وأمره ونهيه ، وهذا هو الأصل ، وقد ترانا فى القرآن نستجلى الدقة فى التعبير ، والأمر الخارق فى بناء الكلمات ، وقد ترانا نستجلى الخواطر ، والهواجس ، والأحوال والغرائز فى الآيات التى تصف أحوال الإنسان ، وقصص الأنبياء عليهم السلام ، وحكايات الرجال والنساء المذكورين فى القرآن ، ولكن هذه الخواطر والهواجس والأحوال والمشاعر التى تتراءا لنا من كلام رجل من آل فرعون يكتم إيمانه مثلاً ، أو من حوار مريم مع الملائكة ، أو فى مراجعتها لرسول ربها الذى تمثّل لها بَشَراً سوياً إلى آخر ما ترى من مواقف تفيض حياة وحيوية ، وتزخر بأحوال النفس وهواجسها وغوامضها ، إنما يهدينا إليها فى القرآن كلام الله . والذى يهدينا إلى ما فى نفوس الشعراء هو صنعتهم وبيانهم وخبرة ألسنتهم بلغاتهم وأدواتها ومذاهبها وطرقها ووسائل بيانها وصورها ورموزها .

وموقف البلاغى أمام ألفاظ القرآن وصوره ، وإن شابه موقفه أمام ألفاظ الشعر وتراكيبه وصوره ، إلا أن ثمة اختلافاً - كما قلنا - لا يجوز إهماله ، لأننا مع القرآن نستنبط شرعاً وديناً وحلالاً وحراماً وأسراراً وأحوالاً وإعجازاً ، ومع الشعر نستنبط صنعة ولقانة ، إن التدسس فى بواطن الكلمة القرآنية له أهدافه ومراميه ، والتدسس فى سراديب الكلمة الشعرية له أهدافه ومراميه ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ومع هذا الاختلاف الذى يراه بصورة أوضح من هذه الإشارات كل مَن عالج تفسير القرآن وتحليل الشعر ، أقول مع هذا الاختلاف : فإننا حين ننقل طرائق المفسرين فى التحليل والتدقيق فى استخراج المعانى ، والصبر على اعتصار الكلمات ، والتراكيب ، والأحوال ، ورصد كل لمحة وكل إيماءة فى كل منعطف من فواصل وروابط ومكوِّنات الكلام ، إن نقل هذا إلى الشعر والبيان المختار جدير بإخصابه وازدهاره ، وفتح مغاليق لا يفتحها إلا منهج بحث العربية وأسرار بلاغتها .

وأزعم أن « قِفَا نَبْكِ » ، و« عُوجُوا فَتَحيُّوا لِنَعْمٍ » ، و« أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى » ، وغيرها من الروائع التى قام على أمثالها أدب العربية الأول لا تزال مطوية على كثير من أسرار صنعة البيان ، وبلاغة اللسان ، لأنها لم تُدرس الدراسة الكافية التى تحتشد لاستخراج صنعتها ، ودقائقها ، وودائعها .

نعم .. لقد دُرِس الشعر الجاهلى فى علم النصوص الأدبية ، دراسة تتناول الغريب ، والإعراب ، وفى أحسن الحالات « العصرية » نتكلم فيها عن « اللوحات » التى تصف حيوانات الصحراء ، وقد نذكر اللون والصورة والوحدة العضوية - أو الصدق الفنى .... إلى آخر ما يخف على ألسنتنا التقاطه من كلام الآخرين .

ولو أننا عنينا بهذا الشعر ومنحناه روح هذا المنهج الذى فسرنا به القرآن الكريم لكان لنا من هذا الشعر ونقده وتحليله أفضل مما لنا منه بإقحام هذه المناهج المغايرة والتى لا نُحكمها ولا نُحكم تطبيقها . وليس من المستبعد القول بأن نقادنا الذين يتعصبون لفكر الآخرين لو أنهم أحكموا مناهج التفسير وعلوم القرآن لكان لهم موقف مغاير ، بل وأزيد : أنهم لو قرؤوا تفسير آيات الأحكام - وهى أبعد شرائح التفسير من الدراسة الأدبية - لوجدوا فيها من

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

دقيق ملاحظات الفقهاء ، وبُعْد نفوذهم فى قلب الدلالة ، ولمح الإشارة ، واقتناص السوانح ، ما يدل دلالة ظاهرة على صدق ما نَدَّعيه .

ولا أعرف فى الدراسات الأدبية كلاماً أفضل من الكلام الذى يُقَرِّبنا من الأدب نفسه ، ويغرينا بودائعه ، ويقذف بنا فى مجاهله ، أو يكشف لنا منه سراً غَمُض ، أو يُفسِّر لنا منه مجملاً أبهم ، وكلام الفقهاء فى آيات الأحكام كله من هذا .

ومن المؤكد أن هذا الكلام لن يستمع إليه فضلاء النُقَّاد ، الذين يرون أن الفقه علم المشايخ ، وبَلْوَانا أن نقادنا وكبار مفكرينا وروّاد كُتَّابنا مُنْقَطعُون عن علومنا التى هى أصول حضارتنا وثقافتنا ، وأنهم لا يجدون غضاضة من المجاهرة بجهلهم بها ، ولم أعرف في تاريخ الأمم أن جماعة جهلت علوم أمة وانقطعت عن هذه العلوم حتى حُسِبت أنها من أمة لا علم لها كما قال المرحوم زكى نجيب محمود ، ثم عُدُّوا مع هذا الجهل روّادها وكبارها ومفكريها وقادة التنوير والثقافة والتوجيه فيها . ويعلم كل مَن له علم أن مَن لم ينغمس فى علوم أُمته وينفذ إلى أصولها وجذورها ، لا يكون له رأى فيها ، لأن بداهة العقول ترفض رأى مَن لم يقتل الشئ علماً ، فكيف بمن يجهله .

وحين أذكر الفقه فى هذا المقام لا أعنى أن يكون قياسنا فى التحليل والتذوق هو الحلال والحرام ، وإنما أذكره من حيث هو منهج فى التفسير والتحليل والمراجعة ، وفيه نرى حركة العقل ، وأصول المنهج ، والحذر ، والاحتياط ، كل ذلك مقرون بالتذوق ، والبصيرة ، والتحليل الرفيع للعناصر اللُّغوية المكوِّنة للنص ، والخبرة الزاكية بالدلالات والرموز ، والإشارات ، ولهذا نبغ كثير من الفقهاء فى تذوق الشعر ونقده وحسب الفقه يداً على النقد أنه خرّج له علىّ بن عبد العزيز صاحب الوساطة والملقب بالقاضى ، وكان الفقه والتفسير والنحو والحديث والقراءات وغيرها من مجموعة العلوم العربية والإسلامية والتى تُعَد أصولاً فكرية للحضارة الإسلامية ، كانت هذه العلوم قاسَماً مشتركاً لكل الشعراء ، والنُقَّاد ، والكُتَّاب ، والمفكرين ، وكان المتنبى متميزاً بعلوم

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الاشتقاق ، وكان يحفظ الشواذ ويعدها عداً ، وكان ابن جنى يستمع إليه فى هذا ، وكان أبو نواس الشاعر الخليع من علماء زمانه فى القراءات ، حتى هَمَّ الشافعى أن يأخذها عنه لولا ما عُرِف به ، كما قال الشافعى رضوان الله عليه ، وكان الشافعى شيخاً لبعض علماء اللغة فى الرواية ، والإعراب ، والغريب ، قرأ عليه الأصمعى شعر هُذَيل ، وكان علماء البلاغة والنحو يحتجون برأى الشافعى فى اللغة ، وله كلام مشهور فى تفسير آية النساء : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴾ (١) خالف فيه واتبَعَ واتُّبِعَ . وقد كتب الزمخشرى كتاباً سَمَّاه « شافى العِيّ من كلام الشافعى » ، ومعناه أن كلام الشافعى يَصقُل العقول والألباب ، ويشفى العقل من داء الفهاهة ، ويقيمه على الاستقامة ، ولم يكن هناك خلط ، وإنما كان كل علم عند هؤلاء الكبار يسلك طريقه على منهجه ، فالفقيه علىّ ابن عبد العزيز الجرجانى كان قاضياً ، وكان لا يتولى القضاء إلا مَن برع فى الفقه ، وصارت له فيه مَلَكة يقتدر بها على القياس ، أقول : هذا الفقيه الإمام هو الذى قال : « الشعر بمعزل عن الدين » ، يعنى أن له قياساً آخر ، وكان رائعاً جداً أن تصدر هذه الكلمة التى لا تزال من قضايا الناس من فقيه ، فيه رزانة القاضى ، ووقاره ، وعلمه ، واتزانه ، وتَرَدُّده ، وبُعده عن التجرىْ والتسرع ، وقد ظهر ذلك كله فى كتاب الوساطة الذى كان فيه ممسكاً بميزان العدل والاعتدال .

هكذا كان شيوخ النُقَّاد فقهاء ، وشيوخ الفقهاء أصحاب شعر ، وشيوخ الشعراء قُرَّاء ، ولم تعرف علومنا هذه الجُزُرَ المعزولة فضلاً عن أن تعرف كُتَّاباً ونُقَّاداً ورُوَّاداً وقادة ومفكرين يجهلون علومها جهلاً مُطْبقاً ، وبالتالى يجهلون حضارتها ورسالتها ، وهذا هو الفرق بين أزمنة الازدهار والتقدم والقوة والغلبة ، وأزمنة الانحطاط ، والهزائم ، والتخلف ، والتبعية ، واحكم هذا واستمسك به واحذر أن تُخدع عنه ، ومن بداهة العقل أن تتأمل الواقع ، فإذا كان مُتخلِّفاً ومنحطاً ومهزوماً فقد وجب أن ترفض تقاليده التى

(١) النساء : ٣

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

قام عليها ، فى كل ما يَمَسُّ الكيان ، وهنا مغالطة تروج وهى أن الدعوة إلى النظر إلى الذات والاستضاءة بأضواء الرأى المنبثق منها رجعة إلى الوراء ، و« انكفاء على الأنا » ، و« التوجس من الآخر » . . . إلى آخر ما فى هذا وهو من الفساد الوبيل ، وليس هناك ذو رشد يحذو حذو غيره ، وإنما ذو الرشد دائماً يحذو حذو نفسه ، وهكذا الأمم لأن كل عقل حىّ يرفض التقليد والتبعية ، والتقليد باب من أبواب العبودية لا يرضاه عقل حُرّ .

أقول : لم تعرف علومنا هذه الجُزُر المعزولة والتى كرّسناها فى نُظُمنا الجامعية ، ففصلناها أقساماً من أول السُّلَّم الجامعى ، فى بعض جامعاتنا ، حيث ترى قسم الأدب وقسم البلاغة وقسم النحو ، وأن الطُّلاَّب من الفرقة الأولى يُوزَعون على هذه الأقسام ، ويدهشك هذا النظام الذى يُقطِّع الجسم الواحد الذى هو علوم العربية أوْصالاً أوصالاً ، وقد فُرِض هذا النظام على الأزهر الشريف ، وما تخلَّص منه إلا بعد ما نفى بعض خبثه ، وذلك فى زمان محنة الأزهر الشريف التى سمَّاها الباطل « تطويراً » ، والتى لا تزال مأساة دمَّرت فى قلبه أروقة علوم الشريعة والتفسير ، واللغة ، وأقامت على أنقاضها بناءً ضئيلاً هزيلاً منبوذاً لعلوم الطب ، والصيدلة ، والهندسة ، والاقتصاد ، وهذه المأساة التى هى فى حساب التاريخ جريمة منكرة يسمونها إنجازاً ، أقول : إنه ليدهشك أن ترانا فى أروقة العلم تُقَطِّع علوم العربية أوصالاً أوصالاً ، كما يدهشك أن ينتكس بنا الحال بعد قولة هذا الفقيه صاحب الأوراد : « إن الشعر بمعزل عن الدين » ، والتى أكدها شيوخ العلم من بعده من طبقة الإمام عبد القاهر الجرجانى وهو واحد من أصحاب المواهب النادرة ليس فى أُمة المسلمين وحدها ، وإنما بين أفذاذ بنى البَشر ، أقول : ينتكس بنا الحال بعد عشرة قرون من إطلاق هذه الكلمة الرفيعة والمستنيرة فى أُمة الإسلام ، بعد هذا نرى فى شبابنا وشيوخنا وفقهائنا مَن يُؤثم شعر الفرزدق ، ويزرى بالأخطل ، والبعيث ، ويرى أن الاشتغال بالشعر الجاهلى اشتغالٌ بباطل ، ونرى منا مَن يدعو إلى نبذ الشعر كله ، وأن تتجه كتيبة العلوم العربية بأشياخها ، وطُلابها ، إلى القرآن لا غير ، تستمد

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

منه وحده شواهدها ، وأن تقطع لسان الشعر من كتب اللغة والبلاغة ، والنحو وغيرها ، لأنه لا يجوز لنا أن نستشهد بغير القرآن ما دام الشاهد فى القرآن .

وهكذا يتحمَّس بعض شبابنا إلى هذا الاتجاه ، ولم يَفْطن هؤلاء إلى أن القرآن الكريم هو الذى وجَّه علماء الأمة إلى الاستشهاد بالشعر ، وذلك لما كرر ذكر اللسان العربى المبين ، واللسان العربى هو الشعر وكل ما نطق به أصحاب السليقة فى حواضرهم وبواديهم ، وما تراجزوا به على أفواه القُلُب - كما يقول علماؤنا - وأن حفظ القرآن يقتضى بالضرورة حفظ اللسان الذى نزل به القرآن ، وأن الحق سبحانه لما وصف كتابه بأنه : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (١) لم يكن هذا الوصف مدحاً للقرآن لأنه لا يُمْدح بأفضلَ من أنه كلامُ الله ، وإنما هو مدح لهذا اللسان العربى المتجسد فى كل ما نطق به أصحاب السليقة من شعر ونثر ، وجَدٍّ ولهو ، وذلك على حد قول الأول :

ما إنْ مدحتُ محمداً بمقالتى لكن مدحتُ مقالتى بمحمد

وهؤلاء الذين يَزْرُون على الشعر ، وينعون على العلماء والنُحاة واللُّغويين والبلاغيين الاستشهاد بالشعر كثيرون ، ومنهم متخصصون فى هذه العلوم .

قلت : إن الانتفاع بعلوم التفسير وأدواته ، ووسائله ، ومناهجه ، فى ميدان الدراسة الأدبية أمر نافع ، وقد فصلت الكلام فى ذلك بعض التفصيل فى مقدمة الطبعة الثانية لكتاب « البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى » .

وأنتقل الآن إلى عكس ذلك وهو : هل يمكن نقل مناهج الدراسة الأدبية إلى حقل التفسير ؟

وأقول : إذا كانت مناهج الدراسة الأدبية قد أدارت ظهرها لعلوم العربية التى سمَّاها علماؤنا علوم الأدب ، فضلاً عن علوم التفسير والفقه والحديث والرواية وكل الأبنية الفكرية التى عاشها ويعيشها الأدباء ، والشعراء ، وأصحاب المعرفة ، إذا كانت مناهج الدراسة الأدبية قد تجاوزت كل ذلك

(١) الشعراء : ١٩٥

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وعَدَّته معرفة « تقليدية » قديمة واستبدلت به مقتبسات من كلام الأعاجم ، فإنها بطبيعة الحال لا تصلح للتطبيق على الدراسة القرآنية ، ثم إن هذه المناهج لم تُفلح فى دراسة الشعر والأدب ، وقلّما تجد فيها على كثرتها دراسة كشفت لنا سراً من أسرار الشعر ، وشرحت لنا وجهاً من وجوه صنعته ، ودلّتنا على شئ فيه لم نكن لنقع عليه لولاها ، وهناك كتب كثيرة ظهرت فى الأيام الأخيرة ، تطبق مناهج أدبية مختلفة على دراسة الشعر القديم ، وأى مُنصِف لو وضع هذه الجهود ، وقابلها بشرح التبريزى أو المرزوقى أو المعرِّى لديوان أبى تمام فلن يتردد لحظة فى اختيار أى شرح قديم ، مع أن هذه الشروح القديمة مع غيرها من علومنا كان يجب أن تكون بمثابة خمائر وبذور نستثمرها ونستنبتها ونبنى عليها ، كما يفعل عقلاء البَشر قاطبة ، وإنما تركناها فثبتت على ما هى عليه ، ولم نؤد فيها رسالتنا التى تؤديها كل الأجيال نحو موروثوها من العقل والفكر ، لم تتشربها أفئدتنا حتى تتخلق فيها تخلقاً جديداً ، ونخرجها لأجيالنا فكراً آخر بأضواء أخرى ، ورنين آخر ، والَقِ آخر ، هذه الأضواء الأخرى هى أضواء نفوسنا ، وجهادنا ، وتجاربنا ، وحظنا من القدرة على الإضافة العقلية والروحية ، وتوسيع رُقْعَة الحياة العقلية التى يسقيها كل جيل بسحائب فكره ، ورحيق روحه ، ويَمُدها ويرعاها ويستنبتها ، وكلٌ على قدر طاقته ، نعم .. إن هذه الرُّقْعَة العقلية هى ميدان جهاد العلماء ، ومحاريب عقولهم ، وأرواحهم ، وأفكارهم ، هى المعتكَفُ الذى يعتكفون فيه ، والمتعبَّد الذى يتعبدون فيه ، وهذا واجبهم لأنه منه يتسلسل الرِّىُّ الذى يُرَوِّى الأجيال ، ويصقلها ويربيها فى إطار حضارى متميز ، وسلوكى متميز ، وعقائدى متميز ، وهذه وظيفة العلم وأهله فى كل فجٍّ من فِجاج الأرض ومن فجاج التاريخ .

نحن تركنا هذا وسلكنا سلوكاً لا أعرف أمة سلكته من يوم أن خلق الله آبانا آدم وعلَّمه الأسماء ، وأودع فيه القدرة على أن يُفكر ويستخرج ، وأناط به هذا من أول أمره يوم أن علَّمه الأسماء كلها ، ليكون مرتبطاً بوجوده ، يعنى : « أنت موجود ، إذن أنت تفكر » ، لا أعرف أمة سلكت هذا الذى نحن فيه .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ولن أتناول هذا الذى نحن فيه إلا من الزاوية التى أنا فيها ، وهى فساد هذه المناهج وعدم صلاحيتها لأن تُنْقَل إلى حقل التفسير ، ودليل فسادها هو أننا نتعلَّم مناهج البحث الجديد فى الأدب والشعر من يوم أن درّس « مارجليوث » و« نالينو » وغيرهم ممن شكَّلوا فرعاً من المستشرقين في جامعاتنا ، يعنى منذ قرابة قرن من الزمان ، ونحن فى هذا القرن لم نَمَلَّ الإبحار على حروف الفرنجة كما قال المرحوم صلاح عبد الصبور ، ولم تستطع هذه المناهج ولا هذا العلم المنقول ، ولا هذه الدراسات الجديدة أن تحرك طاقات الإبداع والنبوغ فى واحد منا ، فيقدم لنا فكرة جديدة تكون جديرة بالعناية ، وجديرة بأن يَلتفت إليها مَن عندهم عقل كما يلتفتون إلى الفكرة العملاقة التى تسطع فتشغل الجميع وتملأ الدروب ، وأترك هذه القامات المتوسطة والتى صنع منها الإعلام عمالقة ، وقد عجزنا خلال هذا القرن كله عن أن نصوغ لنا نظرية فى النقد ، أو فى الأدب ، أو فى البحث ، فضلاً عن أن نُبدع فرعاً من فروع المعرفة ، أو برعماً من براعمها ، وكل ما فى أيدينا نُقُول ومترجمات ، وكأنه قد ماتت فينا قوة الإبداع والخلق التى لا تنبعث إلا بطول الصبر ، والجد ، وبتعاون الجهود ، وتظاهرها وتكاملها ، وتنظيم إيقاعات بوارقها ، وكل هذا مفقود ، لأننا لما تركنا علومنا الجامعة لوحدتنا ، والتى فيها وبها يكون التعاون والتكامل ، والتساند ، بمعنى أن هذا يَمُدُّ فرعاً من هنا ، وهذا يَمُدُّ فرعاً من هناك ، ويُنبِّه هذا إلى فكرة من هنا ، وهذا إلى فكرة من هناك ، وتتلاقى الأنغام المتشابهة وتكون نغماً واحداً ، يمكن أن يكون هذا النغم شيئاً مذكوراً ، كما هو الحال فى الأمم كلها ، ما غَبَر منها وما بَقِىَ . أقول : لما تركنا هذا انقطع التفاهم بيننا ، لأننا بدل أن تجمعنا علومنا الجامعة ، تفرقنا بَدَداً ، فهذا آخذ من هنا ، وهذا مقتبس من هناك ، فالمغرب العربى مثلاً غارق فى بحار اللُّغة الفرنسية ، علومه من علومها ، ولسانه من لسانها ، والمشرق العربى غارق فى بحار اللُّغة الإنجليزية ، وإذا التقى عالمان مشرقى ومغربى لم يكن الحديث مشتركاً بينهما كما هو الأصل والواجب ، يعنى لم يتحاورا حول أفكار لسيبويه مثلاً ، أو التوحيدى ، أو الجاحظ . . . وغيرهم ، لأنه ليس

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

عندهم من هؤلاء إلا حَسْوٌ كَحَسْوِ الطير ، أو تَحِلَّةُ العروبة ، على مثال تَحلَّة القسم ، أى ما يحل لهم به أن يكونوا عرباً ، وقد سمعت رجلاً كبيراً له أثر فى حياتنا الفكرية يقول : إن المستقبل فى علوم اللسانيات والنقد ومناهج الأدب لعلماء المشرق ، فقلت له : لماذا ؟ فقال : لأن المدرسة الفرنسية التى يأخذ عنها المغاربة بدأ أفولها ، والمدرسة الإنجليزية التى نأخذ عنها نحن بدأ تألُّقها ، فعجبت لعقلية شيخ أفنى عمره فى أروقة العلم فى الجامعات العربية ، وقد ترسَّخَت التَّبَعية فى نفسه حتى صارت جبلَّة وأشرقت فى نفسى كلمة شريفة حفظناها من متون الفقه وهى : « لا يُقَلِّدُ مُجتَهِد وإن أخطأ » ، وهذا فى الفقه وأصله الرواية ، فكيف بالعلم وأصله الدراية ؟ ولم أذكر هذا للشيخ الذى لانَتْ عظامه لأنى أعلم أنه « ماركسى » لا يطيق سماع الفقه ولا سماع الحلال والحرام .

وطلبت إحدى الجامعات أن تُوضَع لها مفردات فى علم الأسلوب ، وذكرتْ أنها تريد إنشاء علم أسلوب عربى ، فرأيت أستاذاً مرموقاً وطيِّباً يقدم مفردات كأنها فهرس كتاب من كتب علم الأسلوب الفرنسى ، فقلت له : ما الفرق بين علم الأسلوب فى قسم اللُّغة العربية ، وعلم الأسلوب فى قسم اللُّغة الفرنسية ؟ فقال : لا فَرْق ، هناك كلامهم ، وهنا كلامهم ، لأنه ليس عندنا شئ ، فقلت له : ألا نحاول أن يكون عندنا شئ ؟ فضحك وقال : « يُعدِّلها ربُّنا لما نحاول » ، وكأن الناس قد استيأسوا ووضعوا رؤوسهم على أكتاف غيرهم واستراحوا كاليتامَى والنساء الثكالى ، وهذا ما أفرزته لنا حياتنا الفكرية التى انقطعت عن جذورها وألِفَت مضغ ما خفَّ حملُه من كلام الآخرين ، والحياة العقلية بمثابة القلب للأمة ، فإذا أصابها ضعف وهزال رأيت الضعف والهزال فى كل شئ من حولك .

ولا يتردد ذو عقل فى ضرورة الاطلاع على جهود الآخرين ورؤية ما عندهم ، لنعرف كيف يفكرون ؟ لا لنفكر كما يفكرون ، ولنعرف كيف يعالجون قضاياهم ؟ لا لنعالج قضايانا كما يعالجون قضاياهم ، لأننا يجب أن نفكر

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

بطريقتنا نحن وبعقولنا نحن ، ونعالج قضايانا بطريقتنا نحن ، ونواجه زماننا بكفاحنا لا بكفاح غيرنا .

إن اطّلاع علماء كل أمة على ثمار عقول غيرها فى الأدب وغيره لا يزيد عن كونه رؤية للآخرين ، وإطلالة على عالَمهم ، وعملهم ، وعلمهم ، وثقافتهم ، ثم ينصرف علماء كل أمة إلى علوم هذه الأمة ينغمسون فيها فى ليلهم ونهارهم ، وفى دروسهم ، وبحوثهم ، ومقالاتهم ، ومؤتمراتهم ، وأنديتهم ، كل ذلك يصقلون فيه علومهم هم ، وعقولهم هم ، ويُحيون معارفهم ، والعقل لا يتكوَّن ، والمعرفة لا تتأسس إلا إذا عاشها الإنسان فى علوم لغته ، وأمته ، وحضارته ، لأنه ابن هذه اللغة ، وهذه الحضارة ، وسيجد لكل شئ يقرؤه رنيناً فى نفسه ، وبهذا يتذوق المعرفة وتتفتح مداركه ، وتتنامى قدراته ، ويهتز بهذه المعرفة ظاهره ، وباطنه ، ويُصاغ صياغة رفيعة ، وهذا هو الأصل فى بناء عقل الإنسان وعلمه ، وثقافته ، وذوقه وأدبه ، لا يمكن أن يتكوَّن جيل من الألمان مثلاً إذا أُبْعِدَ عنه التراث الألمانى ، وقَدَّم له أساتذته مقتبسات من الفكر الإنجليزى أو الفرنسى ، هذه المقتبسات ليست كتباً مترجمة كاملة النسق والسياق ، وإنما هى اختيارات للمؤلف يُضيف إليها شروحاً وتعليقات ، كأن يشرح لهم البنية العميقة ، والبنية السطحية ، عند « تشوفسكى » ، والفرق بين اللغة والقول عند « سوسير » ، وأن هذا كان بمثابة إرهاص بميلاد علم الأسلوب ، وهكذا تُؤلَّف الكتب والبحوث والمقالات والمحاضرات وكل ما يدخل فى تكوين الجيل وإعداد عقول العلماء ، والجيل الذى يدرس هذا ليس فى إمكانه أن يتوسع فى هذه المعلومات على فرض فهمها من الكتب التى تُقدَّم له ، لأن تراثها الذى أُخذَت منه ليس بين يديه ، وليس فى لغته ، ثم بجانب هذا يدرس الجيل متوناً مختصرة للمعرفة ، والتراث الألمانى تُساق له هذه المتون فى ضوء هذه المعرفة التى يسميها العلماء له معرفة جديدة ، وهى بدائل للمعرفة القديمة التقليدية التى فى تراثه الألمانى ، ثم يقولون له . إن علماؤنا الأولّين لم يفهموا كذا ، ولم يحسنوا التعرف على

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

كذا ، كما يقال إن عبد القاهر الجرجانى لم يفهم « الإستاطيقا » !! ، وقد يتوسَّعون فى القدح والزراية وتلمس المعاب ، على حد عبارة الأستاذ محمود شاكر .

هل يرضى عقلاء الألمان أن يكون موقفهم من تربية أجيالهم وعقول علمائهم هو هذا ؟ وهذه صورة موجزة لما يقوم عليه إعداد الأجيال عندنا ، ولو تصورتَ علماء أمة يفعلونه مع أجيالهم لقلتَ إن هؤلاء العلماء يدمرون هذه الأجيال .

نعم .. إن معرفة البنية العميقة والسطحية والعلاقات الأفقية والرأسية والفرق بين المقدرة والأداء ، واللُّغة ، والقول ، والتحويلات النحوية ، وغير ذلك كل هذا جيد ، ولكنه لا يكون البتَّةَ مادة علم يُربَّى عليها جيل إلا إذا كنا ندمره تدميراً ، لأن الجيل لا يُربَّى إلا على علم يَذُوقُه لسانُه وتَنْغَمسُ فيه خواطره ، وتتغلغل فيه بصيرته ، وتكون أصوله بين يديه ، يعنى أن يكون قادراً على قراءة الأصول والمصادر وجذور المعرفة التى قرأها فلان ، وفلان ، حتى انبجس فى نفسه من الفكر والمعرفة ما انبجس ، كما تستطيع أن ترى امتداد الجاحظ فى تراثه ، وفى تربته ، وجذوره ، التى تَغَذَّى منها وبها عقلُه ، ووجدانه ، وتفتَّحت فى أفيائها آفاقه ، فتراجع علم الملل والنِحَل ، وكيف برع فى هذا وصار صاحب فرقة ، وتراجع أصول الشعر وطبقاته وروايته وأخباره التى بنى منها كتاب « البيان والتبيين » ، وتعرف أصول كتاب « الحيوان » وكذا وكذا ، وبهذا لا غير يتكوَّن العقل العلمى وتتفتَّح براعيمه ، ولا يزال يستقى ويستقى حتى تُمْطر سحائبه ، وكل هذا قطعنا أجيالنا عنه بالذى سميناه علماً ، وتجديداً ، وتطويراً ، وتنويراً ، فتخرَّج أبناؤنا من جامعاتنا أشباه أُمِّيين ، وصرنا نشكو من « التَّصَحُّور » داخل الجامعة ، يعنى زحف الصحراء على الرقعة الخضراء ، والخلاصة هى أن هذه المناهج غير صالحة لفهم الشعر ، فكيف تكون صالحة لفهم القرآن ، وغير صالحة لأن تُخَرِّج لنا مدرسين يُدَرِّسون اللُّغة العربية فى مدارسنا التى ترى فيها منهج اللُّغة العربية لا يزيد عن

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ألف باء . فكيف تُخَرِّج لنا علماء يَسدُّون فراغات الزمخشرى والألوسى وأبى حيان ، كما يزعم المتشيعون لها .

ولنترك أمر قصور المناهج الأدبية عندنا ، وأنها قائمة على مختصرات ليس لها قيمة علمية ، إلى أمر آخر وهو طبيعة هذه المناهج ، وأنها قامت على أصول فكرية وفلسفات ومعتقدات وأيديولوجيات مختلفة ، فاليساريون مثلاً يؤسسون مناهجهم على أصول الفكر اليسارى ، ويصير درس الأدب عندهم فرعاً من الفكر الماركسى حتى إنك وأنت تقرأ دراسة أدبية كتبها « ماركس » تحسب أنك تقرأ فكراً ماركسياً « دُبْلِج دَبْلَجَةً » جعلته أدباً ، أو نقداً ، وارتباط الحياة الأدبية بالمذاهب والعقائد السياسية والاجتماعية لم يكن فى عصر من العصور أقوى منه فى عصرنا هذا ، وراجع كتابات الماركسيين فى الشعر الجاهلى وفى النقد الأدبى تجد المتن الماركسى يجرى فى ذلك كله ، والدم الماركسى يجرى فى ذلك كله ، وقد استطاعت أصول الفكر الماركسى أن تَنْفُذَ وتتخلَّلَ وتنغَلَّ حتى أسكنها حَمَلَتُها تحت ألسنة شعراء الجاهلية ، حتى الفقه قالوا فيه : إنه فتاوى أصدرها الفقهاء لصالح البرجوازية القرشية ، والقوى الرجعية ، وأن الشافعى ذو عقلية قَبَلية ، متعصب للسان العرب ، وعَدُوُّ النزعة الإنسانية « الاشتراكية » ، وهكذا حتى إن بعض كبار نقادنا ولم أعرف أنه ماركسى كتب بحثاً أهداه إلى أستاذه طه حسين فى عيد ميلاده السبعين ، وكان الفكر الماركسى قد وقف كالشيطان الرجيم على ربوات مصر وسيطر على أعلامها ، واهتزت به عصا الطُّغْيان ، وارتفع به سَوْط الجلاد ، فجاء بحث هذا الأستاذ الذى قلت إننى لا أعرف أنه ماركسى يَحْطب فى هذا الوادى الرجيم ، ويصف الشعر العربى بأنه « جُوقة إنشاد » فى مواكب الرأسمالية القرشية ، وقوافلها الرائحة والغادية فى الجزيرة ، ومراكز التجارة المحيطة بها ، يتغنى ببطولات أصحاب هذه القوافل ، وقوتهم ، ومنعتهم ، وأن أيديهم تنال الهارب منهم « وَلَوْ رَفَعَتْهُ فِى السَّمَاءِ الْمَطَالِعُ » ، كل هذا ليكون الشعر بمثابة « حرس عسكرى » يحمى ثروة الإقطاع ، ثروة

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الأرستقراطية القرشية ، ولم يندس لسان الشعر فى طيّات الكفاح الشعبى ، والطبقات الكادحة ، من العمال والفقراء ، وإنما أغفل ذلك إغفالاً شديداً وظل حول القصور لا غير .

وفى ساحة القصور أيضاً وُجِدَ النقد الأدبى ، وكُتِبَ الفقه ، وكُتِبت الشريعة ، وكتبت اللُّغة أيضاً ، كل هذا التراث كُتِب فى أروقة الرأسمالية ، والأرستقراطية الأموية ، والعباسية ، فكان كل ذلك بمنأى عن المنهج العلمى السليم ، فلا الشعر شعر ، ولا النقد نقد ، ولا الفقه فقه ، وهكذا يُسْقط هذا الناقد الكبير الذى لُقِّبَ يوماً بشيخ النُّقَّاد ، كل تراث المسلمين ، ويُقَدِّم هذا تحية لشيخه عميد الأدب العربى ، وتأكيداً لهذا المعنى ذكر الفاضل ، أن الشعر لطول ممارسته ولطول تَلَبُّسه بالقول الزور ، والكذب ، والنفاق ، ضلَّ لسانُه طريق الصواب ، فلما جاء إلى وصف الطبيعة وهو باب لا يحتاج مَنْ يمارسه إلى نفاق عجز عن البيان فيه ، وكأن ألسنة الشعراء طُبِعَت على قول الزور والكذب ، فإذا انحرفت عن الكذب والزور والنفاق يبست وخَرِسَتْ ، ولا تظن أنى أبالغ ، وراجع كتاب « إلى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين » .

هذه صورة من مناهج الدرس الأدبى كتبها أستاذ لُقِّبَ يوماً بشيخ النُّقَّاد كما قلت ، ثم هو من أرجح علمائنا عقلاً ، وأوفرهم أدباً ، وأسخاهم فكراً ، فأى شئ من هذا نأخذه لدرس القرآن ؟

قلت : إن الماركسيين أعلاهم وأدناهم ، وأولهم وآخرهم ، يُدخلون الفكر الماركسى فى كل ما يتناولونه من شئون الأدب ، والثقافة ، والفكر ، وهم شديدو التعصب لمتونهم ، وهذا التعصب الشديد يحول بينهم وبين فقه أى شئ يتناولونه على الوجه الصحيح ، ليس عندهم استعداد لمراجعة هذه المتون ، ولا لمراجعة شئ فيها ، وليس عندهم استعداد للتنازل عن صِيَغهم ، ورموز ثقافتهم ، وآخر ما ابتُلِيَتْ به الدراسة القرآنية جراءة جاهلة ارتكبها ماركسى

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

« غشيم » ، فكتب فكراً ماركسياً تحت عنوان دراسات إسلامية كما يكتبون فى مجلاتهم ، وصحفهم ، ونشراتهم الماركسية فكراً ماركسياً يسمونه تفكيراً تقدمياً ، وفهماً مستنيراً لدين الله ، وقبل أن أشير إلى بعض المفاسد التى أثمرها نقل مناهج الدرس الأدبى إلى علوم القرآن ، أنبه إلى أن الجرأة حينما يتلقاها التلاميذ الصغار الخالية أفئدتهم من المعرفة تحفزهم هذه الجرأة إلى أن يَجْتَرِئوا هم جراة أفسح مدًى ، وأبعد فى الضلال ، ومعلوم أن طبيعة العقلية العلمية هى المراجعة ، والتريُّث والتدقيق ، والأناة ، والعالِم لا يقفز وإنما يتحوَّط ، وهو يحاول أن يتحسَّس موضع قدمه ، حتى لا يدمِّر باجترائه حقيقة تائهة ، ولا يفوتُ من تدقيقه سنا ضوء يقوده إلى برهان ، يراجع به منهجه ، وقضاياه ، ونتائجه ، وكلما اقترب العقل من المعرفة ازدادت فيه هذه الصفات ، حتى يكون أكثر تمهلاً فى ارتياده وأكثر تردداً ، وإنك لترى العالم الذى استحكم علمه ، ومن حوله تلاميذه يأخذهم الجموح ، وتأخذهم الحُمَيَّا هنا وهناك ، وهو يكبح جماحهم ، ويكُفَ غربهم ، حتى يعتادوا ، ويرتاضوا على الريْث والأناة ، وضد هذا الذى أقوله شاع عندنا عن الروَّاد وتلاميذ الروَّاد ، الذين شابت نواصيهم فأحبُّوا أن يكونوا هم الآخرين روَّاداً ، تركوا هذا المنهج العريق فى المعرفة ، واختاروا منهج الاقتحام والاجتراء والقفز ، وقد يُعذر الذين ابتدأوا هذه الجرأة من جيل طه حسين وأمين الخولى لأنهم أرادوا أن يُلْقُوا بحجر فى الماء الراكد ، كما يقال ، ولكن هذا الحجر صار بعد ذلك براكين دمَّرت الينابيع ، وهدَّمتها ، فرأينا من تلاميذ طه حسين مَن يُقدِّم له الشعر كله ، والنقد كله ، والفقه كله ، والفكر كله ، صورة من الزيف والكذب ، والنفاق ، وأن الذين أبدعوه شعراً ، ودرسوه نقداً ، واستنبطوه فقهاً ، وأصلُّوه فكراً ، كل هؤلاء منافقون ، وكانت أقلامهم ترتَعِدُ فى أيديهم وهم يكتبون الفقه ، واللُّغة ، والعلوم ، لأن السيف ، والنِّطْعَ كانا بين عيونهم ، فاهتزت الرُّؤَى فى المعارف كلها ، ثم جاء مَن قرأوا هذا وهم تلاميذ صغار ، فلم يكتف بما قاله النجباء الأُوَل ، وإنما أضاف شيئاً آخر جرَّ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

فيه التراث ، وجرَّم علماءه ، واتهمهم بالخيانة ، يعنى لم يكتف بوصفهم بالنفاق ، والضعف ، والعجز ، وأنهم سقاط ، مرعربون ، وجبناء ، وإنما هم رجعيون ، متحالفون مع الإقطاع ، المتحالف مع الاستعمار ، والأمبريالية ، والصهيونية العالمية ، هكذا وصل الحال ، ولستُ أدرى ماذا سيقول الجيل الذى يحفظ هذا الكلام ويُربَّى عليه ، ماذا هو قائل غداً حينما يكونون حلقة فى سلسلة الرُوَّاد . ليس الخطر فيما يكتبه الناس ، فليكتُب مَن شاء ما شاء ، وإنما الخطر فيما يُفرض على عقول أبنائنا ، ويدخل فى تشكيلها ، وتكوينها ، ويكون نجاحهم فى الكلية مرهوناً بحفظ مثل هذا الباطل ، فمَن حفظ مثل هذا الباطل ، والزيف ، والجهل ، ووعاه ، نجح وتفوّق واختير ليكون معيداً فى القسم وحاملاً رسالة هؤلاء الكرام ، وراوياً عنهم ، وواحداً فى عَنْعَنَاتهم .

ذكرنا أن طول ممارسة البحث والنظر والمراجعة يورث النفس قدراً غير قليل من التردد والتمهل والتروى ، وأن الاقتحام والاجتراء ليس من شأن أهل العلم ، وربما تكون فضيلة الاقتحام والاجتراء لازمة لقائد فرقة فى المطافى مثلاً ، ولكنها ليست لازمة لعالِم يروِّض طلابه على البحث والنظر ، وقلت : إن ضدَّ هذا قد شاع على أنه فضيلة من فضائل الرُوَّاد ، وقد عمل هذا عمله فى نفوس بعض شباب علمائنا فاقتحموا باب الدرس القرآنى يَجُرُّونَ وراءهم أوْزَارَ الفكر الماركسى ، وأثقاله ، ومفاسده ، وقد دارت برؤوسهم حُمَيّا الرِّيادة فذكروا أنهم مع تلاميذهم - الذين ليس فى عَيْبَتِهِم من اللُّغة وعلومها والتراث وعلومه إلا كتاب الأضواء ، وسلاح التلميذ - سيقرؤون علوم القرآن قراءة جديدة فى ضوء مناهج الدرس الأدبى (والماركسى بالطبع) ، وأنهم بهذه القراءة الجديدة سيُحَرِّرون علوم القرآن من أغلال التخلف ، والرجعية ، التى كبَّلها بها العلماء الذين يمثلون الفكر المتخلف ، والمتآمر مع الرجعية ، والمتحالف مع الأمبريالية ، وأنه هو وتلاميذه سَيَنْفُضون الغبار عن وجه الإسلام ، وتتجلى بهم حقيقته التى توارت وراء الفهم المتخلف للقرآن ، وأنه

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

سيكون إسلاماً ليس هو الذى يتحدث عنه العلماء الرجعيون ، المتآمرون مع « شركات توظيف الأموال » ، وليس هو « الإسلام السياسى » الذى يَقُضُّ مضاجع الحكام ، وليس هو الإسلام الذى يَزعُمُون أنه رسالة عالَمية ، ودعوى إلى البَشر كافة ، لأن شمولية الدعوة وعالَميتها أمر زعمه المسلمون ، وليس هو الإسلام الذى يُقَسِّمُ الناس ، ويُصَنِّفُهم على أساس أديانهم ، فيقول هذا مسلم ، وهذا يهودى ، لأن الأصل فى التصنيف هو الثقافة ، التى تجعل المصرى الماركسى فى ثقافته أخاً لليهودى الماركسى فى ثقافته ، فالماركسى الصهيونى أقرب إلى الماركسى المصرى ، من المصرى غير الماركسى . وهكذا يجرى الكلام وتتطور الأفكار ، والأجيال ، وهو قليل من كثير وإنما أردنا التنبيه لا غير .

وأخيراً نشير إلى أن المشكلة الحقيقية ليست تطبيق مناهج الدراسة الأدبية الأوروبية المسيحية على القرآن ، أو عدم تطبيقها ، وإنما المسألة لها جذور أخرى هى أن الدراسة الأدبية قد انحرفت عن العلوم العربية انحرافاً كاملاً وهذه العلوم هى بالطبع علوم الأمة التى منها الأدب والأدباء ، والنقد والنُقَّاد ، والأستاذ المعلِّم والرائد ، والطالب الدارس ، والمتعلم ، ثم عاشت الدراسة الأدبية على هوامش انقطع الجيل بها عن علومه ، ولم يعد هناك مَن يقرأ الجاحظ ، والتوحيدى ، والجرجانى ، والآمدى .. وغيرهم ، إلا أن يقرأ عنهم قراءة مصحوبة بالقول بأنهم لم يفهموا « الإستاطيقا » أو أنهم سطحيون فى فهمهم لجوهر الشعر « وآليات » نقده .

وبقيت الدراسة القرآنية موصولة بهذا التراث ، وبقيت الدراسات الإسلامية فى الجامعة ، قائمة على هذه العلوم ، وكل كتاب من كتب التفسير فيه من نحو سيبويه ، وابن جنى ، قدر صالح ، وفيه من علوم البلاغة ، والفقه والقراءات واللُّغة والأثر قدر صالح ، فلماذا لا تتخلَّص الدراسات الإسلامية والقرآنية من هذا المنهج التقليدى ؟ وما دمنا دَرَسنا الأدب على الطريقة الأوروبية ، فلماذا لا ندرس القرآن هو أيضاً عليها ؟ أليس القرآن نصاً أدبياً ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

فلماذا لا تُطَبَّق عليه الآليات التى تُطبَّق على النصوص الأدبية ؟ وبذلك يتم عزل هذه العلوم ونُبقِى منها ما يتلاءم مع هذه المناهج ، أو لا نُبقِى منها شيئاً ، المهم أن نَدْرسها فى ضوء المفاهيم الغربية ، ونقرؤها قراءة جديدة تُدخلها فى صيغ ورموز ومصطلحات المعرفة المعاصرة ، أى ضرر فى أن يدخل القرآن منطقة المنجزَات البنيوية الجديدة ؟ وقد سبق أن أدخلنا الشعر الجاهلى وهو نموذج اللّسان العربى المبين الذى نزل به القرآن دائرة هذه المنجزات ، ودرسناه فى ضوء التحليل البنيوى للأسطورة كما طوَّره « كلود ليفى - شتراوس » فى الأنثروبولوچيا البنيوية ، وفى ضوء التحليل التشكيلى للحكاية كما طوَّره « فلاديمير بروب » ، وفى ضوء مناهج تحليل الأدب المتشكلة فى إطار معطيات التحليل اللُّغوى ، والدراسات اللّسانية ، والسيمائية ، وفى ضوء المنهج النابع من مُعْطيات أساسية فى الفكر الماركسى ، وقد أنس الشعر لهذه الأعجميات لما طالت ملابسته لها ، وحسبها عُرْباً أترابا ، وفاض لها بأسراره ، وباح لها بإشكالياته ، ولماذا لا يأنس القرآن هو الآخر لهذه المنجزات ، وأن نَسْتكشفَ بها جوهره الذى غيَّبته مناهج البحث الرجعية المتخلفة والمتحالفة مع الإقطاع القرشى وبرجوازية بنى أمية وبنى العباس فى الزمن الأول ، ثم تحالفت فى زماننا مع الأمبريالية والصهيونية العالَمية ، لماذا لا نستخرج بآليات التنوير إسلاماً جديداً على رأسه قُبَّعة سكسونية أو مشتملاً برداء ماركسى عبرانى ، وبهذا تندمج الأمة كلها ثقافةً وقرآناً وعقائد فى قلب الحضارة الأوروبية المسيحية ، وكيف لا تندمج الأمة بقرآنها ودينها فيها وهى حضارة إنسانية ، الأمم فيها سواء ، ونحن فى هذه الحضارة شركاء ، ولا يَجُوزُ أن يُداخلنا الإحساس بأننا غرباء عليها ، ومستهلكون لها ، والفكر التقدمى يؤكد أن الحضارة الإنسانية واحدة ، تنشأ إنسانية بلحمها ودمها ، ثم تختار لها وطناً تعيش فيه ، وقد اختارت الحضارة الحديثة العالَمية الغرب وطناً لها ، كما اختارت الحضارة الإسلامية أو حضارة العصور الوسطى الشرق وطناً تعيش فيه .

هكذا يُغَرَّر بالجيل حتى يقال له : إن المساءَلة عن قبول هذه الحضارة تَخَلُّف ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ومجرد التوقف والمراجعة فى قبول الاندماج فيها إنما هو بقايا من آثار ثقافة الانحطاط ، التى استقرت فى الوجدان العربى ، من آثار سيطرة ثقافة العصور الوسطى ، والعهد العثمانى ، ولا يجوز الفصل بين العلوم العملية التى قامت عليها الحضارة المادية ، وبين ثقافات وأدبيات وقِيَم وعقائد المجتمع الذى استخلصَ هذه العلوم ، وأن مَن يأخذ معلومات فى الهندسة ، والكيمياء ، ويعزلها عن محيط المعارف الإنسانية يكون مستهلك حضارة ، ولن يكون منتجاً لها ، وإن تَخَلُّفنا راجعٌ إلى أننا نأخذ عن الغرب العلوم العملية ، ونترك العلوم الإنسانية ، وطريق التقدم هو أن نتخلى عن ثقافتنا ومعارفنا الرجعية والتى انتهت بنا إلى التخلف ، وأن نندمج فى الحضارة الأوروبية عقلاً ، وفكراً ، وثقافة ، وأدباً ، وهذا هو باب التنوير ، وليس له باب آخر ، وهذه هى دوَّامة العصر ، ومَن يرفضها فلن يعيش الزمن الذى نحن فيه ، والكتَّاب الذين يصادمون هذا مُتخلِّفون رجعيون ، يدعون الناس إلى عصور الظلمات ، ومَن يتكلم عن ديننا وحضارتنا وتاريخنا وهُوِيَتَنَا التاريخية فهو من جماعة « الإسلام السياسى » وخطر على الدولة المدنية ، ويعمل على ولاية الفقيه ، ولا يزال يُرْجَم بصواعق التهم أو يسكت ، حتى يُمَرِّرَ هؤلاء أفكارهم ، وخُططهم ، ولا يكون على الساحة سواهم ، وقد مكَّنهم النظام السياسى من ذلك ، ووضع فى أيديهم المجلات الأدبية ، ووسائل الاتصال فى الصحف الكبيرة ، ومكَّن لهم من إحكام سيطرتهم .

وكل هذا الذى يكررونه صباح مساء فى الصحف والمجلات ويظاهره النظام هو بالحرف الواحد وصايا رجال الاستعمار منذ أكثر من سبعين سنة ، وقد قالوا إن التجزئة السياسية للعالَم الإسلامى لم تحقق المطلوب ، من كسر وَحْدة هذا العالَم ، وتفتيته ، لأن الحضارة الإسلامية وَحْدة جامعة لهذه الشعوب مهما اختلفت الأنظمة ، وليس أمام السياسة الأوروبية المسيحية فى القضاء على خطر العالَم الإسلامى إلا طريق واحد ، هو هدم الحضارة الإسلامية الجامعة لهذه الشعوب ، وأن هدمها ليس له إلا طريق واحد هو

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

تدمير العلوم التى هى أساس هذه الحضارة ، وإحلال الفكر الغربى محلّها ، أو على الأقل إجراء الفكر الأوروبى المسيحى فى عروقها ، حتى يكون بينها وبين الغرب رَحِم ، ولهذا طالبوا بمساندة حركات التجديد الدينى التى على شاكلة حركة الشيخ محمد عبده ، لأن هذا التجديد يُقَرِّب بين مفاهيم الإسلام ، ومفاهيم الحضارة الغربية ، وأن الإسلام الذى يصوغه أمثال محمد عبده إسلام « أليف » لهذه الحضارة ، رمتفاهم معها ، وليس عدواً لها ، هذا ما كتبوه فى مذكراتهم ووصاياهم لساستهم .

ولا شك أن سيطرة مناهج الدراسة الأدبية الأوروبية على أدبنا ، وتغييب مناهجنا ، جزء جوهرى من هذا المشروع المستهدف تدمير الحضارة الإسلامية ، وإبعاد علومها ، ويدخل فى هذا وفى القلب منه تطبيق هذه المناهج على الدراسة القرآنية ، ولكن أساتذة الأدب الذين طبَّقوا المناهج الأوروبية على أدبنا كانوا عقلاء ، وأبعدوا القرآن عن هذا ليظل فى إطار ضوابطه ، وعلومه ، وحتى لا يُستَفَزَّ العقلُ الإسلامى بإقحام الأعجميَّات على القرآن الكريم ، حتي جاء ماركسى « غشيم » وفعل ذلك ، وكان يجب طرح فعله لأنه لا يُلْتَفت إليه ، وإنما عظمت فيه البلوى لأنه يُدَرِّسُه لطلابنا فى جامعتنا . ولما قال أهل الحق هذا باطل وضال ، هاجت كتيبة الرفاق وقالت : إن الجامعة سقطت فى فكر عصور الظلام والإرهاب ، والله غالب على أمره ، وهكذا تنتشر هذه الأفكار المخربة وراء مدافعة الإرهاب وما يسمونه « الإسلام السياسى » ، وهى تسمية وضعها اليهود والنصارى ، والإسلام دين واحد ، وليس فيه إسلام سياسة وإسلام عبادة ، وإنما هو التلبيس والتزييف الذى أسقطنا فى فتنة عمياء .

* * *

كنت أريد أن أُلحق بهذه الطبعة دراسة موسَّعة عن علاقة سورة الأحزاب بالسورة التى قبلها ، والسورة التى بعدها ، لأنى رأيت ذلك فى القرآن الكريم باباً اتسع علمُه وتَغَازَرَ ، وقلَّ كلامُ الناس فيه ، وهو من أبواب البلاغة العالية التى تَرُوعُ ، من غير أن تكون داخلة تحت مصطلح من مصطلحات مُتُون علم البلاغة ، لأنها علاقات معان تتفق ، وتختلف ، وتتقارب ، وتتباعد ، ولها

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

فى تقاربها وتباعدها درجات . كلٌّ ذلك بتدبير دقيق ، واعتبارات ، وسياقات ، ومقامات ، منها ظاهر ، وخفى ، كنت أُريد أن أُلحق بهذه الطبعة لُمَعاً من هذا ، ولكن حالت دون ذلك حوائل ، وحسبى أن أشير إلى الخطوط الأساسية التى يمكن لواحد من أهل العلم أن يُضيف إليها ، ويشبع القول فيها ، ويفتح من معانيها ما أغلق ، ويُفَصِّل من مُبْهَمِها ما أُجْمِل .

ولا تزال وجوه كثيرة من بلاغة القرآن غير مدروسة ، وإن كان قد نبَّه القدماء إليها ، من ذلك باب علاقة المطالع بالمقاصد ، وهو فى كل سورة من سور القرآن يمثل مذهباً ، وطريقاً ، وهو فى حاجة إلى أن يُكشَف ويُبَيَّن كما يُبَيَّن الشئ ويُنَصُّ عليه ، حتى يظهر للقُرَّاء كفلق الصبح ، وتظهر علاقة كل معنى فى السورة بمطلعها ، وقد ترى معانى السورة قد تَمَحْوَرت فى محاور ، تتعدَّد هذه المحاور ، وقد تكون هذه المحاور منها ما هو أصلى ، ومنها ما هو فرعى ، تكاثرت معانيه وتضامَّتْ ، وكوَّنته ، وهو بمثابة تعريجة فى خط سير المعنى . والمطلوب أن يُدَرَّس هذا كله ، وتُحَلَّل المعانى الداخلةُ فى كل هذه الأبنية ، وتُحَدَّد وتُشْرَح علاقات بعضها ببعض ، ثم علاقاتها بالإشراقة المطلعية التى التمعت فيها خيوط تمثل هذا كله ، ولا يكفى أبداً أن يكون علمنا بهذا الباب علم « استشعار » خفى وغامض ، نؤيده بلمحة من هنا وخاطرة من هناك ، على حد ما يقول القائل فى سورة مريم إنها ابتدأت بقوله تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ (١) ، ثم تكرر فيها : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ (٢) ، ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٣) ... وهكذا حتى كأن السورة بُنِيَت على هذا ، أقول هذا جيد ولكنه ليس كافياً وليس الذى نريده ، وإنما المطلوب أن نتتبَّع بلاغة السورة حتى نتبين شكلها ، وملامحها ، وسيمها ، ولكل سورة من سور القرآن شكل من أشكال البلاغة ، تراها فى طبيعة معناها ، فى عمومه ، وخصوصه ، وفى إبهامه ، وبيانه ،

---

(١) مريم : ٢ (٢) مريم : ١٦ (٣) مريم : ٤١

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وتفصيله ، وإجماله ، وجنسه ، ونوعه ، وعَرَضِه ولمحه ، وطيِّه ونشره ، وهو باب قد يتراءا سهل المرتقى قريب المنال ، ولكنه فى حقيقته صعب ، لأنه ألوان المعانى تتقارب جداً ، وهى متغايرة ، ولا بد من تَفَرُّسها تفرُّساً ينفُذ إلى مُسْتَسِرِّها حتى لا يختلط عليه المشتبه ، وإن تقارب ، وقد يُرَى المعنى مكرراً وهو غير مكرر ، لأن الأصل الذى امتد منه فى الصورة المكررة مختلف عن الأصل الأول ، وليس أدق فى دراسة الأدب والكلام من تأمل المعانى ، ومحاولة السيطرة عليها ، ودرسها ، والتعرف على مكوِّناتها ، وعناصرها ، وأصولها ، وفروعها ، ومنشئها ، وسيرتها ، وتطوراتها .

ومن وجوه بلاغة القرآن غير المدروسة كما ينبغى ، حركة المعنى داخل السورة ومراقبة نموه وامتداده ، وذهابه ، وارتداده ، وهذا باب من أخفى أبواب البلاغة ، وأغمضها ، ولا يُصغِّره عندك ما تراه من خوض العامة والخاصة فيه ، وقولهم على البديهة ، وإصابتهم أحياناً ، لأن هذا من تيسير الله لكلامه سبحانه ، قرَّب منه قدراً من المعانى كأنه مشترك بين الناس ، ثم بعد ذلك تأتى المراتب مرتبة بعد مرتبة ، حتى تكون هناك مرتبة فى الفهم خاصة بالراسخين من أهل العلم ، وهذا الجزء المضنون به على غير أهله هو ما يتجه إليه العمل ، والنظر ، وتتوخاه البحوث ، فإن أصابت وإلا قاربت أو مهَّدت الطريق لسالك يُصيب أو يُقارب .

واعلم أن علاقة فواتح السور بخواتيمها هى أصل هذا الباب الذى هو التعرف على حركة المعنى ، وامتداده ، وقد تَلْتَقط المناسبة بين المطلع والخاتمة بسرعة ، كأن يقول فى سورة الأحزاب : إن مطلعها النهى عن طاعة الكافرين والمنافقين ، وخاتمتها : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ ، وهذان هما الطرفان ، وقد تحرَّكت المعانى بينهما . وهذا سهل ، ولكن الشاق هو التعرف الواعى على رحلة المعنى بين هذين الشاطئين المتشابهين ، وكيف أبحر من شاطئ المطلع ، وكيف تحرَّك ، وتناقل ، وما هى قصة سيره ، وقصة حركته ، وكيف انتهى إلى النقطة التى بدأ منها ، وكأنه يطوف حول الأرض ، ويقطع السير إلى الأمام وإلى الخلف فى خطوة

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

واحدة ، يُولّي وجهه نحو الشرق ليصل إلى نقطة فى الغرب ، يسعى إلى الأمام ليقترب من الوراء ، إنه لا شك نسق عجيب ، امتد المعنى فيه ، وتفرَّع ، ثم جرَى فى أحد فروعه ، ثم وقف ، وارتد ، إلى فرع كان قد تركه ، ومهما دقَّقْتُ فى الوصف لأضعَ بين يديك شيئاً من غوامض ، ومسالك ، ودقائق هذا الباب ، فلن أستطيع ذلك ، وإنما تستطيعه أنت إذا قذفت بنفسك فى مَعْمَعَانه ، وَوَعَيْتَ تيّاره ، وبدأتَ معه ترقبه ، فى حركته ، وتتأمله ، بتركيز شديد ، وقدرة على رصد المعانى ، وبصيرةٍ حيَّةٍ تُدْرِك ظاهرها وباطنها ، ومنحنياتها وتعاريجها . . . وهكذا .

وهذه موضوعات لا يصلح للخوض فيها المبتدئون من طُلّاب العلم إلا أن يَتميَّز أحدهم بمؤهلات خاصة فيدخل هذا الباب ، لا ليستخرج منه علماً ، وإنما ليتدرب على مادته ، وبلاغته ، لعله يستطيع أن يكتب فيه يوماً ، وقد كتب الباحث المتيقظ إبراهيم الهدهد بحثاً حصل به على العالَمية فى علاقة المطالع بالمقاصد ، وأشرفتُ عليه ، وارتضيتُ ما كتب لا لأنه العلم الذى نريده فى هذا الباب ، وإنما لأنه يدل على أن صاحبه يمكن أن يكون من أهل هذا الباب لو استمر ، وانقطع ، وصبر ، وثابر ، فقد يُخرج لنا منه حقائق تشبه فى وضوحها ، وتحديدها ، حقائق المعانى والبيان .

وقد عكفتُ زمناً على سورة الفرقان أستجلى مسيرة المعنى ، ورحلته بين شاطئى السورة اللذين يلتقيان ، وينعقدان ، وتصير بهما السورة كأنها دائرة مغلقة ، بدأت بنزول الفرقان على عبده ، وانتهت بـ ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ ، وبذلك التقت حلقتا البطان كما يقولون ، والبطان الحزام الذى يُجعل تحت بطن البعير ، وحلقتاه طرفاه ، ويُضرب مثلاً للشد ، وقد رأيتها تبدأ بأصول ثلاثة :

(١) التنزيه . (٢) نزول القرآن على عبده . (٣) خبر المخاطبين بهذا القرآن .

ثم كانت المعانى فى داخل السورة تَمُد خيطاً من هذه الخيوط الثلاثة ، ثم تقف بهذا الخيط وتمد خيطاً آخر ، ثم تقف ، وتدمج الخيوط الثلاثة ، فى خط واحد ، ثم تُفَرِّع تفريعات تقترب أو تبتعد من هذه الأصول ، إلى

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

آخر ما جرى عليه المعنى فى السورة مما يؤكد لك أنك أمام نظام بلاغى فى تحريك المعانى له أصوله ، وأسسه ، وأن اتصال الأجزاء التى هى أبعاض المعانى كاتصال أبعاض الجسم فى تواصلها ، وتعاونها ، فى أداء وظائفها ، وسبحان الذى أحسن كل شئ خلقه ، وقد بَهَرَنى ما رأيتُ فاستقللتُ ما كتبتُ ، ولم أشأ أن أنشره بعد ما انقطعت له زمناً أطول مما أنقطعه لغيره ، وقد كتبت هذا الكتاب فى سورة الأحزاب وتدبَّرتُها آية آية وكلمة كلمة ، ولم أستطع أن أكتب فى تفسيرى تحليلاً لحركة المعنى ، تلك الحركة التى بدأت ببداية السورة ومطلعها ، وانتهت أيضاً بهذه البداية ، لم أستطع أن أدل على هذه الدورة على الوجه الذى أقتنع به ، وأقدمه للقارئ معرفة مستخلصة ، مُتْقَنة ، وعلاقة السورة بالسورة التى قبلها والسورة التى بعدها ليس فيه من الصعوبة واللَّبس والغموض ، ما فى معرفة الطريق الملبس بين المطلع والخاتمة .

وهو باب يوشك أن يكون مستقلاً ومنفرداً فى بلاغة القرآن ، بل هو من البلاغة الخاصة بالقرآن ، بخلاف حركة المعنى ورحلته من المطلع إلى الخاتمة ، فهو كائن فى الشعر ، والخطب ، والرسائل ، والمقالات ، وجميع الأجناس الأدبية ، وإنه لَيُمتعُك أن تتأمل رحلة المعنى فى أى قصيدة ، وكيف انبثقت ينابيعُه من أوائلها ، وتسلسلت ، وجرت ، وتعثَّرت ، وتوقفت ، واستأنفت طريقاً بعد طريق ، وكيف قفزت من باب من أبواب المعانى ، إلى باب آخر ، وقد يظهر لك هذا فى بعض القصائد قليلة السخاء التى تجرى معانيها على النسق المشهور ، فتذكر الأطلال ، والرحلة . . . إلى آخره ، ويخفى إذا لم تكن القصائد جارية على هذا النغم ، أو كانت جارية عليه وهى من النفس الشعرى السخى ، كشعر الأعشى ، وامرئ القيس ، والنابغة ، وكل القصائد الطوال الجياد ، ثم هو فى أحواله كلها مختلف عما فى القرآن الكريم ، كما يختلف تشبيه القرآن عن تشبيه الشعر ، وكما تختلف مقابلات القرآن واستعاراته ، الفرق ليس له حدود لأنه فرق بين الممكن والمعجز .

أما البلاغة الكامنة فى ترتيب السور ، فإن أسرارها ليس لها أشباه فى

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الشعر إلا إذا تَمَحَّلنَا لذلك تَمَحُّلاً ورتَّبنا القصائد ترتيباً تاريخياً ، واعتبرنا الديوان قصيدة واحدة ، وبحثنا فى الثانية عن علاقات تربطها بالأولى . . . إلى آخره .

لا شك أننا إذا درسنا ترتيب « الطواسيم » وعلاقات المعانى التى فى هذه السور الثلاثة (الشعراء ، النمل ، القصص) ، فإننا واجدون لا محالة باباً من أبواب البلاغة الغائبة ، حاول أن تستخلص قصة موسى عليه السلام فى السور الثلاثة ، وكيف تكاملت تكاملاً يمتد للخلف ، فبدأت القصة فى « الشعراء » - وهى أول السور الثلاثة ترتيباً - بتكليف موسى بالرسالة ، وأن يأتى القوم الظالمين ، بينما بدأت فى سورة النمل - وهى السورة الثانية - بقصة موسى مع أهله وأنه آنس من جانب الطور ناراً ، وأنه سيأتيهم منها بخبر ، ثم كان لقاؤه بربه ، وإعداده للنبوَّة ، وإظهار المعجزات له ، وسماعه نداء ربه : إنى أنا الله ، وألقى عصاه ورآها تهتز ، وأخرج يده . . . إلى آخره ، وهذا الجزء سابق للجزء الذى جاء فى « الشعراء » لأنه قبل الأمر بالذهاب إلى فرعون ، ثم جاءت « القصص » - وهى السورة الثالثة والأخيرة فى « الطواسيم » - وتبدأ بقصة موسى مع طفولته : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ (١) ، وكأننا مع ترتيب تنازلى ، يتقدم فى السور إلى الإمام ، وفى القصة إلى الخلف ، وهكذا إذا حلَّلت بقية المعانى ، وجدتَ من خبَرِها ما لا تعرف ، وما يحتاج إلى تحليل ، وتدبر ، حتى تستطيع شرح المذهب الذى بُنِيَت عليه القصة فى السور الثلاثة ، وقد ذكرتُ قصة موسى عليه السلام لأن القصة أظهر فى الذى أريده ، وفى المعانى والأحكام والمواعظ والعقائد وغير ذلك من المقاصد ما فى القصة ، ويجرى على هذه المعانى فى تنوعها ، وترتيبها وتكاملها ، ما يجرى على القصة ، وقُلْ مثل ذلك فى « الحواميم » .

وحين تضع « الأحزاب » بين أختيها - « السجدة » و« سبأ » - يظهر لك الاختلاف الشديد بين هذه السور الثلاثة ، من حيث الموضوع الذى بنيت عليه

---

(١) القصص : ٧

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

كل سورة ، والمقاصد التى انعقدت عليها ، وأنواع معانيها واستشرافات هذه المعانى ومطالعها ، ترى « السجدة » تقوم على تعظيم أمر النبوة ، ببيان عظمة الذى أنزل الكتاب ، وأنه سبحانه رب العالمين ، وأنه خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، وأنه يُدَبِّر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يَعْرُجُ إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة ، وأنه عالِم الغيب والشهادة ، وأنه أحسن كل شئ خلقه ... إلى آخر هذه التجليات التى تتجلى فيها عظمة الخالق ، جَلَّ جلاله ، وأنه هو الذى أنزل الكتاب ، ومن باب هذه التجليات الإلهية فى الخلق تسلسلت المعانى فى السورة ، ومن هذا التسلسل ذِكْر خلق الإنسان من سلالة من طين ، وقول أهل الضلالة : أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد ، وذِكْر أحوال المجرمين ، وأحوال الصالحين المهديين ، ويدخل فى هذا التسلسل ذِكْر موسى عليه السلام ، لأن أصل الكلام هو ذِكْر النبوة ، وهذا هو الطابع العام لسورة السجدة : تجليات القدرة ، وتجليات الرحمة والغضب .

وسورة « الأحزاب » يشيع فيها التشريع ، والإنباء ، وشاع فيها : « يا أيها النبى » شيوعاً لم يتوفر لغيرها ، وهذه رابطة واضحة بين السورتين رغم اختلاف الطابع ، لأن الأحزاب - كما قلت - تناولت تشريعات لنشوز فى المجتمع مثل إلغاء التبنِّى ، وما يتصل به من قصة زينب ، وعتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن زيد ، وتنظيم علاقات المسلمين ببيت النبى ﷺ ، والحجاب ، وتخيير أُمهات المؤمنين رضوان الله عليهن ، سورة الأحزاب تتخلل الحياة وتُدَاخلُها ، وتُصحِّح أخطاءها ، وتُشَرِّع لسدادها ، وصوابها . أما « السجدة » فكأنها صوت الألوهية فى رحموتها ، وجبروتها ، واقتدارها على الخلق والإعادة ، والثواب ، والعقاب .

وسورة « سبأ » بدأت بحمد الله ، وهو مطلع مُشْعِر بجليل النعمة الواردة فيها ، وأبرز ما ورد فيها تحليل مقالة المخالفين ، وبيان باطلهم ، وضرب الأسانيد الفكرية التى قامت عليها عقائدهم ، كأن النعمة الجليلة فى سورة « سبأ » هى مطاردة الفساد فى الحياة الفكرية ، وتوفير حياة عقلية نظيفة قائمة

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

على منهج سديد ، وأصول عقلية راجحة ، وراشدة ، يتكرر فى السورة مثل : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ﴾ (١) ، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (٢) ، ومثل قولهم : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (٣) .

وهكذا دخلت السورة باب الحوار الفكرى الرائع مع عصابات الملاحدة وتحليل مراجعهم الفكرية ، وإبطال أسانيدهم العقلية ، ثم طرحت أسئلة ليعودوا هم إلى داخل عقولهم ونفوسهم من مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ ﴾ (٤) .

وبهذا كانت السور الثلاث مذاهب ثلاثة وشخصيات ثلاثة وأبنية بيانية ثلاثة ، وأبنية فكرية ثلاثة ، ومع ذلك تجد الترابط والتكامل فى أشياء كثيرة ، من ذلك مثلاً أن ما فى « الأحزاب » من تشريعات كله داخل فى قوله فى « السجدة » : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ (٥) فإلغاء التبنِّى من تدبير الأمر ، وقصة الأحزاب من تدبير الأمر ، وتخيير نساء النبى من تدبير الأمر . . . وهكذا ، وقوله فى سورة « سبأ » : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (٦) ، واضح الصلة بقوله فى سورة « السجدة » : ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (٧) . وقوله فى سورة « الأحزاب » : ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ (٨) ، واضح الصلة بقوله فى « السجدة » : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا

---

(١) سبأ : ٣ (٢) سبأ : ٧ (٣) سبأ : ٣١
(٤) سبأ : ٢٧ (٥) السجدة : ٥ (٦) سبأ : ٧
(٧) السجدة : ١٠ (٨) الأحزاب : ٢٣

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وَطَمَعاً ﴾ [1] ، فعباد الرحمن فى « السجدة » تتجافى جنوبهم عن المضاجع يَتهجَّدون ، ويدعون ولكنهم فى مضاجعهم ، وهم فى « الأحزاب » فرسان الحروب ، يؤدون وعد الله بأرواحهم . وهكذا ترى التكامل فى الآيتين وبيان أمر المسلم ، وأنه يدور أمره بين العبادة والتوجه إلى الله ، وبين مصارعة الباطل ، والدخول فى لُجَّة الحياة بقلب عامر بالتهجد .

وقوله تعالى فى سورة « السجدة » فى شأن بنى إسرائيل : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ [2] ، يبينه قوله فى سورة « سبأ » : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً ، يَا جِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ ﴾ [3] ، وتأتى « الأحزاب » بينهما لتعرض النموذج الأشهر فى بنى إسرائيل ، وهم الذين ينقضون العهود ويغدرون ويتآمرون ويُرجفون فى المدينة ، ويقولون : ﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ ﴾ [4] ، وأن الله أنزلهم من حصونهم وقذف فى قلوبهم الرعب ، وأورث المسلمين أرضهم وديارهم ، وهذه القصة شبيهة بقصة « سبأ » الذين كان لهم فى مسكنهم آية جنَّتان عن يمين وشمال ، فأعرضوا فأرسل الله عليهم سيل العَرِم ومزَّقهم كل ممزَّق .

وهذه إشارات لبعض العلاقات بين « الأحزاب » وأختيها : « السجدة » ، و« سبأ » ، وهو باب من أبواب الدرس يُوسَّع فيتسع ، وحسبنا هذا .. وبالله التوفيق .

المعادى الجديدة : ٢٥ من جمادى الثانية سنة ١٤١٥ هـ

الموافق (٢٨ من نوفمبر سنة ١٩٩٤ م) .

محمد محمد أبو موسى

* * *

(١) السجدة : ١٥ - ١٦ (٢) السجدة : ٢٤

(٣) سبأ : ١٠ (٤) الأحزاب : ١٣

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

اللّهم إنى أعوذ بك أن أقول حول كلامك كلمة لا ترضاها .

وأبرأ إليك من كل زلّة غفل عنها القلب أو طاش بها الرأى .

واتقرب إليك بكل كلمة كَشَفَتْ لقارئها معنى من معانى قرآنك فنزلت منه منزلاً حسناً وفتحت أمام أفقه نافذة من نوافذ كلامك الأسنى .

واضرع إليك يا رحمن أن تجعل قلمى وقلبى وفكرى ووجدانى وحياتى كلها خدمة خاشعة لهذا المصحف الشريف .

وبعد . .

فأسرار القرآن كأسرار الطبيعة وكأسرار الكون وكأسرار النفس ، كلها آيات الله وكلها معجز ، وأسرار الإعجاز فيها لا تتناهى ، فالطبيعة منذ أن استشرف الإنسان إلى معرفة ما يحيط به كشف علماؤها من قوانينها وأسرارها ما انتقل به ذلك الكائن من كهوف الجبال ومجاهل الغابات إلى عصور العلم والفضاء والنور ولا تزال هذه الطبيعة كتاباً لم تُقرأ إلا سطوره الأولى .

وأسرار الكون والكواكب والأفلاك لا تزال البَشرية على سطح محيطها ما أصابها منه إلّا رذاذ يتساقط عليها كأنه أطياف من أضواء السماء تحمل كل رذاذة منه عجيبة من عجائب الغيب ينبهر لها جبروت العلم والعقل بعد ما أضحى إله الإنسان .

وأسرار النفس لا تزال مبهمة فى كهوف الغيب بعد ما انقطعت أنفاس

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

أغذَّت السير فى عالَمها الرحب منذ أقدم فلاسفة اليونان ، حتى جاء « فرويد » فنفث حول جهودهم فنظر الناس إلى ما فى أيديهم من حصيلة هذا الزمن المتطاول ، فإذا هى تقبض على حُصيَّات تساقطت فيها من غير كهوف النفس فوضعوها على قبور جاليبها . وبقى « فرويد » فتنة العصر فى دراسة النفس وكشف ما وراء الشعور ، وأقامت له السنون المواضى بناءً عالياً ، وجدت كل طائفة من علماء علوم الإنسان فى أن تكون منه بسبب ، ولكن هذا السلطان لم دم طويلاً وها هم تلاميذه الآن يردون قوله إلى فِيهِ ويُبطلون سحره بأيديهم .

وإذا كان البحث فى الطبيعة يزيدنا يقيناً بأنها كتاب لم تنكشف منه إلا سطور فى صفحته الأولى ، وكذلك الكون والنفس ، فإنه يقال مثل هذا فى آيات القرآن لأن اليد التى صاغت هذه الطبيعة وهذا الكون وهذه النفس هى اليد التى صاغت هذا القول الحكيم . فالطبيعة والكون والنفس قرآن صامت ، والمصحف كون ينطق بالحق المبين .

ولهذا نعتقد أن العلوم والأصول التى استنبطها علماء التشريع والتفسير من هذا المصحف ، والتى هدت أوائل هذه الأمة وأضاءت عقل الدهر زماناً ليست إلا أنشودة أنغام الحق تستفتح الصلوات الكبرى التى يتبتَّل فيها العلم النافع فى محراب هذا الكون الأكبر ، وهذا هو معنى قول « سهيل بن عبيد الله » : « لو أُعطِىَ العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم تبلغ نهاية ما أودعه الله فى آية من كتابه ؛ لأنه كلام الله وكلامه صفته ، وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه ، وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه » . . انتهى كلامه رحمه الله .

فعلى هذه الأمة وعلى علمائها أن يجتهدوا فى أن يلتمسوا من هذا القرآن هداية الإنسان ؛ ليس فى دائرة الأسرة والأخلاق والسلوك ، وإنما فى دائرة السياسة والحكم والنظم التى يقوم عليها الاجتماع ، وعلى هذه الأمة إن كانت

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

جادة أن تطرح هذه النظم المجتلبة والتى أنقضت ظهرها ، وفرّقت كلمتها تفريقاً لم يعرفه تاريخها ، حتى أضحت تتحارب وتتنابز ويرمى بعضها فى وجه بعض ، وأرضها تُستَلب ، ودولتها تتناقص ، وهى فى غيبوبة وديمومة لا تسمع الدنيا لها إلا صوتاً عالياً يهذى ، فتزداد حياة العصر لها تنكراً ويزداد عقل الزمان بها استخفافاً ، وهى لا تشعر بشىء من هذا ، فقد ولّت الحياة ظهرها وانزوى سلطان المصحف عن ضميرها ، فانبعثت فى أعماقها أطياف وترات من حرب البسوس وداحس ، وامْتَشَقَتْ كل قبيلة حسامها وأعملته فى بَكْر أخيها ، وعاد عمرو بن كلثوم فتى تغلب بن وائل يغنى فى شبابها ويهيجهم على فتيان بكر بن وائل (من الوافر) :

نَجُذُّ رُؤوسَهُمْ فِى غَيْرِ بِرٍّ   فَمَـا يَدْرُونَ مَاذَا يَتَّقُونَـا ؟
كَـأنَّ سُيُوفَنَا فِينَا وفِيهِـمْ   مَخَـارِيقٌ بأيْـدِى لاعِبِينَـا

وعاد المُجالد بنُ الريَّان بن بكر بن وائل يوقع على بنى تغلب بن وائل فينكى ويصيب وينشد صاحبه وابن عمه الأقرب عمرو بن ضُبَيْعَة الذى سمى المرقش لجودة كلامه وترقيشه ويقول فى تغلب (من المتقارب) :

فَمَا شَـعَرَ الْحَىُّ حتَّى رأَوْا   بَيَاضَ القَوانـِسِ فَوقَ الغُرَرَ
فَأقْبَلْتَـهُم ثُـمَّ أدبَرْتَهُـــم   فأصْدَرْتَهُم قَبلَ حِينَ الصَّدَرِ

وأخرجت هذه الأرض العربية من بطونها أغربة الجاهلية فعاد عنترة وَخُفَاف ابنُ ندبة وعمير بن الحباب وسليك بن السلكة يهجون ويلبسون الكتيبة بالكتيبة .. ونأمل أن تثوب هذه الأمة وأن تكون صيحة البعث التى تفيق عليها قرآناً يملأ أسماعها .

﴿ إنَّ هَذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (١) تأمل أن تثوب هذه الأمة وأن تسقط من وجودها هذه الخلافات التى هتفت بها سياسات

(١) الأنبياء : ٩٢

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ضريرة لقيطة حمقاء اندفعت وراء فلسفات أو هرطقات أفسدت روحها وخرّبت كيانها ، فرجعت بها إلى جاهليتها الأولى .

نرجو أن يعود سلطان المصحف وأن يصوغ الأمة صياغة الحق ، وأن يأخذ بيدها فى لطف ورفق وعزة واستعلاء .

قدر أكبر من هذه العودة تحملون أنتم أوزاره وأثقاله فبكم تنهض أمتكم من كبوتها وتُقَال من عثرتها فأنتم شبابها ، وأنتم فيض الفتوة فيها ، وأنتم فى ضميرها صيحة الحق ، وفى قلبها دفقة الشباب ، وفى رأسها فورة العقل ، وفى كيانها وهج اليقين ، وفى سواعدها صلابة القوة . .

قدر كبير من هذه العودة تحملون أنتم أوزاره فأعدوا أنفسكم بعتاد هذا الزمان وهو الثقافة الواسعة والعلم الصبور والمعرفة الصادقة ، وفى كلتا يديكم هذا المصحف يرسم الطريق ويحدد الغاية ويقود المسيرة فى حكمة راشدة تصغى إليها ضمائركم ، وتخشع له هاماتكم ، وتركع فى ساحته المتسامية قلوبكم ، فتصيرون به فرساناً ، رهباناً ، كما كان أسلافكم .

قدر كبير من هذه العودة تحملون أنتم أوزاره عليكم أن تعمروا كيان أمتكم بالروح الطاهرة لهذا المصحف الشريف ، وأن تصوغوا قلبها ويقينها على طريقته .

ولن نستطيع أن نفعل شيئاً من هذا إلا إذا رنَّت كلمات هذا المصحف فى قلوبنا وانسابت أخلاقه وآدابه فى ضمائرنا وأرواحنا ، فاستجابت طائعة . وإنما يكون هذا بفقه لغته وأسلوبه ، وتَسمُّع همساته ، ولمح إشارات كلماته ، وامتلاء القلب بأصواته ، فتدمدم فيه دمدمة الحق ، فتختلج اختلاجة اليقين ، وهذه هى الخطوة الأولى فى فهم القرآن كما قال سَلَف هذه الأمة . ومنها نبدأ مسيرتنا .

ولهذا عنيت هذه الدراسة بالمفردات القرآنية ، فوضحت معانيها اللُّغوية ومسَّت أصولها الاشتقاقية ، ثم رددتها فى العبارات البليغة التى تحمل ريح

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

البادية وأصالة نحيزتها ، معتقدة أن ذلك من أجل العوائد فى التربية اللُّغوية ، ثم وقفت عند صور التراكيب وأشارت إلى أسرار البلاغة فيها محافظة على دقة المفاهيم العلمية فى بيان هذه الأسرار لتكون هذه الصياغات مادة أدبية يعيها الطُّلاَّب وعياً حسناً فتنفث فى قلوبهم أسرار الفصاحة وتكشف فيها عن منابع وحى الجمال ، وتقيم المَلَكات على منهاج السليقة العربية الخالصة فيهيئون بذلك إلى تلقى أخذة الإعجاز فى الجملة القرآنية .

وتزعم هذه الدراسة أنها قدَّمت فى دائرة البحث البلاغى فكراً بيانياً خصباً يبعث الحياة والنماء فى المصطلحات القديمة التى كادت تكون شاحبة فى تصور كثير من الدارسين .

وقد حاولت فى معاناتها التحليلية أن تستشف أُصولاً دينية مهمة فى الآيات المدروسة ، والتى تناثرت معانيها خلال التفسير البلاغى . وترجو أن تكون قد وفقت إلى ما تأمله فى بعث اهتمام طُلاب العلم بهذه اللُّغة وعياً بتراكيبها ، وتأملاً لأسرارها ، ليصلوا عن هذا الطريق إلى المدلولات الخالدة فى آيات الكتاب الكريم راجية لهم أن يأخذوا مكانهم الأصيل فى موكب الحركة الفكرية الحائر والذى تتجاذبه محاور تبعد به عن منهج القرآن .

والله يهدى مَن يشاء إلى الحق وإلى طريق مستقيم . .

المعادى : فى غُرَّة ذى القعدة سنة ١٣٩٢ هـ .

الدكتور

محمد محمد أبو موسى

* * *

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

سورة الأحزاب من السور التى نزلت فى المدينة ، وآياتها ثلاث وسبعون آية ، وكانت تعدل فى عدد آياتها سورة البقرة ، فوقع فيها نسخ ، وقد روى عن أبى ذر رضى الله عنه قال : « قال لى أُبَىٌّ بن كعب رضى الله عنه : كم تعدون سورة الأحزاب ؟ قلت : ثلاثاً وسبعين آية ، قال : فوالذى يحلف به أُبَىٌّ بن كعب إن كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول ، ولقد قرأنا منها آية الرجم : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله ، والله عزيز حكيم » ، وقد أخرج الحديث النسائى وابن حبان والحاكم والطبرانى وابن مردويه .

ويحاول بعض الباحثين أن يحدد لكل سورة من سور الذكر الحكيم موضوعاً عاماً تدور حوله آياتها ، ثم بعد ذلك يجتهد فى بيان مناسبات الآيات بعضها لبعض فى ضوء هذا الغرض العام ، وقد يهدى البحث فى هذا إلى ما تطمئن إليه القلوب ، وقد يكون غير ذلك ، والقول فى هذا الباب نذر يسير ، وذلك لصعوبة خوضه ودقة مسلكه ، ويسمى علم هذه الدراسة « علم المناسبة » وهو من أجلِّ علوم القرآن . ومن هؤلاء القليل العلامة الشيخ محمد بن على بن محمد المعروف بالتهانوى وهو من علماء المسلمين فى الهند ، وقد قال فى تحديد موضوع سورة الأحزاب : « فى جميع هذه السورة ذب عن رسول الله ﷺ فيما أُوذى به من أنواع الإيذاء ، قتال الأحزاب له ، ومعاونة المنافقين لهم ، وطعن المنافقين فى نكاحه عليه الصلاة والسلام بزينب رضى الله تعالى عنها ، وطلب الأزواج الزيادة فى الإنفاق ، واشتغال بعض المسلمين بالأحاديث فى بيته عليه السلام ، ونحو ذلك مما تأذّى به النبى ﷺ ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

فهذا القدر هو المقصود الأصلى من السورة ، وما سوى ذلك فهو إما توطئة لبعض ما هو المقصود ، وإما مكمل له ، يظهر كل من التأمل فى النظم الكريم » . . انتهى كلامه رحمه الله .

ويقول الأستاذ محمد بن كمال المعروف بابن شهيد ميسلون فى محاولة له فى هذا الباب : « وهى - أى سورة الأحزاب - من السور التى تباعدت أغراضها ، ويصعب لأول وهلة معرفة الصلة بينها ، والمدار الذى تدور عليه فى غرضها ، ولكن المتأمل يظهر له التناسق فى هذه السورة بأنها صورة عما يعرض لحياة مؤمن متعبد ، وعلى رأسها حياة الرسول الأعظم ، فكان ذلك رباط معانيها وموضوع وحدتها » .

وسوف ندع القول فى هذا الموضوع حتى نعالج السورة أسلوباً ونظماً ، محاولين أن نستشف من وراء ذلك موضوعاً لها .

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ (الآيات : ١ - ٣) .

* *

﴿ النَّبِىُّ ﴾ : من النبأ ، وهو : الخبر ذو الفائدة العظيمة الذى يحصل به علم أو غلبة ظن ، ولا يقال للخبر نبأ إلا إذا حصل به علم أو غلبة ظن ، وقوله تعالى : ﴿ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ ﴾ [(١)] أى بخبر تميلون إلى صدقه ، واستعمال النبأ فى هذه الآية للإشارة إلى وجوب الاحتياط فى أخبار غير العدول ، وإن كانت فى ظاهرها توهم الصدق .

و« النبى » : أصله النبىء وهو فعيل بمعنى فاعل ، أى مُنْبِىءٌ عن الله سبحانه ،

(١) الحجرات : ٦

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِى ﴾ (١) أو بمعنى مفعول ، أى منبّأ من قبَل الله ، وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا ، قَالَ نَبَّأَنِى الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (٢) .

﴿ اتَّقِ اللهَ ﴾ : تقول وقَاه يَقيه وقْياً ووقَاية ، أى صانه ، ومنه : ﴿ فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلكَ الْيَوْمِ ﴾ (٣) ، والتقوى فى لسان الشرع : جعل النفس فى وقاية مما يُحْذَرُ ويُخَاف .

« الكافر » : فى لسان الشرع مَن يَجْحد الوحدانيَّة ، أو النبوةَ ، أو الشريعةَ ، وقد يُطْلق الكفر على ترك الواجب فى الشريعة ، مع تحصيل أصل الإيمان ، وذلك للرَّدْعِ والزَجْرِ والتغليظ ، ومنه : ﴿ وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِىٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤) ، أى : ومَن لم يحج مع الاستطاعة .

وأصل المادة مستعمل فى الستر والتغطية ، تقول : كفر الشىء وكفَّره – بالتشديد – أى غطّاه ، وقالوا : ليل كافرٌ ، أى ساتر بظلامه ، وسحاب كَافِر ، أى حاجب للسماء ، وطائر مُكَفَّر – بفتح العين مع تشديدها – أى مغطى بريشه ، وكفران النعمة : سترها ، وجحدها بترك ما يجب نحوها من شكر للمنعم ، والكُفْرَانُ ، يُستعمل فى جحود النعمة أكثر مما يُستعمل فى جحود الوحدانية والنبوة ، والكفر يُستعمل فى جحود الوحدانية والنبوة أكثر مما يُستعمل فى كفران النعمة ، والكفار فى جمع الكافر المضاد للمؤمن أكثر ، والكفرة فى جمع كافر النعمة أكثر .

و« المنافق » : الذى يُبطن الكفر ، ويُظهر الإيمان ، وهو مأخوذ من نافقَاء اليَرْبُوع ، والنَّفَق : سرب فى الأرض له مخلص إلى مكان ، وانْتَفَق : دَخل

---

(١) الحجر : ٤٩ — (٢) التحريم : ٣

(٣) الإنسان : ١١ — (٤) آل عمران : ٩٧

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

النَّفَقَ ، والنُّفَقَةُ (على وزن هُمَزة) كالنفقاء : جحر لليربوع يسترها ويظهر غيرها . فإذا أوتى من جهة القاصعاء ضرب النافقاء برأسه وانتفقه أى دخله ، ووجه أخذ النفاق منه أن النفاق دخول فى الشرع من باب وخروج عنه من باب .

﴿ إنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ ، « العلم » : إدراك الشىء بحقيقته ، وعلم الله إحاطة شاملة لكل ما كان وما هو كائن وما يكونُ ، والعالِم فى وصف الله هو الذى لا يخفى عليه شىء .

و« الحكمة » : إصابةُ الحقِّ بالعلم ، والعَقْل ، وهى من الله « معرفة الأشياء ، وإيجادها على غاية الإحكام » ، وبهذا المعنى جاء « الحكيم » وصفاً لله سبحانه ، والحكمة من الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات .

﴿ واتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إلَيْكَ مِن رَبِّكَ ﴾ : « الوحى » فى اللُّغة : الإيماءُ ، والتَّعرِيضُ ، والرمز ، وكل دلالة فيها خفاء ، وفعله : وَحَى يَحِى وَحْياً .

« الرب » - بدون إضافة - لا يُقال إلا لله سبحانه ، قال : ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ (١) ، وإذا أضيف يقال لله ، ولغيره ، مثل : ﴿ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ (٢) ، والتربية : إنشاء الشىء حالاً فحالاً إلى حد التمام ، يقال : ربَّهُ وربَّاهُ .

﴿ إنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ : الْخُبْرَةُ (بضم الأول - كحُجْرَة) : المعرفة ببواطن الأمور ، وخبرته خُبْراً ، وخُبْرَه ، أى أعلمته بما حصل لى ، والخبير فى أوصاف المولى معناه : عالم بأخباركم ، وببواطن أُموركم ، وقيل : معناه مخبر لكم ، كقوله : ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

﴿ وكَفَىٰ باللهِ وَكِيلاً ﴾ : الوكيل فعيل بمعنى مفعول ، ﴿ وكَفَىٰ باللهِ وَكِيلاً ﴾ ، أى اكتف به أن يتولى أمرك ، ويتوكل لك ، ويقال : توكَّلْتُ لفلان ، بمعنى تولَّيْتُ له ، ويقال : وكلته فتوكل لى ، وتوكلت عليه ، أى

---

(١) سبأ : ١٥ (٢) البقرة : ١٣٩ ، والشورى : ١٥

(٣) التوبة : ٩٤ ، ١٠٥ ، والجمعة : ٨

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

اعتمدت عليه ، ومنه : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (١) ، ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (٢) ، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ (٣) .

* *

جملة النداء التى بدئت بها السورة الشريفة تتضمن فنوناً من التوكيد ، منها استعمال حرف النداء الذى للبعيد ، للإشارة إلى أنه عليه السلام يُنادى لأمر مهم وخطير . فليجمع قلبه وعقله لتلقِّيه ، ولولا هذه الإشارة لجىء بـ « أى » ، أو الهمزة ، لأن الله قريب إلى كل منادى ، وقد قال النحاة : أن « يا » تُستعمل فى نداء البعيد ، أو مَن ينزل منزلته من الساهى ، والغافل ، وقال ابن هشام : وقد يُنادَى بها القريب توكيداً .

ولم يقع فى القرآن نداء بـ « أى » ، ولم يقع فيه كذلك نداء بالهمزة ، وإنما استعمل فى النداء « يا » وحدها ، دون غيرها ، لأنها أندى ، وأنفذ ، ولا ينادى اسم الله إلا بها ، وكذلك لا يقع فى نداء أيتها سواها ، ولا يقدر عند الحذف غيرها ، نحو : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ (٤) . قال الزمخشرى : وتفيد ياء التوكيد المؤذن بأن الخطاب الذى يتلوه مَعْنىٌ به جداً ، وقال البلاغيون : وإنما يقول الداعى فى دعائه : يا رب ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، وأسمع به وأبصر ، استقصاراً منه لنفسه ، واستبعاداً لها من مظان الزلفى ، وما يقربه إلى رضوان الله ، ومنازل المقرَّبين ، هضماً لنفسه ، وإقراراً عليها بالتفريط فى جنب الله .

ومنها « أى » ، وهى اسم مبهم يفتقر إلى ما يوضحه ، ويكون صلة لنداء ما فيه الألف واللام ، فإذا أردت نداء الرجل ، وكل ما هو معرف بـ « الـ » ، فإنك لا تستطيع أن تُدخل عليها حرف النداء ، وحينئذ تستعين بـ « أى » هذه ، فتقول : يا أيها الرجل ، ويأتى بعد « أى » اسم يوضح إبهامه ، ويكون

---

(١) إبراهيم : ١٢ — (٢) الطلاق : ٣

(٣) الأحزاب : ٣ — (٤) يوسف : ٢٩

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وصفاً لـ « أى » ، فحرف النداء فى جملتنا داخل على « أى » ، وعامل فيه ، ولفظ النبى وصف له موضح لإبهامه ، وفى التوضيح بعد الإبهام لون من التأكيد والتقرير ، وذلك لتشوف السامع مع الإبهام إلى ما يزيله ويكشف غموضه ، فإذا ما جاء الموضح ، قَرَّ فى النفس وتمكّن منها ، ومنها هذه الهاء الممتدة بين « أى » والوصف تُعَاضِدُ حرف النداء ، وتقويه ، فتزيد هذه الطريقة من النداء قوة ووكادة .

وقد ترددت هذه الطريقة فى نداء القرآن أكثر من ترددها فى كلام العرب ، وقد أجاب الزمخشرى عن السر البلاغى وراء هذه الكثرة فى نداء القرآن بقوله : « بأن ذلك كان لاستقلاله بأوجه من التأكيد ، وأسباب من المبالغة ، لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ، ونواهيه ، وعظاته ، وزواجره ، ووعده ، ووعيده ، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم ، وغير ذلك مما أنطق به كتابه ، أمور عظام ، وخطوب جسام ، ومعان عليهم أن يتيقظوا لها ، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها ، وهم عنها غافلون ، فاقتضت الحال بأن يُنَادَوا بالآكَد الأبلغ » .

وقد نودى عليه السلام بوصف النبوة (١) كما نودى بوصف الرسالة فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ (٢) ، ولم يناد باسمه فى القرآن وقد نودى غيره من أنبياء الله المكرمين بأسمائهم ، قال تعالى : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ ﴾ (٣) ، ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ (٤) ،

---

(١) والنبوة اسم من النبأ ، وهى سفارة بين الله وذوى العقول من عباده ، لئلا يكون للناس على الله حُجَّة ، والتنبؤ مصدر الفعل « تنبأ » الذى هو مطاوع نبأ ، تقول : نبأته فتنبأ ، كما تقول : زيّنته فتزيّن ، ولما تعورف هذا اللفظ فيمن يدّعى النبوة كذباً لم يُستعمل فى وصف الأنبياء عليهم السلام ، فلم يُسمع : تنبأ محمد عليه السلام ، وإن كانت اللُّغة لا تَمنع لأنهم قالوا : تنبأ مسيلمة وتنبأت سجاح .

(٢) المائدة : ٤١ (٣) سورة ص : ٢٦ (٤) هود : ٧٦

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

﴿ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ ﴾ (١) ، ﴿ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً ﴾ (٢) .

وواضح أن النداء بهذين الوصفين الجليلين - النبوة والرسالة - فيه تكريم للنبى صلى الله عليه وسلم وتشريف له ، وقد يكون نداء الأنبياء المكرمين فى كتبهم بهذه الأوصاف كما قال صاحب الكشف ، وإنما عدل عن ذلك فى القرآن دفعا للالباس ، لأنه لو قال سبحانه مكان : ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ : « يا أيُّها النبى أعرض عن هذا » لالتبس المنادى بين إبراهيم وغيره ، وقد ذكر النبى عليه السلام باسمه فى القرآن فى غير مواضع النداء ، كقوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ ﴾ (٣) ، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ (٤) ، ﴿ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ (٥) ، وقد علل الزمخشرى ذكر النبى باسمه بقصد تعليم الناس بأن محمداً رسول ليدعوه بالرسالة ، واحتج لذلك بأنه عليه السلام يُذْكَر بوصف النبوة والرسالة فى غير مقام التعليم للأمة بأنه رسول ، وذلك كما جاء فى قوله : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦) ، وفى قوله : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ ﴾ (٧) ، واعترض صاحب الكشف على هذا التفسير ، وقال : إن أمر التعليم والتلقين لا يظهر فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ . وليس هناك إشارة إلى التعليم فى قوله تعالى : ﴿ وَآمَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ .

وقد اكتفى صاحب الكشف بنقض كلام الزمخشرى . ولم يذكر تفسيراً لذكر النبى عليه السلام باسمه ، والذى أراه فى ذلك أن ذكر النبى ﷺ باسمه فى القرآن زيادة لتأكيد وصف البَشرية التى عنى القرآن بتقريرها كل العناية ، حتى يضمن لهذه المِلّة نقاء الوحدانية ، وصفاء جوهرها ، فإذا كان القرآن يهتف

---

(١) هود : ٩١ (٢) هود : ٦٢ (٣) الفتح : ٢٩
(٤) آل عمران : ١٤٤ (٥) محمد : ٢ (٦) الأحزاب : ٦
(٧) الفرقان : ٣٠

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

دائماً بوصف البَشرية لهذا النبى الرسول ، وجاء كثير منها فى صورة القصر والتوكيد ، وأمره أن يقول : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ (١) ، ووصف بَشَريته بأنها مثل بَشَريتهم فى كل ما يتعلق بغير النبوة ، إذا كان القرآن يهتف دائماً بذلك ، فإنه يحرص على أن يعمق هذا المعنى ، ويقيم الدليل عليه ، حتى يظل فى ضمير أجيال هذه الأمة رجلاً من رجال مكة اسمه محمد اختاره الله بَشَراً رسولاً ، وقد صدق الله ورسوله ، فقد مضت على رسالة محمد أكثر من ثلاثة عشر قرناً اتجهت إلى قِبْلته فيها أُمم وأُمم ، ولم يطف بخيال مسلم واحد وَهْمٌ يوهم بتأليه محمد ، وقد تورطت النصرانية فألَّهت عيسى عليه السلام . وهو بين أظهرهم ، واتخذوه وأُمه إلهين من دون الله ، فقال عيسى عليه السلام - ضارعاً فى حضرة ربه ومكرراً آية التوحيد فى رسالته - وربه عليم ببراءته - : ﴿ سُبْحَانَكَ .... مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ (٢) .

وقد ذكر الطيبى - طيَّب الله مقامه عنده - أن النداء بالوصف فى هذه السورة قد جاء ملاطفة ، وملاينة ، للأمر بالتقوى ، والنهى عن إطاعة الكافرين والمنافقين ، وذلك على طريقة قوله تعالى : ﴿ عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ (٣) . قال الطيبى : « والنداء هنا للاحتراس وجبر ما يوسم الأمر والنهى » . وهذا كلام طيب نَرْضاه ثم نسأل : ولِمَ خصَّ وصف النبوة هنا دون الرسالة ؟

والجواب كما نراه : أننا إذا رجعنا إلى ما قلناه فى المعنى اللُّغوى لكلمة نبى وتذكرنا أنها مأخوذة من النبأ الذى هو الخبر العظيم الشأن ، العارى عن

---

(١) الكهف : ١١٠ ، وفصلت : ٦

(٢) هذا اقتباس من الآيتين الكريمتين فى سورة المائدة وهما : ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ، إن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِى بِهِ ﴾ .... إلخ . (المائدة : ١١٦ - ١١٧) .

(٣) التوبة : ٤٣

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الكذب ، والذى يحصل به علم أو غلبة ظن ، فقد يعيننا ذلك على إدراك سر إيثار كلمة النبى على الرسول فى فاتحة هذه السورة ، إذا عرفنا أن هذه السورة قد حفلت بأنباء مهمة ، ففيها إنباء ببطلان الظِّهَار ، وإنباء ببطلان التبنى ، وإنباء بزواجه عليه السلام من زينب بنت جحش ، وإنباء بتخييره عليه السلام لنسائه بين الحياة الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله ، وإنباء بأنه لا يحل له الأزواج من بعد ، ولا أن يُبدِّل بهن من أزواج ، وغير ذلك من أنباء المنافقين والمرجفين . . إلخ .

ولهذا كثر لفظ النبى وتردد فى هذه السورة خمس عشرة مرة ، كلها جاءت فى سياق إنباء بالأمور المهمة . وهذا فن من البلاغة . . سماه ابن المعتز : حُسْن الابتداء ، وسماه المتأخرون : براعة المطلع أو براعة الاستهلال ، قال صفى الدين الحِلِّى فى تفسير التسمية : « لأن طلوع أهِلَّة المعانى واضحة فى استهلالها » ، والأهِلَّة جمع هلال وهو أول أيام القمر ، وكأن معانى السورة تلوح أهِلَّتها - أى بدايات معانيها - فى مطلعها .

وقد أُمِرَ عليه السلام بالتقوى - وهو تقى حذر - بل هو أتقى الناس لله وأشدهم له خشية ، والمراد بالأمر ليس هو تحصيل الفعل لأنه حاصل ، وإنما المراد الثبات والدوام عليه أو الزيادة منه ، فإن تقوى الله باب واسع لا يُنال مداه ، ومثل هذا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِه ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ (٤) ، وهو فى الأمر نظير قوله فى النهى : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ (٥) ، فإن عدم طاعة الكافرين والمنافقين أمر واقع من النبى ﷺ ومثله : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ

---

(١) النساء : ١٣٦ (٢) الزمر : ٢ (٣) الروم : ٤٣
(٤) هود : ١١٢ (٥) الأحزاب : ١

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلَادِ ﴾ (١) ، ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢) . . . . والنهى والأمر فى كل ذلك تحصيل حاصل ، لأن هذه المنهيات لا يُتصور وقوعها من النبى ﷺ ، والمراد كما قلنا : هو الحث على زيادة التمسك ، والتصلب ، والثبات على ما هو عليه ، وفائدة هذه الطريقة ، وفضلها على قولنا : استمِرْ فى التقوى ، أو ازددْ منها ، وازددْ تمسكاً بعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، إلى آخر هذه الصور : هى أنها تفيد مع ذلك الإلهاب والتهييج ، وتثير الشعور والوجدان ، فتكون النفس أحسن تلقياً ، وأكثر تمسكاً بما هو كائن ، ولذلك نجد هذا الفن من فنون القول مستعمَلاً فى المعانى المهمة ، التى هى أصول فى هذا الدين ، اقرأ الآيات السابقة ، وأحسن تأملها ، والإصغاء إلى معانيها وانظر ما تجد .

وقد درس العلوى هذا الفن فى بحث خاص ، وسماه الإلهاب والتهييج ، وعدَّه باباً من أبواب البلاغة العالية .

والمخاطَب وراء رسول الله ﷺ بهذه الأساليب كل فرد من أفراد أُمته ، ومنهم أنت وأنا ، وإذا كان المولى فى أمره بهذه الأُصول ، ونهيه عن هذه المحظورات ، قد ساق الكلام هذا المساق فى خطاب نبيه الذى اصطفاه ، فكيف يكون خطابه لنا فى شأنها ؟ وقد أكمل القرآن هذا المعنى فى مواطن كثيرة ، وهذا يعنى أنه لا فلاح لهذه الأُمة إلا باستقلال إرادتها وقرارها وبُعدها عن مناطق النفوذ شرقياً كان أو غربياً .

هذا عرض لما قاله البلاغيون فى هذه الأساليب ، وأضيف إلى ذلك أن هذه الأساليب الحاسمة فى خطاب رسول الله ﷺ ، إنما هى مظاهر الربوبية القاهرة ، تتجلى فى خطاب البَشرية المربوبة فى شخص سيدها محمد عليه السلام ، والعبارات الربانية ، أى التى تصدر عن هيمنة الألوهية كثيرة فى

---

(١) آل عمران : ١٩٦ (٢) يونس : ١٠٥

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

كتاب الله ، منها ما يتصل بخطاب محمد ، أو قُلْ بخطاب البَشرية كلها فى شخص محمد ، هاتفة فى أسماع الوجود المربوب بهذا الفرق الهائل بين الخلق والخالق ، بين الألوهية والنبوة ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ (٤) . ولا تنس أن هذا خطاب لحبيبه محمد عليه السلام ، ومنها ما لا يتصل بخطاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وإنما ينطق بلسان القهر ، والعلو ، وبسط القدرة وتمكنها ، من ذلك قوله : ﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ، لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ، لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً ﴾ (٦) ، وقوله : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ (٧) ، وقوله : ﴿ قُلْ مَن ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ (٨) ، وغير ذلك أكثر من أن يحصى وهذه خصوصية لا تتأتى إلا فى كلام الله سبحانه .

ولنعد إلى الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ . . ﴾ فنقول : النهى عن طاعة الكافرين والمنافقين داخل فى الأمر بالتقوى ، وقد عطف عليه من قبيل عطف الخاص على العام ؛ لأن الأمر بالتقوى متناول للنهى عن طاعة الكافرين والمنافقين ، وهذا العطف يفيد الاهتمام بالنهى عن طاعتهم ويؤكدها ، وكأنه قد نهى سبحانه عن طاعتهم مرتين ؛ مرة عن طريق

---

(١) الإسراء : ٨٦ (٢) الشورى : ٢٤ (٣) الإسراء : ٧٥
(٤) الحاقة : ٤٤ - ٤٦ (٥) غافر : ١٦ (٦) الواقعة : ٦٥
(٧) المؤمنون : ١٨ (٨) الأحزاب : ١٧

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

العموم ومرة عن طريق التفصيل ، وذلك لخطورة الإصغاء إليهم ، والتماس النصح أو المشورة منهم ، وهذا التحذير فى اعتقادنا آية من آيات هذا القرآن ، ودليل صدق على صدقه ، فإن تاريخ الإسلام كله يشهد بأنهم أعداء حاقدون ، يتربصون به فى كل حين ، وإن لبسوا أزهى ثياب الصداقة ، وانظر حولك تجد صدق هذه الآية ، وقد وضعوا أيديهم فى أيدى الملحدين والماركسيين وضُلال النصارى ، وثبّتوا سلطان الملاحدة والفُسَّاق واللصوص ، وسلّطوا على هذه الأمة شرارها واستنزفوا بهم خيراتها ، ودمَّروا الإنسان فيها ، وجعلوا أمامه سبيلاً واحداً هو نفاق الطغاة واللصوص ، ومَن أبَى ذلك فهو خائن أو مارق .

وقوله : ﴿ إنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ جملة مستأنفة تفيد تعليل الكلام السابق ، وتحث عليه من حيث إنها تبين أن هذا التوجيه فى الأمر والنهى السابقين ، إذا كان صادراً من عليم يحيط علمه بكل ما تكنه الصدور ، وتستره الضمائر والقلوب ، وإذا كان صادراً من حكيم لا يُوجِد الأشياء إلا بغاية الحكمة ، والإتقان ، فإنه حرى أن تستجيب له أفئدة ذوى البصائر .

وهذا هو الاستئناف الذى يقولون عنه : إنه أشد اتصالاً من الوصل ، ويقع كثيراً فى فواصل الآيات القرآنية ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا بُنَىَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ، وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) ومثل هذا كثير.

وقد قالوا : إن هذا الفصل وصل خفى ، أى إنه وصل بغير أداة الوصل التى هى الواو ، فالوصل فيه يعتمد على اتصال المعنى ، وهو مظهر من مظاهر نشأة المعانى بعضها عن بعض ، وتمهيد بعضها لبعض ، حتى كأن

---

(١) لقمان : ١٧ (٢) التوبة : ١٠٣ (٣) الحج : ١

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الجملة الثانية تتولّد عن الجملة الأولى ، وكأن الأولى مهاد للثانية ، وإرهاص بها ، وهذا يُفهم من قول البلاغيين فى هذا الاستئناف : إنه جواب عن سؤال مقدَّر يتضمنه الكلام السابق ، أى أن الكلام السابق يثير فى النفس خواطر تقتضى هذا الكلام وتستدعيه ، فيأتى كفاء لحاجة النفس ووفاء لها .

وقوله : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ : معطوف على ما قبله من قبيل عطف العام على الخاص ، زيادة فى التقوية والتقرير ، وكأن هذا أمر ثالث بعدم طاعة الكافرين والمنافقين لدخوله فى الأمر باتباع الوحى ، وفى قوله : ﴿ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ تفخيم للوحى بالإبهام ، وتعظيم له ، وفيه حث على اتباعه ، وقوله : ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ فيه لفت إلى أنه ربَّاك أحسن تربية ، ونشَّأك أكرم تنشئة ، ورعاك خير رعاية ، وهو ربك الذى قرَّبك أفضل تقريب ، وزادك شرفاً بإضافتك إلى حضرته ، ثم إنه ربَّى نفسك وقلبك وروحك بهذا الوحى ، فكنت خير خلقه قوة نفس ، وصحة وجدان ، وصفاء روح .

وضروب وحى الله لأنبيائه قد فصَّلتها آية الشورى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ (١) ، قال الراغب : وذلك أى الوحى إما برسول مشاهَد تُرى ذاته ، ويُسمع كلامه ، كتبليغ جبريل عليه السلام للنبى ﷺ فى صورة معينة ، وإما بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى كلام الله ، وإما بإلقاء فى الروع - أى القلب - كما ذكر عليه السلام : « إن روح القُدس نفث فى روعى » ، وإما بإلهام نحو : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ (٢) ، وإما بتسخير نحو قوله : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ (٣) ، أو بمنام كما قال عليه السلام : « انقطع الوحى وبقيت المبشرات ؛ رؤيا المؤمن » ، فالإلهام والتسخير والمنام دل عليه قوله : ﴿ إِلَّا وَحْيًا ﴾ ، وسماع الكلام معاينة دل عليه قوله : ﴿ أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ ، وتبليغ جبريل فى صورة معينة دل عليه قوله : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ .

---

(١) الشورى : ٥١ (٢) القصص : ٧ (٣) النحل : ٦٨

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وقوله : ﴿ إنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ تقرير للأمر بالاتباع ، وتوكيد له ، ويقال فيه ما قيل فى الآية السابقة ، وتلاحظ أن فاصلة الأمر بالتقوى ، والنهى عن طاعة الكافرين ، ذكرت من صفات المولى : العلم والحكمة ، ووجه المناسبة أن الله الذى أمرك بالتقوى ، ونهاك عن طاعة أعدائك ، يعلم علماً محيطاً أن الخير كل الخير لك ، ولأمتك ، فى هذه التقوى التى هى عصمة من كل شر ، ويعلم أن الخير كل الخير لك ولكل مَن يتبع الحق من بعدك هو الحذر من طائفة الكفر والنفاق ، وهو الحكيم الذى يكون أمره لك بالتقوى ، ونهيه لك عن طاعة أعدائه إنما يصدر عن تدبير حكيم ، وإتقان بالغ .

وفاصلة الآية الثانية يتناسب فيها إحاطة الله علماً وخبرة بأعمالنا مع الأمر باتباع الوحى ، فسوف يخبر المتبع فيجازيه خيراً ، والمبتدع بابتداعه فيجازيه شراً .

وقوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ موصول بما قبله ، وقوله : ﴿ وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ توكيد لما قبله واقع موقع المثل ، ولذلك ذكر لفظ الجلالة مكان الضمير لتستقل الجملة عما قبلها ، وذلك كما تقول : فلان ينطق بالحق والحق أبلج ، وترى لفظ الجلالة قد وضع موضع الضمير فى قوله : ﴿ إنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ ، وقوله : ﴿ إنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ ، وقوله : ﴿ وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ ، وذلك لأن هذا الاسم الشريف يدفع فى القلوب المؤمنة كل نزعة شر ، ويقيمها على أمر الله ، فأحرى به أن يُذكر فى هذه الفواصل التى جاءت تؤكد الحث على اتباع ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه .

* *

قوة الشعور بالمراقبة والحذر والخوف من كل انحراف يعنى الضمير الحى الصارم فى المؤاخذة والحساب ، والذى يثور على صاحبه كلما قارف خطيئة فى محيطه الذى يتقلب فيه . وهذه هى الحراسة الحقيقية لكل قيمة عالية فى حياة الإنسان ، حراسة أمينة يقظة تحرس الحق وترعاه ، وتحرس الواجب

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

فتؤديه أحسن أداء ، تحرس كل فضيلة من فضائل النفس ، وكل مثل من المُثل العليا فى حياة البَشرية ، هذا الضمير الحى يكون وراء العالِم فى معمله ، ووراء العامل فى مصنعه ، ووراء التاجر فى متجره ، ووراء الإنسان أين وجد وحيث يكون ، يلح عليه دائماً أن يضع قدمه فى طريق الرشاد الذى يعود بالخير له ولأخيه الإنسان ، وقد حاول أفلاطون ومن قبله ومن بعده كل فلاسفة الأخلاق وأهل الحكمة أن يضعوا تصوراً فلسفياً للحياة الفاضلة التى تخلو من كل شر ، والتى تحفظ للإنسان إنسانيته المثالية ، والإسلام يلخص هذه الحياة الفاضلة فى الأمر بالتقوى ، والتقوى ذات مدلول جليل حين يحفظ المسلمون لها واجبها .

ونجد فى النهى عن طاعة الكافرين والمنافقين وتأكيده وتشديده القطع بأن الخير لا يصيب الحق من قِبَل الباطل ، وأن انتصار المسلمين فى الحرب والسلم لا يكون إلا بعقول مسلمة ، وقلوب مسلمة ، ولم يحدثنا التاريخ عن موقف واحد ، ولا عن حادثة واحدة تعطى أماناً لأعداء هذا الدين ، وترى فى الأمر باتباع الوحى حقيقة من حقائق الإسلام ، وهى أنه فى صميمه اتباع لا ابتداع ، وأن كل نظام فى حياة الجماعة المسلمة يجب أن يخضع للوحى ، سواء فى ذلك ما كان فى تنظيم الاقتصاد ، وشئون المال . وما كان فى تنظيم السياسة والحكم ، وما كان فى السلوك والآداب ، وأن منطق الدين ومقتضاه أن يتغير كل هذا على وفق ما جاء به الرسول عليه السلام ، ومن السفه والجهل القول بتطوير المفاهيم الدينية ، والآداب الإسلامية لتساير العصر ، لأن منطق الوحى يؤكد ضرورة تطوير السلوك والنظام فى الجماعة المسلمة ليساير الوحى . وهذا ما يجب أن يحرص عليه كل مصلح يبغى الخير لأمته ؛ وقد كان ذلك منطق محمد بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، فقد وجد فى مجتمعه من النظام ، والسلوك ، ما يجافى الوحى ويخالفه ، فهدمه وأقام نظام الإسلام مكانه ، أقول هذا وأنا أعتقد أننا فى حاجة ملحة إلى فهم الإسلام فهماً ذكياً واعياً ، ووظيفتنا الأساسية هى الاجتهاد ، والدأب فى فهم شريعة الله ، وشرحها وتفسيرها ، وحينئذ سنجد الإسلام أنسب صور الحياة لمجتمع هذا

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

العصر ، ولإنسان هذا العصر ، وليس هنا مجال القول فى ذلك فيُستقصى ، وإنما هى إشارات إلى أصول توحى بها الآيات .

وترى فى التوكل على الله طاقة إيجابية خلاقة تكمن فى النفس المؤمنة ، تدفعها إلى كل خير ، تسبق إليه سبقاً ، وتركض نحوه ركضاً ، لا تبالى فى ذلك خطراً ، كما أن هذه الطاقة تكبح هذه النفس عن كل ما يخالف دين الله ، ولو دفعتها نحو هذه المخالفة كل قوة فى الأرض .

* * *

﴿ مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِه ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ، ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ، وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ * ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ ، فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ، وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ (الآيتان : ٤ - ٥) .

* *

« القلب » : مصدر من قولهم : قلب الشىء قلباً - أى حوَّله وصرفه ، تقول : قلبته ظهراً لبطن ، وقالوا : رجل أقلب ؛ أى منقلب الشفة ، وسمى البئر قليباً لأن ترابه يُقلب بالحفر ، وقلب الإنسان هو العضو المعروف ، وسمى بذلك لتقلبه وتحوله ، وقالوا : قلبه - كضربه - أصاب قلبه .

« الزوج » : يقال لكل ما يقترن بغيره زوج ، فالرجل زوج ، والمرأة زوج ، وكل قرين زوج ، قال تعالى : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ (١)

---

(١) الصافات : ٢٢

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

أى قرناءهم المقتدين بهم فى أفعالهم ، وقال : ﴿ مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ ﴾ [(١)] أى أشباهاً وقرناء ، وقال : ﴿ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ [(٢)] أى أنواعاً متشابهة ، والزوجة - لغة - قليلة ، وجمعها : زوجات ، ولم ترد فى القرآن الكريم ، والمرأة المزواج : كثيرة التزوج ، وتقول : زوَّجته امرأة ، وتزوَّجتُ امرأة فيتعدى بنفسه ، ومن القليل : زوَّجته بامرأة ، وتزوجتُ بامرأة ، وهذه الصورة هى التى جاءت فى القرآن الكريم ولم يأت بغيرها ، قال تعالى : ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ [(٣)] ، والسر فى ذلك هو الإشارة بهذه المخالفة إلى الفرق بين ما هنا وما هناك ، فزواج الحور العين لا يكون على حسب المتعارف فيما بيننا من المناكحة كما قال الراغب .

﴿ تُظَاهِرُونَ ﴾ : الظهر : الجارحة ، والجمع : ظهور ، ورجل مظهر : شديد الظهر ، وظهر - كفرح - فهو ظهر : اشتكى ظهره ، وظاهره : عاونه ، وظهر عليه : غلبه ، وأظهره الله : أعانه ، وضربوا الحديث ظَهْراً لبطْن ، أى أخذوا فى فنونه وقلّبوا طرقه ، قال عمر بن أبى ربيعة :

وَضَرَبْنَا الْحَدِيثَ ظَهْراً لِبَطْنٍ وأتينا مِنْ أمْـرِنَا مَا اشْتَهَيْنَا

وثقيل الظهر : كثير العيال ، كأنهم شبهوا العيال بثقل يوضع فوق الظهر ، وتفرع على ذلك قولهم : فلان خفيف الظهر أى قليل العيال ، وظاهَرَ من زوجته ، أى قال لها : أنتِ علىَّ كظهر أمى ، واشتقوا لفظ الظِّهَار من قال لها : أنت علىَّ كظهر أمى ، كما اشتقوا لبَّى من قال : لبيك .

﴿ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ : مفرده أم ، ويقال للأم : أُمَّه وأُمّهه ، جاءت امرأة إلى عائشة رضى الله عنها ، فقالت لها : ياأُمّه ، فقالت عائشة : لست أمَّ نسائكم ، وإنما أنا أمُّ رجالكم ، والجمع : أُمهات وأُمات ، وقال بعضهم : أكثر ما يقال أُمات فى البهائم ونحوها ، وأُمهات فى الإنسان ، ويقال للوالدة

---

(١) طه : ١٣١ (٢) طه : ٥٣ (٣) الطور : ٢٠

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ووالدتها وإن بعدت ، ولهذا قيل لحواء أمنا ، والأم تقال لكل ما كان أصلاً لوجود الشيء أو تربيته أو إصلاحه ، ويقال للفاتحة : أم الكتاب ، كما يقال للوح المحفوظ : أم الكتاب ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا ﴾ (١) ، وذلك لكون العلوم كلها منسوبة إليه ، ويقال للآيات المحكمات من آيات الشرائع والفرائض : أمهات ، وأم القُرَى : مكة ؛ لأنها أعظم القُرَى شأناً ، وقالوا للمجرَّة : أم النجوم ؛ لكثرة كواكبها ، وشبهوا المجلس العامر بأم النجوم ، قالوا : ما أشبه مجلسك بأم النجوم ، وقالوا : أم الأضياف ، للسخية المعطاءة ، وأم المساكين ، للحانية الرءوم .

﴿ أَدْعِيَاءَكُمْ ﴾ : مفرده دعى - كغنى - فعيل بمعنى مفعول ، وهو مَن تَبَنَّيْته والمتهم فى نسبه ، والدِّعوة - بالكسر : الادعاء فى النسب ، وقياس دعى أن يجمع على فَعْلَى كجريح وجرحى ، ولا يُجمع على أفعلاء إلا إذا كان بمعنى فاعل ، كَتَقِىٍّ وأتْقياء وَشَقِىٍّ وأشْقِياء ، هكذا قال الصرفيون ، ثم ذكروا أن الجمع فى الآية جاء على التشبيه ، والحمل - أى حمل فعيل - بمعنى مفعول على فعيل بمعنى فاعل وشبه به فجمع جمعه .

« أفواه » : مفرده فُوه - بالضم ، والفم أصله فَوَه ، حذفت الهاء كما حذفت من سنة . وبقيت الواو طرفاً متحركة ، فوجب إبدالها ألفاً لانفتاح ما قبلها فقيل : فا ، ولا يكون الاسم على حرفين أحدهما التنوين ، فأبدل مكانها حرف جَلْد مشاكل لها ، وهو الميم ، لأنهما شفهيتان ، قالوا فى التعليل الصوتى لهذا القلب : وفى الميم هوى فى الفم ، يضارع امتداد الواو - وكأنهم ناسبوا بين الميم وبين الواو التى هى أصل الألف ، ومن كلامهم : ما فهت بالكلمة ، وما تفوهتُ بها ، وفاوهته بالأمر ، ورجل أفوه : واسع الفم ، وامرأة فوهاء .

(١) الزخرف : ٤

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

« الحق » : حق الله الأمرَ : أثبته وأوجبه ، وحق الأمرُ بنفسه : ثبت ووجب ، وأحق الله الحق : أظهره وبيَّنه ، وحق لك أن تفعل ، أى جُعِل حقاً لك أن تفعل ، وأحقًّا أن أُظلَم ، أى ليس من الحق أن أُظلم ، قال ابن الدمينة :

أَحقًّا عِبَادَ اللهِ أنْ لَسْتُ صَادِراً ... ولَا وَارِداً إلَّا عَلىَّ رقِيبُ

ولَا زَائِراً وَحْدِى ولَا فى جَمَاعَةٍ ... مِنَ النَّاسِ إلَّا قِيلَ أَنْتَ مَرِيبُ

أى ليس من الحق أن أُراقَب هذه المراقبة الصارمة التى ضاق بها وأنكرها ، ﴿ واللهُ يَقُولُ الْحَقَّ ﴾ : أى الثابت المحقق ، ويقال لموجد الشىء بسبب ما تقتضيه الحكمة ، ولهذا قيل : الله هو الحق ، ويقال للشىء الموجود بسبب مقتضى الحكمة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَنبِؤُنَكَ أَحَقٌّ هُوَ ، قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ (١) .

﴿ يَهْدِى السَّبِيلَ ﴾ : الهداية الدلالة بلطف ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (٢) ، أى يدل عليها بالحكمة والموعظة الحسنة ، و﴿ الَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ : مِلَّة الإسلام ، وفى إبهامها تعظيم وتفخيم أفاد العبارة حُسناً وبلاغة .

والهادى : هو الذى يتقدم القوم دليلاً لهم على الطريق ، وقالوا : جاءت الخيل يهديها فرس أشقر ، أى يتقدمها ، والهوادى : أعناق الخيل ، لأنها تتقدمها ، قالوا : ضرب هاديته ، وأقبلت هوادى الخيل ، وتقول : هداه السبيل ، وهداه من الضلالة فاهتدى ، وهدى فلان هَدْىَ فلان أى سار على طريقته ؛ وفى الحديث : « اهدُوا هَدْىَ عمَّار » أى سيروا سيرته .

و﴿ السَّبِيلَ ﴾ : الطريق الذى فيه سهولة ؛ وجمعه : سبل ، ويُعبَّر بالسبيل عن الحُجَّة ، والطريقة ، والمنهاج ، قال تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِى أَدْعُوا إِلَى اللهِ ، عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ (٣) ، وقالوا لسالكه : سابل ، والجمع :

---

(١) يونس : ٥٣ (٢) الإسراء : ٩ (٣) يوسف : ١٠٨

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

سابلة ، وقالوا : سبيل سابل ، أى طريق يسلكه الناس كثيراً ، حتى كأنه هو نفسه سابل ، وهذا من المجاز العقلى الذى يُسند فيه الوصف إلى المكان ، فيفيد الكثرة والشمول ، حتى كأن الطريق كله يسير .

﴿ أَقْسَطُ ﴾ : القسط العدل ، وهو مصدر يستوى فيه الواحد والجمع ، وقسط يقسط - ككتب يكتب - قسطاً ، وأقسط يقسط إقساطاً : عدل ، وقسط يقسط - بالفتح ، وقسوطاً - كعقوداً : جار وعدل عن الحق . ولهذا قالوا : هو قاسط مقسط ، أى جائر غير عادل ، وقالوا : الله يقبض ويبسط ويُقسط ولا يَقْسط - الأول كيكرم ، والثانى كيضرب - وأمر الله بالقِسط ونهى عن القَسط - الأول يكسر أوله والثانى يُفتح أوله .

« الأخ » : هو المشارك فى الولادة من الطرفين ، أو من أحدهما ، أو من الرضاع . وقالوا للصاحب أخ ، والمشارك فى صنعة أو صفة أو خُلُق أو طريقة أخ ، وذلك على سبيل الاستعارة ، فقد شُبِّه كل واحد من المذكورين بالأخ ، وعليه قوله تعالى : ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ (١) أى أخته فى الصلاح لا فى النسب ، فقد شبهت البتول بأُخت هارون بجامع المشاركة بينها وبين الأخت فى الصلة بهارون ، فالشقيقة تتصل بالنسب ، والبتول تتصل بالصلاح ، وقالوا : يا أخا تميم ، ويا أخا عاد ، وقد ذكر الأنبياء بالأخوة لأقوامهم تنبيهاً على شفقتهم وحرصهم على الخير لهم : ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ ﴾ (٢) ، ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً ﴾ (٣) ، ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾ (٤) .

﴿ مَوَالِيكُمْ ﴾ : الولى القُرْبُ والدُّنُو ، والمطر بعد المطر ، ووليت الأرض - بالضم - أصابها الولى ، والولاية : تولى الأمر ، والولى : ما تولى أمرك فهو فعيل بمعنى فاعل ، ومنه : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٥) ، وقد يكون

---

(١) مريم : ٢٨ (٢) الأحقاف : ٢١ (٣) الأعراف : ٧٣ ، هود : ٦١
(٤) الأعراف : ٨٥ ، هود : ٨٤ (٥) البقرة : ٢٥٧

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

بمعنى اسم المفعول فيُطلق على المتولى أمره ، ومنه : المؤمن ولى الله ، أى الله متولى أمره ، والمولى : كالولى يكون بمعنى اسم الفاعل كقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (١) ، أى متولى أمرهم ، وقد يكون بمعنى اسم المفعول كقولهم : سالم مولى حذيفة ، وزيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويُطلق الولى والمولى على المالك والعبد والمعتق والصاحب والقريب والجار والحليف والابن والعم والنزيل والشريك وابن الأخت والرب والناصر والمُنعِم والمُنعَم عليه .

« الجُنَاح » : جنح يجنح - بالضم والفتح والكسر - جنوحاً : مال ، ويقال : جنح الطائر أى كسر جناحه ومال ، وجنحت الشمس : مالت للغروب ، وجنح الليل : مال مقبلاً أو ذاهباً ، وسمى جانبا الشىء جناحيه ، تشبيهاً بجناحى الطائر ، فقالوا : جناحا السفينة ، وجناحا الجيش ، وجناحا الوادى ، وجناح الإنسان أى جنبه ، قال تعالى : ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ﴾ (٢) أى جنبك ، وأطلقوا الجناح على اليد ، لأن اليد للإنسان كالجناح فى الطائر من حيث الشكل والهيئة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ (٣) أى يدك ، وقد جاء فى كلامهم عكس هذا ، فذكروا اليد مستعارة للجناح ، فقالوا : يدا الطائر ، أى جناحاه ، وهذه الاستعارة بنيت على فن من التشبيه لا تجد فيه المشبه به ذا خصوصية توجب كونه مشبهاً به دائماً ، أى ليس وجه الشبه فى المشبه به أقوى ، أو لا يُلتفت فيه إلى قوة وجه الشبه ، إن وجدت ، لأن الغرض منه البيان ، وليس الغرض منه المبالغة .

ومن أعجب مواقع كلمة الجناح فى صور الاستعارة قوله تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ (٤) ، فقد جعل للذل جناحاً ، وخيَّل بذلك أنه ذل مُحلِّق ، فهو ذل فيه شموخ ، وإباء ، يرفع صاحبه ولا يضعه ، ويعلو به

---

(١) محمد : ١١ (٢) طه : ٢٢

(٣) القصص : ٣٢ (٤) الإسراء : ٢٤

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

ولا يهبط ، ويحمله على جناحه خفَّاقاً به حول عرش الرحمن ، حيث يلتقى بالبررة من خلق الله الذين وصلوا أرحامهم ، ووطَّأوا للآباء أكنافهم ، وخفضوا لهم جناحهم ، وهكذا الذل لله سبحانه ، ذل فيه عزة ، ورفعة ، وقد جاء فى دعاء الصالحين : « اللَّهم أعزنى بالذل لك ، وأغننى بالافتقار إليك » ومن هذا الذل تُستمَد عزة المؤمنين . وقد أبصر الراغب هذا المعنى فى هذه الاستعارة المكنية فقال : « لما كان الذل ضربين : ضرب يضع الإنسان ، وضرب يرفعه ، وقصد فى هذا المكان إلى ما يرفعه لا إلى ما يضعه ، استعار لفظ الجناح » وهذا من الكلام الزاكى .

وسمى الإثم المائل بالإنسان عن الحق جُناحاً - بالضم - ومنه : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ (١) ، ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ ﴾ (٢) .

« الخطأ » : العدول عن الجهة ، والخاطىء هو المتعمد الخطأ ، المريد له ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ (٣) ، وفعله : خطىء يخطأ خطئاً ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيراً ﴾ (٤) ، والذى لا يقصد الخطأ وإنما يقع منه خلاف ما يريد ، يقال له : أخطأ إخطاءً ، فهو مخطىء ، وهذا هو الذى رفع فيه الحَرَج .

« العمد » : قصد الشىء وإرادته ، والعمد والتعمد خلاف السهو ، وهو المقصود بالنية ، ومنه : فلان عمود قومه ، أى قوامهم الذى يقصدونه فى الحوائج ، قالت عمة امرىء القيس ترثى أخاها حُجْراً - بالضم والسكون :

فَإِنْ تَهْلِكْ فَكُلُّ عَمُودِ قَوْمٍ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى هُلْكٍ يَصِيرُ

« غفر » : غفر الشىء يغفره - كضربه يضربه - ستره ، وغفر الشيب بالخضاب : غطاه ، وغفر الله ذنبه يغفره غفراناً - بالفتح والضم - ومغفرة

---

(١) البقرة : ١٩٨
(٢) البقرة : ٢٣٥
(٣) الحاقة : ٣٧
(٤) الإسراء : ٣١

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وغفوراً : غطى عليه وعفا عنه وستره . ومن كلامهم : اغفر هذا الأمر بغَفرته - بفتح أوله - أى استره بما يجب أن يُستر به ، وقوم ليست فيهم غفيرة ، أى لا يغفرون ذنب أحد . قال :

يَـا قَـوْمِ لَيْسَـتْ فِيهِمْ غَفِيـرَةَ فَامْشُوا كَمَا تَمْشِى جِمَالُ الْحِيرَةَ

أى امشوا إلى حربهم كما تمشى جمال الحيرة ، وكانوا يمتارون منها . ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ ﴾ وجوهاً منها ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أن النبى ﷺ قام يوماً يصلى ، فخطر خطرة (أى تذكر بعد نسيان ، من قولهم : خطر ببالى ، وعلى بالى ، يخطر ويخطر - كيضرب ويكتب : ذكره بعد نسيان) ، فقال المنافقون الذين يصلون معه : الا ترى أن له قلبين ، قلباً معكم ، وقلباً مع أصحابه ، فنزلت . ومنها ما ذكره مقاتل فى تفسيره من أنها نزلت فى أبى معمر الفهرى ، وكان يقال له « ذو القلبين » لقوة حفظه وتمكن نحيزته ، والعرب تزعم أن للرجل اللبيب قلبين ، وهذا من تخييلاتهم ومبالغاتهم ، وقد جرى ذلك على لسان شعرائهم قال :

مَا أَنْصَفَتْنِى الْحَادِثَاتُ رَمَيْنَنِى بِمُفَارِقَيْـنِ ولَيْـسَ لِى قَـلْبَانِ

وقال الآخر :

تَمَلَّكَ بَعْضُ حُبِّك كُلَّ قَلْبِى فَإِنْ تُرِدِ الزِّيَادَةَ هَـاتِ قَـلْباً

ومنها ما روى عن الحسن أنه كان جماعة يقولون : نفس تأمرنى ونفس تنهانى ، وكانوا يطلقون على الخواطر والآراء : نفوساً ، فإذا تصارع فى نفس أحدهم رأيان ، قالوا : فلان يؤامر نفسيه ، ولعل هذا أضعف ما قيل فى أسباب النزول ، وذلك لأن قولهم : نفس تأمرنى ، ونفس تنهانى ، ضرب من إدراكهم البيانى لأحوال النفس ، وتصورهم لها ، ولا وجه لأن ينكر القرآن عليهم ذلك ، ما دام الأمر أمر تصوير بيانى ، ويمكن أن يقال مثل هذا فى الوجه الثانى ، لولا ما قيل من أن أبا معمر هذا كان يقول : إن لى قلبين

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

أحفظ بكل واحد منهما أكثر مما يحفظ محمد ، وروت كتب السيرة أن الله أراد أن يخذله ويفضح ادعاءه ، فلما كان يوم بدر رآه أبو سفيان وهو يحمل أحد خفيه فى يده ، والآخر فى رجله ، فسأله أبو سفيان عن حال القوم ، فقال : هم ما بين مقتول وهارب ، فقال له : ما بال إحدى نعليك فى رجلك والآخر فى يدك ؟ فقال : ما ظننت إلا أنهما فى رجلى ، فأكذب الله تعالى قوله وقولهم . والذى يعنينا هو أن ننظر فى هذا التركيب ، محاولين أن ندرك شيئاً من دلالته ، معتقدين أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فليست أحداث النزول قيوداً تتقيد بها الدلالة القرآنية ، وتظل حبيسه فى دائرتها ، وإنما هى فى انطلاقها وعمومها تخاطب البَشرية فى كل زمان ، وفى كل مكان ، تصدع بالحق وتدعو للتى هى أقوم ، واحذر ما يقوله ملاحدة هذا الزمن وعبيد يهود من أن ارتباط الآيات بأسباب نزولها يرفع عنا التكليف بما فيها .

ونرى أن هذه الجملة : ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ ذكرت بديهة مُسلَّمة ، ومثلاً محسوساً ، واضحاً فى البطلان والتناقض ، لا يدفعه عاقل ، ولا ينكره منكر ، وذلك ليُقاس عليه ما كان منهم من جعل الزوجة أُماً ، والمتبنى ولداً ، ليتبين لهم ما فى هذين الأمرين من التناقض والمخالفة للفطرة ، ونلمح فى هذا التمثيل أحوالاً أكسبته قوة ووكادة . منها ذكر الرجل خصوصاً ، وذلك لأن معنى الحياة تكون فى الإنسان أظهر منها فى غيره من خلق الله ، والرجل من الإنسان تكون فيه الحياة أقوى وأوضح ، فإذا كان الرجل الذى هو مظهر الحياة فى أقوى صورها لم يخلق الله له قلبين ، فغيره مما خلق الله أولى بأن يكون له قلب واحد ، ومنها تنكير الرجل ودلالة التنكير فيه على العموم والشمول ليتناول كل رجل ، ومنها « من » الزائدة فى المفعول ، والتى تفيد التوكيد ، وقوة المعنى ، ومنها قوله : ﴿ فِي جَوْفِهِ ﴾ لتتضح الصورة المتناقضة فى النفس ، وتتمثل أمام العين والخيال ظاهرة مكشوفة فى بطلانها وشذوذها ، قال الإمام الزمخشرى فى بيان فائدة هذا

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

القيد : « والفائدة فى ذكره كالفائدة فى قوله : ﴿ الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾ (١) ، وذلك ما يحصل للسامع من زيادة التصور ، والتجلى ، للمدلولَ عليه لأنه إذا سمع به صوَّر لنفسه جوفاً يشتمل على قلبين ، فكان أسرع إلى الإنكار ، وحاصل هذه الأحوال كلها تأكيد وتقرير لبطلان أن يكون لحى من الأحياء قلبان فى جوفه ، ليتأكد تبعاً لذلك بطلان أن تكون الزوجة أماً ، والمتبنى ولداً ، وهذا فن من البيان القرآنى ، الذى نلمح فيه صورة المشبه به ، أو المثل المقيس عليه ، وقد توفرت فيها فنون من صنعة الصياغة ، والنظم ، يزداد بها البيان قوة ، وجلاء ، انظر إلى قوله تعالى فى تصوير بطلان أعمال الكافرين ، وأنه لا يبقى لأصحابها منها شىء ينفعهم ، وأنها هينة على الله كل هوان ، قال فى ذلك : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ، أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ (٢) ، فذكر الرماد ، وهو مثل فى الهوان ، والذلة ، وقلة الشأن ، وذكر أن الريح اشتدت به ، فاقتلعته من مكانه ، وذهبت به فى الآفاق بدداً ، و« الباء » الجارة هنا أقوى من « على » الجارة ، لأنه لو قال : « اشتدت عليه » لكان من المحتمل أن تكون الريح هبَّت عليه ، واشتدت عليه وهو قار فى مكانه . ولكن « الباء » خيَّلت أن الريح اصطحبته وذهبت به فى مهابها البعيدة ، ووصف اليوم بأنه عاصف ، والأصل عاصفة ريحه ، لأن العصف يقع فيه ولا يقع منه ، وذلك للإشعار بعموم العصف وشموله وبقائه اليوم كل اليوم ، فالريح لا تخمد ولا تسكن ، وكل إشارة ولفتة فى صورة المشبه به تعطينا معنى الضياع والبطلان فى المشبه الذى هو أعمال الكافرين ، هذه لطيفة من لطائف الفن البيانى فى القرآن ، فحاول أن تتدبرها .

وقد بينَّا فى المفردات أن قوله : ﴿ تُظَاهِرُونَ ﴾ مضارع : ظاهر من امرأته ، أى قال لها : أنت علىّ كظهر أمى ، وقالوا : إن الظهر فى قول القائل « هى عليه كظهر أمه » مجاز عن البطن ، وعلاقته المجاورة ، وإنما ذكروا الظهر

---

(١) الحج : ٤٦ (٢) إبراهيم : ١٨

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وأرادوا البطن استقباحاً لذكر البطن ، وخصوصاً بطن الأم ، ولست أجد داعياً قوياً لصرف اللفظ عن معناه الحقيقى ما دام المراد أنه شبه زوجته بجزء لا يحل النظر إليه من المحرَّمة عليه ، ويستوى فى ذلك الظهر والبطن ، ولكن الفقهاء أرادوا أن يُحَمِّلوا اللفظ قدراً أكبر من المبالغة ، فأشاروا إلى هذه التجوز ، وقد التمس بعضهم المبالغة فى لفظ الظهر من غير صرف إلى البطن فذكروا صورة قبيحة .

ونلحظ في هذا النسق المتشابه بين هذه الجمل الثلاثة : ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ قوة فى التماثل ، والتشابه ، فالمسند إليه مكرر فى ثلاثتها ، والمسند كذلك ، واختلف المتعلق بالمسند فقط ، فهو فى الأولى قلبين فى جوف رجل ، وفى الثانية أزواج صرن أمهات ، وفى الثالثة دَعِىٌّ صار ابناً . . هذا التشابه فى بناء الجمل يؤكد تشابه معانيها ، فى التناقض والبطلان ، ولا يخفى عليك بعد ذلك القول فى سر الوصل بين هذه الجمل الثلاث ، فإن بينها اتحاداً من حيث تكرار المسند والمسند إليه ، وتغايراً من حيث اختلاف المتعلق ، وهذا هو الذى يسميه البلاغيون التوسط بين الكمالين ، أى كمال الاتصال وكمال الانقطاع ، أما فصل الجملة الأولى عن الواقع قبلها ؛ فذلك لأنها بيان للوحى الذى أُمِرَ عليه السلام باتباعه ، فهى مستأنفة للبيان والإيضاح ، وما دامت كذلك فهى موصولة بما قبلها أوثق اتصال ؛ لأن الوصل بدون حرف الوصل - كما علمت - أقوى من الوصل بحرف الوصل ، ولهذا المعنى ذكر البلاغيون أن مثل هذا الفصل يكون لكمال الاتصال ، أى لقوته ، ويكون حرف العطف فاصلاً بين العصا ولحاها كما يقولون .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم ﴾ جملة مستأنفة تؤكد بطلان هذه العادات ، وهذه الأنماط من السلوك ، وهذا من قبيل التأكيد المعنوى ، ومثله قوله تعالى :

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

﴿ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [1] ، لأن الاستهزاء بالإسلام ودعوته ودعاته ، تأكيد للاستمرار فى معية الكافرين ، ويدخل فيه الاستهزاء بآدابه وفضائله والقول بأن التحلّى بها عودة إلى العصور الوسطى أو عصور التخلف والظلمات ، ومثل ذلك مما ينشره ملاحدة هذا الزمن المهزوم ، والمهم أن القول الكائن بالفم ، والذى لا يتجاوزه إلى القلب واليقين ، تأكيد لكون هذه الصور المتقدمة صورة باطلة ، وأنها لا أساس لها من الفطرة الصادقة والشرع الحكيم ، وفى اسم الإشارة - ذلكم - تمييز للمشار إليه عن كل صواب ، وإبعاد له عن كل صدق ، واستهانة به ، وإضافة هذا القول إليهم توبيخ لهم ، وتبرئة من هذا القول ، أى هو قولكم لا قولنا ، وقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ﴾ اتصل بالجملة السابقة ؛ لأن قول الحق يقابل قول الباطل الذى لا يكون إلا بالفم ، ومن هنا كانت المناسبة واضحة فى هذه المقابلة الرائعة بين أكبر نقيضين فى هذا الوجود - الحق والباطل - وهذا هو الجامع بين الجملتين ، وفيه إشارة إلى أن الحق أغلب ، لأنه تُسْتَمَدُّ قوته من قوة الله ، والباطل يستمد بقاءه من بقاء الإنسان ، والله يقول الحق ، أى الثابت المحقق والذى له حقيقة ، وقال النبى ﷺ لحارثة : « لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك » ؟ أى ما الذى ينبىء عن كون ما تدعيه حقاً ، وحقيقة قول الله هنا هى فطرة النفوس التى تفصل بين ولدك الذى هو منك ، وبين ولدك الذى تتبناه ، وقوله : ﴿ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ متصل بالجملة السابقة عليه ، وذلك لاتحاد المسند إليه فيهما ، وللتناسب بين قول الحق ، وهداية السبيل ، فكلاهما من باب واحد ، وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلى فى الجملتين المتناسبتين بحرف العطف يفيد تقوية الحكم وتقريره ، ويفيد هنا بمعونة المقام التخصيص والقصر ، أى قصر المسند على المسند إليه ، أى قول الحق مقصور على الله دونكم ، فأنتم تقولون بأفواهكم ما ليس فى قلوبكم ، وهداية السبيل معناها الدلالة برفق ، ورحمة ،

---

(١) البقرة : ١٤

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

على طريق الفطرة السهل الميسور ، الذى تجد فيه النفوس قرارها ، وقد استعملت الهداية فى الدع والدلالة بالعنف ، قال تعالى : ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٢) ، ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (٤) ، وقد أدخل البلاغيون المتأخرون هذه الصور فى باب الاستعارة التهكمية ، وقالوا فى إجراء هذه الاستعارة شبه الإنذار بالبشارة بجامع السرور تهكماً ، أو بجامع الضدية على اختلاف بينهم فى ذلك ، ثم استعاروا البشارة للإنذار ، واشتق من البشارة « بَشِّرْ » بمعنى أنذر ، وشبه الدع والأخذ العنيف بالهداية بجامع الرفق تهكماً أو بجامع الضدية فى كل ، ثم ادعى أن الأخذ العنيف صار فرداً من أفراد الهداية ، ثم استعار الهداية للأخذ العنيف ، أو الدع ، وقالوا مثل ذلك فى تشبيه السفه والطيش بالحلم والرشد ، وهذا التخريج لم يشر إليه عبد القاهر ، ولم يشر إليه الزمخشرى ولا أحد من طبقتهم ، وقد أدخل الزمخشرى هذه الصور فى باب العكس فى الكلام ، وأشار إلى أنه مذهب واسع مشهور فى لغة العرب ولغات العجم ، وأنهم يقصدون إليه لزيادة التهكم والاستهزاء ، وقد قرن الزمخشرى هذه الصور بمثل قولهم : عِتَابُك السيفُ ، وتحِيَّةُ بَينِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ ، وَاعْتِبُوا بالصَّيلَمَ . . . وقوله :

وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ يَكُونَ عَطَاؤُهُ أَدَاهِمَ سُوداً أَوْ مُحَدْرَجَةً حُمْرا

وغير ذلك من صور التنويع الذى تضاربت فيه آراء القوم حتى قال الشهاب الخفاجى مشيراً إلى صعوبة القول فى تخريجه : « وفيه تُسكب العبرات » ، وقوله : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ ﴾ بيان لقول الحق ، ولهداية سبيل الفطرة التى تقتضى أن يُدعى الولد إلى أصلابه وآبائه ، وأن تُحفظ حُرْمة الإنسان وكرامته ، وحين تتأمل هذا الأمر الذى يدعو هذا المجتمع إلى احترام آدمية الموالى ،

---

(١) الصافات : ٢٣ (٢) الحج : ٤

(٣) الانشقاق : ٢٤ (٤) هود : ٨٧

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وتقدير إحساسهم بانتمائهم إلى آبائهم وأجدادهم ، تجد الإنصاف ، والرحمة كل الرحمة ، والتكريم كل التكريم لهذه الطائفة من بنى البَشر الذين وقع عليهم حيف الإنسان ، وجوره ، فصاروا أرقاء مُستعبَدين ، وكانوا كسادتهم فى الحرية والمكانة ، بل ربما كان لبعضهم من كرم المحتد ما يفوق سيده الذى اشتراه من سوق الرقيق ، وكانت الغارات الطائشة هى التى يعمر منها هذا السوق اللّعين .

قلنا : إن قوله : ﴿ ادْعُوهُمْ ﴾ بيان لقول الحق وهداية السبيل .

ويجوز أن يكون قوله : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ ﴾ من حيث المعنى توكيداً لقوله : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ لأن النسب إلى الآباء توكيد لنفى الادعاء ، وهذا شبيه بقوله تعالى : ﴿ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (١) مع ملاحظة الاتفاق بين الجملتين من حيث الخبر والإنشاء فى هذا المثال ، وأريد أن أنبه إلى وجه المناسبة بين معانى الآيات ، ولا أريد أن أشير إلى سر الفصل ، فإنه ظاهر لاختلاف الجملتين خبراً وإنشاءً ، وقوله : ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ ﴾ معناه أعدل عند الله ، ومعنى « أفعل » فى قوله : ﴿ أَقْسَطُ ﴾ الزيادة المَطلقة ، أى غير المقيدة بمفضل عليه ، فليس كقولك محمد أكرم من علىّ ، فإن هذا يفيد أن محمداً وعلياً كريمان ، ولكن كرم محمد يزيد على كرم علىّ ، أما الدعوة إلى غير الآباء فليس فيها شىء من القسط ، والمراد أن الدعوة إلى الآباء أدخل فى باب القسط والعدل مطلقاً ، وليس بإضافته إلى الدعوة إلى غير الآباء ، فإنها ليست من العدل فى شىء ، ويجوز أن يكون « أفعل » هنا على بابه ، أى الدعوة إلى الآباء أكثر عدلاً من الدعوة إلى غير الآباء ، ويكون الكلام وارداً على سبيل التهكم ، لأن الدعوة إلى الآباء لا توصف بالقسط والعدل إلا على جهة الاستهزاء والعكس فى الكلام الذى ألمعنا إلى أسلوبه ، وحين تراجع مادة « قسط » فى دراستنا للمفردات نجد أنها تُستعمل

---

(١) يوسف : ٣١

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

فى العدل والجَوْر ، وقد يكون فى اختيار القرآن لهذا اللّفظ فى هذا المقام وإيثاره على كلمة « أعدل » أو « أصدق » تلويح وإشارة إلى ما كانوا عليه من القَسط - بفتح القاف - أى الجور والميل حين نسبوا هؤلاء إلى غير آبائهم ، وتعليق ﴿ عِندَ اللهِ ﴾ بـ ﴿ أَقْسَطُ ﴾ للإشارة إلى أنه قسط تحرص النفوس على تحصيله والضمير فى قوله : ﴿ هُوَ ﴾ عائد على المصدر المفهوم من قوله : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ ﴾ وذلك على مثال قوله تعالى : ﴿ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [1] ، فالضمير عائد على العدل المفهوم من الكلام السابق والجملة هنا أيضاً مستأنفة لتعليل الأمر ، والاستئناف الذى يكون للتعليل أساسه حاجة الكلام السابق إلى مزيد من الإيضاح والتقرير ، وكأن هذا الكلام يثير فى النفس سؤالاً كما قلنا ، وكأن هذا الاستئناف جواب عن هذا السؤال ، ويسمى شبه كمال الاتصال ، وقد قال البلاغيون : إن السؤال الذى يلوح به الكلام السابق إما أن يكون سؤالاً عن عِلَّة الحكم مطلقاً كما فى هذه الآية وفى كل استئناف غير مؤكد ، وإما عن عِلَّة خاصة للحكم ، وحينئذ تكون الجملة السابقة أو سياقها ملوحاً بجملة الاستئناف ومشيراً إليها إشارة قريبة يفطن لها العليم بأسرار الكلام ، أو كما يقول سعد الدين : إن الكلام المتقدم يشير إشارة ما إلى جنس الخبر ، حتى إن النفس اليقظى والفهم المتسارع يكاد يتردد فيه ويطلبه ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُواْ ، إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [2] ، فإنه لما قال : ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ والأرض تتفجر عيوناً ، والسماء تنهمر ماؤها ، وقد أُمر بأن يصنع السفينة ، وأن يحمل فيها من كُلٍّ زوجين اثنين ، كل ذلك السياق يوحى أن هؤلاء الظالمين قد تحدد مصيرهم ، وهو الغرق فى الطوفان ، ويقال مثل هذا فى الجمل الواقعة مستأنفة ومؤكدة بـ « إن » بعد الأوامر والنواهى ، ومنها

---

(١) المائدة : ٨ (٢) هود : ٣٧ ، المؤمنون : ٢٧

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى ، إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ (٤) ، وقد ألمعنا إلى شىء من ذلك فيما تقدم ، وفيه من الدقة فى تحليل المعانى والتعرف على طبائعها وعلاقتها ما لا يستهين به إلا متهاون لا يلتفت لما يقول .

وقوله : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ معناه نفى الحرَج والإثم عن الخطأ سواء أكان هذا الخطأ فى أمر الدعوة إلى غير الآباء ، أم كان من غيره ، وقيل : إن سياقها يحدد معناها ، والمراد نفى الحرَج عن الخطأ والسهو فى الدعوة إلى غير الآباء ، وقيل : لا إثم عليكم فيما وقع منكم قبل النهى ونزول الحكم بالحرَج ، والأوجه فى كل ذلك أن يُراد عموم نفى الحرَج والإثم عن كل خطأ ، ويكون ذلك تقريراً لهذا الأصل فى هذا الدين العظيم ، الذى لا تكون المؤاخذة فيه إلا لمن وعى وأدرك وقصد إلى الخطأ قصداً بالقلب والهمة ، فهو متجه نحوه اتجاهاً واعياً ، يحركه فيه قلب نَزَّاعٌ للخطأ عامد إليه ، والجملة واردة على سبيل الاعتراض الذى يؤكد ما وقع معترضاً فيه مع إدماج حكم مقصود فى نفسه ، وهو نفى الحرَج عن المخطئ ، وإثبات الإثم على مَن قصد ، وقد تكلَّف بعضهم فأوَّل هذه الجملة بجملة طلبية وعطفها على قوله : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ ﴾ ، ويكون تقدير الكلام : ادعوهم لآبائهم هو أقسط لكم ، ولا تدعوهم لأنفسكم متعمدين فتأثموا ، و« ما » فى قوله : ﴿ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ اسم موصول وعائده محذوف ، أى ما تعمدته قلوبكم وهى فى محل جر عطفاً على « ما » فى قوله : ﴿ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ ﴾ ، وقد اعترض بعضهم على هذا

---

(١) يوسف : ٥٣ (٢) التوبة : ١٠٣
(٣) الحج : ١ (٤) الأحزاب : ١

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الإعراب ؛ وذلك لأن المعطوف على المجرور لا يفصل بينه وبين ما عطف عليه ، ولهذه القاعدة قال سيبويه فى قولهم : « ما مثل عبد الله يقول كذا ولا أخيه » : إن « أخيه » ليس معطوفاً على عبد الله ، لأنه فصل بينهما ، وإنما هو على حذف المضاف ، وبقاء المضاف إليه على إعرابه الذى كان عليه قبل الحذف ، والأصل : ما مثل عبد الله يقول كذا ، ولا مثل أخيه ، ودفع هذا الاعتراض بأن الآية ليست كالمثال ، فالمعطوف عليه فيها الموصول مع صلته ، والصلة جزء من الموصول ، فليست فاصلاً ، ويجوز أن تكون « ما » فى قوله : ﴿ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ فى محل رفع مبتدأ ، والخبر محذوف من الجملة الثانية لدلالة الأولى عليه ، والأصل : ولكن ما تعمدت قلوبكم فيه الجُنَاح ، وإسناد التعمد إلى القلوب من باب الإسناد المجازى الذى يُسند فيه الفعل إلى الجارحة التى هى آلته ، وهذا أبلغ من إسناده إلى الشخص ، وتشعر بهذا الفرق فى أداء المعنى حين نقارن الآية بقولنا : ولكن ما تعمدتم ، ومثل هذا وعلى طريقته قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [1] ، فقد أسند الإثم إلى القلب ، لأن كتمان الشهادة الذى هو سبب الإثم مقترف بالقلب ، ومن هذا قولهم : لقد رأته عينى ، وسمعته أذنى ، وذكره قلبى ، وشكره لسانى . وفى إسناد التعمد للقلوب ملحظ آخر وهو التنفير من القصد إلى الخطأ ، والانحراف ، حتى تظل هذه القلوب مستقيمة ، نقية ، فإنها هى موطن الإيمان ، ومعدن الخير فى الإنسان ، والقصد إلى الخطأ يحجب القلب عن كل خير ، ويحبسه فى ظلمة الذنب ، فلا يهتدى إلى وجه من وجوه الصواب ، ولذلك كان الران عليه أو الرين من عقوبات الله للعصاة ، والران والرين ما غطَّى على القلب ، وحجبه ، ومثله الغبن فى الوزن والمعنى ، ومناسبة الفاصلة للمعنى الواقع قبلها واضحة ، فإن المغفرة ، والرحمة ، تتناسبان مع العمد والخطأ ، فمن مغفرته قبول توبة العامد إذا تاب ، ومن رحمته أنه رفع الحَرَج عن المخطىء ، ونرى فى هذه الفاصلة سياجاً من نور رحمة الله ، وغفرانه ، يحيط بالبَشرية كلها ، براً ، وفاجراً ، فلم يقابل

---

(١) البقرة : ٢٨٣

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

العمد بصفة القهر ، والاقتدار ، والجبروت ، كما قابل الخطأ بصفة الرحمة ، ولكن المغفرة ، والرحمة ، غلبت الغضب ، فلا يأس مع الذنب ، ويدرك علماء النفس خطر اليأس من الغفران - سواء أكان هذا الغفران من الناس ، أو من رب الناس - وما يكون بسبب هذا اليأس من تدمير للكيان النفسى ، وما يجر ذلك على المجتمع من الويلات .

ووصف المولى سبحانه بالرحمة من المجاز المرسل الذى يُستعمل فيه اللّفظ فى لازم معناه ، قال الراغب : « الرحمة رقة تقتضى الإحسان إلى المرحوم ، وقد تُستعمل تارة فى الرقة المجرّدة ، وتارة فى الإحسان المجرَّد عن الرقة نحو : رحم الله فلاناً ، وإذا وُصِفَ بها البارى فليس يُراد إلا الإحسان المجرَّد عن الرقة » . . انتهى كلامه . وواضح أن استعمال الرحمة فى الإحسان المجرَّد عن الرقة مجاز مرسل كما قلنا . وقال الزمخشرى : « وصف الله تعالى بالرحمة مجاز عن إنعامه على عباده ، لأن الملك إذا عطف على رعيته ، ورق لهم ، أصابهم بمعروفه وإنعامه ، كما أنه إذا أدركته الفظاظة ، والقسوة ، عنّف بهم ، ومنعهم خيره ومعروفه » .

وقبل أن أنهى الحديث فى خصائص صياغة هذه الآيات أشير إلى أن هذه المؤكدات التى فى صدر الأمر والنهى ، وما فيها من إلهاب وإثارة ، ثم بداية الحديث فى تفصيل المقصود بضرب هذا المثل ، وما فيه من مؤكدات أشرنا إليها ، ثم ما لاحظناه من تقوية الجمل ، وتقرير بعضها لمعانى بعض ، سواء أكان ذلك ناشئاً من فصل الجُمَل أو وصلها ، أو كان ناشئاً من تقديم بعض أجزائها على بعض ، وغير ذلك مما أفضنا القول فيه ، أقول : إن هذه المؤكدات كانت لتقرير المعانى ، وبثها فى سويداء القلوب ، وهذه خصوصية من خصائص القرآن ، ومنهج من مناهج بيانه ، فليست غاية القرآن أن يُعلّمنا الحقيقة ، وإنما الغاية أن يقنعنا بها ، وأن يقررها فى أعماق نفوسنا . تأمل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْىِ ﴾ (١) ، تجد أن هذا الكلام يدخل بعضه فى بعض ،

(١) النحل : ٩٠

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

فالأمر بالإحسان داخل فى الأمر بالعدل ، وإيتاء ذى القربى ، ضرب من الإحسان الذى هو ضرب من العدل ، والنهى عن الفحشاء يتضمن النهى عن المنكر ، وكلاهما يتضمن النهى عن البغى ، كما أن الأمر بالعدل نهى عن البغى ، ونهى عن الفحشاء والمنكر ، وكان يمكن أن يدل على ذلك كله بقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ ﴾ ، ولكن مقامات الذكر الحكيم مقامات تهذيب وصقل ، وغرس منابت الخير والفضيلة فى نفس الإنسان ، ومطاردة أشباح الرذيلة ، ودوافع الشر وخواطر السوء ، فاقتضت أمثال هذه المقامات ضروباً من التوكيد والتقرير ، وهذه الآيات التى نتحدث عنها وندرسها فى سورة الأحزاب تهدم خُلُقاً من أخلاقهم ، وتنسخ لوناً من ألوان حياتهم ، فجاءت الآيات الأولى يصحبها شىء من الحسم المهىْ اللافت ، ثم جاءت الآيات التالية : ﴿ مَا جَعَلَ . . . ﴾ فى هذه الرصانة وهذه القوة ، وقد أدرك العلامة الطيبى مواطن التأثير فى هذه الآيات بشفافية المتذوق ، وإصغاء المتأمل وهو من خير مَنْ درسوا البلاغة القرآنية ، ولفتوا إلى شىء من أسرارها ، يقول : « إن الاستهلال بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ اتَّقِ اللهَ ﴾ دال على أن الخطاب مشتمل على التنبيه على أمر معتنى بشأنه ، لائح فيه معنى التهيج والإلهاب ، ومن ثَمَّ عطف عليه : ﴿ وَلَا تُطِعِ ﴾ كما يعطف الخاص على العام ، وأردف النهى بالأمر ، على نحو قولك : « لا تطع مَن يخذلك ، واتبع ناصرك » ، ولا يبعد أن يُسمَى بالطرد والعكس ، ثم أمر بالتوكل تشجيعاً على مخالفة أعداء الدين ، والالتجاء إلى جلال الله تعالى ، ليكفيه شرورهم ، ثم عقب سبحانه كلا من تلك الأوامر على سبيل التتميم والتذييل بما يطابقه ، وعلّل قوله : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ تتميماً للارتداع ، أى اتق الله فيما تأتى وتَذَر فى سرك وعلانيتك ، لأنه تعالى عليم بالأحوال كلها ، يجب أن يُحْذَر من سخطه ، حكيم لا يحب متابعة حبيبه أعداءه ، وعلّل قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

تتميماً أيضاً ، أى اتبع الحق ولا تتبع أهواءهم الباطلة ، وآراءهم الزائفة ، لأن الله تعالى يعلم عملك وعملهم ، فيكافىء كلا ما يستحق ، وذَيَّل سبحانه وتعالى قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ بقوله تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ ، تقريراً ، وتوكيداً على منوال : « فلان ينطق الحق والحق أبلج » ، يعنى من حق مَنْ يكون كافياً لكل الأمور أن تُفوَّض الأمور إليه ويُتوكَّل عليه ، وفصل قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ ﴾ على سبيل الاستئناف ، تنبيهاً على بعض من أباطيلهم وتمحلاتهم ، وقوله : ﴿ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ ﴾ ... إلى آخره ، فذلكة لتلك الأقوال ، آذنت بأنها جديرة بأن يُحكم عليها بالبطلان ، وحقيق بأن يُذَمَّ قائلها ، فضلاً عن أن يُطَاع ، ثم وصل تعالى : ﴿ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ ﴾ .... إلخ على هذه الفذلكة بجامع التضاد على منوال ما سبق فى « لا تطع » ، و« اتبع » ، وفصل قوله تعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ ﴾ ، وقوله : « النبى » ، وهلم جراً إلى آخر السورة تفصيلاً لقول الحق والاهتداء إلى السبيل القويم » .. انتهى كلامه رحمه الله ، وإنما أطلت فى الاقتباس لأنه من الكلام الذى يُراجَع ويُرْجَع إليه .

أجمع المفسرون على أن آية نفى التبنى نزلت فى شأن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ، وقد روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن زيد بن حارثة ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ ﴾ فقال النبى ﷺ : « أنت زيد بن حارثة بن شراحيل » .

وزيد بن حارثة هو الصحابى الجليل الذى كان أول مَن أسلم بعد علىّ ابن أبى طالب ، كان غلاماً حَدَثاً فى أخواله من بنى معن من طيئ ، وكان العرب فى جاهليتهم يتغاورون ويتناهبون ، فأُسِرَ زيد فى نهب من طيئ ، ثم اشتراه حكيم بن حزام من سوق عكاظ لعمته خديجة بنت خويلد ، وكانت قد أوصته أن يبتاع لها غلاماً ظريفاً عربياً ، إن قدر عليه ، فلما وجد زيداً يُباع أعجبه ظرفه ، فابتاعه ، فلما رأته خديجة أعجبها ، فلما تزوجت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبه النبى واستوهبه خديجة ، فوهبته إياه ، وعاش فى

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

كنف رسول الله قبل البعثة يرقب أخلاق محمد بن عبد الله الرجل القرشى الهاشمى ، ويُفْتَنُ بشمائله ، وتزيده الأيام حباً له واستمساكاً به ، وكان حارثة شريفاً فى قومه ، فَجزِعَ على ولده أشد الجزع ، واتفق أن خرج زيد فى إبل لأبى طالب بأرض الشام فمر بأرض قومه فعرفه عمه ، فقام إليه وقال له : مَنْ أنت يا غلام ، فقال زيد : غلام من أهل مكة ، فقال عمه : من أنفسهم ؟ قال : لا ، قال : فَحرٌ أنت أم مملوك ؟ قال : بل مملوك ، قال : لمن ؟ قال : لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، قال عمه : أعربى أنت أم عجمى ؟ قال زيد : عربى ، قال عمه : مَن أصلك ؟ قال زيد : من كلب ، قال عمه : من أى كلب ؟ قال : من بنى عبد وُدّ ، قال عمه : ويحك ، ابن مَن أنت ؟ قال : ابن حارثة بن شراحيل ، قال عمه : وأين أُصبت ؟ قال : فى أخوالى ، قال عمه : ومَن أخوالك ؟ قال زيد : طيئ ، قال : ما اسم أُمك ؟ قال : سُعْدى ، فالتزمه ، وقال : ابن حارثة ، ودعا أباه ، فقال : يا حارثة ؛ هذا ابنك ، فأتاه حارثة ، فلما نظر إليه عرفه وقال : كيف صنع مولاك إليك ؟ قال زيد : يؤثرنى على أهله وولده ، فركب معه أبوه وعمه وأخوه حتى قدموا مكة ، فقال حارثة لمحمد بن عبد الله - ولم يكن نبياً آنذاك - : يابن عبد المطلب ، ويابن سيد قومه ، أنتم جيران الله ، تفكون العانى ، وتُطعمون الجائع ، وقد جئتك بابننا فتُحسن إلينا فى فدائه ، فقال محمد بن عبد الله الرجل القرشى الذى لم يُبعث نبياً بعد : « أعطيكم خيراً من ذلك » ، قالوا : وما هو ؟ قال : « أدعوه وخيِّروه » ، فإن اختاركما فذاك ، وخذوه بغير فداء ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على مَن اختارنى أحداً » ، فهتف العم والوالد : قد زدت على النصفة ، فدعا محمد بن عبد الله زيداً وقال : « يا زيد ؛ أتعرف هؤلاء » ؟ قال : نعم ، هذا أبى وعمى وأخى ، فقال محمد بن عبد الله : « فهم مَن قد عرفتهم ، فإن اخترتهم فاذهب معهم ، وإن اخترتنى فأنا مَن تعلم » ، فقال زيد : ما أنا بمختار عليك أحداً ، فقال حارثة لولده : أتختار العبودية على أبيك وأُمك وبلدك وقومك ؟ فقال زيد : إنى قد رأيت من هذا

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الرجل شيئاً ، وما أنا بالذى أفارقه أبداً ، فلما سمع محمد مقالته ورأى حرصه عليه أخذ بيده وأشهد الملأ من قريش وقال : « اشهدوا أنه حر وأنه ابنى يرثنى وأرثه » ، فطابت نفس أبيه وعمه ، وظل زيد يدعى زيد بن محمد حتى نزلت هذه الآية (وسوف نذكر زيداً حين نذكر قصة زواج الرسول عليه السلام من زينب بنت جحش ، وهذه هى مناسبة النزول ، وهذه خلاصة قصة زيد) .

* * *

﴿ النَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ، وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفاً ، كَانَ ذَٰلِكَ فِى الْكِتَابِ مَسْطُوراً * وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً * لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ، وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ (الآيات : ٦ - ٨) .

* *

﴿ أَوْلَىٰ ﴾ : يقال : فلان أولى بكذا ، أى أحرى به ومنه : ﴿ النَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، أى أحق وأقرب إليهم ، أو أشد ولاية ونُصرة لهم ، ومثله : ﴿ إِنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ .

﴿ الأَرْحَامِ ﴾ : جمع رحم ، وقالوا : امرأة رحوم أى تشتكى رحمها ، وقالوا فى الاستعطاف : أَنشدك الله والرحمَ ، وفى الدعاء : وصلتك رحم ، وتُطلق الرحم على القرابة إطلاقاً مجازياً ، لأن الرحم سبب القرابة فهو من المجاز المرسل ، وأصل الرحم من الرحمة ومعناها العطف والحنو ، وسميت الرحم رحماً لانعطافها على ما فيها .

---

(١) آل عمران : ٦٨

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

﴿ الكِتَاب ﴾ : الكتاب ضم الحروف بعضها إلى بعض ، ويُطلق الكتاب على الحروف المضموم بعضها إلى بعض إطلاقاً مجازياً بعلاقة المجاورة ، وهو من المجاز الذى اشتُهِر حتى نُسِى أصله وأُلحِق بالحقائق ، وقالوا : كتب السقاء أى ضم أديمه بعضه إلى بعض ، وكتب الناقة يكتبها ويكتبها - بالفتح والضم - أى خرم منخريها ، والكتاب مصدر كتب ثم استعمل فى الصحيفة لأنها مكتوب فيها ، وعليه قوله : ﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ (١) ، يعنى صحيفة فيها كتابه ، وهو من تسمية المحل باسم الحال ، وذلك مجاز مرسل ، ولكنه نُسِى وصار الكتاب حقيقة فى الصحيفة التى فيها كتابة ، وتُستعمل الكتابة فى الأحوال التى تسبقها عادة ، كقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى ﴾ (٢) أى قدَّر ، والتقدير سابق على الكتابة ، وقال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾ (٣) ، أى فرضنا ، وهذا من المجاز المرسل وعلاقته السببية .

﴿ مَسْطُوراً ﴾ : السطر - بالفتح وبالسكون - الصف من الكتابة ، ومن الشجر : المغروس ، ومن القوم : الوقوف ، وسطر فلان كذا : كتبه سطراً سطراً ، قال تعالى : ﴿ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (٤) ، ومنه : ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِى الْكِتَابِ مَسْطُوراً ﴾ (٥) ، والأساطير جمع أسطورة وأسطور ، وهو ما سطروه من أحاديثهم العجيبة ، ومنه قولهم فى القرآن : ﴿ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ (٦) أى شىء كتبوه كذباً ومَيْناً ، وقال الراغب : سيطر فلان على كذا ، إذا أقام عليه قيام سطر ، والسيطرة : التسلط وكأن المتسلط قائم كالسطر ، ولهذا قالوا : لست عليهم بقائم ، كما قال تعالى : ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ (٧) .

« أخذ » : الأخذ حوزة الشىء وتحصيله ، ويكون بالتناول كقوله تعالى :

---

(١) النساء : ١٥٣ (٢) المجادلة : ٢١ (٣) المائدة : ٤٥
(٤) القلم : ١ (٥) الإسراء : ٥٨ ، والأحزاب : ٦
(٦) الفرقان : ٥ ، والقلم : ١٥ ، والمطففين : ١٣ (٧) الغاشية : ٢٢

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

﴿ مَعاذَ اللهِ أن نَّأخُذَ إلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴾ (١) ، ويكون بالقهر والشدة كقولنا : فلان أخذته الحُمَّى ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ ﴾ (٣) .

« الميثاق » : أوثقته : شددته بالوَثاق ، والوِثاق - بالفتح والكسر - اسم لما يُشَد به الشيء ، قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوَثَاقَ ﴾ (٤) ، ووثقته توثيقاً : أحكمته ، ووثقت به ثقة : سكنت إليه واعتمدت عليه ، والوثقى : تأنيث الأوثق ، والميثاق : عقد مؤكد بيمين وعهد ، قالوا : بيننا موثق وميثاق . وقال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِّنَ اللهِ ﴾ (٥) أى ميثاقاً ، وقال : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ﴾ (٦) .

« الغلظة » - بالكسر والفتح والضم - ضدد الرقة ، يقال : غلظ - ككرم ، وغلظ - كضرب - فهو غليظ ، وأصله أن يُستعمل فى الأجسام ، يقال : ثوب غليظ ، واستغلظ الزرع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ ﴾ (٧) ، ويُستعمل فى المعانى على سبيل المجاز ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ (٨) .

« الصادقين » : الصدق ضد الكذب ، وصدقت فلاناً ، وأصدقته : نسبته إلى الصدق ، أو وجدته صادقاً ، ويقال : صدق فى القتال ، إذا وفاه حقه ، وفعل ما يجب ، وكذب فى القتال إذا كان بخلاف ذلك ، قال تعالى : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ﴾ (٩) أى حققوا العهد بما أظهروه من أفعالهم ، وقوله : ﴿ لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ (١٠) أى يسأل مَنْ

---

(١) يوسف : ٧٩ (٢) هود : ٦٧ (٣) النازعات : ٢٥
(٤) محمد : ٤ (٥) يوسف : ٦٦ (٦) الأحزاب : ٧
(٧) الفتح : ٢٩ (٨) الأحزاب : ٧ (٩) الأحزاب : ٢٣
(١٠) الأحزاب : ٨

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

صدق بلسانه عن صدق فعله ، منبهاً على أنه لا يكفى الاعتراف بالحق دون إردافه بالفعل ، وعلى ذلك قوله : ﴿ وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ (١) .

﴿ وأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ : الإعداد من العد الذى هو ضم الأعداد بعضها إلى بعض ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً ﴾ (٢) ، فإذا قلت : أعددتُ هذا لك ، كأنك قلت : جعلته بحيث تعده ، وتتناوله بحسب حاجتك إليه ، كما تقول : عددتُ لك الدراهم ، وأعددتها ، وتفرع الأعداد من العد من لطائف المعانى ، التى تلحظها إذا أحسنت التدبر كقوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم ﴾ (٣) أى جهزوا لهم أدوات الحرب ، واجعلوها مهيأة ، وكأنها أشياء قد فرغ من عدها ، وضمها ، وتجهيزها ، وقوله : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٤) أى اكتملت ضروب العذاب ، وألوان الشقاوة فيها ، وضُمَّ بعضها إلى بعض ، فصارت مهيأة لهم كالمائدة المعدودة فى انتظارها الآكلة الكرام ، ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّات ﴾ (٥) أى جمع لهم فيها أصناف النعم ، وهيأها لهم تكريماً لمقامهم وتشريفاً لنزلهم .

« العذاب » : هو الإيجاع الشديد ، واختُلف فى أصله ، فقيل : هو من قولهم : عذب الرجل - كضرب - إذا ترك المأكل والنوم فهو عاذب ، فالتعذيب فى الأصل هو حمل الإنسان على أن يُعذَّب ، أى يجوع ويسهر ، وقيل : أصله من العذب ، وعذَّبه أى أزال عذب حياته ، كمرَّضه أى أزال مرضه ، وقيل : أصل التعذيب إكثار الضرب بعذبة السَّوْط أى طرفها .

* *

﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا ﴾ : ﴿ أُولُوا الأَرْحَامِ ﴾ مبتدأ ، و﴿ بَعْضُهُمْ ﴾

(١) الزمر : ٣٣ (٢) مريم : ٩٤ (٣) الأنفال : ٦٠
(٤) البقرة : ٢٤ (٥) التوبة : ١٠٠

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

مبتدأ ثان و﴿ أَوْلَىٰ ﴾ خبر المبتدأ الثانى ، والجملة من المبتدأ الثانى وخبره خبر المبتدأ الأول ، وقيل : ﴿ بَعْضُهُمْ ﴾ بدل من المبتدأ ، والخبر ﴿ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ وأرجِّح الأول ، لأن الإخبار بالجملة الإسمية يفيد الكلام قوة وتوكيداً ، ولأن المعنى حينئذ الإخبار عن أولى الأرحام بأن ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ ، وفرق بين هذا ، وبين الإخبار عن بعض أولى الأرحام بأولى من بعض ، فالمحكوم عليه فى الأول ﴿ أُوْلُوا الْأَرْحَامِ ﴾ ، والمحكوم به ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ ، والمحكوم عليه فى الثانى ﴿ بَعْضُهُمْ ﴾ ، والمحكوم به ﴿ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ ، وهذه فروق دقيقة فى وجوه الإعراب . . وقوله : ﴿ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ يجوز أن يكون متعلقاً بـ ﴿ أَوْلَىٰ ﴾ لأن افعل التفضيل يعمل فى الظرف لا يجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف حال من الضمير من ﴿ أُوْلُوا ﴾ ، كما قال أبو البقاء فى إعراب القرآن ، وذلك للفصل بالخبر ، ولعدم وجود العامل ، وقوله : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ : « من » فيها هى « من » الجارة الداخلة على المفضل عليه ، فى قولك : محمد أكرم من علىّ ، والمعنى حينئذ : وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى الميراث من المؤمنين والمهاجرين ، وكان المؤمنون يتوارثون بحق الدين ، وكان المهاجرون يتوارثون بحق الهجرة ، فنُسِخ هذا بهذه الآية ، وقال الزمخشرى : إن « من » الداخلة على قوله : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ لبيان أُولى الأرحام ، أى : وأولوا الأرحام من الأقرباء من هؤلاء بعضهم أولى ببعض فى الإرث ، وقوله : ﴿ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ﴾ مستثنى ، وقيل : الاستثناء متصل ، والمستثنى منه هو النفع العام الذى يدل عليه إطلاق الأولوية ، وعدم تقييدها بالميراث ، أى : أُولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كل نفع من ميراث ، وصدقة ، وهدية ، ونحو ذلك ، إلا فعل المعروف للأولياء ، والمراد بالمعروف هنا : الوصية ، وهى ضرب من النفع ، ولا تكون الوصية لوارث ، فالأولياء الأجانب أحق بالمعروف من أُولى الأرحام المتوارثين ، وقيل : الاستثناء منقطع ، وذلك بناء على تخصيص الأولوية بالميراث ؛ فيكون

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الاستثناء من خلاف الجنس المدلول عليه بفحوى الكلام ؛ لأن الوصية التى هى المعروف المستثنى ليست من الميراث الذى قُيِّدت به الأولوية ، وحينئذ تكون « إلا » بمعنى « لكن » ، وكأنه قيل : لا تُوَرِّثوا غير أُولى الأرحام ، لكن فعلكم إلى أوليائكم من المؤمنين والمهاجرين الأجانب معروفاً ، وهو أن توصوا لمن أحببتم منهم بشىء جائز ، فيكون ذلك له بالوصية لا بالميراث ، وقيل : المراد بالأولياء الأقارب من غير المسلمين ، وعدى « تفعلوا » بـ « إلى » لتضمنه معنى الإيصال ، وقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ﴾ : منصوب بفعل محذوف تقديره : اذكر إذ أخذنا ، و« إذ » هنا مفعول ولا يصح أن تكون ظرفاً ؛ لأن المراد ذكر وقت الأخذ لا الذكر فى وقت الأخذ ، ونقل صاحب حاشية الجمل عن بعضهم : أنه يجوز أن يكون قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ﴾ معطوفاً على محل الكتاب ، ويكون ﴿ مَسْطُوراً ﴾ عاملاً فيه ، أى كان هذا الحكم مسطوراً فى الكتاب ووقت أخذنا ، وقد تفضل تقدير « اذكر » لأن المراد التذكير بالميثاق المأخوذ على الأنبياء ، ليفرع على ذلك سؤال الصادقين عن صدقهم ، والوجه الذى ذكره الشيخ الجمل بجعل الآية كأنها جاءت استطراداً ، وقوله : ﴿ لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ ﴾ متعلق بمضمر مستأنف سيق لبيان علِّة الأخذ المذكور ، وغايته ، أىَ فعل الله تعالى ذلك ليسأل ، وقيل : متعلق بـ « أخذنا » ، أى أخذنا من النبيين ميثاقهم ليسأل ، فيكون السؤال متعلقاً بالأخذ ، فهو من توابعه ، واعترض على هذا الوجه بأن المقصود بيان علِّة أخذ الميثاق بياناً قصدياً مستقلاً ، لأهمية هذه العلّة ، ولذلك جاء العدول فيها من التكلم إلى الغيبة فى ﴿ لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، فلا يصح أن يكون تابعاً للأخذ ، والأولى أن يكون متعلقاً بمحذوف مستأنف ، هو علّة الأخذ ، أى فعل ذلك ليسأل ، وهذه دقيقة وأساس الفرق فيها الاهتمام بالعلّة ، وإبرازها مستقلة غير تابعة .

قوله : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ : قلنا فى آية إبطال التبنى : إن المفسرين أجمعوا على أنها نزلت فى زيد بن حارثة ، وأنه كان يدعى زيد ابن محمد ، فنزلت الآيات السابقات تمحق هذا وتبطله ، ولحظنا فيها عناصر

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

القوة والإثارة والتوكيد ، وأن هذا الادعاء قول زور ، وباطل ، لا يتجاوز الأفواه ، وقد جاءت هذه الجملة مستأنفة لبيان مكانة محمد عليه الصلاة والسلام من هذه الأمة التى رفض القرآن أن يقال لرجل من رجالها : زيد ابن محمد ، فأشارت إلى أنه أولى بهم من أنفسهم ، وأن أزواجه أمهاتهم ، فإذا كان القرآن قد أبطل أن يقال : زيد بن محمد ، فقد جاء بأبوة محمد لأمته كلها ، وبأمومة نسائه لكل رجالها ، وإنما كان ذلك الإبطال لأن الأبوة فى التبنى إهدار لكرامة المتبنى ، أما أبوة المصطفى لأمته ، فذلك تشريف لها وتكريم ، وقد جاءت آيات إبطال التبنى فى أمر زيد ؛ لأن ذلك أبلغ فى إبطال هذه الظاهرة فى حياة القوم ، فإذا كان القرآن قد أنكر بقوة أن يقال : زيد ابن محمد ، فأولى أن ينكر هذه الأبوة المدعاة بالنسبة لغير محمد ، قلت : كان الكلام السابق قد أثار تساؤلاً عن منزلة محمد من أمته ، فجاءت هذه الآية تجيب وتوضح هذه المكانة ، ويؤنسنى فيما ذهبت إليه أن الآية كانت تُقرأ أولاً : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبٌ لهم » ، فقد أخرج الحاكم وابن مردويه والبيهقى فى سُننه عن ابن عباس أنه كان يقرأ : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبٌ لهم وأزواجه أمهاتهم » ، وأخرج ابن أبى حاتم عن عِكرمة أنه قال : كان فى الحرف الأول : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبوهم » ، وفى مصحف أُبَىّ رضى الله عنه كما روى ابن المنذر وغيره : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أبٌ لهم » .

وقوله : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ والمناسبة بين الآيتين ظاهرة ، ونذكر دائماً أن الوصل يقتضى ألا يكون بينهما غاية الاتصال ، ولا غاية الانفصال ؛ لأنه فى الأول يكون عطف الشئ على نفسه ، وفى الثانى يكون جمعاً بين متغايرين لا مناسبة بينهما ؛ لهذا كان الوصل فى اصطلاح البلاغيين للتوسط بين الكمالين كما قلنا ، وفى قوله : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ تشبيه بليغ حُذف فيه وجه الشبه وأداته ، والأصل : وأزواجه كأمهاتهم ، فى استحقاق التعظيم ، والإجلال ، وفى حُرْمة النكاح ، ولهذا لم يكن نساء النبى أمهات للمؤمنات ، لأن وجه الشبه

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الذى هو حُرْمة النكاح لا يتأتى مع المؤمنات ، وهذا لا ينافى استحقاق التعظيم لهن من المؤمنات ، قالت عائشة رضى الله عنها لامرأة قالت لها يا أمه : « أنا أم رجالكم ، لا أم نسائكم » أخرجه ابن سعد وابن المنذر والبيهقى فى سننه ؛ ولأن الأمر فى الآية على التشبيه ، لم يكن أزواج النبى كالأمهات فى جواز الخلوة بهن ، والنظر إليهن ، وإنما كُنَّ فى ذلك كالأجنبيات ، وقوله : ﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللهِ ﴾ موصول بقوله : ﴿ النَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ ووجه الوصل أن آية « أُولى الأرحام » تقرر الميراث ، والنفع الدنيوى ، من وصية ، وهدية ، وغيرها بين أُولى القرابات الذين يشملون العصبة ، فالصلات بينهم صلات رحم ودم ، والأولوية بينهم فى النفع العام ، أو فى الميراث كما ذكرنا فى أوجه الإعراب ، والصلات فى آية : ﴿ النَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ صلات الدين والعقيدة ، والأخوة هناك أخوة فى الله وفى الإيمان بما جاء به النبى ﷺ ، والأولوية التى كانت للنبى أولوية فى نُصْرة الحق والدين وليست أولوية فى نفع مادى ، روى البخارى وغيره عن أبى هريرة قال : قال صلى الله عليه وسلم « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة ، اقرءوا إن شئتم : ﴿ النَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته ، مَن كانوا ، فإن ترك دَيْناً أو ضَيَاعاً ، فليأتنى فأنا مولاه » ، فكان الآية الأولى تبين حظوظ المؤمنين من بيت النبوة ، فالنبى أبوهم ، وأزواجه أمهاتهم ، والأبناء يرثون الآباء والأمهات ، والموروث فى هذا البيت هو الدين ، والقرآن ، الذى يظل بمقتضى هذا التوارث يتجدد فى أجيال هذه الأمة ، أو فى الصفوة المختارة من أجيالها ، والموروث فى الآية الأخرى هو متاع الآباء ، والأمهات ، وما حطبوه من هذه الدنيا ، هو شىء يفنى ولا يبقى ، وهذا ضرب من التقابل بين الآيتين بين ميراثنا من نبينا وميراثنا من آبائنا ، لنتأمل الحالين ، وليمضى كل منا فى أمر نفسه على بيِّنة ، فهذا ينصرف إلى ميراثه من نبيه ، يطوف العمر كله حول نبعه الرقراق ، وكلما ورد ازداد شوقاً ، وكلما نهل

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ازداد نوراً ، وازداد قُرباً ، وهذا مشغول بميراثه من آبائه مشغول بماله ومتاعه ، وحبَّذا الذى يصون الميراثين . وقال : « المؤمنين » ، ولم يقل : « المسلمين » ؛ لأن المؤمنين هم الذين ذاقوا حلاوة الحق الذى جاء به النبى عليه الصلاة والسلام ، فهم أولى بهذا الميراث ، وهم أهل لأن يظل الدين متوارثاً بينهم فى حفظ ونقاء ، وقوله : ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِى الْكِتَابِ مَسْطُوراً ﴾ : أى فى اللوح المحفوظ ، أو فى القرآن ، مسطوراً : أى مثبتاً فى سطور ، وفى تسمية القرآن « كتاباً » إشارة إلى وجوب حفظه مكتوباً ، وفى تسميته « قرآناً » إشارة إلى وجوب حفظه مقروءاً ، والقرآن : فُعْلان مصدر كالغفران ، تقول : قرأته قراءة وقرآنا ، بمعنى تلوته تلاوة . يقول الشيخ عبد الله دراز - أكرم الله مقامه عنده - : روعى فى تسميته قرآناً كونه متلواً بالألسن ، كما روعى فى تسميته كتاباً كونه مدوَّناً بالأقلام ، فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه ، وفى تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه فى موضعين ، لا فى موضع واحد ، أعنى أنه يجب حفظه فى الصدور ، والسطور جميعاً ، أن تضل إحداهما فتُذَكِّر إحداهما الأخرى ، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المُجْمَع عليه من الأصحاب ، المنقول إلينا جيلاً بعد جيل ، على هيئته التى وُضِعَ عليها أول مرة ، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب ، حتى يوافق ما هو عند الحُفَّاظ بالإسناد الصحيح المتواتر ، وبهذه العناية المزدوجة التى بعثها الله فى نفوس الأمة المحمدية اقتداءً بنبيها بقى القرآن محفوظاً فى حرز حريز ، إنجازاً لوعد الله الذى تكفَّل بحفظه ، حيث يقول : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) ، ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف ، والتبديل ، وانقطاع السند ، حيث لم يتكفل الله بحفظها ، بل وكَلَهَا إلى حفظ الناس ، فقال تعالى : ﴿ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ ﴾ (٢) : أى بما طُلِبَ إليهم حفظه ، والسر فى هذه التفرقة ، أن سائر الكتب السماوية جىء بها على التوقيت لا التأبيد ،

(١) الحجر : ٩ (٢) المائدة : ٤٤

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وأن هذا القرآن جيء به مُصَدِّقاً لما بين يديه من الكتب ، ومهيمناً عليه ، فكان جامعاً لما فيها من الحقائق الثابتة ، زائد عليها بما شاء الله زيادته ، وكان ساداً مسدها ولم يكن شيء منها ليسد مسده ، فقضى الله أن يبقى حُجَّة إلى قيام الساعة ، وإذا قضى الله أمراً يسَّر له أسبابه وهو الحكيم العليم .

وقد فصل قوله : ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً ﴾ عما قبله ، لأنه توكيد له فهو متصل به أتم اتصال ؛ لأنه بيان لمصدر هذا التشريع السابق ، ومثال ذلك أن تقول : إن بعض النحاة يجيز عطف الإنشاء على الخبر ، وقد نقل عن سيبويه ، أنه أجاز : جاء زيد ومن بعده عمرو ؟ وقد قال البلاغيون : إنه يجوز عطف الخبر على الإنشاء فيما له محل من الإعراب ، مثل : قلت حسبى الله ونعم الوكيل ، فقد عطفوا جملة الإنشاء التى هى « نعم الوكيل » على الخبر التى هى « حسبى الله » ، لأن للأولى محلاً من الإعراب ، وقد رفض ابن هشام هذا العطف ، وأنكر مثال سيبويه ، وقال : إن نسبة تجويزه إليه غلط ، قرأت ذلك فى حاشية الإنبابى ، فقد فصلت جملة « قرأت ذلك » عن الكلام السابق لأنها بيان لمصدره فهى توثيق له ، وتأكيد . وقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ﴾ معطوف على الكلام السابق عطف القصة على القصة ، وعطف القصة على القصة يعنى عطف مضمون كلام على مضمون كلام آخر ، ولا يُشترط فى هذا النوع التناسب بين أجزاء الكلامين ، وإنما يُشترط التناسب بين مضمون الكلامين ، أى لا بد من مناسبة بين معنى الكلام المعطوف ومعنى الكلام المعطوف عليه ، وهذا باب جليل من أبواب الفصل والوصل ، وبيان ذلك فى هذه الآيات أنك تلاحظ أن المعطوف هو أخذ الميثاق على النبيين بتبليغ الشرائع ، والمعطوف عليه هو من أول قوله : ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ ﴾ أى من أول تفصيل القول فيما يوحى إليك من ربك ، وإذا ذهبت تبحث عن المناسبة بين أجزاء الكلام كما تعودت أن تبحث عنها بين المسند إليه والمسند ، ومتعلقاته ، فى الجملتين المتعاطفتين ، لأعياك ذلك ، ولم تجده ، ولكنك حين تبحث عن المناسبة بين معنى الآيات

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

السابقة التى تدور حول إبطال أعراف كانت فى حياة القوم ، فأبطلها الوحى ، وأقام أحكامه فى التوارث والوصية ، وبين معنى آيات أخذ الميثاق التى تذكر العهد الذى أخذه الله على الأنبياء بضرورة تبليغ هذه الشرائع ، أقول : حين تبحث عن المناسبة بين مضامين الآيات ستجدها بادية لك ، هناك مناسبة بين تبليغ هذه الشرائع فى صورة إبطال الظِّهَار والتبنى ، وإقامة المواريث ، وبين التذكير بعهد تبليغها ، وهذا القدر من المناسبة يكفى لصحة عطف القصة على القصة ، ومثل ذلك فى الشعر قول إسحاق بن خلف :

لَوْلا أُمَيْمَةُ لَمْ أجْـزَعْ مِنَ الْعَـــدَمِ ... ولَـمْ أُقَاسِ الدُّجَى فِى حِنْدِسِ الظُّلَمِ
وَزَادَنِى رَغْبَةً فِى الْعَيْــشِ مَعْرِفَـتِى ... ذُلَّ الْيَتِيمَةِ يَجْفُــوهَا ذَوُو الرَّحِـــمِ

قال الأستاذ الشيخ سليمان نوَّار - طيَّب الله ثراه : « يصعب عليك إيجاد المناسبة بين المعطوف عليه والمعطوف فى نفس أسلوب البيتين ، ولكن إذا لاحظت مضمون البيت الأول هكذا : لإشفاقى على أميمة أجزع من العدم ، وأقاسى الدُّجَى فى حندس الظلم ، وجعلت مضمون الثانى : ولخوفى أن تعيش ذليلة أزداد رغبة فى العيش ، رأيت المناسبة بينه وبين العطف صحيحاً وقوياً » .

والمراد بـ « القصة » فى قولنا : هو من عطف القصة على القصة معنى الكلام ومفهومه ، ليست القصة ذات الأحداث ، والأشخاص . وقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ﴾ فيه أن هذا الميثاق كأنه شىء يُؤخذ ويتناول ، وأن الله هو الذى يأخذه ، فوجب على مَن يعطى لله عهداً أن يرعى هذا العهد ، إجلالاً لعظمة الآخذ ، وتقديراً لهذا العهد الذى صار كائناً فى حضرة الرحمن . وقوله : ﴿ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ . . ﴾ عطف على ﴿ النَّبِيِّينَ ﴾ وهم من جملتهم من باب عطف الخاص على العام ، وذلك تنويهاً بمكانتهم فهم أُولوا العزم من الرسل ، وهم مشاهير الأنبياء ، وأرباب الشرائع ، وقدَّم نبينا عليه السلام مع أنه آخرهم تشريفاً وتكريماً ، قال

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الزمخشرى : فإن قلت : فقد قدَّم عليه نوح عليه السلام فى الآية التى هى أخت هذه ، وهى قوله : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ (١) ثم قُدِّم على غيره ، قلت : مورد هذه الآية على طريقة خلاف طريقة تلك ! وذلك أن الله تعالى إنما أوردها لوصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة ، فكأنه قال : شرع لكم الدين الأصيل الذى بُعث عليه نوح فى العهد القديم ، وبُعث عليه محمد خاتم الأنبياء فى العهد الحديث ، وبُعث عليه مَن توسَّط بينهما من الأنبياء المشاهير ، وكرر قوله : ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ لتأكيد الكلام وتقريره وعطف الثانى على الأول ، وإن كان الميثاق هنا هو الميثاق هناك ، والأخذ هنا هو الأخذ هناك ، ليوهم أنه ميثاق آخر ، وكأن الميثاق لما وصف بأنه غليظ صار ميثاقاً آخر ، وذلك تفخيم لشأن الميثاق ، وتنويه به ، وعلى طريقته قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ (٢) ، فقد عطف قوله : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ على قوله : ﴿ نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ وإن كانت النجاة واحدة ، وذلك لأنه لما ذكر ما نجاهم منه كانت النجاة الثانية كأنها نجاة مختلفة عن الأولى ، فعطفها عليها تمييزاً لها وتفخيماً لشأنها ، والخلاصة أن نكتة الوصل فى هاتين الآيتين هو إيهام التغاير ، وإن كانت الحقيقة أن بين الكلامين كمال الاتصال الذى لا يأتى فيه العطف لأن الثانية لو حذفت منها الواو لكانت تأكيداً للأولى ، وقوله : ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ فيه وصف الميثاق الذى هو العهد الموثق والمؤكد بالغلظ ، وهو وصف الإجرام كما قلنا ، والوجه فى ذلك أنه شبَّه الميثاق بالحبل المتين من حيث أن كُلاً منهما يربط بين اثنين ، ثم حذف المشبَّه به وذكر وصفه على طريقة الاستعارة المكنية ، وقد خيلت هذه الاستعارة ميثاق الله وعهده لأنبيائه جسماً غليظاً ملموساً ، زيادة فى وضوحه

---

(١) الشورى : ١٣ (٢) هود : ٥٨

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وتشخيصه فى وجدان أممهم ، ليظل حاجزاً كثيفاً بينهم وبين كل باطل ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ (١) : أى عذاب بالغ فى الشدة ، ووصفه بما يوصف به المحسوس ، ليفيد أن هذا العذاب لضراوته كأنه شىء يُرَى بالعين ، ويُلمَس باليد ، وهذا ضرب من ضروب البيان الكاشف ، الذى نرى به المعانى المعقولة تبرز فى صور مُشاهَدة محسوسة ، وقوله : ﴿ لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ قلنا فيه : إن المسئول هو مَن صدَّق بلسانه ، ويُسئل عن صدقه أى عن فعله الصادق ، وقالوا : المراد بـ « الصادقين » : النبيون عليهم السلام ، ووضع قوله « الصادقين » موضع ضميرهم للإشارة إلى أنهم صادقون قبل أن يجيبوا ، وحين تسأل الصادق فهل تنتظر جواباً غير الصدق ؟ ويسألهم المولى عن صدقهم ، أى عن كلامهم الصادق الذى قالوه لأقوامهم ، والمراد بهذا السؤال هو تبكيت الكفرة الذين كذَّبوا الصادقين ، ورفضوا صدقهم ، أى قولهم الصادق ، واستعمال الصدق فى المقول الصادق فيه مبالغة فى وصف المقول بالصدق ، حتى كأن المقول هو حقيقة الصدق ، ويوصف كل فعل طيب فى ظاهره وباطنه بالصدق ، ويُضاف إليه ذلك الفعل الذى يوصف به ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (٢) أى عمل طيب ، فى ظاهره صدق ، وفى باطنه صدق ، وعبَّر عن العمل الطيب أو عن السابقة فى الخير بـ « القدم » لأن القدم آلته ، فهو مجاز مرسل ، وقوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ (٣) أى أدخلنى إدخالاً طيباً ، مرضياً فى ظاهره وباطنه ، وأخرجنى كذلك ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۞ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (٤) أى فى مقعد مرضى تطيب به نفوسهم كرامة وتقريباً عند مليك مبهم أمره فى القوة والاقتدار ، وقوله : ﴿ وَأَعَدَّ

(١) هود : ٥٨
(٢) يونس : ٢
(٣) الإسراء : ٨٠
(٤) القمر : ٥٤ - ٥٥

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ كلام موصول ، ولكننا لا نجد قبله كلاماً مناسباً له حتى يصح أن يوصل به ، تأمل الآيات : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ . . ﴾ . . . . إلخ ، سوف لا تجد هذه الجملة مسبوقة بما يناسبها ويصح عطفها عليه ، والباحثون فى مثل هذا يتكلفون وجوهاً من التخريج ، يجفو بعضها عن ذوق الفصاحة القرآنية ، فقد قالوا فى هذه الآية : إنها معطوفة على « ليسئل » بتأويلها بالمضارع ، ويُعترض على هذا بعدم وجود المناسبة وقالوا : إن « وأعد » جملة حالية بتقدير « قد » أو بدونه ، وقالوا : إنها معطوفة على مقدَّر دل عليه « ليسئل » كأنه قيل : فأثاب المؤمنين ، وأعد للكافرين ، وقيل : معطوف على « أخذنا » وهو عطف معنوى كأنه قيل : أكد الله تعالى على النبيين الدعوة إلى دينه ، لأجل إثابة المؤمنين وأعد للكافرين ، وأولى من كل ذلك ما ذكره الشهاب الخفاجى من أن فى الآية حذفين : حذف من الأول لدلالة الثانى عليه ، وحذف من الثانى لدلالة الأول عليه ؛ والأصل : ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد لهم ثواباً عظيماً ، ويسأل الكافرين عن كفرهم وأعد لهم عذاباً اليماً ، فقد حذف « وأعد لهم ثواباً عظيماً » لدلالة « وأعد للكافرين عذاباً اليماً » عليه ، وحذف « ليسأل الكافرين عن كفرهم » لدلالة « وليسأل الصادقين » عليه ، وهذا يسمى الاحتباك فى علم البديع ، وفيه ضرب من ضروب الإيجاز وغناء الكلام بعضه عن بعض .

* *

نلمح فى ضوء قوله تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أصلاً عاماً من أصول الإسلام ، وهو ضرورة أن يكون شرع الله فى نفوس المؤمنين فوق كل قيمة فى حياتهم ، فبه وحده يهتدون ، وعليه أولاً يحافظون ، فلا يكون المؤمن مؤمناً حقاً إلا إذا حفظ دينه قبل أن يحفظ نفسه ، وذاد عنه قبل أن يذود عن أهله ، فالدين فوق النفس ، وأولى أن يكون فوق المال ، وفوق الوطن ، وإذا هبطت منزلة الشرع فى نفوس أهله عن هذه المنزلة فقد سقط سلطانه ، وذهبت قداسته ، وفى الحديث : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وماله والناس أجمعين » ، قال سهل - قدَّس الله

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

سره : « مَن لم يرفع نفسه فى ملك الرسول ، ولم ير ولايته عليه فى جميع أحواله لم يذق حلاوة سُنَّته بحال » ، وإذا وجب أن يكون الشرع فى نفوس المؤمنين وفى حياتهم فوق كل قيمة ، فقد وجب أن يكون أتباعه فى حياتهم فوق آرائهم ، وفوق اجتهاداتهم وإن انخدعوا بها ، ولذلك كان اتباع الكتاب والسُّنَّة فوق اتباع الرأى والقياس عند أهل السُّنَّة والجماعة ؛ لأن ذلك هو معنى أن الرسول أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وفى ضوء هذا الأصل فقد وجب على المسلمين - وجوب عقيدة ودين - أن يطرحوا كل فكر وكل معتقد تقذف به إلى محيطهم الراكد أمواج العصر الهدَّارة ، من فلسفات مادية تحملها أمواج الشرق الملحد ، وقِيَم انحلالية يقذف بها الغرب الممزق ، وأن يلتفتوا إلى قرآنهم ، وأن يحسنوا تدبر شرعهم ففيه غناء لهم كل الغناء ، يقول المرحوم الأستاذ العقاد : « إن القرن العشرين منذ مطلعه بعد من العقيدة يعرض العقيدة على الإنسان ، وعلى الإنسانية ولا نعلم أنه عرض عليها حتى اليوم قديماً معاداً أو جديداً مبتدعاً هو أوفق من عقيدة القرآن » .

ويتفرع على أُبوة محمد وأُمومة نسائه أُخوة المؤمنين ، ولذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١) فأى تحالف وترابط يقوم بينهم فهو تحالف وترابط ؛ تدعمه أُخوة متحابة فى الله يبقى سببها إذا انقطع كل سبب ، وسرعان ما تتلاقى بين المسلمين مشاعر الحب والمودَّة والإخاء حتى يكون المجتمع الإسلامى كالجسد الواحد ، وليس أدخل فى باب التناقض ، ومخالفة الفطرة ، ومجافاة الشعور ، من هذه الصداقات التى تقوم بين دولة مسلمة ودولة غير مسلمة على حساب علاقتها بدولة من دول الإسلام ، وذلك باسم التفتح العصرى ، والتحذلق الكاذب فى ادعاء التبرئ من العصبية الدينية ، وقد جهل الناس أن الأُخوة فى الإسلام أصل من أُصوله ، وأن التعصب يكرهه الإسلام ويمقته ، وليس أدل على سماحة الإسلام من أنه

---

(١) الحجرات : ١٠

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

يجيز وصية المسلم من ماله لغير المسلم ، وقد حرَّم الوصية على كل وارث ، وكان ذلك فى الآية التى تتحدث عن أبوة محمد وأمومة نسائه لأمته ، وأترك ما يمكن أن يُفاد من هذه الآيات لاستشفافكم الروحى ، فإن عطاء القرآن إنما يكون بمقدار تهيىء الأرواح لتلقيه .

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً * إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِىَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ (الآيات : ٩ - ١١) .

* *

﴿ آمَنُوا ﴾ : أصل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف ، والأمن والأمان والأمانة والإيمان مصادر ، قالوا : هو فى أمن وأمان ، وبلغته مأمنه ، وتقول للخائف : لك الأمان ، وقالوا : فلان أمنة - كهمزة - : أى يأمن كل أحد ويثق به ويأمنه الناس ولا يخافون غائلته ، والإيمان يُستعمل تارة اسماً للشريعة التى جاء بها النبى ﷺ ويوصف به كل مَن دخل هذه الشريعة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ (١) أى الذين دخلوا شريعة محمد وصدَّقوا بها .

ويقال للعمل الصالح : إيمان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ (٢) .

قال بعض المفسِّرين : أى صلاتكم ، لأن الإيمان سبب الصلاة ، أو لأن الصلاة فى عُرْف الشرع جزء من الإيمان ، فالإيمان تصديق بالقلب وعمل

---

(١) البقرة : ٦٢ ، المائدة : ٦٩ ، الحج : ١٧ (٢) البقرة : ١٤٣

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

بالجوارح ، ومثله : « الحياء من الإيمان » ، وقد يُطلق الإيمان على التصديق فقط كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ (١) ، والتصديق الذى يسمى إيماناً هو تصديق مصحوب بالأمن ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ (٢) فيه ذم لهم وتهكم بهم ، وأنه قد حصل لهم الأمن بما لا يكون به الأمن ، إذ ليس من شأن القلوب التى أُوتيت الكتاب أن تطمئن إلى الباطل ، وهو فى معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً ﴾ (٣) .

﴿ اذْكُرُوا ﴾ : الذكر : الحفظ ، أى هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة ، ويُطلق الذكر على حضور الشىء القلب ، ومنه : « فلان ذاكر القلب » ، ويُطلق على حضور الشىء اللسان ، ومنه : « فلان ذاكر اللّسان » ، ويتفرع على الذكر - بمعنى حضور الشىء اللسان - الذكر بمعنى الشرف والصيت ، ومنه : « فلان له ذكر فى الناس » ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ (٤) وهذا من المجاز المرسل ، لأن الذكر كان بسبب الشرف ، أو كان لازماً له ، وقد يكون الذكر عن نسيان ، مثل « ذكره بعد نسيان » ، ومنه : ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ (٥) ، وقد يكون عن إدامة النظر ، مثل : « تدبَّر الأمر فذكره » أى قامت فى نفسه هيئته وصورته ، والذكرى : كثرة الذكر ، والتذكرة ما يُتذكر به الشىء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ (٦) ، وذكر الله : إحضار هيبته وجلاله القلوب حتى تكف عن المعاصى وتنهض إلى الطاعات .

« النعمة » : اسم هيئة - كالجلسة - وبالفتح اسم مرة - كالضربة - وهى الحالة الحسنة ، ولا يقال : « أنعم » إلا إذا كان المنعم عليه إنساناً ، فلا يقال :

---

(١) يوسف : ١٧ (٢) النساء : ٥١ (٣) النحل : ١٠٦
(٤) الزخرف : ٤٤ (٥) الكهف : ٦٣ (٦) المدثر : ٤٩

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

أنعم فلان على فرسه ، والنعيم : النعمة الكثيرة ، وجنَّات النعيم : هى الجنَّات كثيرة النعمة .

« الجنود » : جمع جند ، ويقال فى الجمع أيضاً : أجناد ، والجند : الأرض الغليظة التى فيها حجارة ، وقالوا للعسكر « جند » اعتباراً بالغلظة ، وقالوا لكل جمع جند ، والأرواح جنود مجنَّدة ، أى جموع مجتمعة ، ونظروا إلى هذه الآية فقالوا : الريح من جنود الله .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً ﴾ : الريح الهواء المتحرك وجمعه : رياح ، وقد استعمل المفرد فى القرآن الكريم فى سياق العذاب ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ﴾ (٢) ومنه هذه الآية ، فقد كانت الريح عذاباً للأحزاب وهزيمة لهم ، ولم يُذكر بلفظ الجمع فى القرآن إلا فى سياق الرحمة ، قال تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ (٣) ، وقالوا : من حكمة ذلك أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والهيئات والمنافع ، وإذا هاجت منها ريح أُثيرت لها من مقابلها ما يكسر سورتها فينشأ من بينها ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات فكانت من الرحمة رياحاً ؛ وأما فى العذاب فإنها تأتى من وجه واحد ولا معارض لها ولا دافع ؛ وقد جاء قوله تعالى فى سورة يونس : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ (٤) فأفرد الريح الطيبة ؛ وقد قالوا : إن الإفراد هنا اقتضاه أمران : لفظى ، ومعنوى ، أما اللفظى فهو المقابلة بين الأفراد وبينها وقوله بعدها : ﴿ جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ (٥) ، والمقابلة عنصر من عناصر الفصاحة فى الكلام يجوز معها ما لا يجوز مع غيرها ، والأمر المعنوى هو أن إتمام الرحمة فى هذا السياق لا يكون إلا بالإفراد لأن الذى يجرى بالسفينة ريح واحد ، ولو تعددت الريح لاضطربت ، وهذه دقائق فى أسلوب القرآن

---

(١) القمر : ١٩ (٢) إبراهيم : ١٨ (٣) الحجر : ٢٢
(٤) يونس : ٢٢ (٥) يونس : ٢٢

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

اهتدى إليه سَلَف هذه الأمة فاحرصوا عليها . وقد لحظوا فى الريح معنى الغلبة والقهر ، فاستعاروه للقوة فقالوا : ذهب ريحهم ، أى قوتهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (١) ، وسميت الرائحة ريحاً : لأن الريح تحملها .

﴿ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ﴾ : الزيغ : الميل عن الاستقامة ، والتزايغ : التمايل ، ورجل زائغ وقوم زاغة : أى مائلون ، وزاغت الشمس : مالت ، والأبصار : جمع بصر ، والبصر : الجارحة الناظرة تقول : ذهب بصره ، تريد القوة الناظرة فى الجارحة ، ويقال لقوة القلب المدركة : بصر ، كما يقال لها : بصيرة ، وجمع البصيرة : بصائر ، ولا يقال للجارحة : بصيرة ، وتقول : أبصرتُ الشىء ، إذا رأيته بعينك أو أدركته ببصيرتك ، وقَلَّ أن يقال : بصر - ككرم - للإدراك بالحاسة إذا لم يصحبها إدراك بالقلب ، وقالوا للضرير : بصير ، نظراً لقوة بصيرته ، ولو كان من باب قولهم للصحراء مفازة ، وللديغ سليم ، لصح أن يقال : مبصر وباصر .

﴿ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ : البلوغ والبلاغ : الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى مكاناً كان أو زماناً أو أمراً من الأمور المقدَّرة ، تقول : ﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ (٢) ، و﴿ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ ﴾ (٣) أى متناهية فى التوكيد ، ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً ﴾ (٤) أى يصل إلى أقصى مراتب التأثير والنفاذ .

﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ : الظن اسم لما يقع فى النفس حين تلوح أماراته ، وإذا قوى كان علماً ، وإذا ضعف كان وهماً ، وتُستعمل معه « أن » المؤكدة مشددة ومخففة فتزيده توكيداً وقوة ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ (٥) أى يعلمون ، وقال : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم

---

(١) الأنفال : ٤٦ (٢) يوسف : ٢٢ (٣) القلم : ٣٩

(٤) النساء : ٦٣ (٥) البقرة : ٤٦

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

مَّبْعُوثُونَ ﴾ (١) وفى هذا الاستفهام توبيخ وذم بالغ ، وقال : ﴿ أَلَا يَظُنُّ ... ﴾ ، أى الا يقع منهم ظن بعد هذه الأدلة الواضحة والأمارات التى تنادى على الحق وتصيح به ؟

﴿ ابْتُلِىَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ : ابتلاء الله تعالى لعباده يكون تارة بالمضار ليعتبروا ، وتارة بالمسار ليشكروا ، فصارت المحنة والمنحة جميعاً بلاء ، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر ، ولهذا قال عمر رضى الله عنه : « بُلينا بالضراًء فصبرنا وبُلينا بالسرًاء فلم نصبر » ، وقال علىّ رضى الله عنه : « مَن وُسِّع عليه فى دنياه فلم يعلم أنه مُكِرَ به فهو مخدوع عن عقله » ، والابتلاء إما أن يكون لمعرفة حال المبتلى ، والوقوف على ما يجهل من أمره ، وهذا بالنسبة للبَشر ، وإما أن يكون لإظهار جودة المبتلى ، أو رداءته ، وهذا هو المراد من ابتلاء الله سبحانه .

قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ : آمن : فعل ماض ، ويُستعمل متعدياً بنفسه ، تقول : آمنته أى جعلته ذا أمن ، ومنه قولنا : الله مؤمن ؛ لأنه يمنح الأمن وطمأنينة القلب لعارفيه ، وبذكره تطمئن القلوب ، وإذا استعمل لازماً كما هنا كان معناه : صار ذا أمن ، وقد يعدى باللام ولا يكون ذلك إلا لغير الله ، ويعدى بالباء لله ولغيره ، قال تعالى : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾ (٣) ، قال محمود بن عمر معللاً هذا الاستعمال القرآنى لهذا الفعل : « فإن قلت : لِمَ عدى فعل الإيمان بالباء إلى الله تعالى وإلى المؤمنين باللام ؟ قلت : لأنه قصد التصديق بالله الذى هو نقيض الكفر به فعدى بالباء ، وقصد السماع من المؤمنين ، وأن يُسَلِّم لهم ما يقولون ويُصدِّقه ، لكونهم صادقين عندما تعدى باللام ، الا ترى إلى قوله : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ (٤)

---

(١) المطففين : ٤
(٢) التوبة : ٦١
(٣) يونس : ٨٣
(٤) يوسف : ١٧

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ما أنباه عن الباء ونحوه : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾ [1] ، وقوله : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴾ [2] ، ﴿ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ [3] » .

* *

نادى الذين آمنوا بوصف الإيمان ليكون ذلك أدعى إلى ذكر النعمة ؛ لأن الذى يليق بحال المؤمنين أن يذكروا نعمة الله ، وذكْر النعمة هنا يُراد به شكرها ؛ لأن الذكر أى التذكر فقط ليس مقصوداً شرعياً ، وإنما المراد لازمه ، وهو شكر المنعم ، وذكر الأمر عقب النداء فيه عناية بالأمر واهتمام به ؛ لأن النداء إيقاظ وتنبيه يهىء المأمور لتلقى الأمر وإيجاده ، وقالوا : إن قوله : ﴿ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ بدل اشتمال من « نعمة » .

ونرى النحاة يقولون : إن البدل هو المقصود بالحكم ، والمبدَّل منه فى نية الطرح ، أى أنك إذا قلت فى بدل الاشتمال : أعجبنى زيد حسنه ، المقصود بالحكم هو « حسنه » ، فهو الذى أعجبك ، و« زيد » فى نية الطرح ، وهكذا يقولون فى بدل الكل ، وفى بدل البعض ، والسؤال المهم فى هذا التركيب : لماذا ذكر العرب المبدل منه فى كلامهم إذا كان غير مقصود ، وكان فى نية الطرح ؟ لماذا قالوا : أكلتُ الرغيف ثلثه ، وهم يريدون أكلت ثلث الرغيف ؟ ولماذا قالوا : أعجبنى زيد حسنه ، وهم يريدون أعجبنى حسن زيد ؟ لا تستطيع أن تدَّعى التسوية الكاملة بين التعبيرين ، بين قولنا : أعجبنى زيد حسنه ، وأعجبنى حسن زيد ، وأكلت الرغيف ثلثه ، وأكلت ثلث الرغيف ، ولا يكفى أن يقال : إن هذه طرق مختلفة لأداء المعانى ؛ لأننا عهدنا القوم فى لغتهم يفيدون فى كل حالة من أحوال التراكيب لوناً من ألوان المعانى ، وهذه قضية نرجو أن نمحص القول فيها فى غير هذا المقام ، وقد ذكرناها للتنبيه إلى طريقة التفكير فى التراكيب ، والمهم أن قوله : ﴿ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ كأنه

---

(١) يونس : ٨٣ (٢) الشعراء : ١١١ (٣) طه : ٧١ ، الشعراء : ٤٩

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

من ذكر الخاص بعد العام ، وذكر الخاص بعد العام فيه ضرب من التوكيد الناشىء من التكرير بذكر البدل ضمناً فى المبدل منه لاشتماله عليه ، وكأنهم أمروا أولاً بذكر نعمة الله التى تشمل كله نعمة ، ثم أمروا بذكر هذه النعمة الجليلة التى هى نجاتهم من هذه الغزوة المسعورة ، وفى ذكر الخاص بعد العام ضرب من السحر البيانى ، الا ترى أنه لو قال : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً » أكنت تجد لها من مذاق الفصاحة ما تجده لهذا النظم ؟ وقد لحظ ذوو البصائر فى فهم القرآن أن قوله تعالى : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ ﴾ (١) ، أو ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ ﴾ (٢) جاء خطاباً لأصحاب محمد عليه السلام كما جاء خطاباً لغيرهم من أتباع الأنبياء عليهم السلام ، وقوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِى ﴾ (٣) جاء فى مخاطبة أصحاب محمد عليه السلام فقط ؛ لأنهم حصل لهم فضل قوة بمعرفته سبحانه ، فأمرهم أن يذكروه بغير واسطة ، وغيرهم أمروا بأن يتبصروا نعمته ، ويتدبروا آثارها ، فيصلوا بذلك إلى ذكره سبحانه ، وهذا من لطائف ملاحظاتهم .

وقلنا : إن قوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً ﴾ معطوف على قوله : ﴿ إِذْ جَاءَتْكُمْ ﴾ والعطف بالفاء هنا معناه : أن إرسالنا عليهم ريحاً وجنوداً كان عقب مجيئهم بلا مهلة ، أى أن جند الله كانت تركض من وراء الأحزاب ، وتكر فى أعقابهم ، وقد قرأت فى بعض كتب التفاسير أن الفاء عطفت على محذوف ، والتقدير : « إذ جاءتكم جنود فمضت مدة فأرسلنا عليهم » ، ولم أجد مذاقاً لهذا التقدير ؛ لأن المقام مقام تذكير بأعظم نعم الله على الفئة المؤمنة ، وأن الله يرعاها ويكلؤها ويذود عنها ، وأنه لا يتركها لعدوها يشفى منها غليلاً ، والقول بمضى المدة فى هذا السياق لا معنى له ، ولهذا جاء بالفاء وكان يمكن أن يكون مكانها « ثم » ، ولعل القائل بهذا قد قرأ فى كتب التاريخ والسير أن الفريقين ظلا قريباً من شهر والمسلمون محاصرون ،

---

(١) الأحزاب : ٩ (٢) البقرة : ٤٠ ، ٤٧ ، ١٢٢ (٣) البقرة : ١٥٢

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

والأحزاب مقيمون حولهم ، والواقع أن هذه ليست مدة فى حساب الحرب ؛ لأنها كانت مدة خالية من الجلاد والنزال ، فلم يكن بين الفريقين غير المراشقة بالنبال والحجارة .

وفى قوله : ﴿ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً ﴾ عرض سريع وخاطف للواقعة يذكر طرفيها وطى كل ما كان فيها ، فقوله : ﴿ إِذْ جَاءَتْكُمْ ﴾ بداية الواقعة ، وقوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا ﴾ نهايتها ، وقوله : ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ تفصيل لهذا الإجمال بوصف أحداثه ، وبيان كيفياته ، وما كان فيه ، والإجمال والتفصيل فن عظيم من فنون البلاغة ، وكأنه يتضمن فنى الإيجاز والإطناب ، وقوله : ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ كناية عن إحاطتهم بهم ، وتمكنهم منهم كل تمكن ، فهم اثنا عشر ألفاً يحيطون بثلاثة آلاف ، وهذه الكناية تلقى فى النفس صورة جنود الأحزاب وكأنهم يتحدرون من فوق رؤوس المسلمين ، وكأن الأرض تنفجر عنهم من تحت أقدامهم ، وقد ساق القرآن إحاطة العذاب فى جهنم هذا المساق ، فقال تعالى : ﴿ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ (١) ، أى يحيط بهم إحاطة شاملة ، وقوله : ﴿ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ يلقى فى النفس صورة العذاب وكأنه حمم تقذفهم بها السماء من فوقهم ، أو براكين تنفجر عنها الأرض من تحت أقدامهم ، وناهيك من هول هذه الصورة التى أعدها الله لكل حاقد على الخير والإنسان ، ومثله قوله تعالى فى وصف هذا المشهد نفسه : ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ (٢) أى أن أسباب الفناء والهلاك تحيط به وتتوافد عليه من كل الأقطار ولكنه لا يموت بل يظل حياً حياة عذاب وشقاء لا يحيا فيها ولا يموت ، وقوله : ﴿ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ ترى فيها وفود الموت حية شاخصة تسير وتجد فى سيرها ، وقوله : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ﴾ وصف

---

(١) العنكبوت : ٥٥ (٢) إبراهيم : ١٧

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

لأحوال الجنود فى جيش محمد عليه السلام بعد ما وصف مجىء أعدائهم ، وأول ما يلاحظ فى هذه الآية : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ أن جملها الثلاثة يحيط بها ظرف واحد ، هو « إذ » فى قوله : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ﴾ ، والآية السابقة عليها يحيط بها ظرف ﴿ إِذْ جَاءَتْكُمْ ﴾ أى اذكروا وقت مجىء الجنود ، ووقت زيغ الأبصار ، وبلوغ القلوب الحناجر ، وحدوث الظن من المؤمنين ، ففى آية وصف مجىء الأعداء ظرف ، وفى هذه الجمل الثلاث ظرف ، ولذلك تعطف جملة « بلغت » على جملة « زاغت » ، وكذلك « تظنون » على « زاغت » ، ثم تعطف ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ﴾ كلها على ﴿ إِذْ جَاءَتْكُمْ ﴾ ، فهو من قبيل عطف الجمل على الجمل ، ونلحظ تتابعاً وتدرجاً فى وصف الأحوال التى تتحدث عنها هذه الجمل الثلاث ؛ فالجملة الأولى تصف شخوص الأبصار وانحرافها وميلها ، وكأن هذه الحالة هى أول أحوال الشدة وأولى مراتبها ، فالمكروب المفاجأ يرسل بصره ، ويقلب محاجره ، ويلتفت هنا وهناك ، دهشاً حائراً ، وواضح أن الإخبار بزيغ الأبصار ليس هو مناط الفائدة من الخبر ، وإنما المراد ما وراء ذلك من الحيرة والدهش، فقوله : ﴿ زَاغَتِ الأَبْصَارُ ﴾ كناية عن هذه المعانى لأنه لازمة من لوازمها ، وقد أراد بعض المفسِّرين أن يخص هذا الوصف بالمنافقين ؛ لأن قلوب المؤمنين قارة مطمئنة بنصر الله ، ولست أرى ذلك ؛ لأن الله طالبهم بشكر النعمة ، حيث نجاهم من هذا الكرب الذى زاغت فيه أبصارهم ، وزُلْزِلوا زلزالاً شديداً ، وسياق الآيات وروايات كتب السير كلها تؤكد أن القوم كانوا فى كرب شديد ، وكان رسول الله ﷺ دائم الصلاة ، ومن عادته إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، وطلب من أصحابه أن يخرج أحدهم فينظر ما فعل القوم ، ووعد مَن يفعل ذلك الجنة ، فما خرج منهم أحد ، حتى وجَّه الأمر إلى حُذَيْفة ، ودعا الله أن يحفظه من بين يديه ومن خلفه ، فما وجد حُذَيْفة بُدّاً فخرج ودخل فى القوم ، ثم رجع بخبرهم ، فليس من الإنصاف أن نخص هذه الأوصاف بالمنافقين ، قال صاحب روح البيان :

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

« ﴿ زَاغَتِ الأَبْصَارُ ﴾ : أى مالت عن مستوى نظرها حيرة وشخوصاً لكثرة ما رأت من العَدد والعُدَد ، فإنه كان مع قريش ثلاثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير ، وقال بعضهم : المراد أبصار المنافقين ؛ لأنهم أشد خوفاً ، ولا حاجة إليه لأن من شأن ضعف الإنسانية التغير عند تراكم البلاء وترادف النكبات ، وهو لا ينافى قوة اليقين وكمال الاعتماد على الرب المعين ، كما دلّ عليه ما بعد الآية ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللهِ ﴾ (١) .. انتهى كلامه .

وقوله : ﴿ وبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ ﴾ تصف حالة أبلغ من أحوال الخوف والاضطراب ، وبلوغَ القلوب الحناجر كناية عن شدة الفزع والخوف ، حتى لكأن مشاعر القلق والخوف تتصاعد بالقلب فتعلو به إلى حيث يُقذف ، ووجه هذه الكناية أن القوم كانوا يعتقدون أن الخائف يتقلص قلبه ويجتمع ويلتصق بالحنجرة ، وتنتفخ رئته من شدة ما يجد ، وإذا انتفخت الرئة ارتفع القلب بارتفاعها ، ولهذا قالوا للجبان : انتفخ سُحْرُهُ ، أى انتفخت رئته ، فبلوغ القلوب الحناجر من لوازم هذه الأحوال فلذلك وقع كناية عنها .

وأساليب البيان تُصاغ على وفق ما يعتقده الناس لا على ما يثبته العلم ، فإن قواعد الطب تقرر أن القلب لا يتحرك من مكانه ، فضلاً عن أنه يتصاعد حتى يبلغ الحنجرة ، وقد جاء « بلوغ القلوب الحناجر » كناية عن أهوال أول مشاهد القيامة ، قال تعالى : ﴿ وأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إذِ القُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾ (٢) ، وقد أُضيف لهذه الصورة قيد ، هو قوله ﴿ كَاظِمِينَ ﴾ ، وهو حَال مَن أصحاب القلوب الذين يدل عليهم معنى الكلام السابق ، والمراد أن الآزفة - أى القيامة - وقتها وقت شدة بالغة ، تبلغ فيها القلوب الحناجر ، وهنا تستوى الصورتان : صورة جيش الإسلام وراء الخندق مع صورة الناس فى الآزفة ، الشدة واحدة والهول واحد ، ثم تضاف إلى الحالة الثانية صفة الكظم أى الإمساك والحبس من قولهم : كظم غيظه ، إذا رد

(١) البقرة : ٢١٤ (٢) غافر : ١٨

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

غضبه وحبسه فى نفسه ، فالقوم قد بلغ الخوف والهم بهم ما بلغ حتى صارت القلوب لدى الحناجر ، ثم هم فوق ذلك كاظمين أى عاجزين عن الحديث ، وناهيك عن كظم الهم فإنه أوجع فى القلب من الهم نفسه ، الفرق واضح بين الصورتين ، الناس وراء الخندق يتكلمون ، المؤمنون يقولون : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ (١) ، والمنافقون يقولون : ﴿ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً ﴾ (٢) المهم أن القوم هنا يفوهون ويخففون عن أنفسهم ، والقوم عند الآزفة صامتون صمت عجز ، لأن ألسنتهم انعقدت فلا تدور بكلام ، فقوله : ﴿ كَاظِمِينَ ﴾ وصف يوقع فى خيالنا أن كل واحد فى هذا الموقف الكارب ممتلئ خوفاً ، ثم هو مكظوم أى مربوط فمه ، كما يُكظم فم القِرْبة الممتلئة ، قالوا : كظم القِرْبة إذا ملأها وسد فاها ، قال صاحب روح البيان مشيراً إلى دلالة هذه الحال ﴿ كَاظِمِينَ ﴾ : « والمعنى كاظمين على الغم والكربة ساكتين حال ابتلائهم بها ، يعنى لا يمكنهم أن ينطقوا ويُصرِّحوا بما عندهم من الحزن والخوف من شدة الكربة وغلبة الغم عليهم » .

فقوله : ﴿ إِذِ القُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ ﴾ تقرير للخوف الشديد ، وقوله : ﴿ كَاظِمِينَ ﴾ تقرير للعجز عن الكلام فإن الملهوف إذا قدر على الكلام وبث الشكوى حصل له نوع خفة وسكون ، وإذا لم يقدر عظم اضطرابه واشتد حاله » . . انتهى كلامه .

ردد الصورتين : ﴿ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ ﴾ ، ﴿ إِذِ القُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾ ثم تأمل الفرق الذى أضافته كلمة واحدة : ﴿ كَاظِمِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ﴾ تنتقل إلى داخل النفس وتصف الخواطر والهواجس والظنون ، وهذه قصوى مراحل الابتلاء بالنسبة للمؤمنين فى هذه الواقعة ، فقد خافوا أن تزل أقدامهم فلا يتحملون ما نزل بهم ،

---

(١) الأحزاب : ٢٢ (٢) الأحزاب : ١٢

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وقالوا : إن بعض المؤمنين ظن أن الكفار سينتصرون عليهم ، ويستأصلونهم وتعود جاهلية ، و« الظن » مصدر يُطلق على القليل والكثير ، ولكنه جُمِع هنا للإشارة إلى كثرة الهواجس والظنون وتعدد ضروبها وأنواعها ، وقد ورد هذا فى كلامهم ، أنشد أبو عمر فى كتاب الألحان (من الوافر) :

إذَا الْجَوْزَاءُ رَادَفَتِ الثُّرَيَّا ظَنَنْتُ بآلِ فَاطِمَةَ الظُّنُونَا

وكثرة هواجس المؤمنين وتعدد ضروب ظنوهم لا يتعارض مع ما سيأتى من قولهم : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ﴾ [1] ، وذلك لأن هذه الظنون من قبيل الأوهام والخواطر التى أوجبها الخوف الطبيعى ولم يمكن البَشر دفعها ، ومثلها عفو كما قال صاحب روح المعانى ، وقد جىء هنا بالفعل المضارع ، والأصل أن يكون ماضياً ؛ لأنه معطوف على ﴿ زَاغَتِ الأَبْصَارُ ﴾ ، ولأن الحدث قد انتهى زمانه والمقام مقام تذكير بالنعمة ، والسر فى ذلك - كما يقول البلاغيون - أن المضارع يدل على استحضار الصورة ، أى أن صيغته تَحْمِلُ الحدث من قلب الزمان الغابر ؛ لتضعه أمام الحاضر الراهن فى جلاء ووضوح ، ولهذا تراهم يؤثرون صيغة المضارع عند ذكر الحدث الأهم ، والظن هنا أهم الأحداث فى قصتنا ؛ لأن القضية قضية ابتلاء وتمحيص ، ابتلاء إيمان وتمحيص عقيدة ، والإيمان والعقيدة من أعمال القلوب ، فكلاهما يتربى فى القلب تربية صحيحة راسخة ، أو يحيا على هامشها حياة سطحية تافهة ، لذلك كان حديث القلوب وهمس النفوس وحركة الشعور وكل ما هو داخل الكيان النفسى وينتمى إليه من أهم ما يعنينا فى هذا الموقف ، ومن أجل ذلك خالف القرآن نسق الأفعال وجاء بهذا الفعل مضارعاً ومؤكداً بمصدره ومجموعاً على خلاف المألوف فى المصادر ، وذلك ليكشف أتم كشف ويتصور أوضح تصوير مستسر نفوس هذه الجماعة فى هذا الموقف الصَّعْب ، والمضارع أيضاً يدل على

---

(١) الأحزاب : ٢٢

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الاستمرار والتجدد ، فكأن الظن هنا حدث يتتابع وقوعه وتتوالى صوره ، فهى ظنون منطلقة من خيال قلق ووجدان مهموم ، وقد يخيل إليك وأنت تسمع هذه الجملة : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ﴾ إذا أحسنت الإصغاء النفسى والوجدانى إليها ، أنك تسمع هذه الهمهمات ، وهذه الوسوسات ، التى تهمس بها نفوسهم فى خفاء ، وكأن هذه الألف فى ﴿ الظُّنُونَا ﴾ تؤذن بإطلاق العنان للخيال الفزع والخواطر الشُّرَّد حين زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر .

ولعلك تدرك هذا التوافق الواضح بين الجرس الصوتى للجملة وما تشير إليه من همسات الخواطر ، ووسوسات الضمير ، وقوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِىَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ نلحظ فى صياغته خصوصيات وأحوالاً ؛ منها فصل هذه الجملة عن الكلام السابق عليها ، ومنها تقديم الظرف على عامله ، وبناء الفعل للمجهول ، ووصل الجملة الثانية بالأولى ، وبناء فعلها للمجهول وتأكيده بالمصدر والوصف ، ونرى لكل خصوصية من هذه الخصوصيات سراً بلاغياً نراه غير متكلفين ولا متمحلين ، فإننا نعلم أنه لا يُذهب الروح البلاغية شىء كتكلف نكاتها ، والتمحل فى بيان مزايا خصوصياتها ، والقرآن غنى عن التمحل والتكلف ، أما فصل هذه الجملة عن الكلام السابق ؛ فذلك لأنها توكيد له ، وتقرير ، فإحاطة العدو وزيغ الأبصار وبلوغ القلوب الحناجر ووسوسات الظنون ليس ذلك كله إلا الابتلاء ، وهذا هو الذى يسميه البلاغيون كمال الاتصال ، وأما تقديم الظرف على عامله فلأهميته فى الجملة ، ووجه الأهمية أن هذا الظرف يحدد الزمان أو المكان لهذه الواقعة الخالدة وكل تفاصيل الحادثة تتداعى فى النفس والخيال عند ذكر مكانها أو زمانها ، فكأنه يقول لهم : هناك وراء الخندق ، وجموع الشرك تحاصركم ، تنظرون حولكم فتجدون مساعر الحرب ، ومشاهير فرسان العرب ، تجدون أحابيش ورجالاتها يقودها أبو سفيان صخر بن حرب ، وجموع غطفان يقودها عيينة بن حصن بن بدر ، وفرسان بنى أسد يقودهم طليحة ، وكتائب

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

بنى عامر يقودهم عامر بن الطفيل ، وبنى سليم يقودهم أبو الأعور السلمى ، وبنى النضير يقودهم حُيَىّ بن أخطب ، وقد جاؤكم بقلوب مغيظة حاقدة يودون استئصالكم وكانوا خمسة عشر ألفاً سال عليكم بهم الوادى ، كلهم مغاوير حرب وفرسان صيال ، منهم مَن شهد له زمانه بإمارة القراع والنزال ، فيهم عَمْرو بن وُدّ الذى كانت العرب تعده بألف فارس ، وعِكرمة بن أبى جهل الذى لم تخطىء له ضربة سيف ولا طعنة رمح ، وخرار بن الخطاب وهبيرة ابن وهب ونوفل بن عبد وُدّ وكلهم له ذكر وصيت ، هنالك وأنتم محاطون بهؤلاء وعددكم لا يربو على ثلاثة آلاف ، وقد طُرِحت عهودكم ، ونُبِذت مواثيقكم ، فهؤلاء بنو قريظة فى حصنهم الشرقى قد نبذوا عهودكم ، وانضموا إلى أعدائكم استخفافاً بكم ، وتوقعاً لهلاككم وذهاب ريحكم ، هنالك فى هذا الزمان وفى هذا المكان وقع الابتلاء ، ويمكن أن نفهم من هذا التقديم الاختصاص أيضاً ، لأن النكات البلاغية لا تتزاحم ، فلا حَرَج فى أن يفيد الاهتمام والاختصاص معاً ، ومعنى الاختصاص هنا أنه لا ابتلاء إلا هنالك ، أى أن غيره من الابتلاء لا يُعتَد به ولا يُحسَب إذا قورن بهذا الابتلاء فهو قصر موصوف على صفة قصراً حقيقياً ادعائياً .

وأما بناء الفعل للمجهول فللإشارة إلى القصد إلى وقوع الفعل بهم لا بيان الفاعل ، وقد يكون للإشارة إلى أن هذا الابتلاء قد صدر من قِبَل قوة لا تُكتنه ولا يحيط بها علم ولا تصل إلى حقيقتها معرفة فهو ابتلاء أى ابتلاء ، ومثل هذا يقال فى بناء فعل « زُلْزِلوا » للمجهول ، أى أن زلزالهم قد صدر من قِبَل قدرة عالية لا ترقى إلى حقيقتها الخيالات ، ولا تحيط بمعرفتها الأوهام ، فهو زلزال ما بعده زلزال ، وكأن تأكيد الزلزال بالمصدر ووصفه بالشدة للدلالة على أن المؤمنين حُرِّكوا تحريكاً شديداً وأُزْعِجوا إزعاجاً قوياً ، حتى قال بعض المفسرين : إنهم حُرِّكوا إلى الفتنة فعصموا ، وفى النص على المؤمنين إشارة أيضاً إلى عِظم الحال لأن المؤمن آمن ، لأن « آمن » يفيد

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

التصديق الذى يصحبه أمْنٌ وزوال خوف . وأما وصل الجملة الثانية بالأولى فذلك للمناسبة الواضحة بين الجملتين ، فالزلزلة الشديدة والابتلاء من باب واحد ، والمسند إليه فى الجملتين واحد ، فالوصل للتوسط بين الكمالين لتغاير الوصفين ، فالمؤمنون ابتُلوا وزُلْزِلوا ، أى أنهم وقع عليهم أمران ولو حذفت الواو لكان المعنى أنهم ابتُلوا ، ثم فُسِّر الابتلاء بالزلزلة ، ولأفاد الكلام أن الذى حدث لهم شىء واحد بخلاف ما جاءت عليه الآية وهذه دقائق .

* *

نزلت هذه الآيات فى غزوة الأحزاب ، وكانت فى السنة الخامسة من الهجرة ، وذكر أصحاب السير فى أسبابها أن الرسول ﷺ أجلى يهود بنى النضير من المدينة ، أى من قرية لهم تسمى « زهرة » ، كانت من أعمال المدينة إلى خيبر لما نقضوا العهد الذى كان بينه وبينهم ، فقد كان صالحهم عليه السلام لما قدم المدينة ألا يكونوا عليه ، ثم اتفق أن ذهب الرسول عليه السلام إلى حيهم ومعه بعض أصحابه ، فجلس إلى جانب جدار من بيوتهم ، فصعد بعضهم على البيت الذى جلس النبى بجانبه وَهَمَّ بإلقاء حجر عليه فأتاه خبر السماء ، فقام مسرعاً ، وذهب إلى المدينة ، وأرسل إليهم محمد بن مسلمة يأمرهم بالخروج من مدينته ، فرفضوا الخروج متأثرين بحُيَىِّ ابن أخطب ، وكان عاتياً فى كفره ، يشبه فى اليهود أبا جهل فى المشركين ، فحاصرهم الرسول ست ليال ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فسألوا الرسول أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، ثم رحلوا إلى خيبر وإلى أذرعات من ديار الشام ، ولكن حُيَىَّ بن أخطب خرج مغيظاً ، فألبَّ قبائل العرب على رسول الله ، فاستجابوا له ، وخرجت جموع من قريش وغطفان وبنى أسد وبنى عامر وعقدوا اللواء لأبى سفيان ، فلما علم النبى عليه السلام بقدومهم شاور أصحابه ، فقال له سلمان : يا رسول الله ؛ إنَّا كنا إذا تخوَّفنا الخيل بأرض فارس خندقنا علينا ، وكان الخندق من مكايد الفُرس ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

فاستحسن عليه السلام رأى سلمان ، فخرج ومعه المهاجرون والأنصار ، وأمر بالذرارى والنساء فرُفِعوا فى الآطام ، أى فى الحصون ، ونزلوا أسفل جبل يقال له سَلْع ، وجعلوا الجبل من ورائهم ، ثم أمر بحفر الخندق على أن يكون بينهم وبين العدو ، ولما قدم جنود الأحزاب كان ما صوَّرتْهُ الآيات الكريمة من حال المسلمين ، وكانوا فى زمن عُسْرة ، وعام مجاعة ، ولما رأى النبى عليه السلام حال أصحابه قال : « اللّهم لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخِرَة ، فانصُرِ الأنْصَارَ والمُهَاجِرَة » ، ثم أرسل الله على أعدائهم ريحاً باردة ، قال المفسِّرون : إنما لم يتجاوز عسكرهم ، فأخصرتهم وسفت التراب فى وجوههم ، وأمِرت الملائكة فقلعت الأوْتَادَ ، وقطعت الأطناب ، وأطفأت النيران ، وأكفأت القدور ، ونفثت فى روعهم الرعب ، وكبَّرت فى جوانب عسكرهم ، حتى سمعوا التكبير وقعقعة السلاح ، واضطربت الخيول ونفرت ، فصار كل سيد حى يقول لقومه : يا بنى فلان ، هَلُمُّوا إلىّ ، فإذا اجتمعوا ، قال : النجاء ، النجاء ، فقد سحركم محمد ، وقد أشرت فى دراسة الأسرار البلاغية إلى أن الفزع والرعب قد ملآ قلوب جند محمد عليه السلام ، وأنه لم يسلم من ذلك المؤمنون الصادقون فى إيمانهم ، وقد روت كتب الحديث أخبار المؤمنين فى هذه الواقعة ، وإنك لتعجب وأنت تقرأ ما يرويه حُذَيْفة بن اليمان مما أثبته مسلم فى صحيحه كيف كان الرسول يدعو أصحابه إلى أن يذهب أحدهم فى حذر شديد ، ويدخل فى القوم ويرجع بخبرهم فلم يقم منهم أحد ، وفيهم أبو بكر وعلىّ وعمر وغيرهم من صحابته الغرّ الميامين ، وكان التابعون يسألون مَن أدركوه من جيل الصحابة عن مواقفهم مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فيصفون لهم الأهوال والشدائد ، ويذكرون من بينها يوم الخندق ، وقد روت بعض التفاسير أن نفراً من صحابة رسول الله ﷺ رأوا الملائكة فى عمائمهم البيضاء يبلون فى القوم بلاءً ، وذكروا أن الملائكة كلَّموهم وقالوا لهم : أخْبِروا محمداً أن الله كفاه القوم ، ولا أرى ذلك ، لأن الآية تنفى الرؤية نفياً صريحاً ، قال تعالى : ﴿ وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

ويمكن أن تراجع فى أخبار هذه الغزوة كتب السير مثل سيرة ابن هشام ، وكتاب أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير ، وتاريخ الطبرى .

* * *

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً * وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ، وَيَسْتَئْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ، إن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً ﴾ (الآيتان : ١٢ - ١٣) .

* *

﴿ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ : المرض : الخروج عن حد الاعتدال الخاص بالإنسان ؛ تقول : فى جوفه مرض ، أى ألم ؛ ولما كان الخروج عن حد الاعتدال يلزمه الضعف والونى ، قالوا : ريح مريضة ، أى وانية ، وقالوا : شمس مريضة ، أى ضعيف حرُّها ؛ وليلة مريضة ، أى لا ضوء فيها ، وهذا من قبيل الاستعارة المكنية ، فقد شبِّهت الريح فى ضعفها وفتورها بإنسان هزيل متخاذل ، ثم رمزوا لهذا التشبيه بذكر لازم من لوازم المشبَّه به وهو الضعف ، وأمراض المنافقين : ما تداخل قلوبهم من الضعف والجبن والخور ، أو هو أدْوَاء الغل والحسد وكراهية النبى وأصحابه .

﴿ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ : الوعد يكون فى الخير ، قال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) ، ويكون فى الشر ، قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ، النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (٣) ،

(١) المائدة : ٩ (٢) الحج : ٤٧ (٣) الحج : ٧٢

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

والوعيد لا يكون إلا فى الشر ، قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [(١)] ، و« وعد » مضارعها « يعد » ، والأصل « يوعد » وقعت الواو بين عدوتيها ، الفتحة والكسرة - لأن الفتحة تقلبها ألفاً والكسرة تقلبها ياءً - فلم تطق البقاء فذهبت ، وقالوا : شجر واعد أى يعد أصحابه بالثمر الكثير ، وفرس واعد أى يعد فارسه بالسبق ، وكذلك قالوا : أرض واعدة ، ويوم واعد ، أى يعد بالحر أو بالبرد .

﴿ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً ﴾ : أى إلا أمراً يغرنا ويوقعنا فيما لا طاقة لنا به ، وغرَّك الأمر أى تمكن منك ، وكأنه صادف غرَّتك أى غفلتك ، وقالوا : صبحهم الجيش وهم غارون ، أى غافلون ، ومن أمثالهم : أغر من ظبى مقمر ، أى أكثر غفلة منه ، والظبى المقمر مثل فى الغفلة والغرَّة ، لأنه يخرج فى الليلة المقمرة يظن أنها النهار فتأكله السباع ، وقالوا : لم يزل يطلب غِرَّته حتى صادفها ، أى غفلته ليصل منه إلى ما يريد .

و﴿ يَثْرِب ﴾ : المدينة ، ويصح أن تكون مأخوذة من التثريب الذى هو التقريع بالذنب ، قال تعالى : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ [(٢)] ، ولم يُعرف لفظ أُخذَ من التثريب إلا الثرب الذى هو شحمة رقيقة ، وعلى هذا القول تكون ياء « يثرب » زائدة ، وقالوا : إنها سميت بذلك لرجل نزل بها من العمالقة اسمه يثرب بن عبيد من سلالة سام بن نوح ، ونقل عن السهيلى أن لها فى التوراة أحد عشر اسماً ، وقد روى بسند ضعيف أن النبى ﷺ كان يكره هذا الاسم .

و« المقام » : يصح أن يكون مصدراً ، أى لا قيام لكم ؛ ويصح أن يكون اسم مكان ، أى لا مكان إقامة لكم ، وقام الشىء فهو قائم وأقامه غيره وأقام العود ، أى أقامه وأزال عوجه ، وقام على الشىء أى رعاه وحفظه ؛ فكأنه

---

(١) إبراهيم : ١٤ (٢) يوسف : ٩٢

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

قائم عليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ (١) أى مسيطر عليها سيطرة مراعاة ومحافظة ، وقوله تعالى : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ (٢) أى محافظة على شرعها ، كأنها قائمة عليه تحرسه .

« الاستئذان » طلب الإذن قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (٣) ، وأَذِنَ - كَفَرِحَ - : استمع ، قالوا : حدثته فأذن لى أحسن الأَذَن - كالفرح - أى استمع أحسن استماع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۞ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ (٤) أى استمعت السماء لأمر ربها استماع طاعة وانقياد ، ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ أى وهى حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع ، ومنه قوله عليه السلام : « ما أذن الله لشىء كأذنه لنبى يتغنى بالقرآن » .

« الفريق » : الجماعة من الناس وسميت بذلك لأنها كأنها تفرقت عنهم ، والفرق - بالسكون - يقارب الفلق ، لكن الفلق معتبر فيه الانشقاق ، والفرق معتبر فيه الانفصال ، والفرقة : القطعة من الشىء والجماعة من الناس ، والفرقان أبلغ من الفرق ، ويوم الفرقان أى اليوم الذى يُفْرَق فيه بين الحق والباطل ، وقد يُستعمل الفرقان فى النور الذى يلقيه المولى فى قلوب المؤمنين فتستضىء به فى التفريق بين الأشياء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (٥) .

« العورة » : أصلها من العار أى المذمة ، وعورة الإنسان أى سوءته ؛ لأنه يلحقه بظهورها عار ومذمة ، وسميت سوأة لذلك ؛ لأن ظهورها يسوء ، وسموا النساء عورة لأن تبذلهن يجلب العار والمذمة ، وقالوا للشق والخلل فى الشىء كالثوب والبيت : عورة ، وقال المفسِّرون فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ معناه : إنما ذليلة الحيطان يُخاف عليها السرقة ، وقال الراغب :

---

(١) الرعد : ٣٣ (٢) آل عمران : ١١٣ (٣) التوبة : ٤٥
(٤) الانشقاق : ١ - ٢ (٥) الأنفال : ٢٩

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

معناه : أنها متخرقة ممكنة لمن أرادها ، وقال الكلبى : أى خالية من الرجال ضائعة ، وقال قتادة : قاصية يُخشى عليها العدو ، وكل ذلك يؤدى معنى واحداً : هو أنها محتاجة إلى الحفظ والصون حتى لا يلحقنا عار بسببها ، وكانوا يتمدحون بسد الخلل والعورة .

* *

قوله : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ ﴾ جاء بصيغة المضارع مكان الماضى زيادة فى تصور الحدث وحضوره ، حتى كأن القارىء قد استحضر هذه الصورة فهو يرى هذه الفئة وهى تتحرك حركة المرتاب ، وتنفث سمومها فى صفوف المسلمين ، وتفوه بهذه الكبيرة التى هى أدخل فى الهدم ، وفى باب الكفر ، وفى هذا المضارع أيضاً إشارة إلى أن مثل هذا القول المتخاذل اليائس من الله ومن رحمته يتكرر كثيراً ويتجدد مع الزمان والأجيال من مثل هذه الفئة فى كل زمان ومكان ، وقالوا : ﴿ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ وهم لا يعتقدون أنه كان من الله وعد ، ولا يعتقدون وصف النبى عليه السلام بالرسالة ، وذلك من باب المجاراة والمماشاة وموافقة الجماعة التى يرجفون فيها ، فهم يوهمون بذلك أنهم من المسلمين ، وذلك أدعى إلى أن يُسمع منهم ، وإلى أن تروج مقالتهم ، وقد قيل : إن ذلك من باب الاستهزاء والتهكم ، وأستبعد ذلك فإن المنافقين ما كانوا يجرؤن على الاستهزاء برسول الله إلا فى خلوتهم ، وقد أشار القرآن إلى ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ (١) ، وذلك لمكانة النبى عليه السلام فى بيئته ، حتى إن المشركين الذى واجهوه بالعناد مواجهة واضحة ، لم يكن أحد منهم يجرؤ على الاستهزاء به .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ استعار فيه المرض الذى هو آفة

---

(١) البقرة : ١٤

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الجسم أو خلل فيه لما يعرض للقلوب من سوء الاعتقاد والغل والحسد والميل إلى المعاصى والعزم عليها ، واستشعار الهوى والجبن والضعف وغير ذلك مما هو شبيه بالمرض ، وهذا من الاستعارة التصريحية الأصلية ولا يخفى عليك إجراؤها ، وقال : ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ ولم يقل : مرضت قلوبهم ، أو قلوبهم مريضة ، ليوحى بأن المرض قد أقام واستقر فى هذه القلوب فهو فيها ماكث ومقيم ، وأن هذه القلوب قد تمكنت من هذا المرض تمكن الوعاء مما فيه وانطوت عليه فى حرص وحفظ ، وكأنها تأبى إلا أن تظل محتفظة بهذه الأدواء النفسية لا تقاومها كما تقاوم الأجسام الصحيحة الأوبئة والأمراض .

﴿ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ : قالوا : المراد بهم قوم كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبهة عليهم ، وقيل : كانوا ضعفاء الاعتقاد لقرب عهدهم بالإسلام ، وقالوا : المراد بهم المنافقون أنفسهم ، والعطف لتغاير الوصف كقوله :

* إلى الملك القرم وابن الهمام *

وأرجّح القول الأخير ؛ لأن القرآن يصف المنافقين فى مقام ذمهم وذكر نقائصهم بمرض القلوب ، وآية البقرة التى تذكر أصل عقيدتهم فى النفاق وهى قولهم : ﴿ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) ، وتصف نقائصهم من المخادعة لله ولرسوله ، ومن الإفساد فى الأرض ومن الغل الحاقد على المؤمنين ، واعتقادهم فيهم أنهم سفهاء ، حين تذكر هذه الكبائر من أوصافهم تذكر مرض قلوبهم ، وعطف الذين فى قلوبهم مرض على المنافقين وهم هم ليفيد هذا العطف أنهم جمعوا بين النفاق الذى هو إظهار الإيمان وإبطان الكفر ، وبين مرض القلوب الذى هو غل وحقد وجبن ودغل وكل ما هو من هذا الباب ، ولو حذفت الواو لكان الذين فى قلوبهم مرض وصفاً للمنافقين ، ولذهب معنى الجمع بين الصفتين الذى أفادته الواو ؛ وهذه دقيقة فاحرص على إدراكها ، ومثل هذا الأسلوب قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ ﴾ (٢) فالفرقان

---

(١) البقرة : ٨ (٢) البقرة : ٥٣

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

هو الكتاب ، ولكن العطف أفاد أنه يجمع بين كونه كتاباً منزّلاً وفُرقاناً يفرق بين الحق والباطل ، ومن كلامهم : رأيت الغيث والليث ، أى الرجل الذى يجمع بين الجود والشجاعة ، وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ﴾ نادوا أهل يثرب خصوصاً لغرض خبيث فى نفوسهم ، فإن فى جيش المسلمين رجالاً ليسوا من أهل يثرب هم المهاجرون ، فكأنهم يقصدون الأنصار بهذا النداء ويقصدون عزل المهاجرين ، ونبذ ما بين الفريقين من مواثيق النصرة والتآخى ، وذكروا يثرب وأهليتهم لها ، ليكون ذلك أدعى للاستجابة حيث يستحثونهم على الرجوع إلى المدينة التى هم أهلها ، والتى هى أرضهم ، وفيها متاعهم وذكرياتهم ، واختاروا هذا الاسم القديم ؛ لأن فيه إيحاء بقوة أهليتهم لها ، ووجوب رجوعهم إليها ، وإذا صح أن النبى عليه السلام كان يكره أن تُذكر المدينة بيثرب ، كما قال الشهاب الخفاجى ، يكون فى اختيارهم لهذا الاسم القديم نوع من المخالفة التى تعنى فى هذا المقام الرغبة فى ذهاب أثر الإسلام ورائحته من هذه المدينة ، وذلك واضح فى دعوتهم أهل يثرب وتركهم محمداً ومَن معه من المهاجرين أكلة يأكلها أبو سفيان ومَن معه من الأحزاب كما كانوا يرجفون .

وقوله : ﴿ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ قال فيه المفسِّرون : إن المراد لا مُقام لكم فى دين محمد فارجعوا إلى ما كنتم عليه من الشرك ، أو فارجعوا عما بايعتموه وأسلموه إلى أعدائه ، أو لا مُقام لكم بعد اليوم فى يثرب ونواحيها لغلبة الأعداء ، فارجعوا ليتسنى لكم المقام فيها لارتفاع العداوة حينئذ ، وكل هذا نراه بعيداً عن سياق الآية ، حيث استأذنوا النبى وتعللوا بخلل بيوتهم ، وبيَّن القرآن أنهم يريدون الفرار ، ولأنه من البعيد جداً أن يطلبوا من الأنصار الرِّدَّة عن الإسلام ، وأن يعودوا كفار ، وقيل : يجوز أن يكونوا خافوا من قتل النبى ﷺ إياهم بعد غلبته عليه السلام حيث ظهر أنهم منافقون ، فقالوا : لا مُقام لكم فارجعوا عما بايعتم عليه وأسلموه ، وهذا وجه ظاهر التكلف ويُبعده أن النبى ﷺ وأصحابه محاصَرون والغلبة بادية للأحزاب الذين جاؤوهم

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

من فوقهم ، ومن أسفل منهم فيبعد أن يكون مرادهم : أن لا مقام لكم مع النبى بعد غلبته ، وهم لم يتحركوا هذه الحركة الغادرة إلا وقد وقع فى ظنهم أن الغلبة عليه لا له - صلوات الله وسلامه عليه وبنفسى هو - والأوْلى أن يكونوا قد طلبوا منهم الرجوع إلى منازلهم بالمدينة ليكون ذلك أسلم لهم من القتل المحيط بهم ، أى أنهم طلبوا منهم التخلى عن نُصرة محمد وأصحابه ، وهذا ضرب من ضروب تخبطهم ، فإن أهل يثرب وهم الذين آووا ما كان لهم أن يرجعوا عن رسول الله ، وأن يتركوه فى هذه الغزوة المسعورة بعد ما أعطوه نفوسهم وأموالهم ، ولكنه الباطل الأعمى ، والنفاق المتخبط الذى يفقد الصواب ، ويعشو عن طريق الهداية ، وقد وصف القرآن هذه العقلية الحبيسة فى ظلمة الشهوة والهوى ، والتى تنغلق دونها نوافذ الخير ، فلا تبصر شيئاً من نور المعرفة والتى تعيش فى هذا العالم الحى الوثَّاب ، وكأنها قطعة من الجماد فيها غفلة وفيها موات ، يقول الحق مشيراً إلى بعض أوصاف المنافقين : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ، كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ (١) ، ولا تزال الدنيا عامرة بهذا الحشد من أهل الضلالة والغباء ، ويقول البلاغيون : إن الرجعة هنا مستعارة للفرار ، استعارة الشىء لما هو من جنسه ، فقد شبهوا الفرار بالرجعة ؛ لأن فى كل منهما تخل عن ميدان النزال ، ونكتة هذه الاستعارة : أنهم أرادوا الهروب من كلمة الفرار ، ففيها تنفير لهذه الجماعة الذين يريدون لها أن تتخلى عن مواقعها فى نُصرة الحق ونبيه ، يقول صاحب روح المعانى : وقيل : مرادهم أمرهم بالفرار على ما يشعر به ، لكنهم عبَّروا عنه بالرجوع ترويجاً لمقالتهم ، وإيذاناً بأنه ليس من قبيل الفرار المذموم ، وقوله : ﴿ وَيَسْتَئْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ﴾ جىء فيه بصيغة الفعل المضارع لإحضاره مُصوَّراً كما قلنا ، فيرى القارىء كيف تتمحل النفوس الواهية المريضة ،

---

(١) المنافقون : ٤

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وكيف تفتعل العلل والمعاذير ، وتكذب على نفسها وعلى الناس ، لتتخاذل عن نُصرة الحق ، وتنكص فى ميدان الشرف .

وقوله : ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ بيان للاستئذان وتفسير له ، وأنه استئذان مبناه الكذب والادعاء ، وجريان لفظ « العورة » على لسانهم فى هذا الاستئذان فيه كشف لسوئهم وكذبهم ، فإن النبى وأصحابه يمرون ببيوتهم فى غدوهم ورواحهم ، ويعرفون أن بيوتهم ليست بعورة ، ولكنه خداع الأغبياء الذين يتوهمون أنهم يخدعون الناس وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، وهكذا منطق الضلال لا ينطوى إلا على خلل وباطل ومغالطة وانحراف عن الصواب ، هم فى الجملة السابقة يقولون لأهل يثرب : ارجعوا واخذلوا محمداً ، ولو كان فيهم شىء من نور العقل والبصيرة لأدركوا أن هذا لا يكون ، وهم هنا يحتجون بحُجَّة يُكذِّبها شاهد العيان ، فلو كان فى بيوتهم خلل لما خفى على جيرانهم ، ومَن يسكنون معهم فى المدينة ، ولكنه تخبط آخر ، وكأن حُججهم وأقوالهم أوهام ، وقولهم : ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ وصفوا بيوتهم بأنها مخرَّقة مهدَّمة ، و« العورة » مصدر وُصِفت به البيوت للمبالغة فى معنى الخلل ، وقال بعضهم : يجوز أن تكون « عورة » صفة مشبهة وأصلها عَوِرة بكسر الواو فخفف الكسر بالسكون ، وقد قرئت بالكسر ، والأرجح كونها مصدراً وُصِف به للمبالغة ؛ لأنه الأنسب فى مقام الاعتذار ، والبلاغيون فى مثل هذا الاستعمال لا يؤولون المصدر باسم الفاعل ، ولا يحملون الكلام على حذف مضاف ، وإنما يكون على ظاهره ليفيد المبالغة وحتى كأن بيوتهم هى الخلل نفسه ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ دحض سريع لهذه الحُجَّة الواهية ، وهكذا القرآن يسرع دائماً برد أكاذيبهم ، وكأنه يقذفها فى وجوههم ، اقرأ تعقيبه النافذ على ادعائهم الإصلاح فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ (١) ، وانظر ما فى هذا الرد من وجود التوكيد ، واسمعه فى تتبعه القوى الذى يهدم ما كذبوا فيه ، وعاهدوا ولو كان المعاهد إخوانهم الذين كفروا ، يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ (٢) ، ونلحظ فى هذا الرد لفتة بلاغية ، ذلك أنه نفى أن تكون بيوتهم عورة ، والعورة مصدر - كما قلنا - وصف به للمبالغة ، ونفى الأبلغ لا يستلزم نفى غير الأبلغ ، أى إذا قلت : ليس محمد بعدل ، فإن ذلك لا ينفى عنه إلا أن يوصف بالعدل وصفاً مبالغاً فيه ، ويجوز أن يكون فيه شيء من صفة العدالة يظهر ذلك إذا قلت : ليس محمد بقرَّاء - بالتشديد ، فإن هذا لا ينفى أن تكون منه قراءة ما ، والوجه فى نفى المبالغة فى هذه الآية هو الإشارة إلى أنه ما كان ينبغى لهم أن يستأذنوا ، ولو كانت بيوتهم مخرَّقة أشد التخريق ، ونجد هذه الإشارة اللَّماحة فى قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَن فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ (٣) ، فقد نفى عنهم الاستحسار الذى هو مبالغة فى الحسور ، والمراد نفى أدنى مراتب الحسور - أى الكلال - لا أبلغها ، ونفى الأبلغ كما بيّنا لا يستلزم نفى الأقل ولكنه عمد إلى هذا ليشير إلى أن ما هم فيه من مواصلة العبادة حقيق بأن يصيبهم بغاية الضعف والكلال ، أدرك ذلك الزمخشرى بحسه اللُّغوى النادر ، فقال : « فإن قلت : الاستحسار مبالغة فى الحسور ، فكان الأبلغ فى وصفهم أن ينفى عنهم أدنى الحسور ، قلت : فى الاستحسار بيان أن ما هم فيه يوجب غاية الحسور وأقصاه ، وأنهم أحقاء لتلك العبادات الباهظة بأن يستحسروا فيما يعقلون ، أى تسبيحهم متصل

(١) البقرة : ١١ - ١٢ (٢) الحشر : ١١ - ١٢ (٣) الأنبياء : ١٩

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

دائم فى جميع أوقاتهم ، لا يتخلله فترة بفراغ أو شغل آخر » .. انتهى كلامه . وقوله : ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً ﴾ بيان للحُجَّة الحقيقية بعد ما أبطل ما موَّهوا به فى الجملة السابقة ، وهذه الجملة مستأنفة ، وكأنها جواب عن سؤال مقدَّر نشأ من إبطال الحُجَّة التى ساقوها ، فتطلعت النفس إلى معرفة حقيقة دوافعهم ومستسر دخائلهم ، فبيَّن ذلك بقوله : ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً ﴾ وساق هذا الاستئناف مؤكداً فى أسلوب القصر للعناية بتقريره ليوجه بذلك لؤمهم وتمويههم وخداعهم ، ويمكن أن يقال : إن هذا من قبيل قصر القلب ، أى قصر مرادهم على الفرار قصر موصوف على صفة ، وليس على حفظ العورة كما قالوا .

* * *

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ الفِتْنَةَ لأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَا إِلَّا يَسِيراً ＊ وَلَقَدْ كَانُواْ عَاهَدُواْ اللهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ ، وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولاً ＊ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ المَوْتِ أَوِ القَتْلِ وَإِذاً لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً ＊ قُلْ مَن ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ، وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً ﴾ .

(الآيات : ١٤ - ١٧)

* *

« الأقطار » : الجوانب ، ومفرده : قُطر - بضم أوله ، وقالوا : السحاب فى أقطار السماء أى جوانبها ، وأحاط بالشىء من أقطاره أى من جوانبه ، وقطَّره - بالتشديد - ألقاه على جنبه ، ومن شواهد البلاغيين :

لَقَدْ عَلِمَتْ سَلْمَى وَجَارَاتُها   مَا قَطَّرَ الفَارِسَ إلا أنا

« الفتنة » : الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودته ، ثم قالوا : لكل شىء دخل النار : « قد فُتن » على سبيل الحقيقة ، وعليه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ (١) ، واستُعملت الفتنة فى العذاب حقيقة ، لأن إدخال النار عذاب ، ثم استُعملت الفتنة مجازاً فى سبب العذاب من الإثم والشرك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّى ، أَلَا فِى الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ (٢) أى ومن المنافقين مَن يقول : ائذن لى ولا تبلنى ، أو ولا تعذبنى ، وهم بقولهم ذلك قد وقعوا فى البلية والعذاب ، وقوله : ﴿ أَلَا فِى الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ﴾ ترى فيه القوم جميعاً قد سقطوا فى لحظة واحدة خاطفة وسريعة ، والعذاب متمكن منهم ؛ لأنهم فيه سقطوا واستقروا إلى قراره المكين ، واستعمال الفتنة فى موجب العذاب ، استعمال مجازى ومشعر بقوة السببية ، وقالوا : الفتنة فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ سُئِلُواْ الْفِتْنَةَ ﴾ معناها : الشرك وقبول القتال لمحمد ، وهى فى الحالين مجاز مرسل ؛ لأن الشرك سبب الفتنة ، أى العذاب فى النار ، وكذلك قتال محمد عليه السلام .

﴿ وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَا إِلَّا يَسِيراً ﴾ : لبث بالمكان : أقام به ملازماً له ، ﴿ وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَا ﴾ : أى ما أقاموا بها ، قال تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (٣) .

و« اليسير » القليل ، واليُسْر ضد العُسْر ، ومن دعائهم للحبلى : أيسرتِ وأذكرتِ ، أى يسرت عليها الولادة ، وقالوا : خذ بالميسور ودع المعسور ، أى خذ السهل ودع الصعب .

﴿ وَلَقَدْ كَانُواْ عَاهَدُواْ اللهَ ﴾ : العهد حفظ الشىء ومراعاته حالاً بعد حال ، ومنه تعهده بالرعاية والحفظ ، وسمى الموثق عهداً لأنه يُحفظ ويُراعى ، والعهد التبعية ، والعرب يقولون : إياكم والدخول تحت العهد والأمانات .

﴿ تُمَتَّعُونَ ﴾ : المتوع : الامتداد والارتفاع ، قالوا : جبل ماتع أى طويل مرتفع ، والمتاع الانتفاع الممتد الوقت ، يقولون : متعك الله بكذا ، أى نفعك به وقتاً طويلاً ، وهو مجاز حيث استعمل التمتيع الذى هو طول حسى فى طول

---

(١) الذاريات : ١٣ (٢) التوبة : ٤٩ (٣) العنكبوت : ١٤

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الانتفاع ، وهذا من المجاز الذى نسى ولحق بالحقيقة ، قال الراغب : كل موضع - يقصد فى القرآن - ذُكِر فيه : تمتعوا فى الدنيا ، فعلى طريق التهديد ، وذلك لما فيه من التوسع .

« القليل » : ضد الكثير ، والأصل أن تُستعمل القلّة والكثرة فى الأعداد ، كما أن الأصل فى العظم والصغر أن يُستعملا فى الأجسام ، ثم استُعمِل القليل مكان الصغير والكثير مكان العظيم ، والعكس على طريق المجاز ، وقد استُعمِلت القِلّة كناية عن الذِلّة ؛ لأن الذِلّة لازمة لها . قال الشاعر :

* إنَّمَا الْعِزَّةُ لِلْكَاثِرِ *

وتارة يكنى بها عن العزَّة ، وذلك لمراعاة أن ما يعز يقل وجوده كما قال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ ﴾ (١) .

الباء فى قوله : ﴿ وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَا إِلَّا يَسِيراً ﴾ للتعدية ، أى ما لبثوها وما أقروها ، وقيل : للظرفية ، والمعنى : ولو دُخلَت المدينة من أقطارها ، واشتدت الحرب ، ثم سُئلوا الفتنة والحرب لمحمد عليه السلام لطاروا إليها ، ولم يتلبثوا فى بيوتهم لحفظها إلا يسيراً ، وقيل : للسببية ، والمعنى : لم يتلبثوا بسبب حفظها إلا يسيراً ، وقيل : للملابسة ، والمعنى : ولم يتلبثوا ملابسين لحفظها إلا يسيراً ، وقوله : ﴿ يَسِيراً ﴾ وصف لمصدر محذوف أى إلا زماناً يسيراً .

وقد كثرت أقوال المفسِّرين فى بيان معنى هذه الآية فقيل : المعنى لو دُخلَت البيوت عليهم من جوانبها - على فرض أنها مخرَّقة ذات خلل - ثم طُلِب منهم القتال لأجابوا وهم فى هذه الشدة ، وخرجوا للقتال ولا يتأخرون إلا ريثما يأخذون أسلحتهم ، ثم يقول صاحب هذا الرأى : والمراد أنهم لو سألهم غيرك وهم فى أشد حال وأعظم بلبال لأسرعوا جداً ، فضلاً عن التعلل باختلال البيوت مع سلامتها كما فعلوا الآن ، وقيل : المعنى لو دُخِلَت المدينة

---

(١) سبأ : ١٣

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

من أقطارها واشتد الحرب الحقيقى ، ثم سُئلوا الفتنة والحرب لمحمد ﷺ لطاروا إليها ، ولم يتلبثوا فى بيوتهم لحفظها إلا يسيراً ، أى قدر ما يأخذون أسلحتهم ، وهذا منسوب لابن عطية الأندلسى ، ومع يقينى بجلالة هؤلاء الأئمة وقدرتهم على إدراك اللّمحة الدالة فى كتاب الله ، فإنى لا أرى ما ذهبوا إليه لأنه يُفهم أن المنافقين من رجال السلاح والحرب ، وهذا يخالف وصف القرآن لهم فقد وصفهم بالجبن والتخاذل ، وحتى إنهم حين يعدون إخوانهم من الكفار النُصرة والقتال معهم لا يفعلون ، فليس من أخلاقهم الوفاء بالوعد ، وخصوصاً إذا كان حرباً ونزالاً ، وقد حلل القرآن فيهم هذا الخُلُق ، ووصفه وصفاً معجزاً كاشفاً ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ﴾ (١) ، فإذا كانت مواقفهم مع إخوانهم الذين كفروا مواقف خذلان ونكث ، فكيف يكون المعنى إنهم لو سُئلوا قتال محمد لطاروا إليه ، أو أنهم لو سألهم غيرك وهم فى أشد حال أسرعوا ؟ ثم إن الكلام الوارد بعد هذا فى قوله تعالى : ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ كلام موجَّه إلى قلوب فزعة طائشة لا تصبر على حر النزال ، رغبة فى امتداد الحياة ومتاعها ، ونفوراً من الموت والقتل الذى يتصوَّرونه ماثلاً فى تلك الساحة نازلاً بهم لا محالة إن هم قاربوها ، والخور والجبن من الأوصاف النفسية اللازمة للمنافق لأنه ما نبذه فى سرب النفاق إلا عجز عن المواجهة .

وشىء آخر نستبعد به ما قاله ابن عطية هو : أنهم لو كان يقع منهم أن يُعمِلوا سيوفهم فى المسلمين حال الحرب لمكثوا وراء الخندق آمنين حتى تأتى

(١) الحشر : ١١ - ١٢

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

اللحظة الحاسمة ، وحينئذ ينضمون إلى أبى سفيان والأحزاب ، ولم تكن هناك ضرورة للاستئذان والتعلل بما ذكروه .

والوجه الذى أراه فى تفسير هذه الآية ما روى عن الحسن وعن قتادة من أن المعنى أن الأحزاب لو دخلوا عليهم المدينة ، وطلبوا منهم أن يعودوا إلى الكفر لأجابوا إجابة سريعة لا تردد فيها . فإن قلت : إن قوله : ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم ﴾ يدل على إحاطة العدو بهم ، وكأنهم لا يجيبون داعى الكفر إلا فى هذه الحالة من الشدة ، وهذا معناه أنهم متمسكون بالحق نوعاً من التمسك ، بدليل أن العدو لو طلب منهم الكفر وهو غير محيط بهم لما أجابوه ؟ قلت : إن المراد بيان شدة حذرهم ، وأنهم لا يعلنون الكفر الصريح ، ولا يقدرون على مجابهة محمد عليه السلام إلا إذا أيقنوا أن المدينة ليست لمحمد وأصحابه ، وإنما هى لمن دخلوا عليهم وأحاطوا بهم ، والتأخير اليسير فى قوله : ﴿ وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَا إِلَّا يَسِيراً ﴾ مراجعة أخيرة حتى لا يعطوا الفتنة - أى الكفر - إلا بعد أن يتأكدوا أن محمداً قد ذهب ريحه .

وقوله : ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ﴾ فيه حذف للفاعل وبناء الفعل للمجهول ؛ لأنه لا يتعلق بذكره غرض فى الجملة ، وليس من المهم فى تصوير الحالة أن نعرف مَن الداخل عليهم ، وإنما المهم أن يقتحم مقتحم بيوتهم فى المدينة وهم فيها ، فيقع الاقتحام عليهم ، فليس المراد أن تُقتحم المدينة وهم ليسوا فيها ، وليس المراد كذلك أن يُهاجَموا خارج المدينة ، وإنما المراد أن يُهاجَموا وهم داخلها ، وهذا سر ذكر المتعلق ﴿ عَلَيْهِم ﴾ ، حيث لا يجدون سبيلاً للهرب والفرار الذى هو مركبهم فى كل لحظة بأس .

ولصاحب روح المعانى ملحظ فى بناء الفعل للمجهول ، يقول : وفى إبهامه إشارة إلى أنه ليس المقصود داخلاً معيناً ، وإنما كل مَن أراد الدخول من أهل الدعارة والفساد ؛ كأنه يُفهم من البناء للمجهول معنى الإهانة والتعريض بأن بيوتهم يدخلها أى داخل .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وقوله : ﴿ ثُمَّ سُئِلُوا الفِتْنَةَ لآتَوْهَا ﴾ فيه أن الفتنة - أى الكفر - شبيه بأمر نفيس يُطلب منهم بذله ، وتعلق السؤال بها رمز لهذا التشبيه المضمر ، وهذا يلهمنا أنهم لم يضطروا إلى الفتنة حين يُحاط بهم هذه الإحاطة المفروضة فى الآية ، وإنما هى أمر كائن عندهم وعزيز لديهم ، يطوون عليه حنايا القلوب ، هى كفرهم الباطنى ، الذى يمارج فى قلوبهم المريضة الحقد الكظيم على الإسلام وأهله ، وقوله : ﴿ لآتَوْهَا ﴾ إشارة إلى هذا الانطلاق بعد الكظم ، أى لأتوها طيبة بها نفوسهم ، كما تطيب بانطلاقة النفس الحبيس ، واللام فى جواب « لو » لتأكيد ترتب الجزاء على الشرط ، أى لأتوها قطعاً .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ ﴾ موصول بقوله : ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً ﴾ والمناسبة ظاهرة أى هم لا يريدون إلا الفرار ، وكانوا عاهدوا لا يفرون ، وقد حاول المفسِّرون تحديد هؤلاء الذين عاهدوا ، وتحديد الذين استأذنوا ، والذين قالوا : ﴿ مَا وعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ ، فقالوا : إن الذين قالوا : ﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ﴾ هم عبد الله بن أُبَىّ وشيعته ، كما روى عن السدى ، وقالوا : هم بنو سلمة ، وقالوا : أوس بن قيظى وأصحابه بنو حارثة ، وقالوا : إن المستأذنين هم بنو حارثة بن الحارث ، وقد أرسلوا أوس بن قيظى للاستئذان ، وقيل : أرسلوا أبا عرابة بن أوس ، وقيل : المستأذنون بنو سلمة ، وقيل : الذين عاهدوا هم المستأذنون ، وقيل : إن بنى سلمة قد جبنوا يوم أُحُد ثم تابوا وعاهدوا قبل يوم الخندق ، وعن ابن عباس أنهم قوم عاهدوا بمكة ليلة العقبة ، وقيل غير ذلك ، ونرى أن تعيين هذه الطوائف ليس ذا خطر كبير فى الدرس الذى نفيده من هذه الآيات ، فإن بنى حارثة وبنى سلمة وغيرهم قد ذهبوا ، وبقيت هذه الآيات وصفاً دقيقاً لأمثالهم فى كل زمان ومكان ، والمهم أن هؤلاء عاهدوا لا يولون الأدبار ، وتولية الأدبار كناية عن الفرار ، وهى كناية فيها استهجان وتقبيح بالغ لصورة التولى ، والفار يولى قفاه وظهره وعقبه ودُبُره وكل جزء منه يكون مولياً لعدوه ، ولكن الكناية وقعت على الدُّبُر خاصة لمعنى التنفير والتقبيح الذى يقع فى

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

النفس حين ترتسم فى الخيال صورة الرجل الذى يولى دُبُره لعدوه ، ولهذا وقعت هذه الكناية فى مقامات التشديد والأمر بمواجهة العدو ، والتنفير من الفرار يوم الزحف الذى هو فى الإسلام قرين الشرك بالله ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ إشارة حاسمة إلى اللحظة الحاسمة فى موقف الصراع ، ووقوع هذه الكناية فى صيغة العهد ، أى مُعاهَداً عليها ، فيها إشارة إلى أن تولية الأدبار يجب أن يحرص كل رجل على ألا يوصف بها ، ولو لم يعط بذلك عهداً ، فكيف وقد عاهدتم ؟ أى أنكم نكثتم معاهدتكم لله بسبب شىء ما كان له أن يقع منكم ، ولو لم تعاهدوا ، حفاظاً على شرف النفس وكرامة الرجولية ، والأصل أن يقول القرآن : ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا نولى الأدبار كما جاء فى عهدهم ، ولكنه جاء بالكلام على الغيبة لإبعادهم عن المقام ودفع أن يكرموا بتكرير لفظهم ، وقوله : ﴿ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً ﴾ : فيه إضافة العهد لله للإشارة إلى وجوب مراعاته وحفظه ، وفيه التعبير بالماضى عن المضارع ؛ لأن العهد سيُسئل يوم القيامة ، وذلك للإشارة إلى تحقق الوقوع ، وفيه أيضاً إشارة إلى قوة الاقتدار حتى كأن ما أخبر الله بوقوعه قد وقع ومضى لأنه لا يتخلف له أمر سبحانه ، وهذه طريقة مشهورة فى أُسلوب القرآن ؛ ومنها قوله تعالى عدة لرسوله بفتح مكة عام رجوعه من الحديبية : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ (٢) . قال الزمخشرى : وجىء به على لفظ الماضى على عادة رب العِزَّة سبحانه فى أخباره ؛ لأنها فى تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة ، وفى ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى ، وسؤال العهد له طريقان فى علم البيان : إما أن يكون من باب الاستعارة المكنية فيُشبِّه العهد بإنسان وكأنه قد تشخَّص وقام يسأله الرحمن فيجيب ،

---

(١) الأنفال : ١٦   (٢) الفتح : ١

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وفى هذا خزى لمن نكث ولم يوف ، فالعهد الذى أهملوه ولم يكترثوا به ، يُبعث يوم القيامة معهم ويقف فى حضرة الرحمن ، يوجَّه إليه السؤال ، ويكون منه الجواب وهم منبوذون لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ، وهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم فى نكث العهد ؛ لأن الشهادة كانت من العهد نفسه ، وهى شهادة كشهادة الجوارح من الأيدى والأرجل ، لا سبيل إلى دفعها ، والطريق الثانى : أن يكون من باب المجاز الحكمى ؛ لأن العهد لا يُسئل ، وإنما يُسئل أصحابه عنه فقد أسند اسم المفعول إلى غير ما حقه أن يُسند إليه ، وهو كقولنا : أمر مطاع ، فالمطاع هم الآمرون ، والأصل : أطاعوا الآمرين فى أمرهم ، وكذلك فى الآية الأصل : يسأل الله الذين عاهدوا عن الوفاء بالعهد ، ويقال فى المجاز : أطاع الأمر ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (1) ، كما يقال : يسأل الله العهد عن الوفاء به ، وهذا من دقائق بحث المجاز العقلى ونفائسه كما قال صاحب المطوَّل .

وقوله : ﴿ لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ ﴾ مقطوع عما قبله قطع الإنشاء عن الخبر ، وهذا القطع ليس فصلاً بالمعنى اللُّغوى ، وإن كان فصلاً بالمعنى البلاغى ، أى أنك تجد علاقة قوية بين أن الفرار لا يطيل العمر ولا ينسأ فى الأجل وليس فيه نفع ، وبين الكلام السابق الذى يذكر فرارهم ونكثهم للعهد الذى التزموا فيه بألا يفروا ، والانتقال من الغيبة إلى الخطاب فى قوله : ﴿ لَّن يَنفَعَكُمُ ﴾ ضرب من الالتفات الذى يزيد الكلام تطرية وحُسناً وقدرة على إيقاظ القارىء وتنبيه حواسه كلها حتى يتلقى من الأسلوب كل همس فيه ، وله هنا مزية زائدة ، هى كأنه قد أحضرهم وواجههم بهذا اللوم ، وكفح وجوههم بهذا التعنيف ، وكلمة : ﴿ فَرَرْتُم ﴾ وما فيها من هذا التكرير الصوتى لحركة الراء المشدَّدة ، تعبر تعبيراً دقيقاً عن الحركة الحسية التى تحدث من الفار ،

---

(1) الشعراء : ١٥١

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وهو يفر فى ذعر ودهش طلباً للنجاة فى كل سبيل ، وناهيك عن نخب الفؤاد وهو يفر من الموت .

وقوله : ﴿ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ﴾ فيه التعبير بالموت والقتل عن ملاقاة العدو ونزاله ؛ لأن الفرار كان من ذلك ، وعبَّر بالموت والقتل عن الملاقاة ؛ لأن الملاقاة سبب للموت والقتل ، والسر البلاغى : هو التنبيه على أن الملاقاة فى يقينهم قتل وموت ، والتعبير بالمسبب عن السبب يُشعر بقوة هذا السبب ، حتى كأنه هو المسبب ، تقول : أمطرت السماء نباتاً ، أى ماءً هو سبب النبات ، تنبه بهذا التجوز على أن النبات لا يتخلف عن نزول هذا المطر .

وقوله : ﴿ وَإِذاً لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ معناه : وإن نفعكم الفرار بأن دفع عنكم ما أُبرم عليكم فَمُتِّعْتم ، لم يكن ذلك التمتيع إلا تمتيعاً قليلاً ، وهذا من باب فرض المحال كما قال صاحب روح المعانى . وقال بعضهم : المراد : إذا نفعكم الفرار فَمُتِّعْتم بالتأخير ، بأن كان ذلك معلقاً عند الله تعالى على الفرار مربوطاً به ، لم يكن التمتيع إلا قيلاً ؛ فإن أيام الحياة وإن طالت قصيرة ، وهذا بعيد عن دلالة الآية ؛ لأنه قال : ﴿ لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ ﴾ ، فنفى النفع بكلمة « لن » ، وسوق المعانى على سبيل الفرض والتقدير باب من أبواب الفصاحة تراه فى القرآن وفى كلامهم ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ (١) . قال الزمخشرى فى هذه الآية : « وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض ، وهو المبالغة فى نفى الولد والإطناب فيه وألا يترك الناطق شبهة إلا مضمحلة ، مع الترجمة عن نفسه بإثبات القدم فى باب التوحيد » .

ومنه فى كلامهم ما قاله سعيد بن جبير للحجاج لما قال له : أما والله

---

(١) الزخرف : ٨١

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

لأبدلنك بالدنيا ناراً تَلَظَّى ، قال سعيد : لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلهاً غيرك ، وقوله : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ ﴾ مفصول عن الأمر الواقع قبله ، أى قوله : ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ﴾ تأكيد له ، فإن نفى العصمة من الله إن أراد خيراً أو شراً تأكيد لنفى نفع الفرار ، والثانى أوكد فى الدلالة على المعنى وهو نفى نفع الفرار ، انظر إلى قولنا : لا يدفع الفرار عنا موتاً كتبه الله علينا ، وقولنا : لا يعصمنا من قدر الله عاصم ، تدرك علاقتهما والفرق بينهما ، وهو فى الإنشاء مثل قوله تعالى فى الخبر : ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْراً ﴾ (١) ، فإن الجملة الثانية مؤكدة للأولى ، والثانية أوكد فى الدلالة على نفع السماع حيث جعل فى أذنيه وَقْراً ؛ وقوله : ﴿ مَن ذَا الَّذِى ﴾ استفهام فى معنى النفى ، أى لا أحد يعصمكم من الله ، والفرق بين النفى بالاستفهام والنفى بأداة النفى - مثل « ما » و« لا » - أنك فى الاستفهام كأنك تطلب من المخاطَب أن يبحث عمن يعصمه من الله ، فإذا ما جدَّ واجتهد ولم يجد عاصماً أيقن بالنفى وهذا أبلغ . يقول عبد القاهر فى ذلك : « واعلم أنّا وإن كنا نفسر الاستفهام فى مثل هذا بالإنكار فإن الذى هو مَحْضُ المعنى أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيا بالجواب » . . انتهى كلامه . وهذا يعنى أنك تلحظ فى الاستفهام معنى لا تجده فى النفى ، وكأنه قال : أى رجل يستطيع أن يدَّعى أنه يعصم من الله ويقدر على ذلك ويطيقه ويظن فى نفسه أنه أهل لأن يواجه هذه القدرة القاهرة ويمنع مقدورها ، أى لا أحد يستطيع ذلك ، وهذا المعنى لا تجده فى النفى الصريح ، ويظهر لك الفرق إذا نظرت فى قولك : « أأنا أظلم الضعفاء » ؟ على معنى الاستفهام الإنكارى ، أى أنك لا تظلمهم وقارنته بقولك : « أنا لا أظلم الضعفاء » كأنك قلت فى الأول : إن ظلم الضعفاء مما لا يقع منى ولا يتفق وما عُرِف عنى من الحب لهم ، والشفقة عليهم فكيف يُظَن بى ذلك ، وقدَّم

---

(١) لقمان : ٧

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

السوء على الرحمة فى قوله : ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ لأن المقام مقام تهديد .

وقوله : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً ﴾ معطوف على الإنشاء السابق بحسب المعنى ، ووجه المناسبة أن هذه تنفى الولى والنصير لهؤلاء ، والتى قبلها تنفى أن يكون لهم عاصم يمنعهم من الله ، قال صاحب روح المعانى : والمراد الأولى فيجدوه . . . إلخ ، فهو كقوله :

* وَلَا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرْ *

وهو معطوف على ما قبله بحسب المعنى فكأنه قيل : لا عاصم لهم ولا ولى ولا نصير » . . انتهى كلامه . وقوله : « فهو » كقوله : « وَلَا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرْ » يشير به إلى طريقة بليغة فى النفى حيث يريدون نفى الشىء ، فيوجهون النفى إلى لازمه ، وبذلك يكون نفى الملزوم أبلغ ، وذلك كقول الشاعر يصف فَلَاة :

لا يَفْـزَعُ الأَرْنَبَ أَهْوَالُهَـا وَلَا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرْ

أراد : ليس بهذه الصحراء أهوال ، فقال : لا يفزع الأرنب أهوالها ؛ لأنها لو كان بها أهوال لأفزعت الأرنب ؛ لأن الأرنب يفزعه أى هول ، وقوله : « وَلَا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرْ » معناه أنه ليس بها ضب فينجحر ، نفى انجحار الضب وأراد نفى وجود الضب ؛ لأن الانجحار لازم لوجوده ؛ فليس هناك ضب لا ينجحر ، ومثل ذلك قول امرىء القيس وهو مشهور فى هذا الباب :

* عَلَى لَاحِبٍ لَا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ *

واللاحب الطريق الواضح الذى يسلكه الناس كثيراً من قولهم : لحب الطريق يلحبه كمنع : سلكه ، وقولنا : طريق لاحب كقولنا : طريق سائر ، والمنار : جمع منارة وهى العلامة التى تجعل بين الحدين . والمقصود أنه نفى الاهتداء بالمنار ، وأراد نفى المنار ؛ لأن المنار لا يسمى مناراً إلا إذا اهتدى به

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

السالكون ، فنفى الاهتداء دليل على نفى وجوده ، وهذا من البحوث النفيسة التى يقل دورانها فى الكتب ، وليس المقام مقام استقصاء وإنما هى إشارة .

* *

يعرض القرآن صوراً شتَّى من صور هذا الإنسان الذى هو القضية الكبرى فى هذا الكتاب المبين ، هذه الصور منها صورة مضيئة تملأ القلب والروح والضمير بالخير والفضل ، وكل معنى من معانى الإنسانية النبيلة ، وذلك ليلتفت المسلم إليها ، فيستلهمها كل معنى تزكو به نفسه ، ويُنَقَّى به ضميره ، ومنها صور وبيئة وأخلاق ملتوية عرضها القرآن فى جلاء وبيان ليلتفت الإنسان المسلم إليها ، فيرى فيها صور الرذائل الكريهة ماثلة فى تصرفات الإنسان وسلوكه منحدرة به عن المستوى الإنسانى الذى تستشرف إليه كل فطرة نقية فينفر منها بمقدار ما أوتى من نعمة حب الخير والصلاح والتمسك بهما .

وتعرض هذه الآيات : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ ﴾ .. إلخ ، سلوك طائفة من طوائف البَشر فى مواقف التصلب والدفع عن الحق ، تراهم يتخاذلون وينكصون عند كل وثبة من هذه الوثبات ، تخذلهم أمراض فى قلوبهم عن النهوض والمواكبة ، ولم يقفوا عند هذا الحد من العجز والتخلى ، وإنما ينفثون تخذلهم الوبىء فى صفوف الجماعة الصامدة .

وتلفتنا هذه الآيات إلى أن الدفع عن الحق لا يكون إلا بقلوب مؤمنة ، صح إيمانها ، وصدقت فى عقيدتها ، واستمدت من هذا الإيمان الصحيح والعقيدة الصادقة قوة وصلابة كانت بهما أعتى من الموقف العاتى ، وأصلب من الشر الصليب ، وبغير هذه النفوس لا يكون دفع ولا يكون للخير بقاء ، وليس أضر على الاجتماع البَشرى - كما يقول علماؤه - من التزوير فى العقائد ، والنفاق فى المبادىء ، فيحمل شعار الثورية رعديد متخاذل ، ويتصدى للإصلاح شيطان رجيم .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وقد أدرك صاحب روح البيان شيئاً فى نور هذه الآيات فقال ببصيرة العالِم : « فى الآية إشارة إلى مرض القلوب وصحة النفوس وخاصيتهما إذا وكلتا إلى حالتهما من فساد الاعتقاد ، وسوء الظن بالله ورسوله ، ونقض العهود والاغترار بتسويلات الشياطين ، والفرار من معادن الصدق ، والتمسك بالحيل والمكايد والكذب ، والتعلل بالأعذار الواهية ، وغلبات خوف البَشرية والجبن وقِلّة اليقين ، والصبر ، وكثرة الريب والجزع من احتمال خطر الأذية لو سئلوا الارتداد عن الإسلام ، والإشراك بعد الإقرار بالتوحيد ، لأجابوهم وجاءوا به ، وما تلبثوا - يعنى فى الاحتراز عن الوقوع فى الفتنة - إلا يسيراً ، بل أسرعوا فى إجابتها » .

* * *

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ، وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (الآية : ١٨) .

* *

قالوا : نزلت الآية فى عبد الله بن أُبَىّ ، ومعتب بن قشير ، ومَن رجع من المنافقين من الخندق إلى المدينة ، كانوا إذا جاءهم المنافق قالوا له : ويحك ، اجلس ولا تخرج ، ويكتبون إلى إخوانهم فى العسكر : بأن ائتونا فإنَّا ننتظركم .

وقالوا : هى فى المنافقين ، كانوا يقولون لإخوانهم من ساكنى المدينة من أنصار رسول الله ﷺ : ما محمد - عليه الصلاة والسلام - وأصحابه إلا أكلة رأس ، ولو كانوا لحماً لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه فخلوهم .

وقالوا : انصرف رجل من عند رسول الله ﷺ يوم الأحزاب إلى شقيقه فوجد عنده شواءً ونبيذاً ، فقال له : أنت ههنا ورسول الله عليه الصلاة والسلام

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

بين الرماح والسيوف ؟! فقال : هَلُمَّ إلىَّ ، فقد أُحيط بك وبصاحبك ، والذى يُحْلَف به لا يستقبلها محمد أبداً ، فقال : كذبتَ والذى يُحْلَف به لأخبرنه بأمرك ، فذهب ليخبره صلى الله عليه وسلم ، فوجد جبريل عليه السلام قد نزل بهذه الآية . وقالوا غير ذلك ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، كما قرر الأصوليون ، والتعويق والاعتياق والعوق معناه : الحبس والصرف والتثبيط ، والعائق : الصارف عما يُراد من خير ، ومثله المعوق ، والفعل : عاقه وعوقه واعتاقه ، ومنه عوائق الدهر ، و﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ ﴾ معناه تحقيق علم الله لهؤلاء المثبطين الصارفين عن وجوه الخير ، وتحقيق علم الله ، يعنى تحقيق الوعيد والتهديد لأن المراد بهذا الإخبار تهديد هؤلاء المعوِّقين ، ووعيدهم ، ونذيرهم بما أعدَّه لهم العليم من العذاب والسعير ، و« قد » إذا دخلت على المضارع كانت بمعنى « ربما » فوافقت « ربما » فى الخروج إلى معنى التكثير .

قال زهير :

أَخُو ثِقَةٍ لا تُهْلِكُ الْخَمْرُ مَالَهُ ... وَلَكِنَّــهُ قَدْ يُهْلِكُ الْمـالَ نَائِلُه

أى : إن نائله يهلك ماله لا محالة ، ومثل « ربما » فى هذا قول الآخر :

فَإِنْ تُمْسِ مَهْجُورَ الفِنَاءِ فَرُبَّمَا ... أَقَـامَ بِهِ بَعْدَ الْوُفُـودِ وُفُــودُ

أى : إن أمسى فناؤك مهجوراً فمن المحقق أن وفوداً متتابعة قد أقامت به ، أى أنه كان عامراً لا محالة ، و« قد » من الحروف المختصة بالأفعال وإذا دخل على الفعل الماضى دل على أن هذا الفعل متجدد ، مثال ذلك قوله : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ، فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾ (١) فالآية شىء حدث وتجدد بلقاء الفئتين ، ولهذا لم تدخل « قد » على أوصاف المولى سبحانه وتعالى الذاتية ، فلا يصح أن نقول فى : ﴿ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً

(١) آل عمران : ١٣

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

حكِيماً ﴾ (١) ، وقد كان الله عليماً حكيماً ؛ لأن علم الله قديم ، وهى إنما تدخل على الفعل المتجدد كما قلنا ، أما ما جاء من مثل قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ ﴾ (٢) فإن الذى تجدد هو سماع الله مجادلة هذه المرأة فى أمر زوجها وشكواها منه ، فالسماع مُقيَّد بالمفعول .

وقوله : ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ أى أقبلوا إلينا ، وهو عند بعض الأئمة صوت سمى به الفعل ، ومنهم الزمخشرى فهى اسم فعل أمر ، ويكون متعدياً مثل : ﴿ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ ﴾ (٣) ، ويكون لازماً مثل ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ ، وقال أبو حيان : إن الذى عليه النحويون أن « هَلُمَّ » ليس صوتاً ، وإنما هو مُركَّب ، واختُلِف فى أصل تركيبه ، فقيل : مُركَّب من « ها » التى للتنبيه ، و« ألم » بمعنى اقصد وأقبل ؛ وهو مذهب البصريين ؛ وقيل : من « هل » ، و« أم » بتشديد الميم ، كأنه قيل : هل لك فى كذا أمه ، أى اقصده ، فَرُكِّبا ، والحجازيون يسوون فيها بين الواحد والاثنين وما فوقهما ، وتميم وأهل نجد يصرفونها كما يصرفون الأفعال وهو فعل أمر عندهم ، فيقولون : هَلُمَّا وهلموا وهلممن .

وقوله : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ : البأس المراد به الحرب ؛ والبأس الشدة والمكروه ؛ وسميت الحرب بأساً ؛ لأن الحرب سبب الشدة ؛ ولقوة السببية صار السبب كأنه المسبب ؛ والبأس والبأساء والبؤس كلها بمعنى الشدة ؛ وقالوا : البؤس فى الفقر والحرب أكثر ، والبأس والبأساء فى النكاية أكثر ، وقالوا للشجاع : بئيس - على وزن فعيل ؛ لأنه يوقع منازله فى البؤس والشدة والمكروه ، وكان صلى الله عليه وسلم يكره البؤس والتباؤس والتبؤس أى الضراعة ، وأن تجعل نفسك ذليلاً خانعاً ، وقوله : ﴿ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ أى : إتياناً قليلاً أو زماناً قليلاً ، أى ريثما يرى الناس وجوههم ، فإذا أغفلوا عنهم عادوا إلى بيوتهم ، والمراد بإتيانهم البأس أى قتالهم ، وعبَّر عن القتال بالإتيان على طريق المجاز المرسل وفيه تجنب إسناد القتال إليهم ، فإن القتال

(١) النساء : ١٧٠ (٢) المجادلة : ١ (٣) الأنعام : ١٥٠

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

فى صفوف المسلمين شرف وكرامة ، والقتال يعطيهم قوة ومهابة ، وفيه كذلك أنهم كأنهم يأتون الحرب فقط ولا يقاتلون ، وكأن هدفهم يتحقق بمجرد الإتيان لأنهم يراءون ، والمولى سبحانه فى قوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ ﴾ يلوح بسوط عذابه لهؤلاء العجزة الحاقدين الذين يعوقون مسيرة الفئة البناءة ، التى نفث الله فيها حب الخير وعمارة الحياة ، يلوح بسوط عذابه لهذه الفئة التى تحبس جاهدة طاقة الخير الخلاقة التى تستشرف بالإنسانية إلى مراقى السمو والصفاء مستهدية بصائرها فى ذلك بنور الله ، ومقتدية برسالة أنبيائه وصفوة خلقه عاملة ناصبة فى نكران عجب للذات ، راغبة فى صلاح الدنيا والناس ، محققة بذلك معنى خلافة الإنسان فى طُهْر ونقاء ، وكأن هذه الفئة فى وجودها المعوق ضرب من الابتلاء والتمحيص لهذه الطاقات النقية تزيدها صلابة وقوة ونقاء ، ومن الإعجاز البيِّن فى هذا الكتاب المبين أنك حين تنزع الجملة من سياقها بين الآيات متمثلاً بها فى المواقف المتشابهة ، رأيتها كأنها نزلت لهذا الموقف الذى تتمثل بها فيه ، انظر حولك تجد المعوِّقين الذين يثبطون العزائم الماضية فى الخير والصلاح ، ثم اقرأ الجملة : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ ﴾ أو أسمعهم إياه ، حينئذ تراهم يبلسون حيث يشعرون أن الآية كأنها نزلت فيهم كما أحس أمثالهم الذين عاشوا فى المجتمع الذى نزل فيه القرآن .

وقوله : ﴿ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ : تصف خُلُقاً ثانياً من أخلاق هذه الفئة ، تصف أنهم فى كل عصر يتجمعون ويتجاوبون ويتحالفون فى جبهة تدفع الحق ، وتعوق مسيرة الخير ، وهذا أخطر من التثبيط نفسه ؛ لأنه بناء كيان لهذا الشر فى حياة الناس ، وهذا الكيان يتوارث تلقائياً فى أجيال البَشرية ، يجده كل جيل فى صورة هذه الشخوص التى عنتها الآيات ، والتى نراها فى دنيانا قبيحة قبح الشر مظلمة فى النفوس ظلمة الشيطان ، وصدق الله فما أشد ما بينهم من تشابه ، كأنهم أبناء أب واحد وأم واحدة ، ولكن التشابه هنا ليس فى قسمات الوجوه وملامحها ، وإنما هو فى قسمات النفس

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ورغائبها ، التشابه فى هذا الالتواء وهذا الحقد الأعمى على هذه الصفوة الملهمة التى أدركت معنى الإنسانية فى الإنسان ، وأبت إلا أن تكون حياتها خدمة خالصة لهذا المخلوق الذى كرَّمه الرحمن .

وقد أدرك الزمخشرى هذا التشابه النفسى بين أفراد هذا الحزب وأعضاء هذا الكيان وألمع إلى ذلك بقوله فى تفسير : ﴿ هَلُمَّ إلينَا ﴾ ، حيث قال : « أى قَرِّبوا أنفسكم إلينا » ، فهم يتجمعون على أساس الاتفاق فى المشارب ، وخلال النفوس وشياتها ، حتى إنه ليخيل إلينا أن لو انشقت الأرض عن واحد من الذين عاشوا مع النبى ، ممن أشارت إليهم الآيات فى وقت نزولها ، سوف يعيش مع الجماعة فى زماننا حياة تآلف وتعاطف ، لا ينكرهم ولا ينكرونه .

﴿ وَلَا يَأْتُونَ البَأْسَ إلَّا قَلِيلاً ﴾ : لفت سريع إلى أن هذا التحالف الباغى ، وهذا التجمع المظلم لا قدرة له على البأس والصمود ، فهو لا شك مهزوم فى حلبة الصراع ، وقد صدق الله وصدق رسوله ، فلست ترى أجبن قلباً ولا أكثر هلعاً وفزعاً من هؤلاء الحقدة وكم نواجههم بالحق الغلاب فينخذلون ، وعتوهم لا يعدو أن يكون هبَّة من ورائها خمود ولا يخدع أهل الحق أن يُرخى الله لهم فى العنان ، فإنهم بعد ذلك مأخوذون ، وليس هذا الإرخاء إلا تمحيصاً لإيمان هذه الفئة المجاهدة فى سبيل خير الإنسان ، حتى لا يبقى فى صفوفها دعىّ ولا زنيم ؛ لأن الله قد أعد لها النعيم المقيم ، وصدق سبحانه حيث يقول : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (١) ، وهذا يفسِّر لنا هذه الصعوبات ، وهذه المشاق التى تواجه هذه الطلائع فى تاريخ الإنسانية ، وكيف تستعذبها لأنها فى الحقيقة تنقية لجوهرها ، وكيف كان يقول بلال وهو فى رهبة التعذيب المسعور : أحد أحد ،

(١) العنكبوت : ٢

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

معلناً بذلك صلابة الحق فى مواجهة هذا الجنون . ولا زالت البَشرية تشهد أمثال بلال ، ممن يعلنون صلابة الحق فى وجه الباطل المغرور

* * *

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا جَاءَ الخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ ، فَإِذَا ذَهَبَ الخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الخَيْرِ ، أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً ﴾ (الآية : ١٩) .

* *

﴿ أشِحَّةً ﴾ : جمع شحيح ، يقال : رجل شحيح ، وقوم أشحة ، وسمع أشحاء كأضناء ، وأخلاء ، وهو قياسه ، لأن فعيل إذا كان وصفاً مضعف العين واللام جمع على أفعلاء ، ولهذا قالوا : إن أشحة جاء على غير القياس الصرفى .

و﴿ الخَوْفُ ﴾ : توقع مكروه عن أمارة مظنونة ، أو معلومة ، وضده : الأمن ، قالوا : والخوف من الله لا يُراد به ما يخطر بالبال من الرعب ، كاستشعار الخوف من الأسر ، وإنما يُراد به الكف عن المعاصى والإقبال على الطاعات ، وقد نهى الله المؤمنين عن الخوف من الشيطان ومن أوليائه ، وهم أعداء الحق من الكفار والملحدين ، وكل ما هو فى نظر الشرع ولياً لهذا الشيطان ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ ﴾ (١) .

---

(١) آل عمران : ١٧٥

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

و﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ ﴾ ، ماضيها : دار ، ومصدرها : دوراناً ، وقد لحظوا معنى الحركة المستعرة فى بناء هذا المصدر ، فجاء بهذه الحركات المتتابعة ، ومثله : الجولان ، والهيمان ، والغثيان ، والخفقان . ويقاس المصدر على وزن « فعلان » لفعل اللازم مفتوح العين إذا دل على تقلب واضطراب ، وهو مذهب الأخفش وسيبويه .

قالوا : وسميت الدار داراً ، لأن الجدار يدور بها ، وسميت البلدة داراً ، لأن الدور تدور بها ، قالوا : ديار عاد وثمود ، والدوَّار - بتشديد الواو - : صنم من أصنامهم يدورون حوله .

﴿ ويُغْشَىٰ عَلَيْهِ ﴾ : قالوا : غشيه غشاء ، وغشاوة : ستره وغطَّاه ، والغشاوة : الستر ، ومنه : ﴿ غَشِيَهُم مَّوجٌ ﴾ (١) ، ﴿ وتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ (٢) ، والغاشية : هى النائبة التى تغشاهم وتغطى عليهم .

﴿ سَلَقُوكُم ﴾ : قال الراغب : السلق : بسط بقهر إما باليد أو باللسان ، ومنه التسلق على الحائط ، وقال الزمخشرى : سلقت اللحم عن العظم : قشرته ، وركبت الدابة فسلقتنى : إذا سحجت باطن فخذيك وأليتيك ، وسلق الرأس فى الماء الحار حتى ذهب شعره ، وفى الصحاح : سلقه بالكلام : آذاه ، وهو شدة القول باللسان ، وسلق البقل أو البيض : أغلاه بالنار إغلاءة خفيفة ، وباب الكل : ضرب .

« الحِدَاد » : قالوا : حددتُ السكين ، أى : رققتُ حدّه ، وأحددتُ السكين ، أى : جعلتُ له حداً ، ثم قالوا لكل مارق فى نفسه من حيث الخِلْقة أو من حيث المعنى كالبصر والبصيرة : حديد . فقالوا : هو حديد النظر وحديد الفهم . قال عزَّ وجلَّ : ﴿ فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (٣) ، ويقال : لسان حديد ، كما يقال : لسان صارم .

---

(١) لقمان : ٣٢ (٢) إبراهيم : ٥٠ (٣) سورة ق : ٢٢

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

﴿ فَأَحْبَطَ ﴾ : الحبط من الحَبَط - بالفتح : وهو أن تكثر الدابة أكلاً حتى ينتفخ بطنها فتموت ، وقال عليه السلام : « إن مما يُنْبِتُ الربيعُ ما يَقتُل حَبَطاً أو يُلِمّ » - بضم الياء وفتح اللام - أى : أو يكاد ، من قولهم : ما فعل كذا أو ما ألم ، أى : وما كاد يفعل ، قال الزمخشرى : حَبِطَ بطنه : انتفخ ، ومن المجاز حَبِطَ عمله حُبُوطاً ، وحَبْطاً - بالسكون ، وأحبط الله عمله .

* *

قوله : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ : قال البصريون : هو حال من فاعل « يأتون » فى قوله : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ ، والمعنى : تركوا الإتيان أشحّة . وقال الفرَّاء : هو منصوب على الذم ، وقيل : على الحال من ضمير ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ ، وقيل غير ذلك ، وقد ذهب المفسرون فى تحديد معناها مذهبين تفرع من أحدهما وجوه . .

قالوا : المراد وصف هؤلاء المنافقين بالبخل والشُّح على المؤمنين ، أى : هم بخلاء عليكم ، وهذا هو الوجه الأول .

وقالوا : المراد وصفهم بالبخل بالمؤمنين ، والشُّح بهم ؛ لأن هؤلاء المؤمنين يمنعونهم من أعدائهم ، ويذودون عنهم وعن أموالهم ، وهذا هو الوجه الثانى .

ثم إن القائلين بأن المعنى : بخلاء عليكم ، ذهبوا فى تفسير ما يبخلون عليهم به مذاهب ، فقال بعضهم : بخلاء عليكم بالنفقة والنُصْرة ، وقد روى هذا عن مجاهد وقتادة ، وقال بعضهم : بخلاء عليكم بأنفسهم ، وقال بعضهم : بخلاء عليكم بالغنيمة عند قسمتها ، وقال بعضهم : بخلاء عليكم بكل ما فيه منفعة ، فالمفعول محذوف ، ليتناول كل ما يتناوله البخل ، وقد استحسن هذا أبو حيان ، وهو أحسن عندنا ، وأبلغ فى تصوير طبيعة الشُّح فى نفوس هؤلاء ، وحقدهم على المؤمنين حقداً يجعلهم يضنون عليهم بكل ما فيه خير ومنفعة لهم ، سواء أكان ذلك نُصرة أو غنيمة ونفقة أو غير ذلك .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

والرأى الثانى ذكره الزمخشرى وتبعه فيه بعض المدققين ، قال الزمخشرى : « المعنى أضِنَّاء بكم يترقرقون عليكم كما يفعل الرجل بالذَّابِّ عنه ، المناضل دونه عند الخوف ، وذلك لأنهم يخافون على أنفسهم لو غلب النبى عليه السلام ومَن معه من المؤمنين ، حيث لم يكن لهم مَن يمنع الأحزاب عنهم ، ولا مَن يحمى حوزتهم سواهم » .. انتهى كلامه .

وبهذا تكون الآية تصويراً لما يختلج فى نفوس هؤلاء المنافقين من الخواطر المتضاربة والآراء المتناقضة ، وذلك لأننا نعلم أن المنافقين تمتلئ قلوبهم بالبغضاء والحنق على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وأصحابه ! فكيف يكون منهم الشُّح والضن بهم والخوف عليهم ؟

ليس ذلك إلَّا لوناً من الصراع الذى تضطرم به هذه القلوب المريضة ، وضرباً من الأنانية والخوف على الذات ، يدفعها إلى حب ما تكره ، والحرص على ما ترجو ذهابه . وقال بعض المفسرين : كان المنافقون يفعلون ذلك رياءً ، أى كانوا يتظاهرون بالحرص على المؤمنين والضنِّ بهم ، وإذا قبلنا هذا التفسير لشُّحهم بالمؤمنين ، أفادنا ضرباً آخر من نفاقهم وريائهم وتظاهرهم بالحدب على المؤمنين والحرص عليهم ، وإذا قبلنا التفسير الأول الذى ذهب إليه الأكثر غير الزمخشرى تكون الآية الكريمة وصفاً لضرب من ضروب الكراهية والحقد الكامن فى نفوس المنافقين لمحمد وأصحابه ، والرغبة فى أن يدفعوا عنهم كل ضرب من ضروب الخير والنفع ، وهذا ديدن الحاقد ، وخُلُق المبغض اللّدود ، يؤذيه كل إيذاء أن يرى سَيْبُ الله ، وعطاء المنعم يصل إلى خلقه ، فما بالك إذا وصل هذا العطاء إلى مَن يتركز عليه حقده ، وكيف يصنع إذا كان بيده خير ، فهل تراه يصل منه إلى هذا العدو اللّدود ؟ وما أروع القرآن حين ذكر ذلك بالشُّح ، فالشُّح - كما يقولون - منع الشىء مع حرص ، والحرص : خُلُق واضح فيمن لا يثق فيما عند الله .

وقد رجح بعض المحققين ما ذهب إليه الزمخشرى ، قالوا : لأن هذا

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

المعنى هو مقتضى اللُّغة والبلاغة ، أما إنه مقتضى اللغة فلأن الشُّح على الشيء هو أن يُراد بقاؤه ، فقول : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ أى يريدون بقاءكم . وهذا معنى قول الزمخشرى : أضنَّاء بكم ، وهذا ما يفيده كلام الجوهرى فى الصحاح ، وأما إنه مقتضى البلاغة : فلأن قوله : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ بهذا المعنى يكون توطئة لقوله بعده : ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ ﴾ لأن ذلك تفسير لضنِّهم بهم وحرصهم على بقائهم من حيث أن فيه بياناً لوجه الشُّح بهم وسببه ، والتفسير بعد الإجمال ضرب من ضروب الحسن فى الكلام . وقد رجح الوجه الأول بوجهين من وجوه البلاغة :

١- إننا لو قلنا : إن معنى : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ ، أى : بخلاء عليكم بالخير ، يكون قوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ ﴾ تفريعاً وتأسيساً ، لا شرحاً وتفسيراً ، وملاحظة التأسيس فى المعانى أولى من ملاحظة التفسير ، لأن فى التأسيس ثراء للمعنى ، وزيادة له فى الفائدة .

٢ - إننا لو قلنا : إن معنى : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ أى بخلاء عليكم بالخير نجد فى الكلام ميزة التدرج فى الوصف والانتقال فيه من البليغ إلى الأبلغ ، وذلك لأن قوله بعد ذلك : ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ﴾ وصف للقوم بالبخل والضنّ بكل خير على المؤمنين ، وعلى غير المؤمنين ، وذلك لما فيها من الإطلاق ، وهذا درج أعلى فى وصفهم بالشُّح بالخير على المؤمنين .

وما نقل عن الصحاح وجه من وجوه المعنى ، وليس هو وجهه الذى لا يحتمل غيره ، وإلا لما صح ما ذهب إليه الأكثر .

وأصحاب البصر بصناعة الكلام فى القديم والحديث ينوهون بهذه الصياغات المرنة ، التى تكتنز الكثير من المعانى وتعطى منها العطاء الوفر الخصيب ، ويجعلون ذلك آية الاقتدار ، وأمارة السبق فى مضمار البيان .

أقول ذلك ، لأننى حاولت أن أفاضل بين هذين الوجهين فى تفسير هاتين الكلمتين : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ فما وجدت إلى المفاضلة سبيلاً ، وأحسست

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

أن كل معنى مما ذكرناه يتصل بها أوثق اتصال ، ويتلاءم معها أحسن ملاءمة ، فلا هو ينبو عنها ، ولا هى تضيق به ، وقد ذكرت قول العلامة المرحوم الدكتور عبد الله دراز حين قال فى مثل هذه الصياغات الفذَّة المرنة التى تُلهمك معنى ، فتظن لشفوف دلالتها عليه : أنها لا تحتمل غيره ، فإذا أمعنت النظر أدركت معنى آخر لا يقل عن سابقه فى الوضوح والبيان ، قال رحمه الله : « وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خبراً ، ووقعت على معناه محدوداً ، هذا ولو رجعت إليه كرَّة أخرى لرأيتك منه بإزاء معنى جديد غير الذى سبق إلى فهمك أول مرة ، وكذلك : حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة وجوهاً عِدَّة كلها صحيح أو محتمل للصحة ، كأنما هى فص من الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعاً ، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها ، فلا تدرى ماذا تأخذ عينك وماذا تدع ، ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك رأى فيها أكثر مما رأيت : وهكذا تجد كتاباً مفتوحاً مع الزمان ، يأخذ كل منه ما يُسِّرَ له ، بل ترى محيطاً مترامى الأطراف ، لا تحده عقول الأفراد ولا الأجيال » .. انتهى كلامه رحمه الله ، ولست فى حاجة إلى تذييله ، وإنما أدعو إلى تأمله وحفظه ، فهو من أصح ما يقال فى وصف أسلوب القرآن وهو صياغة حديثة لمعان قديمة .

وقوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ ﴾ : فيه تصوير الخوف فى صورة هول ورعب مجسَّد ، تكون منه حركة ومجىء ، وهكذا يكون وقعه فى النفوس المنافقة الفزعة الخاوية التى تحسب كل صيحة عليها ، وقد ذهبوا فى تفسيره مذهبين ؛ قيل : هو الخوف من العدو والقتال ، أى : إذا جاء العدو لاذوا بكم ونظروا إليكم نظر الخائف الملتاع ، وكأنهم لخورهم وجبنهم قد انخلعت قلوبهم ، فهم كالمغشىّ عليه ضعفاً وفتوراً وقِلَّة حيلة ، وبهذا يكون الكلام تصويراً لجبنهم وخوفهم من الحرب والعدو ، وهو الوجه المشهور ، وقيل : الخوف هنا غلبة محمد عليه السلام وأصحابه ، أى : إذا ظهرت غلبتكم

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

لأعدائكم رأيتهم مضطربين خائفين متوقعين الشر من جهتكم ، لأنهم كانوا يتربصون بكم ، وينتظرون هزيمتكم واستئصالكم .

ويكاد المريب يقول خذونى ، فهم ينظرون إليك نظر الخائف منك الذى يتوقع الاستئصال من جهتك ، وبهذا يكون الكلام وصفاً لدغل نفوسهم ، واضطراب أهوائهم .

قلنا إن قوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ ﴾ فيه تصوير للخوف فى صورة حى مخيف يتحرك ويجيء ، وقوله : ﴿ جَاءَ ﴾ دليل هذا التصوير ورمز هذا المجاز ، وله موقع آخر من الحسن هو مقابلته لقوله : ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ ﴾ وهكذا يريك المنافقين بين حالين متباينين فى مدى هذين الطرفين مجيء الخوف وذهابه .

وقوله : ﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ ﴾ أصله : تدور أحداقهم فى أعينهم ، ولكنه لشدة هذا الدوران وسرعة هذا التقلب خيل أن العيون كلها تدور ، فليس الدوران دوران المحاجر والأحداق ، ولكنه دوران العيون حتى الجفون والأهداب ، وهذا لون من صفة البيان يسميه أهل الفن : إطلاق المحل على الحال ، وهو ضرب من المجاز المرسل .

هذا من حيث استعمال كلمة « أعينهم » فى أحداقهم ، أما قوله : « تدور » فإن فيه ملحظين لأهل صنعة البيان ؛ الأول : اختيار هذه المادة وكان يمكن أن يقول : رأيتهم ينظرون إليك تتلفت عيونهم ، أو تتقلب محاجرهم ، ولكنه آثر على ذلك كلمة « تدور » ، وذلك لقوة تصوير الحركة الدائبة ، حيث تظهر فى الدوران أكثر من ظهورها فى التقلب ، أو الالتفات ، فإن الدوران - كما قلنا - من الكلمات المصوِّرة لمعناها بهيئتها ، والثانى : مجيئها على صيغة المضارع ، تلك الصيغة الكاشفة التى تصف الحدث - وهو يقع - أتم وصف ، وتبينه أبلغ بيان ، وعليك أن ترجع إلى نفسك وأن تردد كلمة « تدور » ، ثم تبصر ما تجد ، سوف ترى فى خيالك هذه العيون فى حركتها الدائبة

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

اللاهثة، تدور وتدور ، وهذا الدوران مستمر لا يزول ، ما دام الخوف قد جاء إلى أن يزول ، فلن تهدأ هذه الحركة إلا إذا ذهب الخوف ، وحينئذ ينتهى دور العيون الشاخصة ليبدأ دور الألسنة الحِدَاد .

وقوله : ﴿ كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ أضفى على هذا الدوران الدائب اللاهث وصف الضعف والتخاذل والفتور ؛ فليس هذا الدوران والدأب من العيون أمارة الحيوية والحياة ، وإنما هو مظهر الموت والاستسلام ، وما أروع كلمة « يُغشى » حيث غُشِيَتْ حركة عيونهم واضطرابهم بغشاء المسجى الذى خذلته قُواه ، وهَمَّ بفراقه نبض القوة والحياة ، انظر إلى حسن هذا التشبيه حيث اختار نظر المغشى عليه من الموت ، صورة صادقة لهؤلاء الخوارين الذين يملأ قلوبهم الجمود والموت ، والذين وصفهم فى أكثر من موضع بمرض القلوب ، وإذا طال زمن مرض القلوب استشرى فيها داؤها ، ومات كل معنى من معانى الحياة التى لا تجد لها مقراً إلا فى صحاح القلوب .

وقوله فى أول التصوير بعد الإعلام بمجىء الخوف : ﴿ رَأَيْتَهُمْ ﴾ ؛ الرؤيا فيه بصرية ، وهى تلفت إلى النظر فى هذا التصوير البديع ، وامتلاء القلب من هذه الصورة العجيبة : ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ وهى صورة فزع وهول تتزاحم فيها عناصر الخوف والرعب ، ففيها المحاجر الجاحظة من سرعة التقلب والوله والحيرة ، وفيها الرجل المسجى الذى يعالج الموت ، وقبل ذلك : فيها الخوف المتسلط الرهيب .

وقوله : ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ تصوير لحالة أخرى فيها يذهب الرعب ويبقى هؤلاء بسجيتهم تدور بالبغضاء ألسنتهم بعد ما قرَّت أعينهم ، والمراد بـ ﴿ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ أى : آذوكم بالكلام وخاصموكم بألسنة سلطة ذربة كما قال الفرَّاء ، أو بسطوا ألسنتهم فيكم وقت قسمة الغنيمة ، يقولون : أعطونا فلستم بأحق بها منا ، كما روى عن قتادة ، وقيل : بسطوا ألسنتهم فى أذاكم وسبِّكم ، وتنقيص ما أنتم عليه من الدين ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

كما روى عن يزيد بن رومان ، وقيل : خاطبوكم أشد مخاطبة وأبلغها فى الغنيمة ، كما روى عن الزجّاج ، ووجه هذا التعبير فى صفة البيان أن السلق مأخوذ من قولهم : سلقت اللّحم عن العظم إذا قشرته ، وسلقته الدابة إذا آذت فخذيه وأليتيه - أى : سلخته وقشرته ، وسلق الرأس فى الماء الحار حتى ذهب شعره ، فالسلق الذى هو التقطيع والتمزيق ، استعير فى الآية للإيذاء والعيب والإهانة بالقول ، فقد شبهوا الإيذاء والعيب بالسلق الذى هو التمزيق بجامع قوة التأثير والإيذاء ، وهذا ذائع فى بيانهم ، يستعيرون تمزيق اللحم والأديم للإهانة والسب والعيب ، وكل ما هو من أعمال اللسان ، قالوا : ناشه بلسانه ، كما قالوا : ناشه بسنانه ، وقالوا : الطعن باللسان كالطعن بالسنان ، وقالوا : فرق فلان أديم فلان ، وذاع فى كلامهم وصف اللسان بأوصاف السنان ، فقالوا : لسان صارم ، كما قالوا : سيف صارم ، ولسان حديد ، كما قالوا : سيف حديد ، فقوله : ﴿ سَلَقُوكُم ﴾ أى : آذوكم إيذاء بألسنتهم بيّنًا واضحاً كأنه تمزيق وتقطيع ، وعلى هذا يكون وصف الألسنة بالحداد فى الآية من قبيل الترشيح لاستعارة السلق الذى هو التمزيق للعيب والإيذاء ، ويجوز أن يكون قوله : « حداد » قرينة لاستعارة أخرى جرت فى الألسنة ، أى : عابوكم بألسنة ذربة كالسيوف المحددة الماضية ، ويجوز أن يكون الكلام من باب الاستعارة المكنية على وجه آخر ، ذكره الشهاب ، وذلك بتشبيه اللسان بالسيف ، والرمز إلى هذا التشبيه بالسلق المستعار عنده للضرب ، وبهذا تكون قرينة المكنية « السلق » استعارة أصلية ، قال الشهاب : ويجوز أن يشبه اللسان بالسيف على طريق الاستعارة المكنية ، ويثبت له الضرب تخييلاً ، وأراد بالضرب السلق الذى معناه الضرب ، فقد قال قبل ذلك : فتفسير السلق بالضرب مجاز كما يقال للذم : طعن .

وسواء أكان موطن التجوز هو « سلق » أو « ألسنة » ، فإن التركيب يفيد أن ألسنة هؤلاء المنافقين بعد ذهاب الخوف كالسيوف السليطة التى تنوش المؤمنين وتمزق أديمهم .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وهنا لفتة قرآنية فذَّة تلفت إليها هذه الملاطفة لمن أُنزل عليه القرآن صلوات الله عليه ، فقد عدل عن خطاب الواحد إلى خطاب الجمع فى قوله : ﴿ سَلَقُوكُم ﴾ ، وقال قبل ذلك : ﴿ فَإِذَا جَاءَ الخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ .. هناك : ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ وهنا : ﴿ سَلَقُوكُم ﴾ ، ونرى أنه جاء على خطاب المفرد فى قوله : ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ ليشير إلى أشياء منها أنك تتجه إليك الأبصار إذا فاجأها الخطب ، تطلب اللواذ بك ، والحماية منك ، فأنت مأمن المستغيث ، وملجأ الخائف ، ومنها أن مروءتك وعظمة نفسك ورحمتك بالناس أجمعين خليقة فيك ، عرفها مَن حولك ، حتى عدوك اللدود ، تراه يندفع نحوك إذا حزبه الأمر لائذاً ومستجيراً ، وهو يعلم فى قرارته أنه لائذ بأكرم الرجال نفساً ، وأبر بنى الإنسان بالإنسان ، «يَحْمِلُ الكَلَّ ، ويُكْسِبُ المعدومَ ، ويُعِينُ على نوائبِ الدّهْرِ » وهى خلال ما أعظمها من خلال .

وعدل عن خطابه إلى خطاب الجمع فى قوله : ﴿ سَلَقُوكُم ﴾ تكريماً له عليه السلام حتى لا يتسلط هذا الفعل الذى هو السلق قصداً إليه ، وإشارة إلى أن عيبهم لن ينال منه ، ولن يصل إليه ، وفيه أيضاً إشارة إلى أنهم لم يجرؤا أن يفردوه بالعيب والشتم ، وقد كانوا كذلك أبداً يهابونه دائماً ، وواجهوه بالكفر وما واجهه أحد منهم بكلمات الشتم والعيب ، وإنما كانوا يلوون ألسنتهم بالسوء .

وقوله : ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الخَيْرِ ﴾ قالوا فى إعرابه : هو حال من فاعل ﴿ سَلَقُوكُم ﴾ ، أى : سلقوكم حال كونهم أشِحَّة على كل خير ، أو هو منصوب على الذم ، وقرىء بالرفع ، أى هم أشِحَّة ، وقد فسر بعضهم « الخير » بالحرص على مال الغنيمة ، وقيل : مالهم الذى ينفقونه ، وقيل : تكلمهم بما فيه خير ومنفعة ، وقيل : بعموم الخير ، واختاره أبو حيان ، وهو الأحسن عندنا ، والمهم أن قوله : ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الخَيْرِ ﴾ ليس تكراراً لقوله : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ وإن بدا فى صورته ، وذلك لأن الشُّح هنا شُحٌ على كل

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

خير ، وهو شحٌ على الناس أجمعين ، والشُّح هناك على المؤمنين فقط بمعنييه السابقين ، فليس الثانى عَيْن الأول حتى يكون تكراراً له ، ويمكن أن يقال : إنه ضرب من ضروب التكرار الذى يأتى فيه الكلام المكرر بفائدة جديدة ، وقد قالوا : إن التكرار الذى يفيد معنى جديداً أدخل فى صنعة البيان ، وأرسخ قدماً فى باب البلاغة من غيره .

وقد قلنا إن قوله : ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ﴾ أصعد فى درجات الوصف بالضَّنّ والحرص من قوله : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ على الوجه الأول من وجوه تفسيرها ، وقد قال الزمخشرى فى تفسير « أشِحَّة على الخير » : ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ ﴾ وحيزت الغنائم ووقعت القسمة نقلوا ذلك الشُّح وتلك الضنة والرفرفة عليكم إلى الخير وهو المال والغنيمة ، ونسوا تلك الحالة الأولى واجترؤوا عليكم وضربوكم بألسنتهم .

وقوله : ﴿ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾ جاء فى نهاية الحديث عن هذه الطائفة وعيوبها ونقائصها ، ليشير إلى أن كل ما ذُكر عنها من التخذيل والجبن والفرار والاعتذار بالمعاذير الساذجة المنبئة عن بلادة الحس ، وانطفاء العقل والشُّح ، وغير ذلك ما عرضته هذه الآيات من أول قوله : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ ﴾ يرجع كله إلى خلاء قلوبهم من كل إيمان وتصديق ، وليس من الإيمان بالله فحسب ، وفى هذا إشارة إلى أن الإيمان فى القلوب العامرة به أصل لكل طيب ومثبت لكل معنى من المعانى النبيلة ، فكل خير فى الإنسان إنما يذكيه وينميه إيمان عميق بالمُثُل العليا وتقديس بالغ للقيم الأخلاقية التى يسمو بها الإنسان ، والتى هى رسالة الأنبياء وخاتمهم محمد عليه السلام الذى بُعث ليتمم مكارم الأخلاق ، وترى فى إطلاق الإيمان فى قوله : ﴿ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾ وعدم تقييده بمفعول معين معنى تقدير الله سبحانه وتعالى للإيمان ، أى : إيمان لأنه عقيدة وعزم وصلابة ، ولا يكون ذلك إلا فى النفس الصحيحة والقلب السليم ، والمنافقون نفوسهم هشة ، وفى قلوبهم مرض .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ يحدد مكانهم المتميز فى الجماعة الإنسانية ، ويشير ببعده إلى نبذهم وإبعادهم وإهانتهم وطرحهم والاستخفاف بهم .

ونرى فى بساطة هذا التعليل : ﴿ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾ بُعْداً عميقاً يشعر به كل مَن أذاق نفسه حلاوة الإيمان ، وربَّى قلبه ويقينه وأخلاقه فى رحاب الثقة واليقين ، ويفيدنا هذا التعليل من وجه ثالث أن قوة الإيمان وضعفه تقاس عندنا بأصالة الخُلُق ، وكرم الشمائل ، ونقاء الفِطرة ، وصحة القلب ، فليختبر كل منا نفسه ومَن حوله ، وبهذا ترتبط الأخلاق فى ديننا بأصل العقيدة ، ويرتبط السلوك بأساس الإيمان ، ويكون سمو الجماعة ورقيها بقدر ما يترسخ فى تربتها من اليقين والإيمان ، وأظن أن كل شىء فى حياتنا الآن قد تزعزع ، وما أحوجنا إلى التوكيد والتثبيت فى ضوء عقيدة الإيمان بالله رب العالمين .

وقوله : ﴿ فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ؛ عرفنا أن الحبط أن تأكل الدابة حتى تنتفخ بطنها فتموت ، ويأتى مع الأعمال مجازاً ، ووجه هذا المجاز تشبيه الإبطال بالإحباط بجامع ما يترتب على كل من عدم الفائدة ، ثم استعارة الإحباط للإبطال على طريقة الاستعارة التبعية ، وقد خيل هذا التجوز أعمال المنافقين جيفاً فاسدة منتفخة ، تملأ الجو نفوراً واستقذاراً ، وهذه الأعمال كان باعثها هو إرضاء الناس ، وكسب الثناء بينهم ، فلما خلت مما به تُقبل الأعمال مستها يد القُدرة فأحبطتها ، فصارت كما ترى ، وقد كثرت استعارة الإحباط للإبطال ، حتى ظن مَن لم ينظر فى كتب اللغة ومعانى الألفاظ أنها من أساليب الحقيقة ، ولم يلتفت إلى ما فيها من مجاز ، وهذه مرحلة من مراحل تطور الاستعمال اللُّغوى للكلمة ، أى أن تستعمل الكلمة استعمالاً مجازياً ، ثم يشيع هذا الاستعمال ويكثر حتى ينسى أصحاب اللُّغة المعنى الحقيقى للكلمة فيصير حقيقة فيما كان فيه مجازاً ، أى أن قوله : ﴿ فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ من المجاز الذى اشتهر حتى لحق بالحقائق ، وقد أشرنا إلى صور

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

من هذا التجوز ، وهو باب جليل من أبواب فقه العربية تراه متناثراً فى كلام العلماء .

وقال المفسرون : إن الإحباط هنا مراد به إظهار البطلان ، وليس المراد أنه أبطلها ؛ لأنها باطلة منذ عُمِلت لأن الإيمان شرط فى صحة الأعمال ، وقد ذهبوا إلى ذلك ؛ لأن الإحباط كأنه عندهم مرادف للإبطال ، وهذه الأعمال لا يقال فيها إن الله أبطلها ، لأن إبطالها فرع صحتها ، وهى لم يتوفر فيها شرط الصحة ، فاستعمال البطلان فى أعمال المنافقين والكافرين مجاز عن إظهار البطلان ، وعلاقته اللزوم ؛ لأن البطلان لازم لإظهاره ، وبهذا يكون قوله : ﴿ فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ مجاز عن البطلان الذى هو مجاز عن إظهار البطلان ، وهذا يسميه البلاغيون المجاز عن المجاز ، أو المجاز بمرتبتين ، ويُلاحَظ أنك إذا قلت : أشرك فلان بعد ما آمن فأحبط الله عمله ؛ كان الإحباط مجازاً عن البطلان الذى هو حقيقة فى إبطال أعمال المرتد .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً ﴾ قالوا : إن اسم الإشارة راجع إلى الإحباط ، أى : وكان إحباط هذه الأعمال يسيراً على الله سبحانه ، أو يشير إلى حالهم من الشُّحِّ والتخاذل ودعوة أشياعهم للتخلى عن محمد عليه السلام وأصحابه ، وقولهم : ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ وغير ذلك مما ذكرته الآيات ، والمعنى : وكان كل ما كان منهم يسيراً على الله لا يبالى به ، ولا يجعله سبباً لخذلان المؤمنين ، والتعبير فى الحالتين فيه تهديد وتخويف وتنويه بالسيطرة والأُلوهية والقدرة الغالبة ، ولذلك - أى ولتربية هذا المعنى - وضع الاسم الظاهر - أعنى : لفظ الجلالة - موضع المضمر فى قوله تعالى : ﴿ عَلَى اللهِ ﴾ وكان يمكن أن يقول « عليه » بعد ما قال : ﴿ فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ، وذلك للإشعار بالهيمنة والسيطرة ، ولم يخل لفظ الجلالة من دلالة على هذه المعانى ، والمقام مقام ذكر إحباط لأعمال فئة باغية ، تعادى الله ورسوله والمؤمنين ، والإحباط لا يكون إلا من إله قادر غالب ، واسم الإشارة يوضح المشار إليه أكمل توضيح ، ويبرزه فى صورة حسية ، يقع عليها الإشارة

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وتقول فيها هذا كأنك تراه ، وذلك لأهمية الإحباط وكمال العناية به ، لأنه قال : أعمال توهموا فيها خيراً يعود عليهم فى دنياهم ، فمستها يد القدرة فصارت هباء لا غناء فيها ، والإحباط من جهة أخرى يصور جانباً من جوانب القدرة المنزهة عن الشرك والشركاء ، والتى لا تقبل فى جلالها إلا ما كان خالصاً كل الخلوص لها وحدها .

وقد ذكر سبحانه أن هذا يسير عليه ، وكل شىء على الله يسير ، وذلك ليشير إلى أن هؤلاء لما كان منهم ما كان لم تكن لهم منزلة عنده سبحانه ، فكان إحباط أعمالهم وإبطال بِرِّهم يسيراً عليه ، وهذا الأسلوب وارد فى كلام الناس ، يقولون : لما كان منه كذا وكذا لم يكن من العسير علينا أن نوقع به العذاب ، وفيه إشارة إلى حمق هذا الآثم وجهله بقدرة مَن يغضبه .

قال الزمخشرى : « فإن قلت : ما معنى قوله : ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً ﴾ وكل شىء عليه يسير ؟ قلت : معناه : أن أعمالهم حقيقة بالإحباط تدعو إليه الدواعى ولا يصرف عنه صارف ، فيكون خصوص ذلك باليسير إشارة إلى أن ما كان منهم يقتضى إحباطها وإبطالها فلا يقال لمن أحبطها : لِمَ أحبطها ؟ وهذا جاء على طريقة كلام الناس وإلا فإنه سبحانه لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون » .

وفى الآيات إشارة إلى بعض أخلاق المنافقين وأهل الكفر ، منها الشُّح أعاذنا الله منه ، ويقع فيه كثير من الناس وهم غافلون عن أنه وصف من أوصاف أهل النفاق والكفر ، وقد كان سيدنا محمد صلوات الله عليه أجود من السُّحُب ، كما وصفه عارفوه ، وكذلك كل نفس واثقة فيما عند الله ترى فيها سجاحة وبسطة وحباً للبذل والعطاء ، سواء أكان ذلك مالاً أو علماً أو توجيهاً وإرشاداً ، النفوس المؤمنة نفوس شيمتها البذل والسخاء ، نفوس خصبة كالنبع الفيّاض تعطى الوجود الإنسانى حباً وحياة ونماء ، ومنها التقلب بين حالين : حال التذلل والتضرع عند الحاجة ، وحال السلاطة والتبجح عند

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ذهاب الحاجة ، فليس فيهم مروءة الكريم الذى لا ينسى لك فضل الجميل ، والذى يبقى شاعراً بعبء هذا التكريم حتى يرده لصاحبه رداً أوفى ، وهؤلاء قد لاذوا بالمؤمنين عند الكرب ، ونظروا إليهم نظر المغشى عليه من الموت ثم سلقوهم بألسنة حِداد ، وليس فى اللؤم صورة أبشع من هذه الصورة التى تؤذى يداً امتدت إليها بالإحسان ، وليس أدل على فساد الباطن وقبح المعدن من هذا الخُلُق .

المؤمن لا ينسى الجميل حتى يرده ، والمنافق يوجِّه شره إلى مَن أحسن إليه ، وهذا مقياس دقيق فانظر فى ضوئه ، وميِّز الناس ، واعرف أقدار دينهم ، فبمقدار عرفان الفضل لذويه يكون خُلُق الإسلام ، وبمقدار التنكر يكون خُلُق النفاق ، ومجال القول فى هذا يكثر ، ولكننى أشير .

وأعجبنى هنا بيت ذكره ابن كثير يُصوِّر هذا النموذج الإنسانى اللئيم ، وما أكثرهم فى حياة الناس ، قال وفى أمثالهم يقول الشاعر (من الطويل) :

أفِى السِّلْمِ أعْيارٌ جَفَاء وغِلْظَةً ... وَفِى الْحَرْبِ أمثالُ النساءِ العَوارِكِ

والأعيار : جمع عير ، وهو الحمار ، والنساء العوارك : النساء الحيض .

وأهم ما ألفت إليه - وقد نبهنا إليه قبل ذلك - هو تعليل هذا الخُلُق بعدم الإيمان ، وإشارة هذا التعليل إلى أن الإيمان واليقين فى النفس مصدر كل خير وبِرٍّ ، وحُسْن خُلُق ، وإلى أن مقياس الأخلاق فى الإسلام هو مقياس اليقين والإيمان ، وتأمل هذا الملحظ ، وسوف يهديك إلى الكثير ، وتأمل ما نقلناه عن الزمخشرى فى تعليقه على أولئك الذين لم يؤمنوا ، وأظن شفافيتك ، ووثاقة صلتك بكتاب ربك سوف تهديك فى هذا المجال إلى كثير من المعانى ، والآن دعنى أعود إلى درس اللغة والأسرار ، فهذا هو شغلى فى هذه الآيات .

* * *

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

﴿ يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ، وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى الأَعْرَابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ، وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (الآية : ٢٠) .

* *

﴿ يَحْسَبُونَ ﴾ : هو من « حَسِبَ » الذى من باب ظن ، وهو هنا بمعنى الظن ، والحسبان بمعنى الظن له صلة بقولهم : حَسَبْتُ الشيء حساباً وَحُسْبَاناً ، إذا عددته ، فإذا قلت : حَسِبْتُ زيداً قائماً ، أفاد أنك عددته بين القائمين ، ومنه الحِسْبَة ، أى : الاحتساب عند الله فى مثل قولهم : احتسب هذا الشيء أو احتسب ابناً ، وكأنه عدَّه من أعماله الصالحة التى ينتظر ثواب الله فيها ، وقالوا : فلان لا يُحْتَسَبُ به ، أى : لا يُعَد بين المعدودين ، وفلان له حسب ونسب ، أى : له آباء يَعُدّهم أو أمجاد يعدها .

قال الراغب مشيراً إلى علاقة الحِسْبان الذى هو من باب الظن بالحِسَاب الذى هو بمعنى العد .

قال : والحِسْبان - بكسر أوله : أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله ، فَيَحْسِبُه ويعقد عليه الأصبع ، ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك . ومما يُذكر أنه من الخطأ أن تقول : لم يكن كذا فى حسابى أو لم يكن فى حسابهم ، والصواب أن تقول : لم يكن كذا فى حسبانى أو فى حسبانهم .

و﴿ الأَحْزَابَ ﴾ : الجماعة فيها غلظة ، وفعله : حَزَّب ويتعدى بنفسه ، تقول : حَزّب فلان قومه ، أى : صيَّر قومه طوائف ، وقالوا : فلان يُحازِبُ فلاناً ، أى : ينصرُه ويعاضده ، وحَزَبه الأمر وحَزَبَته الشّدة ، كأن الأمر تجمعت دواعيه وصعابه ، وكأن الشدة تجمع شتاتها ليعنيَه .

﴿ بَادُونَ ﴾ : قالوا : لقد بَدَوْتَ يا فلان ، أى : نزلتَ البادية ، وصرتَ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

بدوياً ، كما قالوا : أحضر ، أى : نزل بالحَضر ، وقالوا : شَبِيبُ ابنُ البَرْصاء الـمُرىّ بَدَوِى لم يَحْضُرْ إلا وافداً أو منتجعاً ، أى : لم يدخل الحضر ، وبدا القومُ أى : صاروا بدواً ، والأصل من بدا الشىء إذا ظهر ، قالوا : بَدَا بَدْوا وبَدَاء أرادوا : ظهر ظهوراً ، وسميت البادية بادية ؛ لأن كل شىء فيها يكون بادياً ، أى : ظاهراً لانكشافها ، وسمى البادى بادياً ؛ لأنه ليس كِنٌ ولا سكَنٌ يستره ويأويه ، وإنما هو فى حالة ظهور وانكشاف .

* *

قوله : ﴿ يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ ﴾ جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب ، قال أبو البقاء : يجوز أن تكون حالاً من أحد الضمائر السابقة ، وقوله : ﴿ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ﴾ حال من فاعل ﴿ بَادُونَ ﴾ ، والآية الكريمة تصف نفوس المنافقين الفزعة ، وتحلل هذه النفسية تحليلاً رائعاً ، تلحظ فيه قوله : ﴿ يَحْسَبُونَ ﴾ وما تصفه من وسوسات الوهم والخوف ، وهى كلمة ذات مدلول نفسى ؛ لأنها تصف أحوالاً ، وخواطر ، وهواجس ، وكلها أحداث وأفعال داخل النفس ، وصيغة المضارع تشعرنا بأن القوم كأنهم لا يزالون إلى اليوم خائفين متوجسين ، تتوارد على خواطرهم الأوهام ، تريهم الأحزاب حول الخندق رابضين ، المضارع يُحضر هذا الحدث الأهم الدال على انخلاع القلوب ويُصوِّرهم فى حسبانهم ، وظنونهم ، وأوهامهم ، كأنهم يعدون هذه الخواطر والظنون على أصابعهم فى عَتَه وحَنَقٍ وجنون ، وطبيعة الخائف المريض لا تدرك الأشياء على حقيقتها ، وإذا أفزعها عامل من عوامل الفزع والخوف ظلت تضطرب وتجبّ فاقدة وعيها ورشادها ، حتى ولو ذهب هذا العامل ، فإذا آبت إلى رشدها ظل العامل فى وعيها مصدراً من مصادر الفزع الرهيب ، وقوله : ﴿ يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ ﴾ يُصوِّر هذه الحالة النفسية أتم تصوير .

وقوله : ﴿ وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى الأَعْرَابِ ﴾ كلام

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وارد على سبيل الفرض والتقدير ، يزيد هذه الطبيعة كشفاً وتحليلاً ، وجاء مع « إن » التى لا يكون الشرط فيها مقطوعاً بوقوعه ، دون « إذا » التى يكون الشرط فيها مقطوعاً بوقوعه ؛ ليفيد أن عودة الأحزاب وإن كان أمراً غير مقطوع به يكون مبعثاً لهذه الودادة منهم ، فنفوسهم مهيأة دائماً للتولى والفرار ، والاستقبال فى « إن » يفيدنا أن ما كان منهم فى الماضى هو الكائن منهم الآن ، والذى سيكون منهم فى المستقبل وهو المتجدد مع تجدد هذا الزمان ، فالجبن فيهم جِبِلّة لا تزول ، والودادة كما قلنا : محبة الشيء وتمنيه ، وانظر إلى قوله : ﴿ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ ﴾ وأحسن تدبره : فقد تدرك أن هذه الرغبة التى هى ترك البيوت والذهاب فى البادية قد خالطت القلب ومسَّت الشغاف ، فقد عظمت فيها رغبتهم ، وتمنتها أرواحهم ، وجاشت بها سرائرهم ، وانظر إلى قوله : ﴿ بَادُونَ ﴾ ، ومفردها : باد ، وهو الذى يعيش بادياً مكشوفاً - كما قلنا - فقد تدرك فيها معنى التعجيب والتشهير بكذبهم فى الاستئذان الذى مضى ، حين قالوا : ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ ، وذلك من حيث أنهم يودون أن يكونوا فى البادية ، وأن يتركوا بيوتهم جملة ، فكيف يتعللون بحفظها وهم يرغبون فى أن يكونوا بدواً لا تكنهم بيوت ، وإنما هم وأولادهم وحريمهم بادون ، فحفظ خلل بيوتهم ليس هو الأمر الذى شغلهم كما يدَّعون ، وقوله : ﴿ فِى الْأَعْرَابِ ﴾ أفاد الكلام معنى أكسبه قوة وعمقاً ، وأكد جبنهم وخوفهم من الحرب ، وذلك لأن الأعراب أغلظ الناس قلوباً ، وأجفاهم طبعاً ، ومثل هؤلاء لا تطيب مخالطتهم ، ولا يهنأ مَن يعيش معهم ، والمنافقون يحبون أن يكونوا بادين فى الأعراب ، وإن كانت فيهم هذه الفظاظة التى تؤذى المخالط ، والجفوة التى تقلق العشير ، وقال : ﴿ بَادُونَ فِى الْأَعْرَابِ ﴾ ولم يقل : « بادون مع الأعراب » ليكون ذلك أكثر تصويراً للمخالطة ، حتى كأنهم يعيشون فى خيامهم ، يودون ذلك مع ما يعرفونه من غلظتهم .

وقوله : ﴿ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ﴾ فيه أنهم يبعدون فى التولى والذهاب فى البادية ، فليسوا قريباً من أرض النزال يرون الأحداث ، ويرقبون الوقائع ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وإنما هم مبعدون فى الذهاب لا يعرون أخباركم إلا بسؤال الضاربين فى الصحراء ، وفى قوله : ﴿ يَسْئَلُونَ ﴾ فائدة أخرى : تلحظها إذا قرأت الآية هذه القراءة التى أُلفتُ إليها دائماً ، أى قراءة التأمل والإصغاء ، إذا قرأت الآية ، ووقفت عند قوله : ﴿ بَادُونَ فِى الأَعْرَابِ ﴾ ولم تذكر كلمة ﴿ يَسْئَلُونَ ﴾ ، وانظر ماذا تجد ؟ سوف يقع فى نفسك أن القوم قد تاهوا فى البادية وذهبوا ، وانقطعت أخبارهم ، وكأن الصحراء قد ابتلعتهم ، وانقطعت صلتهم بأرض الأحداث ، فإذا قرأت كلمة : ﴿ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ﴾ أفادتك أنهم فى هذه البادية لا زالوا يستشرفون أخبار المؤمنين ، ووصلتهم ثانية بالأحداث ، وكأنهم على الروابى والآكام والهضاب ، ينظرون هنا وهناك ، ليبصروا قادماً فيسألون عن الأنباء ، والقوم لا زالوا مرتبطين بالخندق وما حوله ، ولا زالت الصورة تعيش فى وجدانهم الفزعة ، وهذا السؤال ضرب من الفضول بعد ما فَرُّواْ من الميدان وهجروه هاربين ، وقد يكون فى هذا السؤال أيضاً إشارة إلى ترقبهم الأنباء التى تشفى حَسَكَ صدورهم من محمد وأصحابه .

وقوله : ﴿ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَاتَلُواْ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ استقصاء لأوصافهم فى أحوالهم كلها ، أى : أنهم على فرض عدم ذهابهم فى البادية ، وبقائهم فى صفوفكم ؛ فإنهم لا يقاتلون إلّا قتالاً قليلاً لا يصد كيد عدوكم ، ولا يشد من عضدكم ، وإنما هو رياء وخوف من التعيير ، فلا خير فيهم مقيمين وبادين ، وفيه همس بأنهم لو فاجأهم الأحزاب وهم فيكم ، ولم يتمكنوا من الذهاب فى البادية ، ولم يجدوا مفراً ولا مناصاً من الوقوف معكم ، ومشاركتكم فى حرب العدو ما قاتلوا إلا قليلاً ، وكأنهم على أهبة الفرار فى كل حال .

* *

وتفيدنا الآية الجليلة أصلاً هاماً وملهماً لكل داعية خير وإصلاح ، وهو وجوب الصبر والمعاناة فى سبيل دعوة الحق ، وعليه أن يغالب كل خاطرة من

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

خواطر اليأس والخذلان ، وأن يواجه كل صعوبة ، وأن يدفع الثمن ولو كان هو الحياة ، وذلك من حيث أن الآية وصفت المنافقين بالرغبة فى تخلية أماكن النزال بين الحق والباطل ، وهذا يعنى أن المسلم لا يترك هذه الأماكن ، سواء أكانت أماكن نزال بالسيوف ، أم كانت أماكن دعوة وإصلاح وتوجيه ، وبهذا الأسلوب الحاسم فى دعوة الحق يُقاوَم الشر والباطل والضلال فى أرض الله من جنده وحزبه .

وهؤلاء الذين حسبوا أن الإسلام صلاة ودعاء فحسب ، وأنهم ليسوا مطالَبين بالإصلاح وإن غلا ثمنه ، والتوجيه وإن عُذِّب فى سبيله بكل أصناف العذاب ، والدعوة إلى الحق وإن أوذى وأُعْنِت ، وأن الله يرضى عنهم بهذه السلبية ما داموا يُصَلُّون ويدعون : قوم واهمون ، لم تدرك أرواحهم روح الإسلام الذى يطلب من المسلم أن يكون فعّالاً فى هذا الوجود ، بَنَّاءً لكل قيمة ومثال ، هَدَّاماً لكل باطل وزور مهما كلَّفه ذلك من العنت والجهد ، فالإسلام فى حقيقته ثورة عنيدة تقف فى وجه كل باطل ، وقفة جسورة فيها عناد وإصرار ، والمسلم فى حقيقته شخصية ثائرة ، تدرأ الباطل أنَّى تجده ، وتدفع عن الحق حيث يكون ، وهذا هو الوصف الحقيقى لمن صدق إيمانه ، تلهمه صلاته ودعاؤه وتسابيحه وأوراده ، وكل أصناف عبادته قوة صلبة فى الحق لا تضعف ولا تحول ، وهكذا كان أسلافنا من أصحاب الأوراد والتهجد والقنوت ، تراهم بالليل يتخشَّعون ويتذلَّلون ويتضرَّعون ، وكأن تراتيلهم تتناغى مع ترانيم الملائكة فى علِّيين ، فإذا جاء الشد ورأوا أن دين الله تهب عليه ريح سَموم رأيتهم رآبيل على صهوة خيولهم ، متصلبين فى الدفع عن الإسلام ، لا يهدؤن ولا يلينون ، وكم واجهوا حكام السوء الذين لمحوا منهم تفريطاً فى مقدسات هذا الدين ، أو عبثاً بقيمة من قِيَمه ، كم واجهوهم وخلعوا عنهم رداء السلطان ، وأخبار علماء المسلمين وعُبَّادهم مع حكام المسلمين بَرِّهم وفاجرهم تملأ صفحات التاريخ الذى نجهله ، فكم أبكوا جبابرة من حُسْن التأتى والإخلاص فى النصيحة ، وكم واجهوهم بالثورة ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وطالبوهم بإقامة حدود الله ، وكان مرجع ذلك إلى زهدهم عن الدنيا التى فى أيدى هؤلاء السلاطين ، والحرص يذل أعناق الرجال ، والزهد فى نفس العالِم قوة لا تعدلها قوة ، وقد أدرك أبو جعفر المنصور حقيقة القوة فى نفس العالِم المسلم أبى عثمان عمرو بن عبيد لما انصرف عنه مغاضباً ، وكان أبو جعفر يسترضيه وهو لا يرضى ، قال أبو جعفر مشيراً إلى موضع القوة الكامنة فى نفس ابن عبيد ، وحوله طائفة من الوصوليين والمتفعين قال ناظراً إليهم نظرة استخفاف واحتقار :

كُلُّكُمْ طَالِبُ صَيْدِ كُلُّكُمْ مَاشٍ رَوُيْد

* غَيْرَ عَمْرو بنِ عُبَيْد *

وواجب الشباب المسلم أن يتآخى ، وأن يستلهم تاريخ الرجال الذين ناصروا الحق وثبتوه ، وأن ينهض اليوم ، واليوم بالذات ، لنُصْرة دين الله الذى تحزَّبت عليه الأحزاب ، واجتمعت كلمة الملحدين فى الشرق مع كلمة الصليبيين فى الغرب على القضاء عليه ، ولن تهادن الشيوعية الإسلام ، مهما كان بيننا وبينها من معاهدات وصداقات على الصَعيد القيادى والسياسى ، ولن تهادن الصليبية الإسلام ، وكل فى عداوة الإسلام أعتى من الآخر ، وقد اجتمعوا على هذا رغم ما بينهم من خلاف ، والآن وضعوا أيديهم فى أيدى كثير من الحكام الذين نصّبوهم على بعض البلاد ، واختاروا أبعد الناس عن دين الله وأقربهم إلى الفسوق واللصوصية والانضمام إلى معسكر أعداء الإسلام ، وقد سَخَّروا كثيراً من إمكانات دولة الإسلام لعداء الإسلام حتى إن منهم مَن يسْخَر من حجاب المرأة المسلمة !!

قلت : إن أصناف العبادة فى الإسلام تعد المسلم إلى وظيفة الإصلاح ، ومقاومة الشر والباطل ؛ لأنها فى جملتها تشترط شرطاً يجمعها ، وهو الشعور بالإخلاص لوجه الله فيها صلاةً وحجاً وبِراً وصدقاً وعملاً ، وشأن هذا الشعور أن يصل المسلم دائماً بمَن أخلص له قلبه ، فهو مستغرق دائماً فى

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ساحة ربه ، لا يرى حَوْلاً ولا طَوْلاً إلاّ له سبحانه ، ولا يرى نفعاً ولا ضراً إلا بإذنه ، فإذا انطلق إلى الخير انطلق فعّالاً بأمر ربه ، وهو يشعر أنه من ورائه محيط ، فهل ترى للإنسانية أرشد من دين يجعل مقاومة الشر والباطل فريضة وأساساً فى العقيدة ؟ وبعد . . فدعنى لأرجع إلى درس اللغة والبيان ، وعليك أن تستشف من الآيات ما يهديك إليه قلبك .

* * *

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً ﴾ (الآية : ٢١) .

* *

« الرسول » : اسم فاعل من الرسل ، وهو الانبعاث على تؤدة ، يقال : ناقة رسلة يريدون سهلة السير ، وإبل مراسيل ، أى : منبعثة انبعاثاً سهلاً فى مسيرها ، وامرأة رَسْلَةٌ فى الغناء ، أى : مسترسلة فى غنائها ، أى : تنبعث فى اطمئنان وتتابع ، ومثله رجل رَسْل ، وجاءتك رسلى أرْسَالاً ، أى : متتابعة تترى ، وقد يُطلق الرسول على القول المتحمل ، أى : الرسالة ، ومن المشهور قول الشاعر :

* ألا أَبلِغْ أَبَا حَفْصٍ رَسُولاً *

ويُطلق الرسول على الواحد كقوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ (١) ، وعلى الجماعة كقوله : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) ، ويأتى فى القرآن مراداً به أنبياء الله كقوله : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ (٣) ، وقد يُراد به الملائكة كقوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ (٤) أراد جبريل

---

(١) التوبة : ١٢٨
(٢) الشعراء : ١٦
(٣) آل عمران : ١٤٤
(٤) الحاقة : ٤٠ ، التكوير : ١٩

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

عليه السلام ، وقوله : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً ﴾ (١) . وقد يُطلق مجازاً على الرسول وأتباعه من ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ (٢) ، قال المفسرون : أراد الرسول وأتباعه ولكنه سماهم رسلاً لقوة صلتهم به ، كما يقال : المهالبة للمهلب وأولاده ، والزبيريون لأتباع عبد الله ابن الزبير ، وهو عند أهل صناعة البيان من المجاز المرسل الذى علاقته المجاورة .

و« الأسوة » : بالكسر والضم - كالقدوة لفظاً ومعنى ، فهى إتباع واقتداء ، قالوا : والأسى الذى هو الحزن سمى أسى لأنه اتباع الغائب بالغم والحزن ، وقالوا : أسوت فلاناً - بفتح الهمزة ، أى : أزلت أساه ، كما قالوا : كربته ، أى : أزلت كربه ، وهو من الأسوة - بفتح الهمزة ، أى : تطبيب الجرح ، وإزالة الأسى فيه ، وقال الراغب فى الأسوة : هى الحالة الحسنة التى يكون الإنسان عليها فى اتباع غيره إن حسناً وإن قبيحاً ، فهناك أسوة حسنة وأسوة سيئة ، بدليل قوله : ﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .

و﴿ حَسَنَةٌ ﴾ : الحسن هو كل مبهج مرغوب فيه ، والحسنة : كل ما يسر من نعمة فى النفس والبدن والمال ، وضدها : السيئة ، فهى كل ما يسوء فى النفس والبدن والمال ، والحُسن نوعان : حُسن حسى يُدرك بالبصر ، وحُسن معنوى يُدرك بالبصيرة ، والأول ذائع فى ألسنة الناس حين يقولون : رجل حسن وامرأة حسنة ، وأكثر ما جاء فى القرآن من النوع الثانى ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ (٣) أى : أبعده عن الشبهة ، وقوله : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ (٤) أى : كلمة حسنة ، وقوله : ﴿ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (٥) أى : قدوة حسنة تدركها البصائر الواعية .

---

(١) هود : ٧٧ (٢) المؤمنون : ٥١ (٣) الزمر : ١٨
(٤) البقرة : ٨٣ (٥) الأحزاب : ٢١

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

﴿ يَرْجُواْ ﴾ : الرجاء ظن يقتضى حصول ما فيه مسرَّة ، والخوف يلازمه ، من حيث أنك إذا رجوت شيئاً صاحبك الخوف من عدم وقوعه ، ولذلك أطلقوا الرجاء على الخوف ، قال الشاعر يصف رحلته فى الصحراء غير خائف من الهول على ناقة حدباء كقوس البان :

تَعَسَّفْتُها وَحْدِى وَلَمْ أرْجُ هَوْلَها　　　بِحَرْفٍ كَقَوْسِ الْبَانِ بَاقٍ هَبَابُها

وقوله : هبابها من قولهم : هبت الناقة فى مسيرها هبوباً وهباباً ، أى : أسرعت فى حدة ومضاء ، وإطلاق الرجاء على الخوف من باب المجاز المرسل ، وعلاقته المجاورة ، وقوله تعالى : ﴿ لِمَن كَانَ يَرْجُواْ اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ أى : يرقب رضا الله وكرامة اليوم الآخر ترقب المشفق الخائف من فواته .

* *

قوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .

ذكر بعض المفسِّرين أن الآية عتاب لمن تخلَّف عن القتال ، قال صاحب حاشية الجمل : هذا عتاب للمتخلفين عن القتال ، أى : كان لكم قدوة فى النبى ﷺ ، حيث بذل نفسه لنُصرة دين الله فى خروجه إلى الخندق ، وأيضاً فقد شُجّ وجهه ، وكُسِرَت رباعيته ، وقتل عمه حمزة ، وجاع بطنه ، ولم يكن إلا صابراً محتسباً وشاكراً راضياً ، واختُلف فيمن أُريد بهذا الخطاب على قولين ؛ أحدهما : أنه المنافقون عطفاً على ما تقدَّم فى خطابهم ، الثانى : أنه المؤمنون ، لقوله تعالى : ﴿ لِمَن كَانَ يَرْجُواْ اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ .

ويُفهم من كلام الزمخشرى أن الآية عتاب ولفت إلى ما كان ينبغى أن يكون ، ولكنه لم يشر إلى المقصودين بهذا العتاب والتنبيه ، قال : « كان عليكم أن تواسوا رسول الله ﷺ بأنفسكم فتؤازروه ، وتَثْبُتوا معه كما آساكم بنفسه فى الصبر على الجهاد ، والثبات فى مرحى الحرب حتى كُسِرت رباعيته ، وشُجّ وجهه » ، ومرحى الحرب : مكان رحاها ، أى : المكان الذى تدور فيه .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ولا أرى أن تكون الآية عتاباً للمنافقين ، لأن وصفهم فى الآيات السابقة يُبعدهم عن منزلة التوجه إليهم بالخطاب والمعاتبة ، ولفتهم إلى الأُسوة الحسنة فى رسول الله ﷺ ، ولا أدفع أن تكون الآية عتاباً لمن تخلّف عن القتال من المؤمنين ، وأستحسن أن تكون الآية تمهيداً ووطاء لوصف ما كان من المؤمنين فى هذه الغزوة ، بعد الفراغ من وصف ما كان من المنافقين فيها ، وفى هذا التمهيد وهذا الوطاء ثناء بالغ على المؤمنين ، حيث كانت لهم فى رسول الله أسوة حسنة ، وهذا من براعة القرآن فى الصياغة كما قدَّمنا ، حيث ترى الآية تعطيك لونين أو ألواناً من المعنى ، فهى إذا نظرتَ إليها من زاوية العتاب والملاطفة واللفت إلى ما كان ينبغى أن يكون منهم مع رسول الله ﷺ ، وجدتها تعطيك هذا المعنى فى صورة مؤثرة بالغة ، انظر فى ضوء هذا إلى قوله : ﴿ فِى رَسُولِ اللهِ ﴾ وما فى هذه الإضافة من التكريم والتنويه بمكانته صلى الله عليه وسلم ، وما فى ذلك من البعث على الائتساء به ، وانظر إلى وصف الأسوة بـ « الحسنة » ، والأسوة ما دامت فى رسول الله فهى لا شك أسوة حسنة ، ولا يُتوهم أن تكون غير ذلك ، ولكنه نص على الحسن ، ليكون هذا التصريح بالحسن حثاً وباعثاً على هذا الاقتداء ، وفى هذا والذى قبله ما يثير شعور الندم والأسى فيمن تخلّف عن رسول الله ﷺ ، وما دامت الآية قد أثارت هذا الشعور ، وهزَّت من القلوب هذه الأوتار ، فلا يحسن أن نترك هؤلاء المعاتَبين فريسة لهذا الندم القاتل ، وهذا الأسى الأسيف ، ولذلك جاءت الإشارة السريعة إلى ما به تكون المغفرة والقبول ، فلفتتهم إلى الرجاء الذى هو باب من أبواب اللجأ والضراعة والتوبة ، ثم إلى الذكر الذى به تطمئن القلوب ، هذا إذا قلنا : إنها عتاب وملاطفة .

أما إذا ذهبنا إلى أنها تمهيد ووطاء للحديث عن المؤمنين فى هذا الموقف ، فسوف تجد فيها هذا الثناء البالغ على المؤمنين الذين آمنوا بربهم ، وخلصت قلوبهم فى الاقتداء والتأسى بنبيهم ، فكانت لهم أحسن أُسوة فى أكرم رسول ، وإضافة « الرسول » إلى لفظ الجلالة ثناء بالغ على مَن اقتدى واتبع ؛ لأنه

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

اقتدى بأحسن ما تكون به القدوة ، وكذلك وصف الأُسوة بـ « الحسنة » تنويه بهذا الاقتداء ، وثناء بالغ على المقتدى ، وقوله : ﴿ لِمَن كَانَ يَرْجُواْ اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً ﴾ فيه وصف هؤلاء المؤمنين برجاء الله والخوف منه ، وتنويه ببسالتهم وصبرهم على البلاء فى سبيل الله ، وذلك من حيث أن مَن تعلّق قلبه برجاء الله ، استعذب فى سبيل ذلك كل ما يجد من شدائد يأمن بها هذا اليوم الأكبر من أيام الله ، وفيه إشارة إلى أنهم لم تكن منهم خشية من أعداء الله ؛ لأن مَن يخاف الله لا يخاف أعداءه ، وقوله : ﴿ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً ﴾ فيه إشارة إلى ما اطمأنت به قلوبهم فى هذا اليوم الشديد ، وفيه كذلك أن أعمالهم ومواقفهم لم تكن إلا لله ، وأنهم يقرنون العمل الجليل بترانيم الذكر وابتهالات الدعاء التى تفتح لهم أبواب السماء .

فهل رأيت تكلفاً فى أحد هذين الوجهين ؟ وهل ترى فى كلام الناس من تقلبه على وجهين أو وجوه فيطاوعك فى ذلك ويعطيك معنى يحلو مذاقه ؟ ويستقيم مرماه ؟ ولا ينبو عنه معناه فى كل حال ؟ أخالك تشهد معى أن ذلك لا يكون إلا لكلام الله ؛ وواضح أن الآية كغيرها من آيات الله لا تقف عند حدود زمان نزولها ، ومناسبة هذا النزول ، وإنما هى خطاب عام وشامل لكل مَن صدَّق بالله وقرآنه ، تفتح له باب الاقتداء برسول الله ﷺ ، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالأُسوة : الخصلة ، أى : لقد كان لكم فى رسول الله خصلة حسنة من حقها أن يؤتسى بها ، كالثبات فى الحرب ، ومقاساة الشدائد ، والأدخل فى صنعة البيان ، والأليق بفصاحة القرآن أن يكون المراد بالأُسوة : القدوة ، أى : لقد كان لكم فى رسول الله ﷺ قدوة ، أى : هو فى نفسه قدوة ، وهذا يُعطى ضرباً من المبالغة فى وصفه صلى الله عليه وسلم بهذه الصفة ، أى : كونه أهلاً لأن يُقتدى ، فقد بلغ فى هذا الوصف مبلغاً صح معه أن ينزع منه قدوة ، قال سدنة البيان : تقول : لى من فلان صديق حميم ، فتفيد أنه بلغ من الصداقة مبلغاً صح معه أنه يستخلص

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

منه صديق آخر ، ومثله قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الخُلْدِ ﴾ (١) ، فإن جهنم هى دار الخلد ، لكن انتزع منها داراً مثلها ، وذلك للمبالغة فى وصفها والتهويل فى أمرها ، وهذا لون من ألوان البديع يسمى « التجريد » وهو أن ينتزع من أمر ذى صفة أمراً آخر مثله فى تلك الصفة مبالغة فى كمالها فيه ، وقد يكون بـ « فى » كما فى هذه الآية ، وكما فى قول الشاعر (من الطويل) :

أرَاقَــتْ بَنُـو مَـرْوَانَ ظُـلْماً دِمَاءَنَـا ... وَفِى اللهِ إنْ لَمْ يَعْدِلُوا حكَمٌ عَدْلُ

وقد يكون بـ « من » كما فى قوله : « لى منه صديق حميم » ، وقد يكون بغير ذلك مما هو مسطور فى كتب القوم ، والمهم أن صنعة التجريد فى هذه الآية أفادت أن الرسول عليه السلام لخصوبة نفسه ، ولوفرة الخير فى معدنه ، ولفرط كرم شمائله ، يصح فى الخيال أن يكون فى ذاته ذواتاً ، كل منها صالح لأن يُقتدى بها ، ولكم أنتم فيه قدوة ، قال الفقهاء وأهل الاستنباط : وهذه الآية وإن سيقت للاقتداء به عليه السلام فى أمر الحرب من الثبات ونحوه ، فهى عامة فى كل أفعاله صلى الله عليه وسلم إذا لم يعلم أنها من خصوصياته ، كنكاح ما فوق أربع نسوة ، قال قتادة : هَمَّ عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أن ينهى عن الحِبَرة ، فقال رجل : أليس قد رأيت رسول الله ﷺ يلبسها ؟ قال عمر : بلى ، قال الرجل : ألم يقل الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ، فترك ذلك عمر رضى الله عنه .. والحِبَرة (بكسر الأولى وفتح الثانى كالعنبة) بُرْد يمانىّ .

وقوله : ﴿ لِمَن كَانَ يَرْجُواْ اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ فيه - كما قلنا - حث على الاقتداء والتأسى ، أى : أن ذلك لا يكون من كل أحد ، وإنما يكون من فئة خاصة هى التى ترجو ربها ، وتخاف عقابه ، قالوا : والمراد باليوم الآخر ما يقع فيه من الثواب ، فهو من إطلاق الزمان ، وإرادة الحدث الواقع فى هذا الزمان ، وهذا ضرب من المجاز المرسل ، والمراد : يرجو الله والثواب

---

(١) فصلت : ٢٨

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الواقع فى اليوم الآخر ، والرجاء : الطمع فى هذا الثواب ، وعلى هذا يكون لفظ الجلالة توطئة لذكر المعطوف ، لأن المعطوف هو المقصود ، فهو كقولك : أرجو زيداً وكرمه ، تريد : أرجو كرم زيد ، وهذا فن من الكلام بليغ ، تجدهم يذكرون المعطوف عليه بالواو وهم لا يقصدونه بالحكم ، وإنما يشيرون بذلك إلى قوة صلته بالمعطوف ، وأنه منه بمكان ، انظر إلى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (١) أراد : لا تقدموا بين يدى رسول الله ، ولكنه جاء على هذا الأسلوب ، ليشير إلى قوة الاختصاص كما قال الزمخشرى ، وليُنَوِّه بمكانة الرسول ومنزلته عند الله ، وعلى طريقة هذا الكلام قوله تعالى : ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ﴾ (٢) أراد جنود سليمان ، ومثله : سرَّنى زيد وحُسْن حاله ، وأعجبت بعَمْرٍ وكرمه ، تريد : سرَّنى حُسْن حال زيد ، وأعجبت بكرم عمرو ، ولكنك تأتى بهذا الأسلوب لقوة الصلة بين المعطوف عليه والمعطوف ، وقد استنبط أهل صناعة الكلام من هذه الأساليب قاعدة قالوا : إذا ذكر اسمان متعاطفان ، والحكم إنما هو لأحدهما ، أفاد قوة اختصاص المعطوف بالمعطوف عليه ، وأنهما بمنزلة الشيء الواحد ، بحيث يصح نسبة أوصاف أحدهما إلى الآخر .. انتهى كلامهم ، وهذه يقل دورانها فى الكتب فاحرصوا عليها .

وهذه القاعدة تجرى فى قوله : ﴿ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ إذا كان المراد باليوم الآخر ثوابه ؛ لأن المعنى يؤول إلى قولنا : يرجو الله وثوابه الواقع فى اليوم الآخر ، أى : يرجو ثواب الله فى اليوم الآخر ، والرجاء هنا بمعنى التوقع والمراقبة ، وليس بمعنى الخوف كما قلنا .

وقال مقاتل : الرجاء بمعنى الخشية ، أى يخشى الله والبعث الواقع فى اليوم الآخر ، وبهذا تخرج الآية مما ذكرناه . وقال صاحب الفرائد : يمكن

---

(١) الحجرات : ١ (٢) النمل : ١٨

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

أن يكون التقدير : يرجو رحمة الله أو رضا الله وثواب اليوم الآخر ، ففى الكلام مضافان مقدَّران ؛ وهذا كسابقه لا يحتاج إلى ما قلناه .

وقال بعضهم : إنَّ ما فى الآية من عطف الخاص على العام ، والأصل : لمن كان يرجو أيام الله واليوم الآخر ، فحذف المضاف من الأول لدلالة الثانى عليه ، وعطف اليوم الآخر على أيام الله ، وهو يوم منها ، للتنويه بهذا اليوم ، والإشارة إلى أنه أشدها وأظهرها فى الدلالة على الألوهية والمُلك ، والمراد بـ « أيام الله » وقائعهُ وأحداثهُ الكائنةُ بقدرته فى هذا الوجود ، وتُستعمل الأيام فيما يقع فيها استعمالاً مجارياً كما قلنا ، ومنها « أيام العرب » ، أى : وقائعهم وأحداثُهم ، والمهم أن هذا الاستعمال اشتُهِر حتى يكاد يلحق بالحقائق ، قال صاحب روح المعانى معلقاً على القول بتقدير « يرجو أيام الله » : إن تقدير أيام غيرُ متبادر إلى الفهم .

ومن لمحات الصوفية التى تروق قولهم فى هذه الآية : إن ذكر لفظ الجلالة أولاً يشير إلى حال من أحوال الطريق إلى الله ، وذكر اليوم الآخر بعده يشير إلى حالة ثانية ، والحالان يصفان مرحلتين من مراحل الاقتداء برسول الله ﷺ ، الحالة الأولى : هى حال الذين أخلصوا لله نياتهم ، وهم أهل القُرب القريب من الله ورسوله ، وهؤلاء هم الذين يرجون الله ولا تطمح أنظارهم إلى غيره ؛ ولا يتعلقون إلا به ، أو هم الذين يولون وجوههم شطر الحق لا تتجاوزه ، والحالة الثانية : حال دون هذه الحال ، أى : حال الذين أخلصوا لله ، واقتدوا برسول الله ﷺ ، يرجون بذلك الفوز بنعيم اليوم الآخر ، فهؤلاء لا زالوا فى طريق الترقى والصفاء ، منهم مَن يجتهد فى التأسى والاقتداء ، ويلزم متابعة المصطفى فى الأعمال ، والإخلاص والمجاهدات ، ثم يبالغ فى ذلك حتى يتخلص من صفات نفسه ، ثم يرد بروحه وقلبه موارد الصدق والإخلاص والتسليم ، وهكذا حتى يتولى وجهه شطر الحق لا يبغى به بدلاً .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ألمع إلى هذا المعنى صاحب التأويلات النجمية ، فقال : « قُرْب كل روح إلى روح الرسول ﷺ وبُعْده عنه له أعمال ونيات تتناسب ، فأما حال أهل القُرْب منهم ، فبأن يكون عملهم على وفق السُّنَّة خالصاً لوجه الله تعالى كما قال : ﴿ لِمَن كَانَ يَرْجُواْ اللهَ ﴾ ، وأما مَن هو دونهم فى القُرب والإخلاص ، فبأن يكون عملهم لليوم الآخر ، أى : للفوز بنعيم الجنان كما قال تعالى : ﴿ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ أى : لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » . . انتهى كلامه . وبهذا يضع أهل الحقيقة تفسيراً روحياً لهذا التركيب فى الآية الكريمة لا يحوجنا إلى القول بقياسه على مثل : أرجو زيداً وكرمه .

وقوله : ﴿ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً ﴾ فيه إشارة إلى ما يعين على التأسى والاقتداء ، وهو ذِكْر الله ، وذِكْر الله - كما قلنا فى صدر آية الأحزاب - استحضار جلاله ، وملىء القلب بهيبته وسلطانه ، حتى لا يبقى مكان فى القلب لغيره ، فلا هيبة إلا هيبته ، ولا سلطان إلَّا سلطانه ، وبهذا تتكون الطاقة الكبرى فى نفس الذاكر الحنيف ، أما ذِكْر اللِّسان فهو ما يصحبُ هذا من التلفظ بالتسابيح والتضرع بالترانيم ، وأفضلها وأعلاها : « لا إلٰه إلَّا الله » التى تقطع كل خاطر يخطر فى القلب غير هيمنة التوحيد ، وجلال الحى القيوم ، وهى أفضل ما قاله أفضل الذاكرين والنبيون من قبله صلوات الله عليهم أجمعين ، قال أهل الذِكْر : كلمة « لا إلٰه إلَّا الله » نفياً وإثباتاً قدمان للسائرين إلى الله تعالى ، وجناحان للطائرين بالله ، بهما يخرجون من ظلمات الوجود المادى ، أو الوجود المجازى إلى الوجود الروحى الذى هو الوجود الحقيقى .

وقال الإمام النووى : « إنَّ ذِكْر الله سبحانه المعتبر شرعاً ما يكون فى ضمن جملة مفيدة كـ « سبحان الله ، ولا إلٰه إلَّا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله » ونحو ذلك ، وما يكون بمفرد لا يُعَد شرعاً ذِكراً نحو : « الله ، أو قادر ، أو سميع ، أو بصير » إذا لم يُقدَّر هناك ما يصير به اللفظ كلاماً ، وقد أجمعوا على أن الذكر المتعبَّد بمعناه لا يُثاب صاحبه ، ما لم يُستحضر

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

معناه ، فالمتلفظ بنحو : « سبحان الله ، ولا إله إلّا الله » ، إذا كان غافلاً عن المعنى غير ملاحِظ له ، ومستحضر إياه لا يُثاب إجماعاً » .. انتهى ملخصاً من روح المعانى .

قلت : إن هذه الآية وطاء ومهاد للحديث عن أوصاف المؤمنين ، بعد الفراغ من ذكر أحوال أهل النفاق ، وبيان ما كانوا عليه فى مجتمع العرب الذين نزل فيهم القرآن ، ومن براعة القرآن فى الوصف والتصوير أنه يُبرز لنا فى أوصافهم أوصافاً عامة تصف هذا النوع من الناس فى أزمنة التاريخ وأمكنة الوجود ، وهذا مظهر من مظاهر التفوق الأدبى ، والأصالة فى فن البيان ، كما يقول نقدته ، ثم انزلق الحديث إلى وصف الفئة المؤمنة ، أو أنموذج إنسانى آخر ، أو جانب مشرق من جوانب البيئة الإنسانية التى نزل فيها القرآن ، وانظر إلى هذه البراعة فى الانتقال من وصف أنموذج إلى أنموذج آخر ، فالآيات الأولى لما أفاضت فى تحليل أخلاقهم وتسللت إلى مستسر نفوسهم فأبرزت دخائلها ونقائصها ، استشرفت النفوس كل الاستشراف لمعرفة أحوال الفئة الصامدة الصابرة ، وكيف كان وقع هذا التخاذل المفزع فى صفوفهم ، وإلى أى مدى استمسكوا بالحق ونافحوا عنه ؟ فوصفتهم آية : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ ﴾ وصفاً مجملاً حدد موقفهم خلف رسول الله ﷺ فى صلابة ويقين ، ثم بدأ يبسط هذه الأحوال والأوصاف بقوله : ﴿ وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ ﴾ ، ونلحظ أن هذه الآية التى هى وطاء ومهاد كما قلنا ، تذكر فضائل هذا الأنموذج إجمالاً فى هذه القدوة الحسنة ، ثم تشير إشارات دقيقة إلى تفصيلات هذه الأوصاف فأومأت بالرجاء إلى « مَن ينتظر » ، وباليوم الآخر إلى « مَن قضى نحبه » ، وبالذكر إلى تذكرهم ما وعدهم الله ورسوله ، وحفظهم ما عاهدوا الله عليه حفظاً لا تبديل فيه ولا تحويل ؛ واقتضى سياق الآيات الكريمة أن يُقدِّم أوصاف المنافقين على ما كان من المؤمنين ، وذلك من حيث أن الآيات سيقت لتذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم ، إذ نجاهم من هذا التحزب الحاقد ، فوصف هول مجيئهم يتحدرون من فوق رؤوس المسلمين ومن تحت أقدامهم ، ثم وصف الكرب

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الذى أصاب جنود الإسلام فى كلمات قصار معجزات : ﴿ وَإِذْ زَاغَتَ الأَبْصَارُ وبَلَغَت القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِىَ المُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ (١) : وكان تخاذل المنافقين وتيئيسهم لجنود الإسلام ، وتسللهم من وراء الخندق ونداء أشياعهم من أهل يثرب وغير ذلك مما كان منهم جزءاً من هذا الكرب الذى نجاهم الله منه ، فلذلك ذُكر ملحقاً به ، تأمل كيف أدمج وصف المنافقين وربطه بسياق الهول السابق رباط الجزء بالكل ؟ وكيف تأتَّى لذلك بواسطة هذا الظرف الذى أوقعه فى فاتحة الحديث عنهم فى قوله : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ﴾ (٢) ، والذى أدخله فى حكم التذكير الذى هو غرض الآيات وسياقها ، وبهذا الظرف أيضاً تشابهت آيات الأحداث ، وتماثلت فى النسق اللفظى ؛ وجاءت هكذا : ﴿ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ (٣) ، ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ (٤) ، ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ ﴾ (٥) ، ﴿ وَإِذْ يَقُولُ المُنَافِقُونَ ﴾ (٦) ، ولم تأت هذه الرابطة فى بدء الحديث عن المؤمنين لأن ما كان منهم ليس من هذا الباب ، وإنما المقصود بذكره الثناء عليهم ، والتنويه بما كان منهم .

* * *

﴿ وَلَمَّا رَءَا المُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً * مِّنَ المُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً * لِّيَجْزِىَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ المُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ (الآيات : ٢٢ - ٢٤) .

* *

---

(١) الأحزاب : ١٠ - ١١ (٢) الأحزاب : ١٢ (٣) الأحزاب : ٩
(٤) الأحزاب : ١٠ (٥) الأحزاب : ١٠ (٦) الأحزاب : ١٢

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

﴿ ولَمَّا رءَا الْمُؤْمِنُونَ الأحْزَابَ ﴾ : يقول النحاة إن « لما » تقع فى آيات الله وكلام العرب على ثلاثة أوجه :

١ - تكون حرف وجود لوجود كما هنا ، وتدخل على الفعل الماضى ، وتقتضى جملتين توجد الثانية عند وجود الأولى ، ومثلها : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ (١) ، وقال جماعة من النحاة : إنها ظرف بمعنى « حين » ، وقال ابن مالك : إنها ظرف بمعنى « إذ » لأنها مختصة بالماضى ، وبالإضافة إلى الجملة وجوابها يكون ماضياً كما هنا ، وقد يكون جملة اسمية مقترنة بـ « الفاء » ، أو بـ « إذا » الفجائية نحو : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ (٢) ، ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (٣) ، وأجاز ابن عصفور أن يكون جوابها فعلاً مضارعاً ، واستشهد بقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا ﴾ (٤) .

٢ - وتكون حرف استثناء فتدخل على الإسمية والماضوية ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ (٥) .

٣ - وتكون حرف جزم ، فتدخل على المضارع ، وتنفيه ، وتقلبه ماضياً ، مثل « لم » ، وتختلف عنها فى أنها لا تقترن بالشرط ، ونفيها مستمر إلى الحال أو قريب منه ويتوقع ثبوته ، ونفيها آكد من نفى « لم » فهى تنفى « قد فعل » ، و« لم » تنفى « فعل » . وقال ابن جنى : إنها مركبة من « لم » و« ما » ، وإنهم لما زادوا فى الإثبات « قد » ، زادوا فى النفى « ما » ، ويجوز حذف منفيها .

وراجع معانى الكلمات : « الأحزاب » ، « وعد » ، « الله » ، « رسوله » ، « صدق » ، « عاهد » . . فيما مضى .

---

(١) الإسراء : ٦٧ (٢) لقمان : ٣٢ (٣) العنكبوت : ٦٥
(٤) هود : ٧٤ (٥) الطارق : ٤

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

و« زاد » : الزيادة هى أن ينضم إلى ما عليه الشىء شىء فى نفسه آخر ، يقال : زدته فازداد ، ومَن ازداد فى شىء قوى فيه ، سواء أكان خيراً أم شراً ، ازدادوا كفراً ، وازدادوا إيماناً ، ومن كلامهم : تزايد السعر وتزيَّد ، وتزايدوا فى حديثهم ، وزايَدَ أحد المتبايعين صاحبه .

﴿ قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ : قال الثعالبى : قضى فى اللُّغة على ضروب كلها يرجع إلى معنى قطع الشىء وإتمامه ، ويقال : قضى له القاضى ، وقضى عليه ، ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ (١) .

قال أبو إسحاق الزجَّاج : معناه : أمر ؛ لأنه أمر قاطع حتم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ فِى الْكِتَابِ ﴾ (٢) أى : أعلمناهم إعلاماً قاطعاً ، ومنه قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ (٣) أى : لفصل وقطع الحكم بينهم ، وقالوا : قضى فلان حاجته ، أى أتمها وفرغ منها ، كأنه قطعها وفصلها عن مهامه ، وقالوا : قضى المريض ، أى مات ، كأنه فرغ من قضاء حاجته فى الدنيا وأطلقوا على المنية : القاضية ، فقالوا : قضت عليه القاضية ، ومن البليغ : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ﴾ (٤) أى : أبرمنا أمر موته ، وقضاء الأجل يُراد به الموت كأنهم فرغوا من مدتهم المضروبة لهم فى الحياة .

و« النحب » : النذر ، تقول : عليه نحب ، أى : نذر ، وفلان يرى فعل آبائه عليه نحباً ، كأنه يلزم نفسه مكارم آبائه أو لؤمهم ، ويمضى فى الوفاء بها ، كأنها نذر عليه ، قال حسَّان (من الطويل) :

مَسَامِيحُ أَبْطَالُ يُرجُّونَ لِلنَّدَى ... يَرَوْنَ عَلَيْهِمْ فِعْلَ آبَائِهِم نَحْباً

ونحَّب - بالتشديد - نحيباً فهو منحب ، أى : أوجب على نفسه

---

(١) الإسراء : ٢٣ — (٢) الإسراء : ٤

(٣) الشورى : ١٤ — (٤) سبأ : ١٤

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

أمراً ، وقالوا : سَعَى سَعْى المنحب لقضاء نذره ، وهو مثل عندهم ، قال نصيب (من الطويل) :

وَإنّى لَسَاعٍ فِى رِضَاكَ كَمَا سَعَى ... لِيُلْقَى ثِقلَ النَّحْبِ عَنْهُ الْمُنحِّبُ

وهذا يرشد إلى شيمتهم فى الوفاء ، وقالوا فيمن مات : قضى فلان نحبه ، كأن حياته نذر وقد وفَّاه ، قال الراغب : « كأنه قضى أمره المختص به فى دنياه » ، وعليه يكون النحب مستعاراً للعمر والحياة ، وما يختص به فى دنياه ، وقال الزمخشرى : « كأن الموت نذر فى عنقه » ، وعليه يكون النحب مستعاراً للموت بتشبيه الموت بالنذر من حيث لزوم الأداء وضرورة الوفاء ، والمعنيان مرويان عن ابن عباس رضى الله عنهما ، فقد قالوا : إن نافع ابن الأزرق سأله عن قوله تعالى : ﴿ قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ ، فقال : أجله الذى قُدِّرَ له فقال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول لبيد :

الا تَسْألانِ المَرْءَ مَاذَا يُحَاوِلُ ... أَنَحْبٌ فَيُقْضَى أمْ ضَلالٌ وبَاطِلُ

وقالوا أيضاً : إنه فسَّر ذلك بالموت .

﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ : بدَّل الشىء : غيَّره ، ومنه : الإبدال ، والتبديل ، والتبدل ، والاستبدال ، كلها تفيد التغيير ، والتغيير إما أن يكون بجعل شىء مكان آخر كقوله تعالى : ﴿ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ ﴾ (١) أى : غيَّره ووضع مكانه غيره ، ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ (٢) ، ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ (٣) ، وقد يقال لمجرد التغيير كما فى هذه الآية : ﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ أى : لم يغيروا عهدهم شيئاً من التغيير ، والأبدال - بفتح الهمزة - قوم صالحون بدَّلوا الأحوال الذميمة بالأحوال الحميدة .

﴿ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ : قال المعربون : يجوز أن تكون « ما » هذه موصولة وعائدها محذوف ، أى « ما وعدناه الله ورسوله » ، ويجوز أن تكون

---

(١) البقرة : ١٨١ (٢) البقرة : ٥٩ (٣) محمد : ٣٨

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

مصدرية ، أى « هذا وعد الله ورسوله إيانا » . ﴿ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ : معطوف على ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ فهو داخل فى حيز القول ، ويجوز أن يكون حالاً بتقدير « قد » ، أو بدون هذا التقدير ، وقوله : ﴿ مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ يجوز أن يكون فى محل نصب على نزع الخافض أى « صدقوا فيما عاهدوا الله عليه » ، وهذا كثير فى كلامهم ، ومنه صدقنى سنَّ بكره - بنصب سن - أى « صدقنى فى سن بكره » ، ويجوز أن يكون مفعولاً به صريحاً ، أى بدون تقدير الجار .

والآية - كما قلنا - تصف ما كان عليه المؤمنون من الصبر والثبات ، والتصلب فى وجه الباطل العنيد ، وقوله : ﴿ وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ تشير إلى أن هذا القول كان منهم بلا ريث ولا إبطاء ، أى ما أن رأوهم حتى قالوا ، وذلك دليل على فرط اليقين ، وقوة الثقة ، ومتانة الإيمان ، وهذا لا ينافى أن القوم رعبوا وفزعوا كما صوَّرت الآيات الأولى ، فالخوف من الهول شىء تابع للفطرة ، ولِمَ لا تكون هذه المقالة طلباً لتثبيت القلوب واستشعارها الأمن بتذكر وعد الله ؟ ولِمَ لا يكون لفتاً إلى ما يوجبه التسليم لله من القرار والاطمئنان ؟ ولِمَ لا يكون هذا ضرباً من ذكر الله عند الشدة ليبعث هذا الذكر فى النفس قوة صلابة لمواجهة هذا الموقف العنيد وبذكرِ الله تطمئن القلوب ؟ والإسراع إلى الذكْر عند رؤية الهول اجتهاد فى البحث عن القرار والاطمئنان ، وليس هذا قدحاً فى اليقين ، وإنما هو ثناء وتنويه ، وبقدر الاستمساك والثبات والتصلب فى وجه أعداء الدين مع فرط الشعور بالهول ، يكون الأجر ، وتكون المثوبة ، فلا يُطلب من المؤمن أن يكون قلبه قاراً كالحجر الصلد ، وإلا فإنه إن كان كذلك فلا معاناة ولا جهد ، وأفضل العبادة فى الإسلام أحمزها ، أى أشقها على النفس ، كما قال نبى البر ، والجهاد من أفضل أنواع العبادة ، لما فيه من المشقة ، وليست المشقة فى الجهاد إلا هذا الهول فى ميدانه والشعور به ، قال الزمخشرى : « فلما جاء الأحزاب وشخص بهم ، واضطربوا ورعبوا الرعب

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الشديد قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وأيقنوا بالجنة والنصر » . واسم الإشارة فى قوله « هذا » يراد به الأحزاب كما قال بعض أهل البصر بتصوير القرآن ، قالوا : وجاء على التذكير ، والأصل أن يكون مؤنثاً ؛ لأنهم أعجلوا أنفسهم بالنطق بوعد الله وصدقه ، فلم يتريثوا حتى يخطر ببالهم لفظ يدل عليه ، قال صاحب روح المعانى : « وهذا إشارة عند بعض المحققين إلى ما شاهدوه ، من غير أن يخطر ببالهم لفظ يدل عليه ، فضلاً عن تذكيره وتأنيثه فإنهما من أحكام اللفظ » .. انتهى كلامه . وهذا وجه من الرأى نستحسنه ، ويزيد معنى الآية فى ذوقى حلاوة من حيث رمز القرآن بهذه المخالفة فى التذكير إلى هذه الحالة النفسية للقوم ، وكيف كان منهم هذا التوجيه السريع المفرط فى العجلة والسرعة إلى باب الضراعة واللجأ إلى الله حتى أعجلهم هذا عن مطابقة اللفظ ، نعم .. يجوز التذكير فى مثل هذا التركيب مراعاة للخبر الذى هو « ما وعدنا الله ورسوله » ، ولكن البليغ الذى يريد أن يستنطق أحوال الصياغة ، ويتسمع لكل همس فيها من حقه أن يسأل إذا كان التذكير جائزاً والتأنيث جائزاً ، فلماذا عدل عن الثانى إلى الأول ؟ قالوا : ويجوز أن يكون « هذا » إشارة إلى الخطب والبلاء ، وحينئذ يذهب هذا الملحظ الذى ذكرناه ، ليفيد اسم الإشارة معنى آخر ، هو تجسيم الهول والبلاء فى وجدان المؤمنين ، وصيرورته شيئاً محسوساً ومشخصاً يُشار إليه ، وآثروا « هذا » على « ذلك » للإشارة إلى إحساسهم بقرب الهول منهم ، وإحاطته بهم ، والمراد بـ « وعد الله ورسوله » ما أشارت إليه سورة البقرة فى قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ، مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ (١) ، ومن الخير أن أضىء لكم آية هذا الوعد لتتبينوا كيف فهم المؤمنون وأدركوا ما ينتظرهم من التمحيص والابتلاء ، الآية

(١) البقرة : ٢١٤

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

تشير إلى ضرورة التمحيص ليميز الله الخبيث من الطيب ، وليتبين الذين هُدُوا إلى الحق قلباً وروحاً من هؤلاء المزيفين ، والمزيفون هم الذين لا يثبتون عند الابتلاء الشديد البالغ ، و« أم » فى قوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ هى « أم » التى بمعنى « بل » والهمزة أى : بل أحسبتم ؟ والاستفهام فيها معناه الإنكار ، والاستبعاد ، والتوبيخ ، وقوله : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِكُم ﴾ فيه إشارة إلى أن هذا المثل لم يأتهم ، ولكنه كاد ، و﴿ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ﴾ أى حالهم ، وقصتهم العجيبة فى الابتلاء والتى سارت فى الناس مسير المثل ، وقوله : ﴿ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ ﴾ ، فيه أن هذه البأساء كأنها شيء يُمَسّ ويُحَسّ ، فهى بأساء بالغة فى الهول ، كأنها خرجت من حيز المعقول إلى حيز المحسوس فتراها العيون وتلمسها الأيدى ، لا بل إنها هى التى تسعى لتَمُسّ وتَحُسّ فقد وقعت فاعلاً فى التعبير الكريم ، وقوله : ﴿ وَزُلْزِلُوا ﴾ أى : أزعجوا إزعاجاً شديداً ، كأنه الزلزال ، وكأنهم لفرط هذا الإزعاج يتحركون بأجسادهم حركة عنيفة كالزلزلة ، وقوله : ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ ﴾ إشارة إلى أن الأمر بلغ بهم مبلغاً من الفظاعة والهول ، حتى إن الرسول الذى لا يُبارَى فى الصبر على الشدائد ، والذى لا يُقَادر قدره فى الاستمساك بالحق واليقين والثبات ، استطال زمن العذاب ، واستبطأ النصر وتمناه ، وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ إشارة إلى أن الذين هم أصفياؤه وخلصاؤه وحواريوه وأنصاره ، والذين هم فى معيته قد بلغ بهم الأمر ما بلغ ، واستطالوا زمن العذاب ، واستبطأوا النصر ، ونادوا ونادى معهم نبيهم : ﴿ مَتَىٰ نَصْرُ اللهِ ﴾ ؟ وقد نزلت هذه الآية قبل غزوة الأحزاب بحَوْل ، كما رُوِىَ عن الضحاك ، هذه هى الشدة التى وعدها الله المؤمنين ، وأنهم لن يدخلوا الجنة حتى يُبْتَلُوا ، ويُمَحصوا ابتلاءً وتمحيصاً كهذا الابتلاء ، والذى أدركته من تصوير للهول الموعود هو ما هدانى إليه فهمى ، وأعانتنى عليه كتب القوم ، وما فى الكتب لا يستشف من آية الوعد كل ما فيها ، ولا شك فى أن أبناء هذه اللغة الذين نزل عليهم هذا القرآن ، والذين تحكى آيات الأحزاب

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

أحوالهم ، قد لحظوا فيها من معانى الشدة والهول أضعاف ما ذكرت ، فالفرق بيننا وبينهم فى هذا الباب هو الفرق بين الفهم الذى هو غايتنا ، والفقه والوعى والبصر بالقرآن الذى هو وصفهم ، فقد وعوا الكتاب بوجدانهم وشعورهم وعقلهم الباطن والظاهر ، فذاب المصحف فى كيانهم ، فبدَّل خلائقهم بخلائقه ، وعرج بهم من الأرض إلى السماء ، فثبتهم فى أرجائها نجوماً يهتدى بها السارى على درب الحقيقة ، ويقتدى بها المستغرق فى محنة البلاء ، وهذا معنى قول نبينا عليه السلام فيهم : « أصحابى كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم » أى أنهم وعوا هذا القرآن الذى هو هدى ، فصيَّر طبيعتهم من طبيعته ، وهكذا القرآن .. وهكذا أفاعيله فى كل نفس تتلقاه بالروح والقلب ، فإن من صفاته أنه نزل على قلب صاحبه ، فاجتَهِد فى أن تتنزل آياته فى تلاوتك على وعيك وقلبك ، ثم انظر ماذا يفعل ؟ وقد ذهب بعضهم إلى أن الوعد هنا هو قول الرسول عليه الصلاة والسلام لأصحابه : « إن الأحزاب سائرون إليكم تسعاً أو عشراً » ، أى فى آخر تسع ليال أو عشر ، أى من وقت الإخبار ، أو من غُرَّة الشهر ، وقوله عليه السلام : « سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم » . قال الحافظ ابن حجر فى الحديث الأول : إنه لم يجده فى كتب الحديث .

وقوله : ﴿ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ قال المفسرون : المراد ظهر صدق خبر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الصدق محقق قبل ذلك ، والمترتب على رؤية الأحزاب ظهوره ، فعبَّر بالصدق عن ظهور الصدق ؛ لأن الصدق سبب أو لازم لظهوره ، وقيل : المراد صدق الله ورسوله فى النصرة والثواب ، كما صدق الله ورسوله فى التمحيص والبلاء ، فيكون فى الآية حذف للمتعلق ، أى أن الآية إما أن يكون فيها مجاز فى الكلمة ، وإما أن يكون فيها حذف ، وأستحسن أن يكون الكلام على ظاهره ، لا تَجَوُّز فيه ولا حذف ، والمراد الثناء على الله بصفات كماله ، وصدق وعده بهذا الإطلاق وهذا العموم ، ليشمل الصدق فى كل خبر سواء أكان نصراً أو بعثاً أو حساباً ، أى صدق الله فى كل ما أخبر به من أخبار الدنيا والآخرة ، وصدق رسوله

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

فى كل ما بلّغه عن ربه ، وبهذا يكون قولهم : ﴿ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ ذِكْراً وتسبيحاً بالتصديق والإيمان ، ليعمل هذا الذِكْر عمله فى قلوبهم الواجفة ، وهذا المعنى الذى يفيد الصدق بظاهره وعمومه ، بعد ذكر ضرب من الصدق فى تحقيق الوعد هو الأحرى فى كلامهم ، يقولون : وفى فلان ما وعد ، وفلان وَفِىٌّ صدوق ، يصفونه فى الجملة الثانية بمطلق الوفاء ، ومطلق الصدق المندرج تحتهما وفاؤه بما وعد ، ولا تجد معنى فى قولك : وفى فلان ما وعد وصدق على معنى ظهر صدقه بهذا الوفاء ، لأنه يكون تكريراً لا معنى له ، فأى مذاق فى قولك فى الآية : ﴿ هَذَا مَا وعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ ، وقد ظهر صدق وعد الله ورسوله ، الجملة الثانية لا تفيد معنى جديداً إلا تأكيداً للمعنى الأول فحسب ، وهذا التأكيد مفاد أيضاً باعتبار العموم فى الصدق وحمله على حقيقته ، لأن معناه : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله فى كل ما وعد ، وصدق رسوله فى كل ما بلّغ ، وهذا الوعد من جملة وعوده الصادقة ، فقوله : ﴿ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ ذِكْر وتسبيح كما قلنا ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يتصايحون بالتسبيح والتكبير فى مواقف الهول ، فكم زلزلت تكبيراتهم جوانب عسكر العدو ، وكم هتف : « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » ، وهذا تعليم لنا ، وإرشاد إلى ما به تقر قلوبنا ، حين ندفع عن الحق ونذود فى جانبه ، نحتاج فى هذه المواقف إلى استشعار القلوب هيمنة الحق وجلال اليقين ، فيمدنا هذا الشعور بالصلابة والقوة التى لا تلين ، وترى هذا وصفاً واضحاً فى أصحاب المبادىء والعقائد الذين يموتون دونها ، يهتفون بها كلما كربهم كرب ، وأحاط بهم ما يهددها ، كأنهم يُذَكِّرون قلوبهم بها ، وبهذا الشعور الذى خلقه الله فى فطرة الإنسان قامت الصراعات الملتهبة بين أصحاب العقائد والنِحَل ، كلٌّ يدفع عن عقيدته التى هى جزء من فطرته بالنفس والروح ، وكان النصارى فى حروبهم الفاصلة فى تاريخ المسيحية يهتفون بالمسيح ويُشعرون قلوبهم جلال الرب ، وكان قسطنطين قائد جيوش المسيحية ، يُخَيَّل إليه - كما يزعم - أنه يرى

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الصليب المشهور فى السماء ، وهو فى معمعة النزال ، وأنه لم يصل إلى الفوز والظفر إلا فى ظله وحماه ، ولم يقده إلى النصر ويرسل إليه بركات الرب سواه ، وهكذا تعتمد الحروب على إلهاب حماس العقائد الدينية ، والذين يحطمون روح التدين فى المجتمعات الإسلامية من كُتَّاب ملحدين ومن أنظمة السوء ، إنما يُخرِّبون بلاد الإسلام ويفتحونها لأعدائها من كل الأجناس المعادية . .

وفى ضوء هذا الفهم الذى قدَّمناه لقوله : ﴿ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ نذوق معنى وضع الظاهر موضع المضمر فيها بعد قوله : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ لأن فى ذكر الألوهية والرسالة مدداً ، أى مدد لهذه القلوب الشفافة التى لا ترى أحب إليها من الله ورسوله ، وهذا لا يبعد عن قول البلاغيين إن وضع الظاهر موضع المضمر فى الآية للتعظيم ، تعظيم الله ورسوله ، هو امتلاء القلب بالهيبة والجلال ، وقد ذكر البلاغيون وجهاً آخر هو تفادى التثنية التى آحادها الله ورسوله ، لأن ذلك مكروه فى الدين ، وهذا للمبالغة فى خلوص الوحدانية ، وتفادياً من اللَّبس ، قال صاحب روح المعانى : « ولأنه لو أضمر ، وقيل « وصدقا » : لجمع بين الله تعالى وغيره فى ضمير واحد ، والأولى تركه ، والأصل فى هذا ما روى من أنه عليه السلام قال لمن قال : ومَن يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومَن يعصهما فقد غوى : « بئس خطيب القوم أنت ، قل : ومَن يعص الله ورسوله » ، وقد اعتُرِضَ على المنع بقوله عليه السلام : « حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » ، وأجيب بأن جواز ذلك خاص به عليه السلام ؛ لأنه أعرف بقدر ربه » .

وقوله : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ﴾ يرجع الضمير الفاعل فيه - كما قال المفسرون - إلى : « ما رأوا » المفهوم من الكلام السابق ، أى وما زادهم ما رأوا إلا إيماناً وتسليماً ، وقالوا أيضاً : إنه راجع إلى المصدر المفهوم من « رأى » فى قوله : ﴿ وَلَمَّا رَءَا ﴾ أى وما زادتهم الرؤية ، ولكن تذكير الضمير وتأنيث المصدر عكَّر على هذا القول كما قالوا ، قالوا : إنه يجوز أن

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

يرجع إلى الشهود المفهوم من ذلك ، أى وما زادهم الشهود ، وأرادوا بالشهود المشاهدة ، ولكنهم عدلوا إلى الشهود ليطابق الضمير فى التذكير ، وقالوا : يجوز أن يرجع إلى الوعد والخَطْب والبلاء المفهومين من السياق ، وكل هذا صحيح ، ولكننى أستحسن أن يرجع الضمير الفاعل إلى الخَطْب والذكْر المفهوم من قوله : ﴿ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ ، ويكون المعنى : وما زادهم هذا الخَطْب المصحوب بالذكر ، والهتاف بصدق الحق إلا إيماناً وبسالة واستمساكاً وتسليماً .

وقد جاءت العبارة بـ « ما » و« إلا » لتفيد قصر ما قبل « إلا » على ما بعدها ، أى أن هذا الكرب لم يفت فى عضدهم ، ولم يهز يقينهم ، ولم يزدهم شيئاً إلا اليقين والتسليم لرب العالمين ، فالزيادة مقصورة على الإيمان والتسليم ، وهو من قصر الصفة على الموصوف إذا اعتبرت المقصور هو الفعل ، والمقصور عليه هو المفعول ، وفيه وجوه أخرى تُستقصَى فى كتب القوم ، ويُلاحَظ أنهم حين يقصرون الفعل على المفعول يؤولون الفعل باسم المفعول ، ليناسب المفعول الذى هو الموصوف ، أى وما المزاد إلا الإيمان والتسليم ، وهذا القصر من قبيل القصر الإضافى ، وكأن المخاطب بعد الوصف الذى مضى ، وبعد ما سمعه من قصة تخاذل المنافقين يتوهم أن المؤمنين قد أصابهم شىء من الوهن أو الضعف فى يقينهم ، فنفى ذلك وقرر أن هذا الزلزال المزلزل لم يزدهم إلا إيماناً وتسليماً ، ونفهم من هذا أن الصدق فى الإيمان يزداد عند الابتلاء قوة وتماسكاً ، وكلما كان الابتلاء أعتى كان نصيب اليقين من الزيادة أوفى ، وقد فهم بعض علماء العقائد من هذه الآية أن الإيمان يزيد وينقص ، ثم رد عليهم آخرون بوجوه من الرد ، والقول فى ذلك يُستقصَى فى علوم العقائد .

وترى فى قوله : ﴿ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ﴾ أن التسليم مرتبة صاعدة فى مراتب الإيمان ، وأن زيادة الإيمان تقود إلى التسليم ، فالتسليم ثمرة قوة الإيمان وعنوان رسوخ القدم فى باب اليقين ، فهو يوجد عند المرتبة الأعلى من

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

مراتب الإيمان ، ويرشدنا إلى ذلك وقوعه بعد الإيمان فى الآية ، وطريقة العرب فى كلامهم وترتيب الصفات ترتيباً يتصاعد ، فالصفة اللاحقة تكون أدخل فى المعنى من الصفة السابقة ، يقولون : فلان شجاع باسل ، وجواد فيَّاض ، وعالم نحرير ، وهذا الشىء أسود فاحم ، وأبيض ناصع ، ولا تراهم يقولون : باسل شجاع ولا فياض جواد ولا ناصع أبيض ؛ لأنهم يتدرجون كما قلت من الأدنى إلى الأعلى ، ويجرى كلامهم على وفق أحوال نفوسهم ، والنفس فى مثل هذا تنزع إلى ما هو فوق الذى مضى ، وهذا التسليم والاستسلام للمعبود جَلَّ جلاله ، الذى هو مرتبة عليا فى مراتب الإيمان ، ضرب قوى من ضروب الإيجابية الفعَّالة ، وطاقة هائلة تدفع المؤمن إلى اقتحام الأهوال فى سبيل نُصْرة الحق ، ودفع غوائل الشر فى حياة الإنسان ، فليس تواكلاً وبُعْداً عن ميادين الصراع ، وإنما هو مجالدة للباطل ، وصراع عنيد فى أشرف الميادين ، فكيف يرجف المرجفون بأن التسليم والتوكل على الله تخاذل ، وسلبية ، فى عقيدة الحنفاء المسلمين ؟!! إن مَن يفهم التسليم لله على أنه ترك للدنيا ، وبُعْد عن ساحة الصراع بين الخير والشر ، والانطواء على النفس ، والقبوع فى عقر الدار مع القواعد من النساء قد فاته أن يدرك الصواب فى دين الله ولينظر إلى الذين ازدادوا تسليماً واستسلاماً أين كانوا ؟ وبهذا نفهم أن ترك الأمور على الله ، كما تعودنا أن نقول ، إنما يعنى بذل غاية الجهد والفعل فيها ، واستلهام الرشاد والعون من الله فى تدبيرها ومعالجتها ، أما أن نفهم من ذلك إهمال الأمور والتخلى عنها ، وعدم الانشغال بها ، فذلك باب من أبواب الجهل بالدين ، ويحاول الملاحدة فى هذا الزمن الردئ أن يُبرزوا هذه التفسيرات الخاطئة على أنها هى الوجه فى فهم الإسلام .

وقوله : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ ، قلنا فى إعرابه : إن قوله : ﴿ مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ قد يكون منصوباً بنزع الخافض ، والتقدير : « صدقوا فيما عاهدوا الله عليه » ، ولما حذف الجار أوصل الفعل

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

بالمجرور ، وهذا هو المراد بقولهم : جاء الكلام على طريقة الحذف والإيصال ، أي حذف الجار وإيصال الفعل إلى المجرور بدون جار ، ويجوز أن يكون ﴿ مَا عَاهَدُواْ اللهَ عَلَيْهِ ﴾ هو المفعول الصريح ، ويكون الكلام حينئذ على ضرب من المجاز ، وذلك بتشبيه ما عاهدوا الله عليه بالشخص المعاهد ، وكونه مصدوقاً رمز لهذا التشبيه .

قال الزمخشرى : « كأنهم قالوا للمعاهد سنفى بك وهم وافون به فقد صدقوه ، ولو كانوا ناكثين لكذبوه ولكان مكذوباً » .. انتهى كلامه ، وهو أولى عندنا لسلامته من التقدير ، ولكونه أدخل فى باب المجاز والتصوير ، فأنت ترى المعاهد عليه ماثلاً كأنه شخص وله فى نفوس المعاهدين توقير وجلال بدليل أنهم يصدقونه ولا يكذبونه ، والمعاهد عليه هو الثبات فى الحرب حتى الشهادة ، وهو الطاعات مطلقاً ويدخل فيها الثبات فى الحرب ، وحين تكون هذه أو تلك شاخصة ماثلة فى وجدان المعاهدين وضمائرهم يفيدك ذلك مدى حفاظهم عليها ، وتعلقهم بها ، وهذا شأن النفس الصادقة حين تلتزم بعمل من أعمال البر ، يصير هذا العمل جزءاً من شعورها ، ومرتبطاً بكيانها لا يريم عنها ولا يحول .

وهذه الآية تصف رجالاً معينين من المؤمنين ، فهى ليست فى جميعهم ، وإنما هى فى خلاصة منهم ، قال الزمخشرى : نذر رجال من الصحابة أنهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله عليه الصلاة والسلام ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا ، وهم : عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل ، وحمزة ، ومصعب بن عمير ... وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين ، وقد أخرج الترمذى وابن ماجه والحاكم : « مَن أحب أن ينظر إلى شهيد يمشى على الأرض فلينظر إلى طلحة » ، وقالوا : المراد بهؤلاء الرجال هم : أنس بن النضر وأصحابه ، وكان قد تخلَّف فى بدر . روى مسلم والترمذى والنسائى وجماعة عن أنس قال : غاب عمى أنس بن النضر عن بدر فشق عليه . وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبْتُ عنه ، لئن

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

أرانى الله تعالى مشهداً مع رسول الله ﷺ فيما بعد ليرين الله تعالى ما أصنع . فشهد يوم أُحُد ، فاستقبله سعد بن معاذ رضى الله تعالى عنه فقال : يا أبا عمرو أين ؟ فقال : واها لريح الجنة أجدها دون أُحُد ، فقاتل حتى قُتل فوُجِدَ فى جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية ، ونزلت هذه الآية : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ وكانوا يرون أنها نزلت فيه وأصحابه ، وقد وُصِفَ هؤلاء بالصدق الذى هو عنوان سلامة النفس ، ونقاء الفطرة ، وقد بيَّن الرسول عليه الصلاة والسلام أن التزام الصدق يهدى إلى البر ، والبر يهدى إلى الجنة ، وأن الرجل ليصدق حتى يُكتب عند الله صدِّيقاً ، والصِدِّيقون هم الذين يأتون فى أعقاب النبيين ، ويتقدمون الشهداء والصالحين .

ونلحظ فى الإخبار عن هؤلاء الرجال بالصدق فيما عاهدوا الله عليه ، بعد الإخبار عن الله ورسوله بالصدق مباشرة ، إشارة رامزة إلى أن الترقى فى مراشد الحق والخير يسمو بصاحبه إلى أوصاف الربوبية ، حتى يكون ربّانياً يقول للشىء كن فيكون ، وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء .

والتنكير فى قوله : ﴿ رِجَالٌ ﴾ يفيد التعظيم لهؤلاء الرجال ، وأنهم رجال أى رجال ، وأنهم قِلَّة فى كل زمان ومكان ، وفيه رمز إلى أنهم لا يرغبون فى التعريف بأنفسهم ، والتشهير بأعمالهم ، فهم هؤلاء الجنود المجهولون الذين ينطلقون فى غير صخب ولا دعاية ، ماضين فى الخير بعزائم صارمة وأقدام راسخة ، وفى ضوء هذا تُنَحَّى الآية هؤلاء الذين يفاخرون بأعمالهم ، وينوهون ببلائهم من دائرة الصدق ، لأن تنويه المرء بأعماله ، وتفاخره ببلائه لا يكون إلا لكسب الحمد ، والثناء من الناس ، ومَن فعل ذلك فقد حبط عمله ، وكذب فى دينه ؛ لأن الصدق معناه ألا تتجه فى أى أمر من الأمور إلا لله الذى هو أعلى ، وأكبر ، من أن يكون له فى عملك شريك ، وكم تعانى الحياة من هؤلاء الذين يقولون فعلنا وفعلنا ، وهم لا يدرون أن سمت الصادقين هو التنكير لا التعريف والبُعْد عن التشهير والادعاء .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وقد لحظ الحكيم الترمذى فى هذه الآية ربطاً وثيقاً بين صفتى الرجولية والصدق ، وجعل الصدق عنوان الرجولية ، وأمارة عليها ، قال رحمه الله : « خص الله الإنس من بين الحيوان ، ثم خص المؤمنين من بين الإنس ، ثم خص الرجال من المؤمنين ، فقال : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ ﴾ ، فحقيقة الرجولية الصدق ، ومَن لم يدخل فى ميادين الصدق فقد خرج من حد الرجولية » .

وقوله : ﴿ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ قلنا فى معانى المفردات : إن قضاء النحب عبارة عن الموت ، وموطن التجوز إما أن تكون كلمة « النحب » التى استُعْمِلت فى الموت ؛ لأن الموت كنذر لازم فى عنق الحى ، كما قال الزمخشرى ، أو استعلمت فى الأجل ، والحياة من حيث أنها تنتهى كما ينقضى النحب بالوفاء ، والاستعارة فى الحالين استعارة تصريحية ، ويجوز أن يكون موطن التجوز هو قوله : ﴿ قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ ، فيكون من قبيل الاستعارة التمثيلية ، ووجهها أنه شبَّه مَن مات بهيئة مَن قضى نحبه بجامع عدم الانشغال فى كل ، ثم استعار ﴿ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ لمن مات ، وهذه استعارة شائعة ومشهورة ، كما قلنا ، والذى قضى نحبه رجال منهم : أنس بن النضر ، ومصعب بن عمير ، وقوله : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ أى مَن ينتظر الحرب والجهاد ، فيُبْلِى فى الله بلاءً حسناً حتى يوفى بنذره ، وفى قوله : ﴿ يَنتَظِرُ ﴾ دلالة على شوق نفسه ، وصدق رغبته فى الشهادة والوفاء ، والنفوس الصادقة تتوق إلى أعمال البر ، وتنهض إلى الخير بهمة وثَّابة ، وعزم أكيد ، وكذلك كان طلحة وعثمان ، فقد ذكر المفسرون أنهم ممن ينتظر .

هذا هو ظاهر سياق الآية ، أى أن مَن قضى نحبه هو مَن مات شهيداً كأنس ، ومصعب ، ومَن ينتظر هو مَن ينتظر الشهادة كطلحة وعثمان .

وقد ثبتت أخبار تفيد أن مَن قضى نحبه هو طلحة ، وكان حياً بعد نزول الآية ، قال طلحة : قال أصحاب رسول الله ﷺ لأعرابى جاهل : سله عمن قضى نحبه مَن هو ؟ وكانوا لا يجترئون على مسألته ، يوقرونه ويهابونه ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

فسأله الأعرابى ، ثم إنى اطلعت من باب المسجد ، فقال : « أين السائل عمن قضى نحبه » ؟ قال الأعرابى : أنا ، قال : « هذا ممن قضى نحبه » ، والحديث أخرجه ابن أبى عاصم والترمذى وابن جرير وغيرهم ، وأخرج ابن عساكر عن أسماء بنت أبى بكر قالت : دخل طلحة بن عبيد الله على النبى ﷺ ، فقال : « يا طلحة أنت ممن قضى نحبه » ، وأخرج الترمذى وغيره عن معاوية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « طلحة ممن قضى نحبه » ، وقد روى أن علياً كرَّم الله وجهه سُئل عن طلحة فقال : ذلك امرؤ نزل فيه آية من كتاب الله : ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ .

وقد روى أن طلحة رضى الله عنه ثبت مع رسول الله ﷺ يوم أُحُد ، حتى أصيبت يده ، فقال عليه السلام : « أوجب طلحة » ، أى : أوجب الجنة لنفسه ، أو أوجب أجر المجاهدين ، قال الشهاب : « أوجب طلحة » أى : استحق الجنة استحقاقاً ، كالواجب على الله بمقتضى وعده وفضله ، وأصله : أوجب الجنة لنفسه على الله ، ومن كلامهم : أوجب الرجلُ - برفع الرجل - إذا فعل فعلاً وجبت له به الجنة ، وفى ضوء هذه الأخبار يذكر بعض المفسرين أن المراد بمن قضى نحبه هو ظاهر معناه الحقيقى ، أى لا تجوّز فيه ، أى وفى نذره ، والنذر هو : الثبات والبلاء فى الجهاد مع رسول الله ﷺ ، ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ أى : ينتظر يوم جهاد وحرب ، حتى يثبت مع رسول الله ﷺ ثبات الصادقين المخلصين ، وإذا كان المراد بالنذر هو لزوم الطاعات - بما فى ذلك الجهاد - يكون المراد بـ ﴿ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ أى بلغ فى مراتب الخير ما يتمنى ، ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ أى يسعى ليبلغ ما يريد ، ويكون معنى الآية : من المؤمنين رجال صدقت عزائمهم ، ونيَّاتهم ، فيما عاهدوا الله عليه ، من الثبات على البر والخير ، والصدق فى الجهاد ، وملاقاة الأعداء ، فمنهم مَن وفى بعهده فثبت فى الجهاد ، وارتقى فى مراشد البر ، ومنهم مَن يسلك طريق الرشاد ليبلغ ما يريد .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

وفى الآية ضرب من البديع ، يسميه أهل البلاغة : « التقسيم » ، فالذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه قسمان : منهم مَن قضى نحبه ، ومنهم مَن ينتظر ، وليس هناك ثالث ، اقرأ الآية كاملة : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ ، وانظر إلى وجازة هذا التقسيم وحسنه ، وكيف توزعت فيه هذه الجماعة إلى قسمين يتباعدان تباعد الوجود والعدم ، فريق منهم توارى من مسرح الأحداث ، وفريق باق ينتظر ، ولا تهمل دلالة صيغة المضارع التى صوَّرت لك الفريق الثانى كأنه يقف على أهبة الاستعداد آخذاً بسلاحه وعتاده ، أو قل : فريق منهم بلغ فى مراشد الخير ما بلغ ، وفريق آخر يسعى ليصل .

وهذا الفن من البديع له مواقع تعجب وتروق ، من ذلك قول بشار يصف هزيمة ماحقة تَوَزَّع الجند فيها :

بِضَرْبٍ يَذُوقُ المَوْتَ مَنْ ذاقَ طَعْمَــه ... وَيُــدْرِكُ مَنْ نَجَّى الفِــرَارُ مَثَالِبُــه
فَـرَاحَ فَرِيقٌ فِى الأُســارِى وَمِثْلُــهُ ... قَتِيلٌ ومِثْــلٌ لاذَ بِالْبَحْـرِ هَارِبُــه

قال ابن رشيق : فاستقصى جميع الأقسام ولا يوجد فى ذكر الهزيمة زيادة على ما ذكر ، ومن جيد ذلك قول نصيب :

فَقَالَ فَرِيقُ الْقَوْمِ لا ، وَفَرِيقُهُمْ ... نَعَم ، وَفَرِيقٌ قَالَ وَيْحَكَ لا أَدْرِى

وقول المصطفى صلوات الله عليه : « وهل لك يا ابن آدمَ مِنْ مَالِكَ إلا مَا أكَلْتَ فأفْنَيْتَ ، أوْ لَبِسْتَ فأبْليتْ ، أو تَصَدَّقْتَ فأمْضَيْتَ » .

وقال نافع بن خليفة لأبنائه : يا بنى اتقُوا اللهَ بطاعته ، واتقُوا السلْطانَ بحقِّه ، واتقُوا الناسَ بالمعروفِ ، فقال واحد منهم : ما بقى شىء من أمر الدين والدنيا إلا وقد أمرتنا به .

وقال أعرابى : إذا كان الرأى عند من لا يُقْبلُ منْهُ ، والسِّلاحُ عِنْد مَن لا يَستَعْمِله ، والمالُ عند مَن لا يُنفِقهُ ضَاعَتْ الأمورُ .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ووقف أعرابى على حلقة الحسن البصرى فقال : رحم الله مَن تَصدَّق مِنْ فَضْلٍ ، أو واسَى مِن كَفَاف ، أو آثَر مِنْ قُوت ، فقال الحسن : ما ترك البدوى منكم أحداً إلَّا وقَدْ سأله .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ (١) قالوا : وليس فى رؤية البرق إلّا الخوف من الصواعق والطمع فى الأمطار ولا ثالث لهذين القسمين . وقال : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ (٢) قالوا : والعالم لا يخلو من هذه الأقسام الثلاثة : إما عاص ظالم لنفسه ، وإما سابق مبادر للخيرات ، وإما متوسط بينهما . وقال : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ (٣) وغير ذلك كثير . وانظر إلى التقسيم فى هذه الآيات بعد ما راقتك شواهده البينة فيما قدمناه من شعر جيد ونثر مستطاب ، واعلم أن ما ذكرناه منها مما اتفق الذوق البلاغى على تقديمه ، ولا يحجبك يقينك بإعجاز هذا الكلام عن النظر والمقارنة ، وجرِّد نفسك إلا من الحيدة والإنصاف ، أما أنا فقد انطفأت أضواء هذه الشواهد السابقة لما وقعت على هذه الشواهد اللاحقة ، وأنا أذكر أن من بين الشواهد السابقة كلمات للمصطفى صلوات الله عليه وسلامه ، وهى لا شك فارعة الحسن فى قطاعها ، تسبق ما يحيط بها من جيد الشعر والنثر ، وكلام رسول الله ﷺ بين كلام البَشر ضرب وحده ونمط من البيان قَلَّما يتهيأ فى مثول أغراضه ، وتساوق معانيه ، لبليغ من البلغاء ، جمع الخالص من سر اللُّغة ، والخالص من سر البيان ، والخالص من سر الحكمة ، بعضها إلى بعض ، وألقى الله عليه القبول ، فهداه نور الحق إلى سويداء القلوب ، ومع هذا وغيره من أوصاف البلاغة المحمدية ، فإننا نجد لها - كما قلت - فى

---

(١) الرعد : ١٢ (٢) فاطر : ٣٢ (٣) الواقعة : ٧ - ١٠

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

حضرة كلام المصحف ، منزلة أخرى ؛ لأن معدن البلاغة النبوية ليس من معدن البلاغة القرآنية ، فتلك تنبع من البَشرية ، وهذه تفيض من الألوهية ، نعم .. إن بلاغة النبوة كانت ملهمة بوحى الرحمن ، ولكن البلاغة القرآنية كانت هى كلام الرحمن ، فالطبيعة البَشرية لها حظ أكبر فى بيان محمد عليه الصلاة والسلام ، وليس شىء من ذلك فى بيان القرآن ، وهذا الإلهام الربانى فى بلاغة النبوة جعلها فى كلام البَشر كالطيور المحلقة فى أجواء السماء ، بين ما درج منها على وجه الأرض لا يدف بجناح ، أما نسبتها إلى البلاغة القرآنية فهى كنسبة هذه الطيور المبعدة فى الآفاق إلى هذه الكواكب السيَّارة مهما جدت فى طيرانها لا تستطيع إليها وصولاً ، يقول الأديب الصادق الحس مصطفى صادق الرافعى بعد ما أفاض فى الحديث عن البلاغة النبوية : « على أن أعجب شىء أنك إذا قرنت كلمة من تلك البلاغة إلى مثلها فى القرآن ؛ رأيت الفرق بينهما فى ظاهره كالفرق بين المعجز وغير المعجز سواء ، ورأيت كلامه - صلى الله عليه وسلم - فى تلك الحال خاصة مما يُطمَع فى مثله ، وأحسست أن بين نفسك وبينه صلة تُطوِّع لك القدرة عليه ، وتمد لك أسباب المطمعة فيه ، بخلاف القرآن فإنك تستيئس من جملته ، ولا ترى لنفسك إليه طريقاً ألبتة ، ولا تحس منه نفساً إنسانية ، ولا أثراً من آثار هذه النفس ، ولا حالة من حالاتها ، حتى تأنس إلى ذلك ... فإن جميع هذا الكلام الآدمى منهاج ، ولجملته طريق ، وحدود البلاغة التى تفصل بعضه عن بعض كلها مما يوقف عليه بالحس والعيان » .. انتهى كلامه رحمه الله وقد أفاد منه العلامة دراز كما أفدنا منهما .

وقوله : ﴿ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلاً ﴾ : معطوف على قوله : ﴿ صَدَقُوا۟ مَا عَاهَدُوا۟ اللهَ عَلَيْهِ ﴾ والمصدر جاء ليفيد العموم ، أى لم يُبدِّلوا شيئاً من التبديل ، فلم يحرفوا عهدهم عند اشتداد الكرب ، ولم يُدخلوا عليه شيئاً يُحدث فيه أى تغيير ، وإنما حفظوه بصورته الملزمة لهم بالثبات والصبر والبلاء حتى الموت ، ومِن الناس مَن ينكث عهده عند البلاء ، والمنافقون كانوا قد

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

عاهدوا الله لا يولون الأدبار ، وقد ولّوا مدبرين ، ومنَ الناس مَن يحرف عهده ، ويتخفف من التزاماته بإضافة وتحليلات ، فكم من الزعامات السياسية قد عاهدت شعوبها على الحفاظ ، والحيدة ، والوفاء بأمانة التاريخ ، والحضارة ، والدين ، فلما كربتهم الكوارب ، وأفقدتهم رشادهم ، ركلتهم الأحداث فى طريق التبعية ، والصغار والتفريط ، ثم برز لهم أذناب من أفّاكى القول ، وفلاسفة الانهزامية والضلال ، فحرفوا الكلم عن موضعه ، وقدّموا التفسيرات لهذه المواثيق التى أخذوها ، وبدّلوا فيها تبديلاً . الآية إذن تعرض بمن نكث ، ومن حَرَّف من المنافقين ، وتصرح بالثناء على الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، مَن قضى نحبه ، ومَن ينتظر ، قالوا : وقد أخبر عن الفريق الذى قضى نحبه بعدم التبديل مع أنه ظاهر ؛ ليشير بجمع الفريقين فى ضمير واحد إلى المساواة بينهما ، والإشعار بأن هؤلاء سيلحقون بهم عند ربهم ، وما نكثوا عهداً ، وما حرفوا قولاً .

وقوله : ﴿ لِيَجْزِىَ اللهُ الصَّادقينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ يتناول الحديث فيه أموراً . منها ما يتعلق به حرف التعليل فى قوله : ﴿ لِيَجْزِىَ ﴾ ، ومنها سر ذكر القيد فى قوله : ﴿ بِصِدْقِهِمْ ﴾ مع أنه مفهوم من قوله : ﴿ الصَّادِقِينَ ﴾ ، ولماذا لم يذكر هذا القيد مع المنافقين ، أى لم يقل : ويعذب المنافقين بنفاقهم ؟ ومنها معنى التقييد بالمشيئة والمقرر أن النفاق شعبة من أقبح شُعَب الكفر بدليل قوله : ﴿ إنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ [1] .. الكافرون مُعذّبون قطعاً ، كما أخبر سبحانه ، ومنها معنى قوله : ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، وقد كثرت فى هذا كله أقوال المفسِّرين ورغبتُ فى تلخيصها وعرضها ؛ لأنها كلها تتعلق بالأسلوب ، وهذا يعنينا .

أما ما يتعلق به لام التعليل فى قوله : ﴿ لِيَجْزِىَ اللهُ الصَّادقينَ ﴾ فقد ذهبوا فى ذلك أنه متعلق بقوله : ﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ بمعنييه التصريحى

---

(١) النساء : ١٤٥

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

والتعريضى ، فهو بمعناه التصريحى ظاهر بالنسبة لجزاء الصادقين ، أى لم يُبدِّلوا ليجزيهم الله جزاء الصادقين ، أما تعذيب المنافقين المعطوف على جزاء الصادقين فإنه تعليل لمن بدَّلوا ، أى للمعنى التعريضى فى قوله : ﴿ وَمَا بَدَّلُواْ ﴾ ، فقد قلنا : إنها عرَّضت بالمنافقين ، أو قل إن قوله : ﴿ وَمَا بَدَّلُواْ ﴾ تعليل بمنطوقه لقوله : ﴿ لِيَجْزِىَ اللهُ الصَّادِقِينَ ﴾ ، وتعليل بمفهومه لقوله : ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ ، أى بدَّل المنافقون وحرَّفوا ليُعذَّبوا ، وفى هذا ضرب من المجاز ؛ لأن المنافقين لم يُبدِّلوا ليُعذَّبوا ، ومبنى هذا التجوز تشبيه المنافقين بمن قصد إلى الذى تسوءه عاقبته ؛ لأن حقيقة مواقف المنافقين تجلب الضر والمساءة لهم ، ثم رمز إلى هذا التشبيه بهذه العِلَّة ، أى عطف ﴿ يُعَذِّبَ ﴾ على ﴿ لِيَجْزِىَ ﴾ المرتبط بالكلام السابق بمعنييه التصريحى والتعريضى ، وهذا وجه دقيق يحتاج إلى أناة فى فهمه ، ولذلك ارتضاه كثير من المفسِّرين ، وفيه من الناحية البلاغية تعريض بالمنافقين وبغبائهم ، وبجهلهم عواقب أعمالهم التى تقودهم إلى سواء الجحيم ، وعلى هذا تكون لام العاقبة فى قوله : ﴿ لِيَجْزِىَ ﴾ مستعملة استعمالاً حقيقياً بالنسبة إلى تعليل الجزاء بعدم التبديل ، وتكون مستعملة استعمالاً مجازياً بالنسبة إلى تعليل عذاب المنافقين بتبديلهم المعرَّض به ؛ لأن العِلَّة هنا مبناها التشبيه والتجوز ، فهى فى هذه الحالة استعارة تخييلية ؛ لأنها قرينة المكنية ، أى أن التجوز فيها مرجعه إلى أنها جعلت تبديلهم لأجل العذاب ، وهو فى حقيقته ليس له ، قال الشهاب فى خلاصة هذا الرأى : « لما جعلوا قوله : ﴿ وَمَا بَدَّلُواْ ﴾ . . . إلخ تعريضاً للمبدِّلين من أهل النفاق ، صار المعنى : وما بدَّلوا كما بدَّل المنافقون ، فقوله : ﴿ لِيَجْزِىَ ﴾ ، ﴿ وَيُعَذِّبَ ﴾ متعلق بالمنفى والمثبت على اللَّف والنشر التقديرى ، وجعل تبديلهم عِلَّة للتعذيب على المجاز ، لكن التعليل فى المنطوق ظاهر ، وهو على الحقيقة ، أما فى المعرَّض به ؛ فلتشبيه المنافقين بالقاصدين لعاقبة السوء على نهج الاستعارة المكنية ، والقرينة إثبات نفس التعليل » . . انتهى كلامه .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وتفيد الآية أن الجزاء قد ارتبط بالثبات والالتزام صراحة ونصاً ، كما أن العذاب قد ارتبط بالتحريف والتبديل .

ومنها أن يكون قوله : ﴿ لِيَجْزِىَ ﴾ متعلقاً بعدم التبديل المقيد بالتعريض بمن بدَّلوا ، أى يكون المتعلق شيئاً واحداً ، هو عدم التبديل المفيد للتعريض بمن بدَّل ، وعليه يكون عطفه : ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ على ﴿ يَجْزِىَ ﴾ سائغاً من حيث التعلق ؛ لأنه صالح لهما ، قال صاحب روح المعانى : ولا يبعد جعل ﴿ لِيَجْزِىَ ﴾ تعليلاً للمنطوق المقيد بالمعرض ، فكأنه قيل : ما بدَّلوا كغيرهم ليجزيهم بصدقهم ، ويُعذِّب غيرهم إن لم يتب » .. انتهى كلامه .

والمعنى لا يختلف إنما هو ملحظ صناعى ، أى فى اللَّفظ .

ومنها أن يكون قوله : ﴿ لِيَجْزِىَ ﴾ تعليلاً للصدق فى قوله : ﴿ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللهَ عَلَيْهِ ﴾ أى : من المؤمنين رجال صدقوا ليجزى ، وقد روى هذا عن الزجَّاج ، والجزاء هنا مرتبط بالصدق صراحة ونصاً ، والعقاب مرتبط بالكذب على الله فى العهد .

ومنها أن يكون تعليلاً لما يُفهم من قوله : ﴿ وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ ﴾ كأنه قيل : ابتلاهم الله برؤية ذلك الخطب ليجزى ، ويكون الجزاء بياناً لحكمة الابتلاء ، فهو ابتلاء فى باطنه نعمة لمن كان صادقاً فى الثبات على الحق والتسليم لرب العالمين ، وفى باطنه نقمة لمن كان بخلاف ذلك . الآية إذن تفيدنا انبثاق الخير من الشر ، وكأن الشر يحتوى دائماً على عنصر من عناصر الخير مستكن فيه ، فمَن هُدِىَ إلى ما فى الشر من الخير صار هذا الشر له خيراً خالصاً ونعيماً مقيماً ، ومَن عمى عن هذا الوجه فالشر بالنسبة له شر حقيقى وبلاء أى بلاء ، ويمثل الملحظ الأول موقف المؤمنين من الخطب ، حيث أدركوا أنه تمحيص وابتلاء فقادهم الكرب إلى نعيم مقيم ، ويمثل الملحظ الثانى موقف أهل الريب والنفاق من هذا الابتلاء الذى لم تتجاوز أبصارهم وجهه السطحى ، فكان لهم عذاباً وشراً مستطيراً . قال العلامة شرف الدين

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الطيبى : إنه - أى هذا الوجه الذى يفيد أن ﴿ لِيَجْزِىَ ﴾ تعليل لما يُفهم من قوله : ﴿ وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ ﴾ - أسهل مأخذاً وأبعد عن التعسف ، وأقرب إلى المقصود ، من جعله تعليلاً للمنطوق والمعرَّض به .

ومنها أن يكون قوله : ﴿ لِيَجْزِىَ ﴾ متعلقاً بمحذوف ، والتقدير : فعل ما فعل ليجزى الصادقين ، وذلك كما قدَّمنا فى قوله تعالى : ﴿ لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ (١) وموقع هذا الكلام المقدَّر من الكلام السابق موقع السؤال من الجواب ، كأنه قيل : ولِمَ كان ما كان ؟ وما الغرض من هذا الكرب وهذا البلاء ؟ فقال : فعل ذلك ليجزى الصادقين ، والجزاء والعذاب هنا مرتبط بكل هذه الأحداث التى مضت ، هذا ما يقال فى متعلق لام التعليل .

وأما ذكر القيد فى قوله : ﴿ بِصِدْقِهِمْ ﴾ مع أنه مفهوم من قوله : ﴿ لِيَجْزِىَ اللهُ الصَّادِقِينَ ﴾ من حيث أوقع الفعل على المشتق كقولك : عاقبتُ السارق ، فإنه يُفهم أن العقوبة كانت للسرقة ، أما إذا أوقعت الفعل على اسم جامد ، وقلت : عاقبت زيداً ، احتاج الكلام إلى ذكر السبب ، والجواب أنه ذكر قوله : ﴿ بِصِدْقِهِمْ ﴾ مع فهمه من الكلام السابق ، للتنويه بفضيلة الصدق ، وتأكيد وقوع الجزاء بسببها ، وهذا نداء إلى التحلى بهذه الصفة بمعناها العميق ، أى صدق النفس والعقيدة والرجولة ، ولما لم يكن هذا الغرض قائماً فى تعذيب المنافقين جاء الكلام على أصله ، فقال : ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ لأن المفهوم أنه عذَّب المنافقين بنفاقهم ، ولأنه قال بالنسبة للمنافقين : ﴿ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ فعلق العذاب بالمشيئة ، وفتح لهم باب الأمل ، والرجاء ، والتخلى عن هذا النفاق ، والتوبة ، فترك التشهير به .

أما وجه ذكر المشيئة فى تعذيب المنافقين ، والنفاق شُعْبة قبيحة من شُعَب الكفر ، والكافرون مُعذَّبون قطعاً كما أخبر سبحانه ؛ فذلك لبيان عموم

---

(١) الأحزاب : ٨

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

سلطانه ، ومطلق مُلْكه ، وأنه فى كل شىء يختار ، وما كان لهم الخيرة من أمره ، نعم من المحقق بخبره الصادق أنه يُعذِّبهم ، وذلك لأنه شاء تعذيبهم ، قال المفسِّرون : إن الله جَلَّ جلاله لا يجب عليه شىء ، والتعليق لذلك فهو جَلَّ شأنه إن شاء عذَّب المنافقين ، وإن شاء رحمهم ، لكن المتحقق أنه تبارك وتعالى شاء تعذيبهم ، ولم يشأ رحمتهم ، وفى هذا القيد ملحظ آخر هو عموم رحمته وغلبتها على غضبه ، ويدل على ذلك أنه لم يقيد جزاء الصادقين بالمشيئة ، وهذا التفسير يفترض أن المنافقين ماتوا على نفاقهم ، وقال بعض المفسِّرين : معنى تعليق العذاب بالمشيئة أن الله سبحانه إن شاء عذَّبهم بإبقاءهم منافقين ، وإن شاء لم يعذبهم بأن يسلب عنهم وصف النفاق بالتوفيق إلى الإخلاص فى الإيمان ، وقال السدى : ويُعذِّب المنافقين إن شاء أن يميتهم على النفاق ، وحينئذ يكون مفعول المشيئة هو الموت على النفاق ، وليس التعذيب - أى أن التقدير : ويُعذِّب المنافقين إن شاء أن يميتهم على النفاق ، وليس : ويُعذِّب المنافقين إن شاء تعذيبهم - وعليه فلا إشكال ولكنه خلاف المتبادر من الأسلوب ؛ لأن مفعول المشيئة يُحذَف إذا دل عليه الكلام السابق ، وإلا وجب ذكره ، ألا ترى الشاعر قد عمد إلى الذكر فى قوله :

* فلو شئتُ أن أبكى دماً لبكيته *

لأن المفعول لو حُذِف لما قام دليل عليه ، وليس هنا دليل على تعلق المشيئة بموتهم على النفاق .

ومعنى : ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ : قال الراغب : تاب الله عليه : قَبِل توبته ، والمعنى على هذا أن الله سبحانه يقبل توبتهم إن تابوا ؛ وكأنه قال : أو يتوب عليهم إن تابوا ، أى يقبل توبتهم إن تابوا ، ثم حذف الشرط لظهور استلزام المذكور له كما قال المفسِّرون ، وقال صاحب القاموس : تاب الله عليه : وفَّقه للتوبة ، والمعنى على هذا : ليُعذِّب المنافقين إن شاء أو يوفقهم للتوبة .

وتلخص أن معنى قوله تعالى : ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

عَلَيْهِمْ ﴾ إما أن يكون : أن الله سبحانه يُعذِّب المنافقين إن شاء عذابهم ، وهو يشاء ذلك قطعاً ، أو يقبل توبتهم إن تابوا فيخرجوا من وصف النفاق ، أو يوفقهم للتوبة فيتوبوا ويخرجوا بذلك من وصف النفاق ، وإما أن يكون : يُعذِّب المنافقين إن شاء عذابهم بإبقائهم منافقين حتى يموتوا على النفاق ، وإن شاء لم يعذبهم بأن يسلب عنهم وصف النفاق أو يتوب عليهم فيقبل توبتهم أو يوفقهم للتوبة ، وهذا التلخيص راعينا فيه الوجوه فى تفسير : ﴿ إن شاءَ أوْ يَتُوبَ ﴾ ولم نستقصها .

وقال بعض المفسِّرين : إن فى الآية حذفين : حذف من الأول لدلالة الثانى ، وحذف من الثانى لدلالة الأول ، وبيان ذلك أن المنافقين إن أقاموا على النفاق وماتوا عليه عُذِّبوا ، وإن عدلوا عنه وتابوا غفر الله لهم ورحمهم ، فذكرت الآية عذابهم الذى هو مسبب عن بقائهم على النفاق ، وذكرت التوبة التى هى سبب للمغفرة والرحمة ، فالمذكور فيها مسبب هو العذاب حذف سببه ، وهو الموت على النفاق ، وسبب هو التوبة حذف مسببه الذى هو المغفرة والرحمة ، وهذا الوجه ملخص من كلام ابن عطية ونصه :

« تعذيب المنافقين ثمرة إقامتهم على النفاق وموتهم عليه ، والتوبة موازنة لتلك الإقامة ، وثمرتها تركهم بلا عذاب ، فهناك أمران : إقامة على النفاق ، وتوبة منه ، وعنهما ثمرتان : تعذيب ، ورحمة ، فذكر تعالى على جهة الإيجاز واحدة من هاتين ، وواحدة من هاتين ، ودلَّ ما ذكر على ما ترك ذكره ، قال المفسِّرون : أراد بذلك حل الإشكال ، وكأن ما ذكر يؤول إلى أن التقدير : ليقيموا على النفاق فيموتوا عليه إن شاء فيعذبهم ، أو يتوب عليهم فيرحمهم ، فحذف سبب التعذيب ، وأثبت المسبب ، وهو التعذيب ، وأثبت سبب الرحمة والغفران ، وحذف المسبب وهو الرحمة والغفران ، وذلك من قبيل الاحتباك ، وهو من الإيجاز الحسن ، وقوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ : جملة مستأنفة جاءت حثاً على التوبة ، وفتحاً لباب القبول ، والرحمة ، وقد قدمنا القول فى نظائرها فليراجع ، وفيها وفى مثلها فن آخر

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

من فنون البلاغة هو التذييل من حيث أنها تقع فى أعقاب الكلام ، وتؤكد مضمونه ، وهو من التذييل الذى يجرى مجرى المثل ، لعدم ارتباطه بالكلام السابق ؛ ولذلك جاء بلفظ الجلالة مصرحاً لاكتفاء الجملة واستغنائها ، وفيها أيضاً لون آخر من البلاغة يسميه بعضهم : الاعتراض ، فكثير من البلاغيين لا يشترطون وقوع الاعتراض فى وسط الكلام كما هو المشهور ، وإنما يقع عندهم فى ذيل الكلام ، كما يقع فى وسطه ، ولذلك كانت أكثر أمثلة التذييل داخلة عندهم فى باب الاعتراض ، ويُساق الاعتراض فى الكلام للحث والتوكيد ، وهذا التذييل ، أو هذا الاعتراض أو هذا الاستئناف ، قد يهدينا إلى الاطمئنان للقول بأن تعليق العذاب بالمشيئة ، وذكر التوبة مع التعذيب إنما هو للإيذان بأن رحمته غلبت غضبه ، وأن الرحمة أوسع باباً من الرهبة ، فليس على رحمته قيد ولا حَرَج ؛ أقول : إن هذا التذييل نداء لهؤلاء المنافقين بأن يلجوا باب التوبة الذى أشار إليه فى قوله : ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ وما أروع أن تكون فاصلة هذه الآية التى تحدد ثواب الصادقين ؛ وعقاب هؤلاء المنافقين الذى آذوا رسول الله أشد الإيذاء ؛ وخذلوه فى غزوة نراها أقسى الغزوات التى واجهت المسلمين وأخطرها ؛ بل نراها غزوة فاصلة ، ونعطيها من الأهمية ما لغزوة بدر ، مخالفين جُلَّة المؤرخين الذين جعلوا بدراً وحدها هى الغزوة الفاصلة فى الإسلام ؛ أقول : ما أروع أن تكون فاصلة الآية التى تتحدث عن عقاب هذه الفئة المريبة مغفرة ورحمة ؛ وكأنها يد الرحمن تمتد للبَشرية كلها ؛ تدعو أصحاب الخطايا إلى ساحة الأمن والغفران .

وبهذا ينتهى الحديث عن أحوال المؤمنين ، كما انتهى قبل الحديث عن أحوال المنافقين ، ولنا هنا ملاحظات تتصل بالأسلوب وبنسق الآيات وخصائصها البلاغية فى القصة كلها .

منها أن قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ (١) . . . إلى آخرها ، نراها مدخلاً فذاً للحديث عن هذا الغزو ، فهى تذكر المؤمنين بعهد الله وميثاقه الغليظ الذى أخذه على النبيين بضرورة تبليغ الشرائع ، وفى هذا تعظيم لهذه الشرائع ، وما كان موقف المؤمنين وراء الخندق إلا دفعاً عن شريعتهم من عدو قد أعماه الباطل ، وطاش بعقله حقده على الحق المبين ، وذكر العهد والميثاق الغليظ فى هذه المقدمة تتردد ظلاله فى صورة عهدين ، كأنهما فروع وثمار لهذا الميثاق الغليظ ، عهد خاس به أصحابه ونكثوا ، ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ﴾ (٢) ثم ولّوا ، وعهد حفظه أصحابه وصدقوا : ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ (٣) .. عاهد الله النبيين فوفوا ، ثم عاهد غير النبيين : فمنهم مَن وفى ، ومنهم مَن نكث ، وانظر كيف ختم آية الميثاق بقوله : ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ، وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ (٤) ، وكيف كان مشيراً وملاحظاً لقوله : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ (٥) ، وإذا تأملت الآيتين هداك التأمل إلى أشياء منها : أنه قال فى الأولى : ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ وقال فى الثانية : ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ ، هناك سؤال وهنا جزاء ، ولماذا ؟ لأن السؤال هنا لا معنى له ، فالقوم صدقوا ووفوا وأحسنوا ، وهم ينتظرون الجزاء ، والكلام هناك عن أصل الشرائع وموقف أربابها بين يدى الله فى رهبة وخشوع يعاهدون ويقسمون ، ولم تنزل الشرائع بعد إلى الناس فيتميز موقف المتبعين والمعاندين ، فكان السؤال هناك أليق ، وقال فى الآية الأولى : ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ، وقال هنا : ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ ، وكأن الإعداد قد تم هناك ، وبقى هنا ما بعده وهو التعذيب ، الموقف هناك موقف إعداد وتجهيز ؛ لأن الشرائع لم تتنزل بعد ، والموقف هنا موقف حساب

---

(١) الأحزاب : ٧ (٢) الأحزاب : ١٥ (٣) الأحزاب : ٢٣
(٤) الأحزاب : ٨ (٥) الأحزاب : ٢٤

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وجزاء ؛ لأن الناس بالنسبة لشريعة محمد ﷺ قسمان ، قسم يدفع عنها ويرمى من وراء نبيها ، وقسم يخذلها ويدفعها ، هذا ما نقوله فى الآية التى نراها مدخلاً لقصة الغزو ، وما بينها وبين ما جاء فى أحداث الواقعة من خصائص متشابهة فى الصياغة .

ومنها ما نلحظه فى آيات وصف الأحداث والأشخاص من تلاحظ الخصائص وتشابهها ، منها أن الوصف الذى جمع كل أوصاف المنافقين ، وكان مصدراً لكل تصرفاتهم فى هذا الموقف هو التكذيب بوعد الله وخلاء القلوب من الإيمان ، وقد أشار إلى ذلك فى أول حديثه عنهم حيث قال : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً ﴾ (١) ، ورجع إليه حين علل مواقفهم بقوله : ﴿ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾ (٢) ، وقد قابل ذلك حين اكتفى فى الحديث عن المؤمنين بإثبات هذا الوصف لهم مشيراً بذلك إلى أنه معدن لكل خير ، فقال فى وصف المؤمنين : ﴿ وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ (٣) ، وازن بين : ﴿ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً ﴾ ، و﴿ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ . وانظر كيف كان الكلام فى الحالين كلاماً واحداً ، والألفاظ واحدة ، ولكنها هنا بالإيجاب وهناك بالنفى ، والألفاظ تكررت هنا ؛ لأن الموضوع واحد ، والقصة واحدة ، والخطب الذى يواجهه الفريقان خطب واحد ، وانظر بعد ذلك كيف قابل وصف المنافقين بالفزع ، وانخلاع القلوب ، والرغبة فى الفرار ، وكل ما هو من باب الحركة الطائشة والتخبط المجنون ، بهذا القرار المكين ، والثبات الهادىء الأمين فى موقف المؤمنين ، فوصفهم بالإيمان المفرط والتسليم البالغ لله رب العالَمين .

انظر إلى المقابلة فى تحليل نفوس الفريقين ، واسترجع ما ذكرناه من أوصاف نفوسهم الممزقة القلقة الحائرة ، وما كان يصدر منها من معاذير كاذبة ،

---

(١) الأحزاب : ١٢ (٢) الأحزاب : ١٩ (٣) الأحزاب : ٢٢

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وتصرفات خرقاء ، مبعثها كلها القلق والاضطراب ، وقابل ذلك بهذا القرار النفسى العجيب ، الذى ما زاده الهول إلا أمناً وثباتاً وطمأنينة ، وأظنك تذكر المقابلة ، بين موقفيهما من العهد الذى عاهدوا الله عليه ، ففى جانب المنافقين نكث وغدر ، وفى جانب المؤمنين صدق ووفاء ، وانظر إلى آية المنافقين كيف بدأت بوصف شامل لهم جميعاً ، ثم أردفت ذلك بوصف موقف طائفة معينة منهم ، كان لها تحرك أكثر ريبة ، وأدخل فى باب التخاذل ، وهم الذين قالوا : ﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ ﴾ (١) ، وقد عرفت كيف صاغوا نداءهم على وجه ظنوا أنه أعمل فى نفوس أهل يثرب ، ومثل هذا فى النسق جاء فى وصف المؤمنين ، فقد ذكرت الآية الأولى موقفهم جميعاً هاتفين هتافاً واحداً : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ (٢) ، ثم أردفت ذلك بموقف فئة هى أدخل فى باب الإخلاص والفداء ، وهم الذين ﴿ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ (٣) ، وقد قلت قبلاً : إن وصفهم بالصدق بعد ما ذكر الصدق وصفاً لله ورسوله يشير إلى ثمرة الترقى فى العبادة ، وهى كون العابد ربانياً ، ونضيف هنا أن هؤلاء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، كأنهم قد نظروا إلى موقف النبيين بين يدى الله يعاهدون ويتخشعون ، فأرادوا لأنفسهم هذا الموقف ، فوقفوا بين يدى الله ، وعاهدوا وصدقوا ما عاهدوا الله ، فيه إذن تشابه فى حديث العهد ، أنبياء يعاهدون الله ، ومؤمنون يعاهدون الله ، وكلاهما وفى ، ثم فى وسط هذه الحلقة منافقون عاهدوا ، وما وفوا ، وتذكر ما قلناه فى عهد المنافقين ، وكيف عاهدوا على شيء من شأن النفوس الأبية التى تشعر برجولتها وكرامتها أن تجتنبه ربئاً بها على التحلى به ، وهو عدم تولية الأدبار للعدو ، ليستقيم لك النظر فى هذه العهود الثلاثة ، وقد ذكر أولاً عهد النبيين وهو أكرم العهود وأرقاها ، ثم ذكر ثانياً عهد المنافقين وهو أخس العهود

---

(١) الأحزاب : ١٣ (٢) الأحزاب : ٢٢ (٣) الأحزاب : ٢٣

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وأدناها ، وهو يقف على الطرف الثانى من عهد النبيين لتتم المقابلة فى وضوح وجلاء بين عهدين ، أو بين أنموذجين من نماذج الإنسان ، ثم يأتى عهد المؤمنين عهد الصدق والوفاء ؛ ليستامى بأصحابه ويعلو فوق المستوى الإنسانى الأدنى الذى يمثله النمط الثانى ، ويستشرف ثم يستشرف حتى يجد مكاناً قريباً من النمط الأعلى الذى هو النبيين ، يلاحظه ولا يدانيه .

ومنها آية الأُسوة الحسنة ، وكيف وقعت فى تضاعيف هذا الكلام تمد يداً إلى ما قبلها من آية ميثاق النبيين ، حيث تحدد وجوب التأسى بأكرمهم الذى فضَّله ربه فى حضرته ، وقدَّمه على مَن سبقه زماناً ، آية الأُسوة تضع بيننا نبينا نوراً يُلتمس ، وهَدْياً يُؤتسى به ، وقد كان قبلاً مع أرباب الشرائع فى عليين ، فكأنها - وهى آية الرحمن وكلمته - تأتى لنا بهذا النبى من هناك لتضعه فى مكان القدوة الحسنة ، وانظر إلى الآية نفسها تمد يداً أقرب إلى ما قبلها من أوصاف المنافقين عاتبة لائمة مترفقة ، واعظة بأبلغ وعظ ، عساهم يرجعون إلى الحق والتأسى والإقلاع عما هم فيه يرتكسون ، وتذكر ما قلناه فى خصائص تركيبها لتدرك لطف هذه الإشارات الكريمة بالعودة والرجوع ، ثم انظر إلى هذه الآية نفسها تمد يداً إلى ما بعدها ، وأظنك تدرك ما قلناه فى موقعها مقدمة ووطاء للحديث عن المؤمنين ، وكيف انبعثت منها الإشعاعات والإشارات الإجمالية إلى ما جاء فى أوصافهم ، فلا نُثقل عليك بالتكرير ، وأحسب أن مثل هذا التشابه فى الخصائص التركيبية ، والتناغى فى الأحوال البلاغية خصوصية من خصائص أسلوب القرآن ، وظاهرة من ظواهر أسلوبه يحتاج إلى بحث مفرد هو من أجَلِّ بحوث الأدب وأعلاها ، وأرجو أن تتضح لى هذه الظواهر حتى يكون البيان لها أشفى ، فإننى أجد فى نفسى أكثر مما أستطيع أن أكتب فى هذا الشأن ، وعلينا أن نمضى فى متابعة الآيات مترصدين هذه الخصائص .

* * *

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

﴿ ورَدَّ اللهُ الّذينَ كَفرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً ، وكَفَى اللهُ المُؤْمِنِينَ القِتَالَ ، وكَانَ اللهُ قَوِيّاً عَزِيزاً ﴾ (الآية : ٢٥) .

* *

قلنا فى قوله تعالى : ﴿ إذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً ﴾ (١) : إنه عرض سريع وخاطف للواقعة بذكر طرفيها : مجىء الجنود ، وإرسال الريح (٢) ، وأن قوله : ﴿ إذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ (٣) . . . إلى آخر الآيات ، تفصيل للقصة ووصف لأحداثها وتدسس فى مطاوى النفوس التى صنعت هذه الأحداث ، ثم جاء قوله : ﴿ وَرَدَّ اللهُ الّذين كَفَرُوا ﴾ رداً لنهاية القصة على أولها ، وربطها لهذا الطرف الأخير بالطرف الأول . فكانت الواو فيها عاطفة على قوله : ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ فى قوله : ﴿ إذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا ﴾ ، وفى هذا الأسلوب دقيقة لطيفة تلحظها إذا أنعمت النظر فى قوله : ﴿ إذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ . فقد وقع بدلاً وشرحاً وتفصيلاً لقوله : ﴿ إذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ . . ﴾ وهما معاً الطرف الأول فى القصة مجملاً ومُفصّلاً ، ثم جاء قوله : ﴿ وَرَدَّ اللهُ الّذين كَفَرُوا ﴾ معطوفاً على قوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا . . . ﴾ وهما معاً نهاية الواقعة ، والثانى فيها - أى قوله : ﴿ وَرَدَّ اللهُ الّذِينَ كَفَرُوا ﴾ - يقرر الأول أى قوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً ﴾ ، وبهذا تبدو هذه الواو عروة أحكمت ربط هذين الشقين اللذين يمثلان معاً نهاية القصة ، فوقع الكلام معها أحسن موقع ، واتصل كل جزء من أجزاء الكلام بما يناسبه .

والآيات الكريمة سيقت فى مقام التذكير بنعمة الله حيث نجاهم من هذا الهول ، وكانت هذه الأوصاف الكاشفة التى وصفت الأحداث أحسن وصف ،

---

(١) الأحزاب : ٩

(٢) انظر ص ٣٨ من « دراسة فى سورة الأحزاب (١) » . (٣) الأحزاب : ١٠

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

حتى كأن السمع قد صار بها بصراً لشفوفها ودقة بيانها كما يقول سَلَفنا الصالح ، أقول : كانت هذه الأوصاف الكاشفة ذات أثر بيِّن فى بيان خطر هذه النعمة ، وجاء إسناد الرد إلى لفظ الجلالة الذى يملأ القلب شعوراً بالهيمنة والألوهية حفزاً إلى تذكر هذه النعمة التى أنعمها الله عليهم .

ويقول العلامة صاحب روح المعانى : « والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة » ، وقد يقع فى الوهم أنه ليس هنا التفات لأن الكلام يجرى على سنن الكلام السابق له وهو قوله : ﴿ لِيَجْزِىَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (١) ، ﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ، فليس فى الكلام عدول عن طريق من طرق الخطاب والغيبة والتكلم إلى غيره ، فقد جرى الأسلوب على ذكر لفظ الجلالة .

والحق أن صاحب روح المعانى نظر إلى ربط هذه الجملة بقوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً ﴾ لأنها معطوفة عليها كما قلنا ، واعتبر ذلك سياقها ، وفى هذا السياق انتقال من التكلم فى قوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا ﴾ إلى الغيبة فى قوله : ﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ .

وهذه نظرة دقيقة فى فن الالتفات تنظر إلى سياق المعنى ، وما يقتضيه ربط الجمل بعضها ببعض ، وتبحث أحوال التراكيب ومظاهر اتفاقها واختلافها فى ضوء هذه الروابط الخفيفة المهمة .

و« الرد » : صرف الشىء ورجعه ، تقول : رد السائل ، ورد عليه الهبة ، ورد عليه قوله ، وقالوا فى التكثير منه : الترداد ، كما قالوا : التَّلْعَاب ، والتَّهْذَار - بفتح أوله ، والرد يُطلق ويراد به المردود .

ومنه ما جاء فى حديث عائشة رضى الله عنها : « مَن عَمِلَ عَمَلاً ليس

---

(١) الأحزاب : ٢٤

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

على أمْرِنَا فهو رَد » ، أى مردود عليه . وإطلاق الرد على اسم المفعول يفيد أن العمل ليس مردوداً فحسب ، وإنما هو لشدة رفضه عند الله ، وعدم تقبل شيء منه كأنه الرد نفسه ، وهذا عندنا من التجوز فى الإسناد .

وإدراك السر البلاغى فى هذا التجوز يحتاج إلى مزيد من التأمل والإصغاء والنظر فى سياق الكلام ومقصوده . انظر إلى قوله تعالى : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِه ﴾ (١) . وكيف أفاد بهذا المصدر الذى أراد به اسم المفعول آثار القدرة ومظاهرها فى تكوين هذه المخلوقات بَيِّنة واضحة ، حتى كأنها - أى هذه المخلوقات - هى الخلق والتكوين شاخصاً ومُحَسّاً .

وقال : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ، ولم يقل : الأحزاب أو الجنود ، كما قال : ﴿ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ وذلك ليَسِمَهُم بالكفر والجحود والنكران ، وهذه المعانى لها فى النفوس المؤمنة وقع خاص ، فهى عندهم تفيد معنى غلظة القلوب ، وبلادة الأفهام ، وضيق العقل والعجز عن التدبر ، وهذه كلها صفات تؤكد الحقد الأعمى على الذين آمنوا ، والأمل الأرْعَن المسعور فى استئصالهم ، والقضاء عليهم ، وهذا يؤكد جليل النعمة فى ردهم ، ونجاة المؤمنين منهم ، وتحت كلمة ﴿ كَفَرُواْ ﴾ إيماضة خفية تحث على تذكر النعمة ، وشكرها ، والتخويف من نكرانها ، وجحودها ، وتلويح بيد القُدرة التى تأخذ بنواصى الجاحدين ، وقد قلنا : إن الكفر قد يُطلق فى القرآن على جحود النعمة ، وترك الواجب ، ومن هنا أوحت الكلمة بهذا الذى قلناه .

وقوله : ﴿ بِغَيْظِهِمْ ﴾ واقع موقع الحال من ﴿ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أى مغيظين ، وفرق كبير بين قولنا : مغيظين ، وبين قوله : بغيظهم سنعود إلى بيانه ، وبيان هذه الباء بعد شرح معنى الغيظ ، والغيظ - كما قالوا - : أشد الغضب وحدته وسَوْرته ، أو هو الغضب الكامن فى نفس العاجز .

---

(١) لقمان : ١١

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

قال الراغب : وهو - أى الغيظ - الحرارة التى يجدها الإنسان من فوران دم قلبه « وتقول : غِظْتُ فلاناً أغيظه غيظاً ، وغاظه فاغتاظ ، وغاظه فتغيظ وهو مغيظ ، وليس من الشائع فى كلامهم : أغاظه » ، وأنكرها ابن السكيت ، ورواها ابن الأعرابى .

وفى الحديث : « أغيظ الأسماء عند الله رجل تسمَّى ملك الأملاك » قال ابن الأثير : هذا من مجاز الكلام معدول عن ظاهره ، فإن الغيظ صفة تغير المخلوق عند احتداده يتحرك لها ، والله يتعالى عن ذلك ، وإنما هو كناية عن عقوبته للمسمَّى بهذا الاسم ، أى أنه أشد هذه الأسماء عقوبة عند الله » ، وقد جاء الغيظ ملابساً للمولى سبحانه فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ (١) ، والأوضح عندنا أنه مجاز عن الانتقام لأن الغيظ سببه فهو مجاز مرسل ، ويرشد هذا التجوز إلى أنه انتقام موجع ، بالغ ، لأنه صادر عن تناهى السخط والغضب .

قلت : إن هناك فرقاً كبيراً بين قولنا : « وردَّ الله الذين كفروا مغيظين » وبين قوله : ﴿ بِغَيْظِهِمْ ﴾ ، وذلك لأن هذه الباء المفردة - كما يسميها النحاة - أقامت الأسلوب على طريقة التصوير والتجسيم ، وكأن الغيظ معها ليس شعور الغضب أو حدته وشدته ، وإنما هو شيء مُحَسٌ تراه العيون ، وتلمسه الأيدى ، فهو ملابس للقوم ملابسة حسية ، وهو معهم وفى صحبتهم مردود معهم ، انظر إلى هذه الباء وتملاها فى تلك المقاولة المشحونة بالحذر والخوف والضراعة فى قصة نداء نوح عليه السلام : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ

---

(١) الشعراء : ٥٥

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُن مِّنَ الخَاسِرِينَ * قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ .. ﴾ (١) .

انظر إلى هذه الباء وتملاها فى قوله : ﴿ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا ﴾ وكيف صوَّرت أتم تصوير هذا السلام وهذا الأمن الذى داخل قلب سيدنا نوح عليه السلام بعد ما أوجله صوت الحق بقوله : ﴿ فَلَا تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ وكأن سيدنا نوحاً عليه السلام لم يهبط على الجودى وحده آمناً سالماً ، وإنما هبط وفى صحبته وفى رفقته السلام .

وانظر إلى هذه الباء فى وصف مراوغة اليهود ونفاقهم ، وقد جاءوا مجلس رسول الله ﷺ ، وسمعوا من دعواته وعظاته ما يكفكف غرب النفوس الجوامح ثم يخرجون من مجلسه كما دخلوا مستبطنين دخائل كفرهم ، وحقدهم ، ولكنهم لا يملكون إلا أن يقولوا له : آمنا ؛ مرواغة ونفاقاً ، وعجزاً عن نقض ما ينطق به من حق أبلج ، وصف هذا قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوْا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ ﴾ (٢) .

انظر إلى هذه الباء فى قوله : ﴿ وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ ﴾ ، وفى قوله : ﴿ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ ﴾ ، وكيف أفادت أن القوم دخلوا والكفر فى مطاوى نفوسهم ، يصحبهم ، ويلابسهم ، ملابسة هى من قبيل ما تدركه الحواس .

ولا تهمل هنا النظر فى قوله : ﴿ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ ﴾ واسأل : لماذا قال فى وصف حالة الخروج : ﴿ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ ﴾ فزاد فى نسق جملتها قوله : ﴿ وَهُمْ ﴾ ؟ والبلاغيون يقولون : إن تقديم المحدَّث عنه هنا يقتضى تأكيد الخبر وتحقيقه .

قال عبد القاهر مُفسِّراً لهذا الضمير : « إن قولهم : « آمنا » دعوى منهم أنهم لم يخرجوا بالكفر كما دخلوا بالكفر لقولهم : « آمنا » ، وهذا كلام

---

(١) هود : ٤٥ - ٤٨ (٢) المائدة : ٦١

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

حسن فى بيان عناية الآية بدفع دعوى اليهود ، ويمكن أن يقال أيضاً : إنها - أى الآية - نظرت من وجه آخر إلى حال المسلمين ، وبيان ذلك أن هؤلاء اليهود لما حضروا مجلس رسول الله ﷺ ورأوه وصحابته فى جلال هذا المجلس ، ومن بينهم رءوس الأوس ، والخزرج ، ورجال من ذرا قريش ، وتميم ، ورأوا كيف تستهوى قلوبَهم تراتيل قرآنه ، وتضرب على أوتارها أنغام بيانه ، فتُحيلها خشوعاً لله وخضوعاً ، لما رأوا ذلك ظن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم فى هذه الروحانية الشفافة أن هؤلاء اليهود قد دندن الحق حول أختام قلوبهم ، فخرجوا من هذا المجلس وهم أقل عُتواً فى كفرهم ، أى أنهم أذنوا لأنفسهم فى التفكير والمراجعة ، فجاء قوله : ﴿ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ ﴾ ليؤكد أنهم لم يصيبوا شيئاً ، أى شىء ، من نور هذا الحق الغامر ، الذى كنتم فى نشوته وجلاله . ويرشد إلى هذا العطاء فى الآية قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴾ أى أن هذه الدخلة المكتومة وهذا الكفر المستبطن الذى خالط القلوب لا يحيط بكنهه إحاطة كاشفة ، ولا يعلمه العلم الأعلم إلا الله سبحانه .

وقوله : ﴿ لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً ﴾ واقع موقع الحال من ﴿ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ كقوله : ﴿ بِغَيْظِهِمْ ﴾ فهى حال متعاقبة معها ، ويصح أن تكون حالاً من الضمير فى قوله : ﴿ بِغَيْظِهِمْ ﴾ وتكون حينئذ حالاً متداخلة ، والأحسن عندنا أن تكون استئنافاً لبيان سبب غيظهم ، وقد ذكر هذا الوجه بعضهم وكأنه قال : وردَّ اللهُ الذين كفروا بغيظهم لأنهم لم ينالوا خيراً ، فهو جواب عن سؤال مقدَّر ، يطلب معرفة سبب الغيظ ، أى : لماذا كانوا مغيظين ؟ والمراد بالخير - كما قالوا - الظفر بالنبى ﷺ - بأبى هو وأمى ونفسى وولدى - والمؤمنين ، وتسمية ذلك « خيراً » مبنى على وفق اعتقادهم ، وهو جار على أسلوب الحقيقة لا تجوز فيه ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن الظفر بهم خير . وفيه طرف من التهكم بهم والاستخفاف بمطامعهم ، ووراء هذا التهكم

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

والاستخفاف تسمع صوت القهر المتعالى ، الذى يحفظ دعاة الحق من كيد الجاهلين .

وقوله : ﴿ وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ جاء موصولاً بقوله : ﴿ وَرَدَّ اللهَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ ﴾ وهو عند النظر كأنه مقابل له ، وندع بيان ذلك قليلاً لنفهم معنى « كفى » ، فقد قالوا : كفاه مؤونته ، واستكفيته أمراً فكفانيه ، والكفاية ما فيه سد الخَلَّة ، وبلوغ المراد فى الأمر ، وورد : « مَن قرأ آيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » ؛ أى أغنتاه عن قيام الليل ، ومن كلامهم : هذا رجل كافيك من رجل ، وناهيك من رجل ، وجازيك من رجل ، وشرعك من رجل ، كله بمعنى واحد ، وقد تأتى الباء مع فاعل « كفى » ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ (١) .

قال أبو إسحاق الزجَّاج : دخلت الباء لتضمن « كفى » معنى اكتف ، أى أن الكلام على معنى الأمر .

قال ابن هشام : وهو - أى كلام الزجَّاج - من الحسن بمكان ، وقال ابن الشجرى : « دخلت الباء فى « كفى بالله » إيذاناً بأن الكفاية من الله ليس كالكفاية من غيره فى عظم المنزلة ، فضوعف لفظها لتضاعف معناه » ، وقد أراد بمضاعفة اللَّفظ ما أشاروا إليه من أن هذه الباء تفيد التوكيد فى الجملة ، وكأنها كررت مرتين .

وإذا كانت « كفى » بمعنى: وقى ، كما فى قوله : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ ﴾ (٢) ، وكما فى هذه الآية : ﴿ وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ لا تقع الباء فى فاعلها ، قلت : إن قوله : ﴿ وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ موصول بقوله : ﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ، وهو عند النظر كأنه مقابل له لأن قوله : ﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ ﴾ فيه قهر من الله للذين كفروا من

---

(١) الأحزاب : ٣ (٢) البقرة : ١٣٧

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

حيث كان ذلك إبطالاً لسعيهم ، وخذلاناً لهم ، وكسراً لقوتهم ، وقوله : ﴿ وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ فيه دفع من الله عن المؤمنين ، ووقاية منه لهم ، والوصول بهم دائماً مهما كربهم الكرب إلى مرافىء السلام والأمان ، وقال : ﴿ وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وذكر لفظ الجلالة موضع الضمير .

معنى أن الكافى والكافل والدافع عن هذه الجماعة هو صاحب الهيمنة والألوهية ، الذى لا تَنالُ يدٌ من حفظه وكلاءه ، ونلحظ مقابلة دقيقة أيضاً بين قوله : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ ﴾ ، وقوله : ﴿ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ فالذين كفروا رُدُّوا وهموم الحقد والهزيمة تُقَلقل قلوبهم ، وقد هُزِمُوا بالريح التى أفزعتهم ، وأزعجتهم ، فهم راجعون فى حال من القلق ، والاضطراب ، والفزع شديد ، والمؤمنون فى قرار ، وأمن مكين ، وكلمة ﴿ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ واضح فيها معنى الأمن ، والقرار ، والاطمئنان ، والسكون ، كذلك نلحظ مقابلة ثانية بين الكفر والإيمان فى قوله : ﴿ كَفَرُوا ﴾ ، و﴿ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .. وقوله : ﴿ وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فيه أيضاً توكيد للامتنان ، وتأكيد للحث على تذكر النعمة ، فهى بهذا تشارك فى سياق الآية ، وتحث أبلغ حث على الأمر الأول : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ .. ﴾ (١) ، وهى من جهة أخرى تشير إلى أن قريشاً لن تحمل سلاحها بعد اليوم لحربكم ، وأن هذا العدو الذى طالما عناكم قد ذهب عنكم ريحه ، وكفاكم الله أمره ، وأصبحت البداية بالحرب والغزو لكم ، وفى ذلك النبأ باقتدارهم ، وقوة ريحهم ، وإعلاء كلمتهم .

قال محمد بن إسحاق : لما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما بلغنا - : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم » ، وقال أصحاب السير : لقد وُضعت الحرب بين المسلمين وبين قريش بعد الأحزاب ، لم يغزهم المشركون ؛ بل غزاهم المسلمون فى بلادهم ، حتى فتح الله تعالى لهم مكة .

---

(١) الأحزاب : ٩

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ولا أجد مساغاً لما أخرجه ابن أبى حاتم ، وابن عساكر عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه كان يقرأ هذا الحرف : « وكفى الله المؤمنين القتال بعلىّ بن أبى طالب » ، وذلك لأن هذا وإن كان فيه إعلاء من شأن علىّ كرَّم الله وجهه ، فإن فى حذفه وإسقاطه بيان أن الله كفى المؤمنين بحوله الذى لا يُقهر ، وقدرته التى لا تُنال ، وكذلك لا أجد ضرورة تدعو إلى ملاحظة التقدير الذى لحظه قتادة فيما رواه عنه ابن أبى حاتم ، وأخرجه ابن جرير فقد قال : « وكفى الله المؤمنين القتال بالريح ، والملائكة ، وقيل : بقتل علىٍّ كرَّم الله وجهه عمرو بن عَبْد وُدّ » ، لا أجد ضرورة تدعو إلى هذه الملاحظة لأن الآية جاءت مطلقة ولم تقيد ما كفاهم الله به ، وفى هذا التعميم والإطلاق معنى أرحب من التقيد والخصوص .

وقوله : ﴿ وَكَفَى اللهُ المُؤْمِنِينَ القِتَالَ ﴾ عقب ما ذكره من صَبْرِهم وَجَلَدهم إشارة إلى أن نصر الله ، ورعايته ، إنما يكون فى أعقاب اللِّقاء ، وبذل أقصى الجهد والطاقة ، فى تنظيم ، ووعى ، واجتهاد ، فقد خندق المسلمون حول الأحياء المكشوفة من المدينة ، وفاجئوا قريشاً بما لا عهد لهم به فى الحروب ، وكان سيدهم رسول الله ﷺ يرفع التراب على كتفه ، ويحفر بَدأب وجدٍّ ، ويحرص وهو فى هذا الاستعداد اليقظ على تعميق الإحساس والإيمان بالعقيدة ، التى يدافعون عنها ، فكان يرتجز بشعر عبد الله ابن رواحة :

اللَّهُمَّ لَوْلا أنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلا تَصَدَّقْـنَا وَلا صَـلَّـيْنَا

فَأَنْزِلَــنْ سَــكِينَةً عَلَـيْـنَا ... وَثَبِّـتْ الأقْـدَامَ إنْ لاقَـيْـنَا

إنَّ الأُولَى قَدْ بَغَوْا عَـلَـيْـنَا ... إذَا أَرَادُوا فِـتْـنَــةً أَبَـيْـنَـا

ولا تجد أفعل فى نفس الجماعة من أن ترى قيادتها الروحية أو السياسية أو الحربية ضاربة معها فى الجهد والعناء ؛ وهذا محمد ﷺ صاحب الزعامة يأخذ نصيبه فى الحفر ، وحمل التراب على كتفه الشريف ، كأنه جندى صغير .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ولا يُخذِّلُ الشعوب شيءٌ كأن ترى قياداتها متجهة إلى المكاسب الشخصية وتجميع الثروات والانغماس فى الترف والملذات . . والإغداق على الأقارب والمحاسيب وأهل النفاق . كل هذا يُشيع روح الانتهازية فى صفوف الشعب ، ويَبْعُد بالناس عن روح الجد والطموح الوطنى ، وما يلزم هذا الطموح من عطاء وتضحية .

وإذا تجردت القيادات للأهداف الوطنية العليا واستطاعت أن تتخلص من الصغائر والشهوات رأيت هذه الروح النبيلة تشيع في الناس .

وقد أدرك أعداء الشعوب الإسلامية هذا المعنى ، فسلَّطوا على هذه الشعوب رجالاً تغلب فيهم روح الأثرة وحب الذات على الروح الوطنية النبيلة التى تسكن نفوس الزعماء ، ولذلك قَلَّما تجد حاكماً يرعى الله فى أمته .

ثم إنهم إذا وجدوا منا رجالاً أطهاراً فى صفوف القيادات سلَّطوا عليهم عوامل الإغراء ، وقدَّموا لهم فلسفات ودراسات تجعل ذلك مباحاً وحقاً مشروعاً فى ظل تطور الفكر السياسى ، وقد قرأتُ كلاماً لرجل يمثل الرجل الثانى أو الثالث - فى دولته - يدافع عن قبوله عمولات مع شركات أجنبية تعاقدت على أعمال وطنية ، وهذا موطن من مواطن أدوائنا التى يجب أن تُعالَج بحسم ، وأن تكون الصفوف الأولى للرجال الأفذاذ الذين يجدون أنفسهم فى العطاء لأممهم وأوطانهم . ويرتفعون بأنفسهم وأهليهم عن ميدان الترف والشهوات .

فلما اشتدت الفتنة ونهض حُيَىّ بن أخطب - رأس هذه الفتنة - إلى كعب بن أسد القرظى سيد بنى قريظة ، وصاحب الرأى فيهم ، وما زال به حتى أثار حفيظته على المسلمين ونقض عهده مع النبى وأصحابه ، وصار طريق قريظة مفتوحاً للأحزاب ، وأخذ شباب اليهود والمتحمسون ينزلون من حصونهم وآطامهم إلى منازل المدينة القريبة منهم ، يريدون إرهاب أهلها ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وكان هذا خطراً كبيراً على المسلمين ، لأنهم لم يُحَصِّنُوا هذا الجانب ، لذلك العهد الذى كان بينهم وبين بنى قريظة ، أقول : لما كان ذلك رأينا القيادة الحكيمة تقرر أنه ليس من الصواب أن يُحسم هذا الموقف بالسيف ؛ لأن ذلك لم يكن فى صالح المسلمين ، إذ لا طاقة لهم بمواجهة هذه القبائل ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غطفان ، وكانت من أكثر القبائل عدداً وعُدَّة ، وكان قائدها عيينة بن حصن (١) ، يعدها ثلث ثمار المدينة إن هى ارتحلت ، وكانت قد بدأت تمل فقبلوا ذلك ، وأعدَّ الرسول مشروع الصلح ،

---

(١) وكان رجلاً به طيش وهوج ، وكان مطاعاً فى قومه يقودهم من حرب إلى حرب ، وظل يحمل سيفه ضد الإسلام والمسلمين إلى أن لحق الرسول بالرفيق الأعلى .

وغطفان من القبائل التى لها شأن يُذكر ، وهم قوم النابغة الذبيانى ، وكان النابغة يعرف حمق « عيينة » ، وهو الذى هجاه ووصف حماقته وطيشه بقوله :

كأنَّكَ مِنْ جِمَالِ بَنِى أُقَيْش ... يُقَعْقَعُ خَلْفَ رِجْلَيْهِ بِشَـنِّ
تَكُونُ نَعامـةً طَوراً وَطَـوْراً ... هُوِىَّ الريحِ تَنْسجُ كُلَّ فَنِّ

ومن طريف أخبار عُيَيْنة أنه كان صديقاً لطُلَيْحة بن خُوَيْلد الأسدى الذى قاد بنى أسد فى غزوة الأحزاب ، وكان طليحة هذا شجاعاً أخرق يُعَد فى العرب بألف فارس ، وكان به لوثة ، فتنبأ فى بنى أسد بعد ما لقى رسول الله ﷺ فى وفد قومه ، وأسلم زمناً ، والمهم أن عيينة هذا يقود قومه لنُصرة صديقه الذى صار نبياً ، فلما بعث أبو بكر إليهم سيف الإسلام خالد بن الوليد لقتالهم تزمَّل طليحة فى كساءٍ له ينتظر الوحى ، وطال ذلك ، وألح المسلمون على أصحابه بالسيف ، فقال عيينة لصاحبه : هل أتاك بعد ؟ قال طليحة من تحت الكساء : لا والله ما جاء بعد ، فأعاد إليه مرتين ، وطليحة يقول : لا ، فقال عيينة : تباً لك آخر الدهر ، وجذبه جذبة جاش فيها ، وقال : قبح الله هذا ومَن يتبعوه ، يا بنى فزارة هذا الكذَّاب ما بورك لنا ولا له فيما طلب . . . ثم نرى العجب حين نعلم أن هذا النبى الكذَّاب - أعنى طليحة بن خويلد الأسدى - يدخل فى دين الله ويحمل سيفه فى سبيله ويهزم به أعداء الله فى واقعة القادسية . قالوا : وكان له فيها أحسن بلاء .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وقبل إبْرامه رَأىَ الرسول عليه السلام أن يستطلع رأى سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، وكانا من أصحاب مشورة النبى ﷺ فقالا : يا رسول الله ؛ أمرٌ تُحبُّه فَنصْنَعُه ؟ أم شىءٌ أمَرَكَ اللهُ به لا بُدَّ لنا من الْعَمَلِ به ؟ أم شىء تَصْنَعُهُ لَنَا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « بل شىء أصنعه لكم ، والله ما أصنَعُ ذلكَ إلا لأنى رأيتُ العربَ قد رَمَتْكُم عَن قَوْسٍ واحدة ، وكَالَبُوكُم من كُلٍّ جَانب ، فأرَدْتُ أن أكْسرَ عَنْكُم من شَوْكَتهم إلى أمر ما » ، فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله ؛ قَدْ كُنَّا نحنُ وهؤلاء القومَ على الشركِ بالله ، وعبادة الأوْثَان لا نعبد الله وَلَا نَعْرِفهُ ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قِرًى أو بَيْعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا ، وأعزَّنا بكْ وبه ، نعطيهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فقال رسول الله ﷺ : « فأنت وذاك » ، وأمر بمشروع الصلح فمزَّقه .

وكانت هذه خطوة مهمة هيأت نفوس غطفان لما نهض به نعيم بن مسعود وكان حديث عهد بكفر ، ولم يكن أحد يعلم نبأ إسلامه ، وقد أفاد الرسول عليه الصلاة والسلام من هذا الموقف ، وقال له : « إنما أنت فينا رجل واحد ، فخَذِّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة » ، فذهب نعيم إلى بنى قريظة وقال لهم : يا بنى قريظة ؛ عرفتم وُدِّى أياكم ، وخاصة ما بينى وبينكم ، قالوا : صدقت ، لستَ عندنا بمتهم ، فقال : إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم به أموالكم وأبناؤكم ، ونساؤكم ، لا تقدرون على أن ترحلوا منه إلى غيره ، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم ونساؤهم وأموالهم بغيره ، فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نُهْزه أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلوا بين الرجل وبينكم ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناء من أشرافهم ، ليكونوا بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه ، قالوا : قد أشرتَ علينا بالرأى ، ثم قال

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

لأبى سفيان ومَن معه : قد عرفتم وُدِّى لكم ، وفراقى محمداً ، وإنه قد بلغنى أمر قد رأيت منه علىَّ حقاً أن أبلغكموه ، نصحاً لكم ، فاكتموه عنى ، واعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وعرضوا عليه أن يأخذوا له منكم ومن غطفان ، رجالاً من أشرافكم ، ليضرب أعناقهم ، وأن يكونوا معه حتى يستأصلوكم ، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهائن من رجالكم ، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً . . ثم ذهب إلى غطفان وقال لها مثل ما قال لقريش ، وحذَّرهم أن يدفعوا إلى بنى قريظة رجلاً واحداً منهم ، فلما كانت ليلة السبت أرسلت قريش وغطفان إلى بنى قريظة بأنَّا لسنا فى دار مقام ، وقد هلك الخف والحافر ، فأعدوا للقتال حتى نناجز محمداً ، فقال بنو قريظة : إن اليوم يوم السبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ، وقد كان بعضنا أحدث فيه حَدَثاً فأصابه ما لم يخف عليكم ، ولسنا مع ذلك بالذى نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً ، فإنَّا نخشى إن نالت منكم الحرب أن تنشمروا إلى بلادكم ، وتتركونا ، والرجل فى بلادنا ، ولا طاقة لنا بذلك منه ، فلما بلغ قريشاً هذا الحديث أرسل إليهم أبو سفيان : أن اجعلوا سبتاً مكان هذا السبت ، فإنه لا بد من قتال محمد غداً ، ولئن خرجنا لقتاله ولستم معنا لنبرأ من حلفكم ولنبدأن بكم قبل محمد ، فأجابت قريظة إنها لا تتعدى السبت ، فغاظ ذلك أبا سفيان ، وقال : ألا أرانى أستعين بإخوة القردة والخنازير . وكان ذلك بداية الاختلاف والشك فى الجبهة المحاصرة . قال صاحب « روح الإسلام » : « وهكذا بدأت العناصر تتضافر فى غير صالح المحاصِرين ، كانت خيولهم تنفق ، ومؤنهم تتضاءل شيئاً فشيئاً ، وذرت الفُرْقة قرنها بين ظهرانيهم ، وقد وسعها زعيم المسلمين بحكمته الفذة ، فخلق منها انشقاقاً فعلياً » .

ولما حاول نوفل بن عبد الله بن المغيرة أن يجتاز الخندق فسقط هو وفرسه

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

فيه ، وصُرِعا ، وحُطما ، أرسل أبو سفيان قائد الحملة مائة بعير دية الجثة ، وكان فى قبول هذه الدية شىء من المدد لجيش المسلمين ، وضرب من الاستنزاف لمؤونة أعدائهم ، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام رفض المائة بعير ، وأوقع فى نفوس القوم معنى كبيراً حينما أعطاهم الجثة ، وقال : « خذوه فإنه خبيث الدية » .

وبهذا الأسلوب الفذ والسياسة الواعية استطاع قائد هذه الجماعة الصغيرة ، المحاصَرة ، أن يفلت من قبضة أعدائه ، فقد كان مشروع الصلح مع غطفان ، وفعل نعيم ، وإظهار الاستغناء ورفض دية ابن نوفل ، وذلك الصمود المستبسل العجيب وراء الخندق ، وتخطفهم كل مَن حاول اجتيازه ، كان ذلك وغيره مهيئاً أذهان القوم ، وصارفاً لهم نحو العودة إلى بلادهم ، فلما كانت الريح التى أطفأت نارهم ، وأكفأت قدورهم ، صادفت أذهاناً مهيأة إلى الانصراف بسبب ما بين هذه الكتائب من الانشقاق .

والخلاصة . . أن قيادة المسلمين كانت تحمل التراب ، وتضرب فى أرض الخندق المثل الأعلى لمن يريد القيادة فى هذه الأمة ، ثم هى لا تكتفى بهذا ، وإنما تُلهب الشعور الدينى برجز ابن أبى رواحة ، معلنة بذلك أنه ليس واجب القيادة فى الإسلام أن تُلقى بأيديها فى ميادين الكفاح فحسب ، وإنما أن تفعل ذلك وهى حريصة جد الحرص على تعميق صلة هذه الأُمة بمبادئها السامية ، التى تحمل العناء ومواجهة الصعاب فى سبيلها ، ثم كانت هذه القيادة ذات وعى كامل بأحوال القوة التى تواجهها ، وذات بصر بأُمورها ، ونفوسها ، ونجحت فى الإفادة من كل موقف ، فأبطلت خدعة حُيَىّ بن أخطب بخدعة نعيم بن مسعود ، ونفذت إلى أقوى الكتائب ، فشاورت عيينة بن حصن والحارث بن عوف ، وبعد هذا الجهد الجسدى المتمثل فى العناء فى حفر الخندق ، والصمود وراء هذا الخندق ، وبعد هذا الجهد فى التدبير الذى يصح أن يسمى جهداً فى إحكام خطط السياسة والديبلوماسية ، أقول : بعد هذا كله نزل نصر الله وأرسل الريح وردَّ الذين كفروا .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

والخلاصة - مرة ثانية - أن الإسلام لا يعترف بقيادة تدعو الناس إلى الكد والكفاح ، وهى على منابر السياسة ، ناعمة على عروش حكم فاتر ، وإنما يعرف قيادة تدعو إلى الكد والكفاح وهى مغبرة بغباره ، ضاربة فى أرضه ، كما لا يعرف الإسلام دعاة يدعون إلى مُثُله العليا ومبادئه الخالدة بكلمات ترن على منابر الدعوة ، وإنما يعرف دعاة تمثَّلوا قِيَم الإسلام سلوكاً وحياة ، فكانت دعوتهم إلى الخير بحسن السيرة عوناً لدعوتهم إلى الخير بحسن البيان .

وعليكم يا شباب الدعوة أن تفهموا هذه الحقيقة ، وأن تعلموا أن نصر الله لن ينزل من عليائه على أمة نهضت بألسنتها ، وتقاعست بهممها ، ولم ينزل على مَن يخونون أمانة الدين ، وأمانة الأمة ، فلم يدفعوا شعوبهم إلى ميادين الكفاح دفعاً واعياً صامتاً مثمراً فى غير طنطنة ، ولا ضجيج ، وإنما ينزل على أمة قادرة ، أدركت معنى خلافة الله فى الأرض ، وأنها خلافة تعمير ، ومجالدة للباطل . وأرجو أن يُفهم الدين فهماً صحيحاً ، فليس الدين تنسكاً ، وعبادة ، وضراعة فحسب . وإنما هو تعمير فى هذا الوجود ، ومكافحة ، ومجالدة تُثمر الخير والسعادة للإنسان ، وليست الصلاة والدعاء والضراعة إلا تهيئة لهذا الكائن وإعداداً له للقيام بدور طاهر نظيف فى هذه الحياة .

وأعتقد أن الله سبحانه وقد جعل الإنسان خليفة له فى الأرض لن ينظر إلى هؤلاء الذين يعيشون على هامش الحياة فى غير فاعلية ، وفى غير مكافحة لباطل ، ومساندة لحق ، ودعوة إلى إعلاء لكلمة الله ، وكلمة الخير ، أعتقد أن الله لن ينظر إلى هؤلاء ، ولن يعبأ بهم ، ولو كانت لهم صلوات ، وتسابيح تشجى بأنغامها ملائكة السماء ؛ لأن عبادة الله ليست النُسُك فحسب كما قلت ، وإنما عبادة الله هى العمارة النظيفة ، والطاهرة فى هذا الوجود ، هى العمل فى ميادينه الواسعة المتصلة بالله ، والمتجهة إليه ، والذى تَتَغَيَّر به الأيدى الطاهرة الوضيئة بماء الطهور ، والقلوب النظيفة المشرقة بدعاء

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الصلاة ، وأعتقد أن هذه الحقائق يجب أن تتضح فى أذهان المسلمين حتى يتسع فهمهم للإسلام ، وأنه ليس دعوة إلى الانطواء والأنانية ، وإنما هو دعوة إلى كل ما يُسعد الإنسان فى ضوء مُشرقٍ من نور السماء ، وقوله : ﴿ وَكَانَ اللهُ قَوِيّاً عَزِيزاً ﴾ ، فاصلة تكاد تحكى - فى وعى - قصة الأحزاب كلها ، فهى تتلخص فى القدرة الغالبة ، والعزَّة التى لا تُنال ، وهذه خلاصة كل ما تقدَّم من مواقف المؤمنين الذين كانوا يستمدون قوتهم من الله ، فكانوا أقوياء فى مجالدة أعدائهم ، حتى رأينا فتىً من فتيانهم ينهض لملاقاة عمرو بن وُدّ ، وكان قرشياً يتعصب للقرشيين ، وكان شجاعاً أخرق لا يُشق غباره .

روت كتب التاريخ أنه دفَعَ فرسه فعبر الخَنْدَق فتَبِعَه بعض أصحابه ، وقال وهو فى طيش الغرور : مَن يبارز ؟ فأجاب علىّ إجابة فيها ذكاء وتدبير يدلان على رباطة جأشه فى تلك الساعات الحرجة ، قال علىّ : يا عمرو ؛ إنك قد كنتَ عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خَلَّتَين إلا أخذتها منه ، فإنى أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام ، فقال عمرو : لا حاجة لى بذلك ، قال : فإنى أدعوك إلى النزال ، فقال له : ولِمَ يا ابن أخى ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك ، فقال علىّ : ولكنى والله أُحب أن أقتلك ، فاشتد غضبُ عمرو فأقبل على عَلِىٍّ ، فتنازلا فما لبث علىٌّ أن قتله ، أقول : إن هذه القوة التى دفعت هذا الفتى إلى ملاقاة هذا الشجاع المسعور ، ليست إلا مدداً من القوى العزيز ، وهذه المناقشة التى كانت بين علىّ وعمرو تُسقط هذه الرواية المتخاذلة التى رواها ابن كثير ، فقد ذكر أن عمرو بن وُدّ لما قال : هل من مبارز ؟ لم يُجبه أحد فأمر الرسول عليه السلام علياً بملاقاته ، أقول : إن حرص عَلِىّ على منازلته ، وقوله له : إنك قد كنت عاهدتَ الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خَلَّتين إلا أخذتها منه ، يبعد أن يكون مأموراً بنزاله .

و« العَزِيزُ » : الذى لا يُنَال ، من قولهم : أرض عَزَاز - بفتح أوله - أى صلبة ، وقالوا : تَعزَّز اللَّحمُ وعزَّ كأنه حصل فى عَزَازٍ من الأرض لا سبيل إلى الوصول إليه .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ومن أسمائه سبحانه المُعزُّ لأنه يهب العزَّ لمن يشاء ، ﴿ وَكَانَ اللهُ قَوِيّاً ﴾ : أى قادراً غالباً ، ﴿ عَزِيزاً ﴾ : أى لا يُغلب ، وكان أولياء الله فى هذه الواقعة أقوياء ، كما أنهم كانوا فى عزاز من منعته وكلاءته ، فلم ينل منهم عشرة آلاف سيف ظمىء إليهم وهم قِلَّة وراء الخندق ، وهذه هى مناسبة الفاصلة كما نراها .

وقد قال العلاَّمة الحُجَّة ابن القيم فى هذه الفاصلة : « أخبر سبحانه فى فاصلة الآية بأنه قوى عزيز ، ليدل على أن تلك الريح التى أصابت المشركين ليست اتفاقاً ، وليست هى من أنواع السحر ، بل هى من إرساله على أعدائه ، كعادته ، وسُنَّته ، فى أمثاله من نصره لعباده المؤمنين ، مرة بالقتال كيوم بدر ، ومرة بالريح كيوم الأحزاب ، ومرة بالرعب كبنى النضير ، وأن النصر من عند الله لا من عند غيره » . . انتهى كلامه .

ونضيف إلى ما ذكرناه فى مناسبة الفاصلة لمحة ليست بعيدة عند التأمل الحسن ، ذلك أن قوله : ﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ مظهر القوة والاقتدار ، والقهر ، فهو مناسب لقوله فى الفاصلة : ﴿ قَوِيّاً ﴾ ، وقوله : ﴿ وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ مظهر المنع ، والحفظ ، والبُعد من أن يُنال ، وهو المناسب لقوله فى الفاصلة : ﴿ عَزِيزاً ﴾ . وترتيب الجملتين مناسب لترتيب الوصفين فى الفاصلة ، فأنت حين تذهب لتبحث عن مناسبة الفاصلة فى الآيات الطوال التى هى نهايتها ، تجد ذلك واضحاً ، وحين تنظر فيما يجاورها من الجملتين أو الثلاث تجد ذلك واضحاً ، ومثل هذا لا يتوفر دائماً فى كلام الناس ، وإنما هو صنع الله الذى أتقن كل شىء فى تنظيم وتناسق مبهر عجيب .

* * *

﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُهَا ، وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾
(الآيتان : ٢٦ ، ٢٧)

* *

﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ ﴾ : النُّزُول فى الأصل : انحطاطٌ من عُلُوٍّ ، يقال : نزل فى المكان ، ونزل بالمكان ، ونَزَلهم ، ونَزَلَ عليهم ، ونزل بهم ، وقالوا للضيف : نَزِيل ، ومن أشعارهم التى تصف شِيمَهَم وخَلائقَهم :

نَزِيلُ الْقَوْمِ أَعْظَمُهُمْ حُقُوقاً وَحَقُّ اللهِ مِنْ حَقِّ النَّزِيلِ

وقالوا فى السمح الكريم : هو حسن النُّزْلِ - بضم النون وسكون الزاى .

والإنزال والتنزيل كلاهما وارد فى وصف القرآن ، وبعض العلماء يلحظ فرقاً بين الصيغتين حينما يردان فى سياق نزول القرآن ، قال الراغب : « والفرق بين الإِنْزَال والتَّنْزِيل فى وصف القرآن والملائكة ، أن التَّنْزِيل يَخْتَصُّ بالموضع الذى يُشير إليه إنزاله مُفرَّقاً ، ومرة بعد أخرى ، والإنزال عام » ، أراد أن القرآن حينما يأتى بـ « نزَّل » يشير إلى تنزيله نجوماً مفرّقاً كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ ﴾ (٢) ، وحين يستعمل « أنزل » قد يفيد النزول جملة واحدة كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ (٤) ، فإن الإنزال هنا يفيد أنه نزل دفعة واحدة إلى سماء الدنيا قبل تنزيله على رسول الله ﷺ ، وقد يفيد معنى التنزيل : المفرَّق ؛ لأنه كما قال ، وليس هذا الذى ذكره الراغب موضع اتفاق بين الأئمة .

فقد قال سيبويه : وكان أبو عمرو يُفرِّق بين « نَزَّلْتُ » و« أَنْزَلْتُ » ولم يذكر وجه الفرق .

---

(١) الحجر : ٩ (٢) الشعراء : ١٩٨
(٣) القدر : ١ (٤) الدخان : ٣

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وقال أبو الحسن : لا فرق عندى بين « نَزَّلْتُ » و« أَنْزَلْتُ » إلّا صيغة التكثير فى « نزَّلْتُ » .

ويقال : نَزَلَ الملك بكذا وتَنَزَّل به ، قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ تَنَزَّلُ المَلَائِكَةُ ﴾ (٢) : ولا يقال : نزل الله بكذا ، ولا تنزَّل به ، وإنما يقال : نزل كما جاء فى الحديث : « إن الله تعالى وتَقدَّس يُنَزِّلُ كُلَّ ليلةٍ إلَى السَّمَاء الدنيا » ، والمراد نزول الرحمة والألطاف الإلهية وقُربها من العباد . قال الراغب : ولا يقال فى المفترى والكذب وما كان من الشيطان إلا التَّنَزُّل . قال تعالى : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ أراد - كما يقول الجمهور - بنى قريظة الذين ظاهروا الأحزاب ونصروهم ، وذكرهم بهذا الموصول ، أى : ﴿ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ ﴾ ليشير إلى سبب العقوبة ، وهى مظاهرة أعدائكم ونقض العهد الذى كان بينكم وبينهم ، وانضمامهم للأحزاب فى هذه اللَّحظات البالغة الشدة ، وقد كنتم تُعَوِّلُون عليهم فى سد الثُّغْرة المقيمين فيها ، وفى إمْدَادكم بالمؤونة ، فصاروا عوناً عليكم ، وصارت المدينة باباً مفتوحاً من جهتهم ، يدخلها الأحزاب فى سهولة ويُسر ، وحينئذ يُطْبِقُون عليكم ويستأصلون شأفتكم ، أقول : ذكرهم بهذا الموصول ليقدم السبب الموجب لهذا الحكم الحاسم ، والقضاء القاطع فى أمرهم ، وقال : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ ليذكروا بأنهم خالفوا هذا الكتاب الذى هم أهله ، وظاهروا وثنية قريش والأحزاب عليكم ، وأنتم مثلهم دعاة توحيد ، ولو أخلصوا لهذا الكتاب الذى يزعمون أنهم أهله لاستجابوا لدعوتكم ؛ لأن هذا الكتاب يحثهم على الإسلام ، ويبشرهم برسول من بعد اسمه أحمد ، وصفته فى التوراة لا تخفى عليهم ، واليهود فى كل العصور يزعمون أنهم رُسُل البَشرية ، وحملة رسالة التوحيد إلى الأرض ، وهم الآن أيضاً يَتَنَفَّجُون بهذه الدعوى ،

(١) الشعراء : ١٩٣ (٢) القدر : ٤ (٣) الشعراء : ٢١٠

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ويذكرونها كأنها شيء مقرر ، وحين يراجعون تاريخهم ويرون فيه هذا الموقف الذى ناصروا فيه دعاة الوثنية التى لا تؤمن بكتابهم ، ولا بنبيهم ، ولا بشريعتهم على الإسلام الذى يؤمن بكتابهم وبنبيهم وبشريعتهم ، حين يراجعون تاريخهم ويرون فيه هذا الموقف الذى سجلته عليهم هذه الآية بقولها : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعيبون هذا الموقف القديم على حُيَىّ بن أخطب .

يقول الكاتب اليهودى « إسرائيل ولفنسن » فى تحليله لموقف حُيَىّ بن أخطب ومَن معه من أحبار اليهود ، وهم يؤلبون الأحزاب حين سألتهم قريش وقالوا لهم : « يا معشر اليهود ؛ أنتم أهل الكتاب الأول ، وأهل العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ فأجاب اليهود : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه ، يقول هذا الكاتب : « كان من واجب هؤلاء الا يَتَوَرَّطُوا فى مثل هذا الخطأ الفاحش ، والا يُصرِّحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامى ، ولو أدَّى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطالبهم ، لأن بنى إسرائيل الذين كانوا عِدَّةَ قرون حَامِلِى رايةَ التوحيد فى العالَم بين الأُمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين ، والذين نُكِبوا بنكبات لا تُحْصَى من تقتيل ، واضطهاد ، بسبب إيمانهم بإله واحد فى عصور شتَّى من الأدوار التاريخية ، كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم ، وكل عزيز لديهم ، فى سبيل أن يخذلوا المشركين ، هذا فضلاً عن أنهم بالتجائهم إلى عبادة الأصنام إنما كانوا يحاربون أنفسهم ، ويناقضون تعاليم التوراة ، التى توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام ، وبالوقوف منهم موقف الخصومة » . . انتهى كلامه .

أقول : إن قوله : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يشير إلى هذا التناقض فى موقف اليهودى الذى تولى هذا النصَّ وشرحه ، ويشير إلى هذا ويقويه ذكره الأحزاب بقوله السابق : ﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، فكأنه قال هنا : أنزل أهل الكتاب ، وأرباب شريعة موسى ، لأنهم أعانوا الكافرين بالتوحيد ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وشرائع الأنبياء جميعاً ، أنزلهم من حصونهم المنيعة ليجدوا هذا المصير الذى تجده كل جماعة خانت دينها وكتابها .

وقوله : ﴿ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ : قال أصحاب اللُّغة : الصَّيَاصى شَوْكُ النسَّاجين ، واحدها صِيصِيَة ، وقالوا : صيصَةُ الحائك الذى يخيط به الثوب ، وتدعى المخَطّ ، وقال أبو الهيثم : الصِّيصَةُ حَفٌّ أى مِنسج ، صغير من قرون الظباء تَنْسُج به المرأة ، وذكر قول دريد بن الصِّمَّة يذكر أخاه ومقتله :

فَجِئْتُ إليهِ والرِّمَاحُ تَنُوشُه ... كَوَقْعِ الصَّيَاصِى فِى النَّسِيجِ المُمَدَّدِ

وقد جاء فى الحديث عند ذكر الفتنة : « كأنَّها صَيَاصِى البَقر » ، قال أبو بكر : شبه الفتنة بقرون البقر لشدتها ، وصعوبة الأمر فيها ، والعرب تقول : فتنة صمَّاء ، إذا كانت هائلة عظيمة . وقال صاحب روح المعانى : الصَّيَاصِى جمع صِيصِية ، وهى كل ما يُمتنع به ، ويقال لقرن الثور ، والظباء ، ولشوكة الديك التى فى رجله كالقرن الصغير ، وأحسب أن الصياصى فى الأصل قرون الظباء ، والبقر ، وسمى شوك النساج صِيصِية ، لأنه يُصنَع منها ، وسمى شوك الديك صيصية ، لأنه يشبه قرن الظبى ، والبقر ، فى دقته ، والتوائه ، وحدته ، وسميت الحصون صياصى لأنه يُمتنع بها كما يُمتنع بالصياصى .

وفى قوله : ﴿ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ إشارة إلى أنها حصون منيعة يصعب اقتحامها كما يصعب اقتحام صَيَاصِى الظِّباءِ والبَقرِ المُخْتَلِطةِ المتشاجرةِ ، وفى ذلك توكيد للنعمة التى يذكِّر المؤمنين بها .

وقوله : ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ قالوا : القَذْفُ الرمى البَعِيدُ ، وقَذَفَ يَقْذِفُ - كَضَرَبَ يَضْرِبُ : رمى بعيداً ، قال فى القاموس : والقذَّاف أيضاً ما قبضت بيدك مما يملأ الكف فرميتَ به ، أو ما أطقتَ حمله بيدك ورميته ، والقذف يُستعمل مجازاً فى الشتم ، كما يُستعمل فيه الرمى ، وفى حديث عائشة رضى الله عنها : « وعندها قَيْنَتَان تُغَنِّيَانِ بما تَقَاذَفَتْ به الأنْصَارُ يوم

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

بُعاث » ؛ أى تشاتمت فى أشعارها ، وأراجيزها ، التى قالتها فى تلك الحرب ، وقالوا : قذف بنفسه ؛ كأنه رماها بعيداً لما تجاوز بها حد المألوف فى المخاطرة ، أو السير ، قال الطرماح (من الطويل) :

وإنّى لَمُقْتَادٌ جَوَادِى فَقَاذِفٌ بِهِ وبِنَفْسِ العامَ إحْدَى المَقَاذِفِ

وقَذَفَتْ بهم المفازةُ ؛ أى كأن الصحارى والمفاوز ترمى بهم ، وقالوا : قَذَفَ بهم الليلُ ؛ أى رَمَى بهم الليل ، وقالوا أيضاً - وهو من الخيال الطريف - : تقاذفتهم الصحارى ؛ كأن كل جزء من الصحارى والقفار يرمى بهم إلى ما يجاوره ، ومثله : تقاذفهم الليل ، ومن أبلغ ما استُعْملت فيه هذه الكلمة قوله تعالى : ﴿ قُلْ إنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الغُيُوبِ ﴾ [(١)] . قال الزجَّاج : معناه يأتى بالحق ويرمى بالحق ، ولا ترى لحسن هذا التعبير نهاية ، ولا نستطيع أن نعلل ما نجده فى أنفسنا من سِحْر وقَعْه ، ونقول فقط : إن القذف هنا يفيد الصدع بالحق فى انكشاف ، وفى قوة ، وصلابة لا تلين ، وكلمة ﴿ الغُيُوبِ ﴾ توحى بأن هذا الحق الذى تقذف به يد القدر يُصيب ، ويُعمِى ، ويُصمِى ؛ لأن القاذف علام نافذ إلى حُجُب الغيوب التى ليست لأبعادها فى النفس نهاية ، والتى تنقطع دونها انطلاقات الخيال الجامح ، والتى تملأ النفس برهبة الحق وجلاله .

وانظر إلى القَذْف بالغَيْب فى قوله بعد ذلك بأربع آيات : ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [(٢)] ، فإن المراد بالقذف هنا - كما قالوا - رَمْيُهم النبى ﷺ بأنه ساحر وكذَّاب ، وبأن ما جاء به شعر وأساطير الأوَّلين ، « والغَيْبِ » هنا يوحى بغيوم الضلال ، وضباب العمى ، فكل ما قالوه زور ، وباطل ، قَذَف به خيال مظلم ، وقلب أعمى ، وفرق بين الذى يقذف هكذا بلا تبصير ، وبلا رؤية ، وبين الذى يقذف وهو علام الغيوب ، وقوله : ﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ تدقيق فى بيان جَهْلِهم بالرمى ، وعدم إصابة

---

(١) سبأ : ٤٨ (٢) سبأ : ٥٣

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ما يقولون ، وما يقذفون به ، لأن الذى يرمى من مكان بعيد لا يصيب ، فما بالك إذا كان يرمى رمى المتخبط الذى لفَّه ظلام الغيب ، وتزداد بصيرة فى فهم هذا التعبير المعجز حين تربطه بسياقه وتتأمل .. اقرأ وتدبر :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * وَقَالُواْ آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ * وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِ مِن قَبْلُ ، وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ (١) ، ماذا تجد فى نفسك وأنت تقرأ قوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ ﴾ ؟ ولأعينك على الاستمتاع الذى يُروِّى قلبك بهذا التعبير أقول لك : إنها جاءت فى وصف حال الكافرين عند الفزع والسوق إلى النار ، وقوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ .. ﴾ شرط جوابه محذوف ؛ أى لرأيت أمراً هائلاً يجل عن الوصف .

وقوله : ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ أى فَلا فَوْتَ لَهم ، أى حين يُذْعَرُون ويُفْزَعُون ويحاولون التَّفَلُّتَ والفرار من هول ما يجدون لا يستطيعون ذلك ، انظر إلى الحركة الطائشة المذعورة فى قوله : ﴿ فَزِعُواْ ﴾ ، وحاول أن تُفْسِحَ خيالك ووعيك ، لترى الصورة التى وراء هذا اللّفظ المفرد ، وأحسبها صورة متزاحمة يتزاحم فيها صناديد الضلال ، والغدر ، والكفر ، فى نَزَقٍ شديد وطيش ، وجنون مسعور ، يحاولون وَهُمْ ملءُ الفراغ الرحيب لأنه مجمع لكل ضال ، فاسق ، ظالم ، عات ، خائن ، غادر لأمانة الحق ، من بنى آدم جميعاً من يوم قابيل إلى ما بعد يومنا هذا بآماد لا يعلمها إلا الله ، ولو حاولت أن تتصور الخونة ، والغادرين ، وصناديد الضلال ، والكفر ، والفسق ، فى زماننا هذا على سعة الأرض كلها لوجدت أكثر الناس منهم ، فما بالك بتاريخ البَشرية الذى بدأه آدم ، وبدأه ابنه بالغدر وسفك الدم البرىء . أنا لا أريد أن أطيل ، وإنما أحاول أن تجتهد أنت فى إدراك أبعاد هذه الكلمة : ﴿ فَزِعُواْ ﴾ متأملاً كثافة واو الجماعة هذه ، ثم ترى كيف أسكتت هذه المحاولات كلها

(١) سبأ : ٥١ - ٥٢

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وأبطلتها هذه الكلمة : ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ ، أرايت كيف تصوَّرت لك القدرة الهائلة وقد قبضت هؤلاء جميعاً رغم عتوهم المجنون فى تلك اللَّحظات وكيف أبطلت كل هذا التمرد فى قوله : ﴿ فَلَا فَوْتَ .... ﴾ ، وقوله : ﴿ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ اى أُخذوا اخذ المتمكن منهم ؛ لأن الأخذ إذا كان من مكان قريب من المأخوذ ، كان اخذه اكثر تمكناً ، ارايت قيمة البناء للمجهول فى قوله : ﴿ وَأُخِذُواْ ﴾ وكيف أشار إلى أنه أخذ خفى ، يتخطفهم من حيث لا يشعرون فيقذف بهم فى النار ، وقالوا : ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ : أى آمنوا فى هذه اللَّحظات ، وقوله : ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ يشير إلى فساد عقولهم ، وضياعها فى تلك اللَّحظات ، فهم يعلمون أن ذلك لن ينفع ، وإنما هو قول متخبط ذاهل لا يدرى ، ثم هو يتعلق ويستغيث ، ويطمع فيما لا مطمع فيه ، ﴿ وَقَالُواْ آمَنَّا ﴾ .. هكذا كلاماً مرسلاً لا تأكيد فيه ، أى لم يقولوا إنَّا آمنا ؛ لأن نفوسهم متخاذلة ، هشة ، ذاهبة ، مبددة فى تلك اللَّحظات ، والتوكيد يكون من نفس قوية ، لها يقين ، ولها صلابة المعتقد ، وكيف تكون هذه النفوس التى ذهبت هنا شعاعاً ، وبدداً ، قادرة على إرسال قول يوحى بيقين ، ثم انظر إلى الرد الذى يستخف بهم ، وبعقولهم فى هذا الاستفهام الدال على الاستبعاد والتهكم قال : ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ ، والتَّناوُش هو التَّناوُل السهل أى الحصول على الشيء بدون معاناة ، أى كيف يحصلون على الإيمان ، ويتناولونه تناولاً سهلاً ، وهو منهم فى مكان بعيد ، وهل يستطيع القاصى عن الشيء البعيد عنه أن يتناوله بسهولة ويسر ؟ ذلك لا يكون .

وأخيراً اقرأ الآية قراءة كاملة ثم قل لى : الستَ ترى شيئاً يتكرر فيها هو قوله : ﴿ مِن مَّكَانٍ ﴾ ، وهو واقع موقع التصوير والتمثيل فيها جميعاً ؟ وأليس قوله : ﴿ يَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ مشابهاً لقوله قبل ذلك بأربع آيات : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ ، من ناحية بناء العبارة وتصوير المجاز ؟ ، ولو حاولنا أن نتتبع التراكيب وخصائصها فى السورة الواحدة ، فهل ترانا نجد بينها تشابهاً من مثل هذا ؟ وإن كان يدق أحياناً ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

لعلك تذكر أننى أشرتُ إلى هذا ، وزعمتُ أنه بحث جليل فى القرآن ، ويجب أن ينصرف طُلاب العلم إليه ، وهو يعنى تشابه خصائص التراكيب فى بناء السورة كلها ، وقد أطلقتُ عليه هناك : « تناغى التراكيب » ؛ أقصد أن بعض التراكيب يهمس إلى بعض ، وكأنها بنات فن واحد ، وأطْلَقتُ عليها أيضاً : « تَلاحُظ التراكيب » ، أى كأن بعضها يلحظ بعضاً ، أى ينظر إليه ، وأطلقت عليها أيضاً : « تنادى التراكيب » ، أى أن بعضها ينادى على بعض لشبه بينهما فى الصياغة ، وإذا كنتَ ترانى أتكلف ، فاعلم أن يقينى أننى لست من المتكلفين وأننى أكره التكلف ، وهو عندى أمارة جدب النفس والعقل ، وأننى أشعر بصدق وبوضوح أننى أمام آفاق من الدراسة الأدبية لم تفترع بعد من دراسة القرآن ، ويحوك فى نفسى حولها معان ، ولكنها لا زالت هناك غمغمات مبهمة ، وكأنها وجيب نفس ، وقد زادنى وثوقاً بهذا تأملى فى الشعر الجاهلى الذى هو معدن البلاغة الحُرَّة ، وقد رأيت فى القصيدة الواحدة صيغاً وألفاظاً وأحوالاً تركيبيّة تتشابه كأنها أخوات نفثتهن روح واحدة ، ثم عد عن ذا ، واعلم أن الرعب - كما قالوا - الانقطاع من الامتلاء بالخوف قالوا : رَعَبه يرعَبهُ كفتحه يفتحه رُعْباً بضم فسكون ، وبضمتين : أفزعه ، ولا يقال : أرعبه ، وقالوا : رجل ترعابة أى شديد الخوف ، فروقة ، ولحظوا الامتلاء فى معناه فقالوا : رَعَبَ السيلُ الوادى أى ملأه ، وقالوا : سيل راعب ، وقالوا أيضاً : سنام رعَيب ؛ أى مُمْتلىءٌ سمينٌ له ارتجاجٌ وفيه سِمنَةٌ وغلْظَةٌ ، وقالوا : عين رعيبة ، ومرعوبة ، أى فَزعَةٌ هَلعَةٌ ، ولا ترى شَيئاً إلاَ رَعَبَتْ منه ، وهو من المجاز الذى يسند فيه الفعلَ إلى الجارحة كقولهم : ناصية كاذبة ، وقولهم : قلب آثم ، والخوف والفزع أظهر ما يظهر فى العين ، وقوله : ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ فيه تصوير حى لشعور الفزع والخوف والاضطراب الذى علاهم بعد ما سقط فى أيديهم وذهب الأحزاب ، وأصبحوا وحدهم فى مواجهة محمد ﷺ وأصحابه ، وكان سيدهم كعب بن أسد فيه شىء من الأناة والحكمة ، وكأنه أحس بهذه النهاية يوم أغلق بابه فى وجه حُيَىّ بن أخطب ، وقال له : ويحك يا حُيَىّ ؛ جئتنى والله بذل الدهر ، فدعنى وما أنا عليه ، فإنى لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءً .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وقوله : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ لم يرد فى القرآن إلا فى شأن اليهود ، واحدة فى شأن بنى النضير ، وهى قوله فى أول الحشر : ﴿ هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ ، مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ (١) ، وواحدة فى شأن بنى قريظة وهى التى معنا ، ونجد فى التعبير - كما قلنا - قوة التصوير ، ودقة الكشف ، فالرعب ليس معنى شعورياً يعتلج فى النفوس ، ويمور فى الكيان ، وإنما هو شىء قد تجسَّد ، ويد القدر تقذف به فى سويداء القلوب ، فيصل منها إلى القرار البعيد ، وهذا غير التعبير بالإلقاء ، وقد قال فى شأن المشركين يوم أُحُد : ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ﴾ (٢) ، وكما قال فى يوم بدر : ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ ﴾ (٣) ، ولم يأت الرعب فى سياق الحرب فى القرآن إلا فى هذه المواضع الأربع ، وواضح أن معنى القهر والإذلال فى القذف أشد ، وانسب ، وأدق فى تصوير الموقف النفسى الذى كان عليه اليهود فى الحالين ، فإن يهود بنى النضير كانوا قد تآمروا على رسول الله ﷺ ونقضوا عهده ، فأرسل إليهم محمد بن مسلمة وقال له : اذهب إلى يهود بنى النضير وقل لهم : إن رسول الله أرسلنى إليكم : أن اخرجوا من بلادى ، لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم به من الغدر ، لقد أجَّلتكم عشراً ، فمن رئى بعد ذلك ضربتُ عنقه .

ولكن حُيَىّ الأخرق أجاب : بأنَّا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك ، فكبَّر رسول الله ﷺ وهتف : « حَارَبَتْ يهودُ » ، ثم دخلوا حصونهم التى اعتقدوا أنها مانعتهم ، كما اعتقدوا هذه الأمانى التى مناهم بها عبد الله ابن أُبَىّ ، وكان رجلاً لا يشبع من الكذب ، والنفاق ، وكان قد قال لهم هو

---

(١) الحشر : ٢ (٢) آل عمران : ١٥١ (٣) الأنفال : ١٢

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وسويد : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجتُمْ لَنَخْرُجَنَّ معكُمْ ولَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصرُنَّكُمْ ﴾ (١) ، فلما انكشفت الحقائق ، وسقطت الحصون ، وخذلهم الذين نافقوا ، امتلأت قلوبهم رعباً ، والغدر والخيانة ونقض العهد من المعانى التى هى ثمرة الجبن ، وخلاء الفؤاد ، فإذا واجه الغادر والخائن مصيره ، وأصبح فى قبضة مَنْ غدره ، ونقَضَ عهدَه انتفض رعباً وفزعاً ، ولهذا كان التعبير بقذف الرعب مناسباً ومطابقاً كما قلنا ، وشىء آخر هو أن اليهود فى الحالين كانوا فى حصونهم ، وكان من عاداتهم أنهم لا يحاربون إلا وهم فيها ، وهى عادة دالة على شدة الاحتياط ، والحذر ، وهم من بنات الجبن فى هذه البيئة التى تتمدح بالشجاعة ، والبسالة ، حتى صار لقاء الأعداء من غير درع مما يُذكر فى مدائحهم ، وإقامة البيوت فى المخاوف ، والثغور ، والمواجهة للأعداء ، والتى هى مستهدف للعدَّائين ، والفتَّاك ، والصعاليك ، من مفاخرهم ، وشعرهم فى ذلك كثير .

من ذلك قول الحادرة « قُطْبَة بن مُحْصِن » يصف بيوت رهطه بنى سعد ، وأنها أقيمت فى دار الحفاظ ، أى التى يحمونها بأنوفهم المرتعدة حَمِيَّةً وغضباً وحفاظاً يقول هذا الشاعر :

وَنُقِيمُ فِى دَارِ الْحِفَاظِ بُيُوتَنَا ... زَمَنًا وَيَظْعَنُ غيرُنَا للأمْرُعِ
بِسَبِيلِ ثَغْـرٍ لا يُسَرِّحُ أَهْلُه ... سَقِمٍ يُشَارُ لِقَاؤه بالإصْبَعِ

انظر إلى البيت الثانى وهو يصف إقامته بيوتهم فى المخاوف والثغور كأنهم لإدلالهم ، وثقتهم بأنفسهم ، يقيمونها فى المخاوف المهلكة ، وكأنهم يقيمونها فى فم الأعداء .

اليهود يتحصنون فى هذه البيئة وذلك دال كما قلنا على فرط الجبن والفزع .

---

(١) الحشر : ١١

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

أما قوله : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ (١) ، فقد نزل فى شأن أُحُد وكانت الغلبة فيها للذين أشركوا ، وقوله : ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴾ (٢) ، فقد نزل فى بدر ، وكان المشركون فيها أكثر عدداً وعُدَّة ، وكانوا يجالدون المسلمين جلاداً مكشوفاً على أرض بدر ، وواضح أن موقف المشركين فى الحالين - بدرٌ وأُحُد - مختلف عن موقف اليهود الذى وصفناه ، وقد جاء الرعب فى القرآن فى وصف فتية الكهف : ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ (٣) ، ولم يُذكر الرعب فى القرآن فى غير هذه المواقع ، هذا شيء قلناه لنبين امتلاء هذا التعبير : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ فى ضوء سياقه القرآنى ، ثم بعد ذلك نقول : إن كثيراً من المفسِّرين قالوا : إن قوله : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ سبب لإنزالهم ، والأصل أن يُقدَّم السبب على المسبب ولكنه خالف هنا : ذكر المسبب أولاً لأن السرور بإنزالهم أكثر والإخبار به أهم .

والذى أظنه خلاف هذا الذى ذكروه ، فليس قذف الرعب المذكور فى الآية هو الرعب الذى أنزلهم الله به من الحصون ، وإنما هو الرعب الذى صار فى قلوبهم بعد ما نزلوا من الحصون وصاروا فى قبضة النبى والمسلمين ، يُقَادون إلى الموت أرْسَالاً ، والرعب فى هذه الحالة يبلغ مداه ، وهو الذى عبَّر عنه القرآن بهذا التعبير الممتلىء ، والذى لم يذكره القرآن ، إلَّا فى وصف اليهود ، وقوله : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ فى سورة الحشر جاءت أيضاً مؤخَّرة عن إخراجهم من دورهم الحصينة ، التى جعلت المسلمين يظنون أنهم لن يخرجوا منها ، وجعلت اليهود يعتقدون فى حصانتها ، وراجع آية الحشر للتأكد من أن قذف الرعب جاء بعد الإخراج ، وفى تلك اللَّحظات التى نفضوا فيها أيديهم تماماً من دورهم ، وسقطت عنهم منعة هذه الحصون .

---

(١) آل عمران : ١٥١ (٢) الأنفال : ١٢ (٣) الكهف : ١٨

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وكان الإمام البقاعى على وشك أن يشير إلى هذا المعنى حين قال : ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ أى بعد الإنزال كما كان قذفه قبل الإنزال ، وهذا يعنى أن هناك رعباً نزلوا به من الحصون ، وهناك رعباً تمكن من قلوبهم بعد الإنزال ، والأجدر بالذكر هو ما كان بعد الإنزال لقوته ، وهو الذى ذكرته الآية ، والإنزال ذكر عندنا أولاً ؛ لأنه هو المقصود الأصلى فى القصة : ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ من مستتبعاته ، وقد قال الشيخ البقاعى فى ذكر الإنزال أولاً وذكر ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ بعد ، قال يُفسِّر هذا : « ولما كان الإنزال من محل التمتع عجباً ، وكان على وجوه شتَّى ، فلم يكن صريحاً فى الإذلال ، فتشوقت النفس إلى بيان حاله ، بيَّن أنه الذل ، فقال عاطفاً بالواو ليصلح بما قبل وما بعد » . . انتهى كلامه ، يريد رحمه الله أن ذكر : ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ جاء بعد قوله : ﴿ وَأَنزَلَ ﴾ لِبين أن هذا الإنزال كان إنزال عذاب ، وإذلال ، وانكسار ؛ لأن الإنزال من الحصون قد يكون إنزال غير إذلال ، وهذا الكلام لا أجد له مذاقاً ، فإن الإنزال فى هذا السياق نص فى أنه إنزال هزيمة ، وإهانة ، فلا غموض ولا تشوف ، وقوله : ﴿ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً ﴾ ، تصوير للنهاية الحاسمة ، وبيان للغرض الذى من أجله كان الإنزال والقذف ، والمضارع هنا يحضر هذه الصورة التى تشفى غيظ قلوب المؤمنين من هؤلاء الخونة الغادرين ، ويؤكد النعمة والمنة . فكأنهم عند التلاوة يصيرون فى قبضتهم ، يُعملون فيهم القتل والأسر ، أى أن الله أمكنكم من رقاب أعدائكم ، وها هم فى أيديكم تقتلون فريقاً ، وتأسرون فريقاً . وللعلامة البقاعى ملحظ خلاب فى نصب الفريق وتقديمه فى قوله : ﴿ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾ قال : فذكره بلفظ الفرقة ونصبه ليدل بادىء ذى بدء على أنهم طوع لأيدى الفاعلين ، وأحسب أن الذى أوحى إليه بهذا هو إعراب « الفريق » مفعولاً به والمفعول به فيه معنى الضعف ، والاستسلام ، لكثرة وقوع الفعل عليه .

ثم إن فى تقديم فريق القتل معنى آخر ؛ فالمقتولون هم الرجال المحاربون الذين نقضوا العهد ، وغدروا ، وهم مصدر الأذى والعنت بالنسبة

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

للمؤمنين ، وقتلهم بيان لنهاية أذاهم وغدرهم ، ولهذا كان ذكرهم أهم فقدِّموا . قال صاحب روح المعانى : وقدَّم مفعول ﴿ تَقْتُلُونَ ﴾ لأن القتل وقع على الرجال ، وكانوا مشهورين ، وكان الاعتناء بمآلهم أهم ، ولم يكن فى المأسورين هذا الاعتناء ، بل الاعتناء هناك بالأسر أشد ، وقالوا فى سر هذا البناء أيضاً ، أى فى تقديم مفعول ﴿ تَقْتُلُونَ ﴾ وتأخير مفعول ﴿ تَأْسِرُونَ ﴾ ، قالوا : غُويِرَ بين الجملتين فى النظم ، لتغاير حال الفريقين فى الواقع ، فقد قدَّم أحدهما فقُتِل ، وأخَّر الآخر فأُسِر ، وقد نظر البقاعى وكان إماماً دقيق الحس ، فوجد القوم فى الآية قد توزعوا بين القتل والأسر ، واستشعر فى لفظ « فريق » معنى الفرقة والتمزق ، وصوَّر ترتيب الكلمات فى الجملة عنده ، وقوع الفرقتين حول القتل والأسر ، وكأنه رأى فى سطور الآية صرعى القوم وأسْرَاهم ، ففى جانب القتل فريق ، وفى جانب الأسر فريق ، وقد تجاوز القتل والأسر ، وهما الفعلان اللَّذان يشفيا غليل القوم من أعدائهم ، وفريقا القوم يكتنفان هذين الفعلين ، ويقعان على حاشيتها ، قال البقاعى : وَقَدَّمَ أعْظَمَ الأثَرَيْنِ الناشئين عن الرعب ، وأوْلاهُ الأثر الآخر ، ليصير الأثرَانَ المحبوبانِ مَحفُوفَيْنِ بما يدل على الفرقة .

وتأخير المفعول فى قوله : ﴿ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً ﴾ فيه شيء آخر فوق الذى ذكرناه هو موافقته لفواصل الآيات السابقة واللاحقة ، وفى هذه الفواصل التى بُنِيت عليها السورة ألوان من التطريب ، والتنغيم ، كان لحروف المد واللين فيها أثر بعيدة المدى فى انطلاق الأنفاس الحبيسة أو اللاهثة ، فى المواقف المختلفة .

وأعتقد أن دراسة التنغيم الصوتى فى سورة الأحزاب يحتاج إلى كد واجتهاد أكثر مما نبذله فى بيان أسرار تراكيبها ، لأننا هنا نعتمد كلام الأئمة أو ننسج على منوالهم .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

أما دراسة تآلف أصوات الحروف ، وتداخل خواص هذه الأصوات ، وتولد ألحانها وإثارة بعضها لبعض ، وتكوين هذه الصورة الصوتية المتميزة ، والتى تختلف أنغامها تبعاً لاختلاف المواقف والأحوال ، فذلك لون من البحث شاق ومتسع ، ولا نحب أن نكذب على أنفسنا والناس ، فنذكر للقارىء جملة منه فى كل آية كما يفعل الدارسون للشعر حين يتبعون الجملة من الأبيات بتعليق حول أصواتها الداخلية والخارجية ، ومطابقتها للمعنى والجو النفسى ، لأن هذه التعليقات لا تفى بهذا البحث الجليل ، وأرجو أن أوفق يوماً لهذا البحث ، أو أن ينهض - أحد طُلاب العلم فى هذه الكلية التى هى أَوْلى المعاهد بدراسة هذه الجوانب القرآنية ، والمنهج فى هذه الدراسة يبين فى ضوء تلك الإشارات اللمَّاحة التى أشار إليها علماؤنا فى تحليل الشعر وصور النغم ، والفاصلة ، والبديع ، وتبعهم المرحوم مصطفى صادق الرافعى ، وتبعه آخرون ، فأوضحوا الخطة ، وعالجوا نماذج للتطبيق ، رحمهم الله جميعاً فقد أدوا حق الله وأمانة العلم .

وقد شغل بدراسة هذه الفواصل القرآنية من سَلَف هذه الأُمة مَن أضعنا حقهم وأهدرنا جهودهم بتخاذلنا ، وتراخينا ، وتكاسلنا ، وبين أيدينا الآن دراسات ضافية ومعجبة فى هذا الباب تشغل جزءاً كبيراً فى علوم القرآن وعلوم البيان . منها ذلك الجهد الطيب الذى كتبه إمام أهل زمانه « بدر الدين محمد ابن عبد الله الزركشى » ، ونظم ولخص كثيراً من الجهود السابقة ، وأودعها فى خمسين صحيفة فى كتابه « البرهان » ، وقد فاته منها الكثير ، ومنها دراسة للعلامة السيوطى ملخصة من السابقة ، ومنها دراسة لعلى بن عيسى الرمانى ، العبقرية النادرة والمغمورة فى تراثنا العظيم ، ومنها دراسة مختصرة من هذه وهى ما كتبه أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى .

وكان إهمالنا لهذا الفرع من الدراسة الأدبية فى محيط القرآن ثمرة لإهمالنا دراسة أخرى هى أصل لهذه وأم لها : أعنى دراسة التطريب الصوتى والتنغيم فى هذه اللُّغة ، والتطريب والتنغيم أصل فى سوس بناء هذه اللُّغة ، وبلاغتها ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

لأنها لُغة الأُذن والسماع ، هكذا نشأت فلم يكن أصحابها كُتَّاباً يُدوِّنون فتُقرأ لغتهم ، وإنما كانوا حُفَّاظاً يحفظونها ، فتُروى وتُسمع ، وتَأنَّقوا فى أصواتهم أناقة مدهشة ، ومعجبة ، لتهش لها القلوب فتحفظها وتعيها ، ولتطرب لها الأسماع حين تضرب بأنغامها العذاب أوتار النفوس ، فتجيش بها الأرواح ، لا أريد أن أفيض فى هذا فقد كتب فيه رجال بررة بهذه اللُّغة ، وأريد أن أنبه فقط إلى أن علم الأصوات فى لغتنا لا ينبغى أن يسير فى فلك علم الأصوات العام عند الأوروبيين الذين نأخذ عنهم أخذ الكسيح العاجز ، ولا ينبغى أن نُفرِغ جهدنا فى هذا التقليد المخزى ، أو التلخيص المشوه ، الذى لا يستحى منه رجال فرضتهم أيام حمقاء على عقول شباب الأمة ، فكانوا عليها غشاوة وعبئاً من ضباب ثقيل ، وإنما ينبغى أن يتوفر علم الأصوات عندنا على اكتناه هذه المفاتن الحسان ، التى تكمن فى تلاقى حروف هذه اللُّغة ، وتصويرها لمعانيها ، وإثارتها كوامن الحس ، وكشف ينابيع الشعور ، وبعث أطياف الذكريات والأحلام فى عوالم النفس المتراحبة والسخية . ولنا فى تراثنا بدايات طيبة ونافعة ، لو رزقنا الله فهمها ، وكلام ابن جنى فى هذا الباب ثرى ومشهور ، وسيبويه النحوى الشامخ يلتفت هو أيضاً قبل ابن جنى إلى عناية العرب فى لغتهم بالتطريب ، ويتجاوز ذلك فيذكر أنهم حين يتطربون يتجاوزون أصول النحو المشهورة فيمدون الصوت بالفتحة فيتولد منها الألف ، ويمدون الكسرة للتطريب فيتولد منها الياء ، ويمدون الضمة للتطريب فيتولد منها الواو ، وعد عن ذا ، واسمع كلمة الإمام الرافعى فى الفاصلة - والرافعى فى تقديرنا أحد القمم التى لم تطق عقولنا الراهنة وعى تراثه ، وتمثل منهجه - قال : « وما هذه الفواصل التى تنتهى بها آيات القرآن إلا صورة تامة للأبعاد التى تنتهى بها جمل الموسيقى ، وهى متفقة مع آياتها فى قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت ، والوجه الذى يُساق عليه بما ليس وراءه فى العجب مذهب ؛ وتراها أكثر ما تنتهى بالنون والميم ، وهما الحرفان الطبيعيان فى الموسيقى نفسها ، أو بالمد وهو كذلك طبيعى فى القرار ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

فإن لم تنته بواحدة من هذه كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى ، كان ذلك متابعة لصوت الجملة ، وتقطيع كلماتها ، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه به ، وأليق بموضعه ، وعلى أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده إلا فى الجمل القصار ، ولا يكون إلا بحرف قوى يستتبع القلقلة ، أو الصفير ، أو نحوهما ، مما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقى ، وهذه هى طريقة الاستهواء الصوتى فى اللُّغة ، وأثرها طبيعى فى كل نفس ، وتأمل علم التجويد وعلم التلاوة وعلم الإنشاد .

قلت : إن قوله : ﴿ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وتَأْسِرُونَ فَرِيقاً ﴾ بيان للنهاية الحاسمة التى مُنِىَ بها بنو قريظة جزاء غدرهم وخيانتهم ، وتروى لنا الصدِّيقة رضى الله عنها : أنه لما لحق أبو سفيان ومَن معه بتهامة ، ولحق عُيَيْنَة بن بدر ، ومَن معه بنجد ، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا فى صياصيهم ، رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وأمر بقُبَّةٍ من أدم فضُرِبت على سعد رضى الله عنه فى المسجد ، قالت : فجاءه جبريل عليه السلام وإن على ثناياه لنقع الغبار ، فقال : أوَ قد وضعتَ السلاحَ ؟ لا والله ما وضعتْ الملائكة بعد السلاح ، اخرج إلى بنى قريظة فقاتلهم . . قالت : فَلَبِسَ رسول الله ﷺ لأمته ، وأذَّنَ فى الناس بالرحيل أن يخرجوا ، فمرَّ على بنى تميم وهم جيران المسجد فقال : « مَن مَرَّ بكم » ؟ قالوا : مرَّ بنا دحية الكلبى ، وكان دحية الكلبى يشبه لحيته ، وسنه ، ووجهه جبريل عليه السلام ، فأتاهم الرسول عليه الصلاة والسلام ، فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة . فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر ، فأشار إليهم أنه الذبح ، قالوا : ننزل على حكم سعد بن معاذ رضى الله عنه ، فأُتِىَ به على حمار ، عليه إكاف من ليف ، قد حُمِل عليه ، وحَفَّ به قومه ، فقالوا : يا أبا عمرو ؛ حلفاؤك ، ومواليك ، وأهل الكتاب . فلا يرجع إليهم شيئاً ولا يلتفت إليهم ، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه ، فقال : قد آن لى ألا أبالى فى الله لومة لائم ، قالت : قال أبو سعيد : فلما طلع

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى سيدكم » ، فأنزلوه ، فقال عمر رضى الله عنه : سيدنا الله ورسوله ، قال : « أنزلوه » ، فأنزلوه .

قال رسول الله ﷺ : « احكم فيهم » ، قال سعد رضى الله عنه : فإنى أحكم فيهم أن تُقتَل مقاتليهم ، وتُسبَى ذراريهم ، وتُقسَم أموالهم ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد حكمتَ فيهم بحكم الله تعالى وحكم رسوله » .

وتروى كتب السير أن رسول الله ﷺ لما خرج إليهم أعطى الراية لعلىّ ، فتوجَّه إليهم ، وابتدرها الناس حتى إذا ما دنا من الحصون ، سمع منهم مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ فرجع حتى لقيه عليه الصلاة والسلام ، فقال : يا رسول الله ؛ لا عليك أن تدنو من هؤلاء الأخابث ، قال : « لِمَ ؟ أظنك سمعت لى منهم أذى » ، قال : نعم يا رسول الله ، قال : « لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئاً » ، فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال : « يا إخوان القِرَدة ؛ هل أخزاكم الله تعالى وأنزل بكم نقمته » ؟ قالوا : يا أبا القاسم ؛ ما كنت جهولاً ، وفى رواية : فحّاشاً .

وقالوا : إنهم لما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم ، قال لهم كعب - وكان رجلاً به فضل من عقل - : يا معشر اليهود ؛ قد نزل بكم من الأمر ما لا ترون ، وإنى عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا أيها شئتم ، قالوا : وما هى ؟ قال : نتابع هذا الرجل ، ونُصدِّقه ، فوالله لقد تبين لكم أنه نبى مرسل ، وأنه الذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون على دمائكم ، وأموالكم ، وأبنائكم ، ونسائكم ، قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبداً ، ولا نستبدل به غيره ، قال : فإذا أبيتم علىَّ هذه فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه ، رجالاً مُصْلتِينَ بالسيوف ، لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله تعالى بيننا وبينهم ، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه ، وإن نظهر فلعمرى لنتخذنَّ من النساء والأبناء . قالوا : نقتل هؤلاء المساكين ، فما خير العيش بعدهم ؟ قال : فإن أبيتم علىَّ هذه ، فإن الليلة

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ليلة السبت ، وأنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها ، فانزلوا لعلنا نصيب منهم غِرَّة ، قالوا : نُفسِدُ سَبْتَنَا ، ونُحدث فيه ما لم يُحْدِث مَن كان قبلنا إلا مَن قد علمت ، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ ، قال : فما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً ، ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر ، أخا بنى عمرو ابن عوف - وكانوا حلفاء الأوس - نستشيره ، فأرسله عليه الصلاة والسلام إليهم ، فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه فرَّق لهم ، وقالوا له : يا أبا لبابة ؛ أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقه : إنه الذبح ، فعرف أنه قد خان الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام ، فلم يرجع إلى رسول الله ﷺ وذهب إلى المدينة ، وربط نفسه بجذع فى المسجد حتى نزلت توبته رضى الله تعالى عنه ، ثم إنه عليه السلام لما استنزلهم من حصونهم تواثب الأوس ، فقالوا : يا رسول الله ؛ إنهم موالينا دون الخزرج ، وقد فعلتَ فى موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت ، وكان رسول الله ﷺ قبل بنى قريظة حاصر بنى قينقاع ، وقد كانوا حلفاء الخزرج فنزلوا على حكمه ، فسأله إياهم عبد الله بن أُبَىّ ، فوهبهم له ، فلما كلمته الأوس قال عليه الصلاة والسلام : « ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم » ؟ قالوا : بلى ، قال : « فذلك إلى سعد بن معاذ » ، ورضى اليهود بسعد ، وقيل : إنهم هم الذين قالوا : ننزل على حكم سعد ، ورضى رسول الله ﷺ بذلك ، وكان سعد قد ذهب إليهم لما انتهى إلى المسلمين خبر انضمامهم إلى الأحزاب ، ونقضهم العهد ، وكان معه سعد ابن عبادة سيد الخزرج ، وفى رفقتهما عبد الله بن رواحة ، وخوات بن جبير ، فوجدوا القوم على أسوأ نية وأخبث حال ، وكان سعد ابن معاذ سريع الغضب فشاتمهم وشاتموه ، فقال له سعد بن عبادة : يا سعد ؛ دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أكبر من المشاتمة ، ورأى سعد فى هذا اللِّقاء أن غدر اليهود يوشك أن يُسلم المسلمين إلى أعدائهم ، فيُعْمِلُوا فيهم القتل

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

والأسر ، أو يوقعوا بهم مذبحة شاملة تستأصلهم جميعاً ، وكان من خبر بنى قريظة - بعد الحكم - أن رسول الله ﷺ حبسهم فى دار بنت الحارث - امرأة من بنى النجار - وخرج إلى سوق المدينة التى هى سوقها اليوم فخندق بها خنادق ، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم فى تلك الخنادق يخرج إليهم بهم أرسالاً ، وفيهم عدو الله حُيَىّ بن أخطب وكعب بن أسد ، وقد قالوا لكعب - وهم يُذهب بهم إلى رسول الله ﷺ - : يا كعب ؛ ما تراه يصنع بنا ؟

وقال : أفى كل موطن لا تعقلون ؟ أما تَرَوْنَ الداعىَ لا ينزع ، ومَن ذهب منكم لا يرجع ، هو واللهِ القتل .

فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ .

وأُتِىَ بحُيَىّ بن أخطب مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ، فنظر إليه رسول الله صلىَ الله عليه وسلم وقال : « ألم يخزك الله يا حُيَىّ » ؟

فأجاب حُيَىّ : كل نفس ذائقة الموت ، ولى أجل لا أعدوه ، والله ما لمتُ نفسى فى عداوتك ، ولكنه مَن يخذل الله يُخذل ، ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس ؛ إنه لا بأس بأمر الله تعالى ، كتاب وقدر ، ملحمة كُتِبت على بنى إسرائيل .

وقد حاول بعض المغرضين من المؤرخين غير المسلمين أن يصفوا هذا الحكم وتنفيذه بالقسوة ، والجور ، وهذا يصح لو أن محمداً عليه السلام أعمل سيفه فيهم ، وأبادهم من غير أن يكون منهم هذه الخيانة . ولكن محمداً الذى يوصى بدماء أهل الذِّمَّة ويغضب حين يُظْلَم أحدهم ، أو تُمَس كرامته ، لم يكن له أن يبيد قبيلة بأسرها إلا بعد هذه الجريمة التى لو تمت كما دبَّروا لها لذُبِحَ فيها محمد وأصحابه ، ونجد من المؤرخين غير المسلمين مَن أنصف الحقيقة ، ووضعها موضعها من أحداث التاريخ ، ونعتمد هنا ما كتبه صاحب روح الإسلام نقلاً عن « ستانلى بول » يقول : « كان ذلك الحكم دموياً صارماً يليق بجنرالات الجيش الرومانى ضد الألْبِيِّن . . . ولكنه يجب أن يذكر

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

المرء بأن جريمة هؤلاء اليهود كانت الخيانة العظمى ضد الدولة ، وفى الحين الذى يحاصرها فيه عدو قوى ، ثم يضيف « ستانلى » قائلاً : وأولئك الذين قرأوا عن زحف اللُّورد « ويلفتون » واطلعوا فيه على أن طريق الزحف كان يمكن تقصيها بجثث الفارِّين والمفسدين معلّقة على الأشجار لا يدهشون من إبادة عشيرة خائنة » .

ويذكر « أمير على » الموعظة المسيحية التى تقول : من الخير أن يموت الشرير مائة ميتة على أن يفسد البرىء فى الانضمام إلى زمرته ، ويقول مخاطباً كُتَّاب السيرة من المسيحيين المتحاملين : إن موقف محمد صلوات الله عليه لم يتجاوز الحدود التى رسمتها هذه الموعظة . ويذكر الأمر الذى أصدره « كرومويل » للقيام بذبح سكان مدينة « دورجيدا » الأيرلنديين ، وكان « كرومويل » جندياً يسعى فى أعماقه أنه أحد جنود الله العادل وعياً يوائم الروح العسكرية ، كان جندياً مسلحاً رهيباً كالموت ، قاسياً كالقدر ، ينفذ حكم الله فى أعدائه .

ثم ذكر العلامة رأيه فى هذا الحكم وتنفيذه فيقول : ونحن على كل حال لا نميل إلى النظر إلى عقوبة أولئك اليهود من أى من زاويتى النظر السابقتين ، وإنما ننظر إليها ببساطة على أنها كانت عملاً يتفق تمام الاتفاق مع قوانين الحرب التى تفهمها أمم ذلك العصر ، إنها كانت تطبيقاً صارماً للعادات المتعارف عليها فى الحرب أثناء تلك الأيام ، لقد صارت تلك الجماعة نفسها إلى مصيرها ، ولو تم قتل أفرادها جميعاً ، وحتى دون حكم سعد لكان ذلك مسايرة للمبادىء السائدة فى عصرهم ، لكنهم أنفسهم قد اختاروا سعداً يتحكم فى مصيرهم ، وكانوا يعرفون أن حكمه لا يمكن أن يخالف الأُصول المرعية فلم يتذمروا منه أو يشتكوا ، كانوا يعلمون أنهم لو كُتِب لهم النجاح لذبحوا أعداءهم دون أية شفقة ، والناس يحكمون على المذابح التى قام بها الملك « داود » على ضوء العصر الذى عاشت فيه ، لقد عامل الأمونيين المغلوبين بوحشية أشد ، فمزَّق بعضهم ، وشقَّق البعض الآخر بالفؤوس والمحاريث ، ونشر عظام بعضهم نشراً ، وهناك آخرون شواهم أحياء ، فى

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

تنانير من الطوب ، وحتى المذابح الوحشية التى اقترفها المسيحيون فى عهودهم الأولى يُنظر إليها على أضواء خاصة ، فلماذا لا يجرى ذلك على الحروب الدفاعية التى قام بها المسلمون الأولون ؟

وأعتقد أنه قد وضح الآن أنه لا قسوة ولا عنف ولا دموية . والقارىء لسيرة النبى ﷺ يرى أنه كان يذوب فى نفسه رحمة ، وشفقة ، فقد روت الكتب الصحيحة أنه عليه السلام لم ينتقم لنفسه قط ، وأنه لم يضرب بيده أحداً قط ، لا امرأة ، ولا خادماً ، إلا أن يكون فى جهاد ، فإذا هو أقرب المحاربين إلى العدو . ويروى الإمام مسلم أنه هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة فى السلاح من قِبَل التنعيم ، يريدون غرة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وما كان إلا أن أُخِذوا فى الأسر ، ثم عفا عنهم عليه السلام جميعاً من بعد أن صاروا فى قبضته ، وكان أكثر الناس بِرآ بمن يعاهد ، ويوصى أصحابه المسلمين بحفظ العهد ، وحُرْمة زمامه ، ويؤكد أن مَن آذى ذِميًا فليس منا ، ويغضب حتى يُعرف الغضب فى وجهه إذا استخف مسلم بحرمة معاهد ، وقد نهى أن يُفرِّق بين أُم وولدها فى سبايا بنى قريظة ، وقال : « مَنْ فرَّق بين والدة وولدها فرَّق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة » .

ولكن الأمر مع بنى قريظة أمر بقاء الدعوة أو ضياعها ، وكيف يأمنهم وقد صار العهد لا يعطى معهم أماناً ، وقد مَنَّ على بنى النضير قبلهم ، وأمَّنهم على دمائهم ، وذَراريهم ، وحملوا ما شاءوا من مال وطعام ، فكافؤوه بتأليب قريش ، وغطفان ، وأسد ، وقبائل العرب جميعاً ، وعرَّضوا دعوته لأخطر هجوم من أكبر جيش يجمع بطون عدنان ، وكان هذا القرار جزاءً وفاقاً لما صنع بنو قريظة ، ومثلاً حياً لبطون اليهود الذين لا يفتأون يناوئون المسلمين بمكايدهم وغدرهم .

* *

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وقوله : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُهَا ﴾ ، جاء معطوفاً على قوله : ﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم ﴾ وتابعاً له من حيث المعنى ، فإذا كان إنزالهم ، وقتلهم ، بياناً لنهايتهم ، فإن هذا بيان لما آلت إليه أموالهم وأسلابهم ، وجاء قوله : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ ﴾ مناسباً لقوله : ﴿ تَقْتُلُونَ ﴾ ، وقال : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ ، وكان يمكن أن يفيد ذلك بقوله : ﴿ أَمْوَالَهُمْ ﴾ والمال - كما قالوا - ما ملكته من جميع الأشياء ، قالوا : مَالَ الرجل يَمُول ؛ كثُر مالُه ، ورجل مِيلٌ ؛ أى ذو مال ، وامرأة ميلة ؛ أى ذات مال ، وفى حديث مصعب بن عمير قالت له أمه : والله لا ألْبسُ خماراً ، ولا أستظل أبداً ، ولا آكل ، ولا أشرب ، حتى تدع ما أنت عليه ، وكانت امرأة ميلَةً . والمال أصله « موَل » تحركت الواو ، وانفتح ما قبلها ، فقلبت ألفاً ، فصارت مالاً ؛ وكنت أعجب من هذا الافتراض الصرفى ، ولا أجد له فى نفسى وعقلى اقتناعاً ، أعنى قولهم : إن مال : أصلها مول تحركت الواو ... وكان : أصلها كَوَن ، وقال : أصلها قول ... إلى آخر هذه الصيغ ، وأقول فى نفسى : ما الذى أدرَانَا أنَّ « كان » أصلها : كون ، أو « قال » : أصلها قول ، ومتى كان هذا الأصل الغريب ، وهل وجدنا فى الشعر القديم « قَوَلَ » يراد بها قال ، أى هل وقف النحاة والصرفيون على استعمال أصلى قديم ، أرشدهم إلى الصيغة تدرَّجَتْ منه أو تَطَوَّرَتْ - كما يقول المشتغلون بالدراسات المقارنة - إلى ما هى عليه الآن ، أم أنهم بنوا هذا الافتراض ناظرين إلى الصيغ الأخرى للكلمة ، أى أنهم وجدوا كلمة قَوْل - بسكون الواو - مصدر « قال » ، فاعتقدوا أن الألف أصلها الواو ، ووجدوا كذلك كلمة كَوْنَ مصدر « كان » .

كان هذا يدور فى نفسى ، ثم رأيت فى بعض الدراسات للنقوش الحميرية القديمة ما يفيد أن كثيراً من هذه الفروض التى افترضها الصرفيون كانت استعمالات قديمة فى مرحلة سابقة ، ثم تدرجت الصيغ متجهة نحو الخفة ، والتشذيب ، فكان هذا القلب ، فمثلاً نجد فى النقوش الحميرية القديمة كلمة « عَدَوَ » بثلاث فتحات بمعنى : اجتاز ، وكلمة « كَوَنَ » بثلاث فتحات أيضاً

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

بمعنى : كان ، واستعملت هذه الصيغ فى هذا العهد الذى يسبق بعثة النبى ﷺ بأكثر من عشرة قرون ، وهذا يؤكد لنا أن هذه الفروض الصرفية لم تكن فروضاً فى الحقيقة ، وإنما هى استعمالات قديمة ، وصيغ اسْتُعْمِلت ، ولست أدرى هل كان هذا لقانة من الصرفيين ، وإلهاماً لقُرب عهدهم باللُّغة ؟ أو كان عندهم علم لم يُدوِّنوه لنا ، لأنه متصل بهذه اللُّغات القديمة ، والكلمات الثقيلة التى أسقطها الرواة ، ونعرف من أخبارها لُمعاً يسيرة ، كقولهم : إن للطويل ثلاثين لفظاً ، كل واحد منهم يدل عليه ، وقد أهملت كلها وبقى لفظ الطويل لخفته ؟ أعنى هل سكتوا عن مول ، وقول ، وكون - بثلاث فتحات - كما سكتوا عن الحيزبون ، والعنتريس وبابهما ، وعن الثلاثين التى تدل على الطويل ؟

علم ذلك عند ربى ، قلت هذا لتبصروا الأعماق البعيدة لهذه العلل الصرفية ، ولقانة رجال هذه اللُّغة الأوائل ، راجياً أن تعظم فى قلوبكم هذه اللُّغة وتراثها العظيم ، وألا تظنوا أننا نضرب فى الوهم حين نقول : مال أصلها مول ، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً .

والمهم عندنا أنه قال : ﴿ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ ولم يكتف بأن يقول : « أموالهم » ؛ لأن المقام تذكير بالنعمة ، فاقتضى شيئاً من البسط من ذِكْرِ هذه النعم ، وتعديدها ، ليكون ذلك أدعى إلى شكرها ، وتنكير الأرض ، ووصفها فى قوله : ﴿ لَمْ تَطَؤُوهَا ﴾ تفخيم لهذه الأرض ، وقد ذهب المفسِّرون فى بيانها مذاهب ، فقال مقاتل : هى خيبر ، فُتِحت بعد بنى قريظة ، وقال قتادة : هى مكة ، وقال الحسن : هى أرض الروم وفارس ، وقال عكرمة : هى ما ظهر عليه المسلمون إلى يوم القيامة ، وقال عروة : لا أحسبها إلا كل أرض فتحها الله على المسلمين ، أو هو فاتحها إلى يوم القيامة ، وفى ظنى أن وصف هذه الأرض بقوله : ﴿ لَمْ تَطَؤُوهَا ﴾ يبعد أن تكون خيبر ، وأن تكون مكة ، فإن هذه أرضهم قد وَطِئوا ، وفى ظنى أيضاً أن هذا وعد من الله لهم بهذه الممالك التى بسط الإسلام عليها سلطانه ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وقامت فيها دولة المسلمين ، وفتوحاتهم ، وفى تنكيرها ووصفها بهذا الوصف المشعر بأنها أرض لا عهد لهم بها ، إشارة إلى أنها أرض طيبة ، يتجلى فيها سلطانكم ، وتكون لكم فيها الغلبة والدولة .

ويذكر صاحب روح المعانى أن تقديم الأرض فى قوله : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ ﴾ للأهمية ، والمراد بها مزارعهم ، وأعتقد أن الأهمية هنا ليست مطلقة ، فإن أرض بنى قريظة ليست أهم من الأرض التى لم يطؤوها على أى وجه من وجوه التفاسير ، سواء أكانت مكة ، أو مزارع خيبر اليانعة ، أو أرض الفتوحات الكبرى ، وإنما هى أهمية مقيَّدة بالمقام الذى كانوا فيه ، فإن أرض بنى قريظة ، وحصونهم ، وأموالهم ، كانت نافعة لهم نفعاً عاجلاً ، وقوله : ﴿ وَدِيَارَهُمْ ﴾ من عطف الخاص على العام ، فإن الديار داخلة فى الأرض ، ولا مبرر لتفسيرها بالمزارع كما ذهبوا ، وقوله : ﴿ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ تعميم بعد هذا التخصيص ، يُكْسِب الكلام قوة ورصانة ، وشىء آخر يجعل أرض بنى قريظة ذات قيمة فى هذا الموقف ، فقد كان المهاجرون فى المدينة ولا أرض لهم .

وقد روى أن رسول الله ﷺ جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار ، فقالت الأنصار فى ذلك ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إنكم فى منازلكم » وقد بعث سعد بن زيد الأنصارى بطائفة من سبايا بنى قريظة إلى نجد ، فابتاع بها خيلاً ، وسلاحاً ، زيادة فى قوة المسلمين .

وقوله : ﴿ لَمْ تَطَؤُهَا ﴾ من قولهم : وَطِىءَ الشىءَ يطؤه ؛ دَاسَهُ ، وقالوا : وَطُؤَ كَكَرُمَ فهو وطىء ، أى صار على حالة لينة ، والوطأة الضغطة ، وفى الحديث : « اللّهم اشدد وطأتك على مُضَر » أى أغْلُظ عليهم وأثقل عليهم ، وقالوا : فلان وَطِىءُ الخُلُق ؛ أى لَيِّنٌ هَيِّنٌ ، كما قالوا : موطأ الأكناف ؛ أى دمث كريم .

قال سيبويه : وطىء يطأ كَوَرِمَ يَرِمُ - بكسر العين فيهما - ولكنهم فتحوا

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

يَفْعَلَ - أى فتحوا عين المضارع ، وأصله الكسر - كما قالوا : قرأ يقرأ ، لأنه حرف حلق ، قال فى اللّسان : وإنما ذهبت الواو من يطأ فلم تثبت كما فى وجل يوجل - بكسر العين فى الماضى وفتحها فى المضارع - لأن وَطِىءَ يطأ بُنِىَ على تَوَهُّم فَعِلَ يَفْعِلُ - بالكسر فيهما - مثل وَرِم يَرِمُ .

غير أن الحرف الذى يكون فى موضع اللام من « يفعل » فى هذا الحد ، إذا كان من حروف الحلق الستة ، فإن أكثر ذلك عند العرب مفتوح .

وقوله : ﴿ وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُهَا ﴾ معطوف على قوله : ﴿ أَرْضَهُمْ ﴾ واستشكل بأن الإرث حقيقة بالنسبة إلى المعطوف عليه لأن الله قد أورثهم أرض بنى قريظة ، وليس الإرث حقيقة بالنسبة للأرض التى لم يطؤوها ، وقت نزول الآية ، إنما هو وعد . وهذا يعنى أن قوله : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ ﴾ استعمل حقيقة فيما ورّثهم من أرض بنى قريظة ، ومجازاً فى الأرض التى وعدهم بإرثها ، واستعمال الكلمة فى معنى حقيقى ، ومعنى مجازى ممَّا وَقَعَتْ فيه المُشَاحَّةُ ، وأجيب بأن قوله : ﴿ أَوْرَثَكُمْ ﴾ مستعمل فى معنى أورثكم فى علمه وتقديره ، وهذا متحقق فيما وقع من الإرث ، كأرضهم ، وديارهم ، وأموالهم ، وفيما لم يقع ، أى ما لم يكن مفتوحاً وقت نزول الآية ، هكذا قالوا .

والحق أن كثيراً من الأساليب العالية جاء على هذه الطريقة ، انظر إلى قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (١) ، ولعنة الله إبعاد ، ولعنة الملائكة والناس دعاء بالإبعاد ، وقد جمعها فى لفظة واحدة ، وقوله : ﴿ هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ (٢) ، والصلاة من الله يُراد بها إجابة الدعاء ، فهى مجاز ، والصلاة من الملائكة معناها الدعاء ، وهو استعمال حقيقى ، وقد جاءت كلمة ﴿ يُصَلِّى ﴾ مفيدة للمعنيين . ولم يهتم

---

(١) البقرة : ١٦١ (٢) الأحزاب : ٤٣

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

البلاغيون فى مشهور كتبهم بدراسة هذا الموضوع ؛ لأن القرائن ودلالات السياق تعين على بيان المراد ، وإنما عنى بهذا البحث الأصوليون وفاضوا فيه ، لأنه موصول باستنباط الأحكام ، فترى الشافعى رضى الله عنه يقول بجواز الجمع بين الحقيقة والمجاز ، ومثله الإمام الغزالى ، وهو أيضاً رأى المعتزلة ، إلا الزمخشرى ، فإنه لا يجيز استعمال الكلمة فى معنى حقيقى ، وآخر مجازى ، وقد عرض لهذا الموضوع صاحب كتاب « الفوائد » ولم يحقق القول فيه .

وانظر فى فاعل هذه الأفعال : ﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ . . ﴾ (١) ، ﴿ وكَفَى اللهُ . . . ﴾ (٢) ، ﴿ وأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم . . . . ﴾ (٣) ، ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ . . . ﴾ (٤) .

وقد قلنا من قبل : إن المسلمين كان لهم بلاء فى هذا الموقف أى بلاء ، ولم يقفوا عاجزين منتظرين دفع الله عنهم ، وإنما جالدوا ، واندفعوا فى الكفاح اندفاعاً قوياً ، فمنهم مَن قضى نحبه ، ومنهم مَن ينتظر ، وقد رأينا فتًى كعلىّ بن أبى طالب يناجز شيطان اللِّقاء عمرو بن وُدّ ، ولا نريد أن نكرر ما ذكرناه مما يصف الموقف الصادق فى اللِّقاء ، وفى التدبير والإحكام ، فإذا كان للمسلمين جلاد وكفاح وتدبير وبسالة ردوا به كيد أعدائهم ، فلماذا جاء التعبير القرآنى على هذه الصورة التى تُفيد أن الله سبحانه هو الذى ردّ الأحزاب ، وأنه هو الذى أنزل بنى قريظة ، وأنه هو الذى أورثهم أرضهم وديارهم ؟

أقول : جاء القرآن على هذه الصوة ليشير إلى موقف العابد من المعبود ، ويشرح حقيقة الصلة بين رب هذه الرسالة ، وحُماتها فى هذه الأرض ، فهو مصدر عونهم ، ومددهم ، وحَوْلهم ، وقوتهم ، ما داموا قد ألقوا بقلوبهم ، وأيديهم ، وعقولهم ، فى ميدان الكفاح ، وأخذ العُدَّة ، وهذا هو مصدر الشجاعة ، والتضحية ، والأمل ، وكأن الله يفعل حين يفعل

---

(١) ، (٢) الأحزاب : ٢٥ (٣) ، (٤) الأحزاب : ٢٦

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

المؤمن ؛ وكأن المؤمن سَوْط القدر ، يُنزله الله على أعدائه ، فأعماله كلها منسوبة إلى هذا المصدر الأعلى ، لأنه جند من جنوده ، وواحد يعمل فى كتيبة الله ، وحين يتعمق هذا الشعور فى نفس المسلم ، تراه إنساناً قد انطلقت كل قدراته ، فصار قوة فاعلة فى هذا الوجود ؛ فإن كان فى صفوف السياسة ، رأيته بصيراً ، نافذاً ، كَيِّساً يرى بنور الحق . وإن كان فى صفوف الجهاد ، رأيته باسلاً ، ومدبِّراً ، فى ذكاء ، وإشراق وتضحية وفداء . وإن كان فى ميدان العلم رأيته راهباً من رهبان البحث ، يصبر الصبر الجميل فى تقصى الحقائق ، والكشف عن اللُّباب ، لا يثنيه فى كل ذلك يأس ، ولا يقنطه عجز يرفه عن شعوره الإحساس العميق بأن كل شىء فى يد الله ، وأن الأمر مرده إليه ، وراء هذا الإسناد إذاً إشارة إلى مصدر الطاقة ، والقوة ، والخصوبة ، فى النفوس المؤمنة التى تعمل بيد الله ، وراء هذا الإسناد إحساس بالسكينة الروحية ، المؤمنة ، الآمنة ، المستسلمة لله فى كل شىء ، وناهيك عن سكينة الروح ، وأثرها فى حيوية طاقات النفس ، وقدراتها العجيبة ، وتفجير ينابيع الحكمة والرشاد فى القلوب الآمنة ، هذا الإسناد مهماز يثير القدرات كلها ويوجهها نحو الخير .

ويقول المرحوم الدكتور عبد الله دراز : « إن خضوع المتدين لمعبوده ، وإن كان خضوعاً كلياً لقوة قاهرة ، ليس هو ذلك الخضوع الذى يخلق اليأس ، ويكبت النفس ، ويفل من الجهد ، ويحد مجال العمل ، ويسد باب الأمل ، بل هو شعور يُرَفِّه عن القلب بما يفتحه أمامه من آفاق الإمكان ، هو شعور يضع عن النفس الأثقال ، ويحطم ما حولها من الأغلال ، وتكاد لا تعثر فى لغته على كلمة المحال ، فإذا اشتدت الأزمات ، وضاقت الحلقات ، أمام المتدين تراءى له من خلالها أبواب ، ومخارج ، ليس دون انفراجها إلا أن يأذن معبوده » .

ونرى القرآن فى كثير من مواضعه يعمق هذا الإحساس فى نفس المسلم فتراه يقول : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

رَمَى﴾ (١) ، وماذا تقول فى هذا الرامى الذى يعتقد بيقينه أن الله يرمى برميه أو أنه يرمى بيد الله ، وأنه يقتل أعداء الحق بيد الحق التى لا تُغْلَب .

لقد ذهب جماعة من جهلة الملحدين وآخرون من جهلة النصارى إلى أن هذه الصور تعمق فى نفس المسلم شعور الاتكال على القَدَرِ المجهول ، وتدفعه إلى الجمود ، والتفويض ، والتسليم ، وجعلوا هذا فى الإسلام عِلَّة لسقوط دولة المسلمين ، وذهاب ريحهم فى هذا الزمان ، ثم تكون نصيحتهم بعد ذلك لهذه الأمة إن أرادت أن تأخذ بأسباب النهوض أن تخلع عن أعناقها رِبقة هذا الدين ، وأن تنصرف عنه ، هكذا يقولون ، والحقيقة أنهم رأوا هذا الدين عقبة كؤداً حالت دون استسلام الشرق لحركة الاستعمار والتبشير المسيحى ، وعقبة كؤداً حالت دون استسلام الشرق لضلالات الملاحدة الذين أنكروا الأديان كلها ، وقد عاد هذا الفكر وسُمِّىَ فكر التنوير ويروِّج له أحفاد الملاحدة وأحفاد ضُلال النصارى ويسانده مَن على شاكلتهم فى الفكر والاتجاه ، ولكن هذا كله لا يزيد الإيمان فى شرائح المجتمع إلا سعة وعمقاً ، وإن الله لينصر هذا الدين بالرجل الفاجر ، والمهم أنهم فَسَّروا هذه الأساليب فى القرآن هذا التفسير ، وحمَّلُوها تبعة التخلف ، والانحطاط الذى آل إليه أمر المسلمين ، وهذا تعسف وإبطال ، فقد ذكرنا وجه تفسيرها ، وبيَّنا كيف تكون مصدر طاقة وقوة ، وقد كانت كذلك حين كان أمر الدنيا يخضع لأمر الدين فى مجتمع المسلمين ، أما الآن فقد لبس المسلمون الدين كما يُلبس الفَرْو مقلوباً كما قال علىّ كرَّم الله وجهه ، وهؤلاء الذين حمَّلوا هذه الآيات وأمثالها تبعة تخلف المسلمين يقرؤون فى الإنجيل مثل قوله : « لا تسقط شعرة من رؤوسكم إلا بأمر أبيكم السماوى » ، ويقرؤون ما يغل الأيدى ، ويحبس الطاقة ، من مثل قول المسيح عليه السلام : « دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ، وغير ذلك مما يملأ القلب شعوراً بالضآلة وقلَّة الشأن فى هذا

---

(١) الأنفال : ١٧

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الوجود ، وليس هذا نقضاً منا لما صح عن المسيح صلوات الله عليه ، فإنه نبى الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، ومن جوهر عقيدتنا أن نُذْعِن لكل ما صح عن موسى وعيسى وغيرهم من أنبياء الله جميعاً ، ولكن لنا فى فهمه وتوجيهه رأى يرشدنا إليه ظروف الرسالة ، والمرسل إليهم ، وإذا حَلَّلْنا أقوال المسيح فى ضوء الفهم العميق لسلوك اليهود المادى ، والأخلاقى ، فى مجتمع الدولة الرومانية ، وجدناه يستأصل بمواعظه شأفة الداء ، حين يدعو إلى الزهد ، ونفض اليدين من الدنيا ، وترك ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ؛ لأن قومه كانوا يأكلون حق الله وحق القيصر - أقول : إنهم يقرؤون هذا ومثله ، ولا يحملونه تبعة التخلف والانحطاط الذى عاشت فيه أوروبا قروناً قبل نهضتها ، ويقول العلّامة « شكيب أرسلان » : « ولا تجد فى الإفرنج الذين هم مُغْرَمُون بالعمل ، وهائمون وراء الكسب ، وينكرون القضاء والقدر فى الجملة ، إلّا مَن يقرأ الإنجيل الشريف ، ويُقدِّسه ، ويعجب بمادته السامية ، فما بالهم نسوا ما فيه من آيات القضاء والقدر ؟ وما بالهم لم يصفوا أقوال المسيح صلوات الله عليه بالجبرية » ؟

والعجيب أن ضُلال المسلمين والنصارى لا يفتحون فمهم بكلمة حول هذا ، وإنما الكل يتكلم فى الإسلام حتى القسُّ بُطْرُس تعلَّم الاجتهاد من الفقه .

ونفهم من قوله : ﴿ أَوْرَثَكُمْ ﴾ : أن هذه الأرض صارت ميراثاً للمسلمين ولن تعود إلى اليهود إلا إذا بُعِث الميت من قبره ، وأخذ ما فى يد وارثه ، ولا أظن ذلك كائناً ، نعم قد يضيع هذا الميراث من يد وارثه ، إذا عجز عن حفظه ، وضعف عن حراسته ، والناس من حوله يتأهبون ليتخطفوه من كل جهة ، والله سبحانه لن يحفظ لنا هذا الميراث إلا إذا كان موقفنا من حفظه وحراسته ، كموقف آبائنا من غُنْمه ، وحيازته ، وهذا يقتضى منا كفاحاً وجِلاداً لعصرنا ، لا يختلف فى أسلوبه وطريقته عن كفاح أجدادنا وجِلادهم ، أى أنهم أعدوا لعدوهم عُدَّة عصرهم ، فقد وجب علينا أن نُعد لأعدائنا عُدَّة هذا العصر التى تحفظ لنا الشَوْكة ، والغلبة ، ولن يكون ذلك إلا إذا بايع الشباب

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

المسلم ربه بَيعَةً يختار فيها ما عند الله على ما عند الناس ، وينصرف إلى الجهاد فى شتَّى ميادينه بهمة لا تعرف الملل ، وعليك أنت فى ميدانك أن تُحسن طلب العلم ، وأن تصبر فى تثقيف قلبك ونفسك صبراً لا يعرف الملل ، عليك أن تستوعب تيَّارات هذا العصر ، وأن تستوضح كُليَّات هذا الدين ، ومبادئه العامة ، وأن تَتَفَقَّه فى مسائله ، ومواقفه إزاء كل موقف ومشكلة من مشكلات العصر ، محاولاً أن تُخضع الحياة لأمر الدين ، ومعتقداً أنه من الوثنية فى الإسلام ، والجاهلية فيه ، أن تشكل الإسلام بشكل الدنيا ، وأن تبحث فى مطاويه عن مُبرِّرَات وتمحلات لما تأتى به سخافات العصر ، وضلالات السياسة ، والفكر ، ولم يكدر صفو الإسلام إلا هذه الضلالات التى ساقها إليه أدعياء المفكرين ، الذين يبررون الضلال الفكرى ، والسياسى ، والاجتماعى ، والاقتصادى ، بمتخاذل الأقاويل ، التى يلتقطونها من هامش التاريخ الذى يروى هو أيضاً كثيراً من الآراء المدخولة والساقطة ؛ وحين نقرأ تاريخ الأديان نجد أن الوثنية قد تسللت إلى المسيحية بحذلقة المؤوِّلين ، الذين أدخلوا على شريعة المسيح وثنية اليونان ، لما وجدوها غالبة على العقول فى عصرهم ، وعَقَّدُوا بذلك بَسَاطَةَ التوحيد التى دعا إليها المسيح .

ومن قبلهم فعل اليهود حين نهض فلاسفتهم يُفسِّرون التوراة فى ضوء هذه الثقافة ، وقد نهض رجال مخلصون فى تاريخ هذين الدينين العظيمين ، وناهضوا هذه التفسيرات .

يقول « إسبينوزا » الفيلسوف اليهودى الهولندى ، فى رسالته « اللَّاهوت والسياسة » : « إن الكتاب المقدَّس قد شَقِىَ بمن سلَّطوا عليه التأويل ، فى جرأة ، لا تجدها لهم إزاء كتاب غيره » .

ولو قال مسلم فى القرآن ما قاله هذا اللَّاهوتى فى الكتاب المقدَّس لم يخطىء الحقيقة ، فإن القرآن قد شَقِىَ بهذه التفسيرات التى تحاول أن تمده ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

فى غير وجهته ليكون جوازاً شرعياً لكل ضلالة ، ويبالغ القديس الأديب « توماس الأكوينى » فيرفض كل معنى ذكروه فى تفسير الإنجيل ، ما عدا المعنى الحرفى .

قلت هذا لتحفظوا للقرآن حُرْمته وتصونوا له قداسته ، ولتحذروا هذا الكلام الخبيث الذى يروج له الملحدون وضُلال النصارى ، وتركيزهم على ما يسمونه الفكر الإسلامى المستنير ، ويُراد به كل محاولة تحاول أن تجد تبريراً شرعياً لصيغ الحضارة الأوروبية المسيحية ، وهذا يؤول فى النهاية إلى غرس أو زرع المسيحية فى عصب الإسلام .

ثم إنه من الواضح أن هذه الأرض التى أورثهم الله إياها كانت ملكاً لليهود ، ويذكر بعض المؤرخين أن بنى النضير وبنى قريظة عرب من ولد عدنان دخلوا فى اليهودية - يقول صاحب روح الإسلام : وتفيأ اليهود فى كنف العرب ظلال الأمن والحماية بعد أن طُرِدوا من أوطانهم فى عهد الأشوريين ، واليونان ، والرومان ، على التوالى ، ولكنهم حين فروا بدينهم إلى جزيرة العرب لم ينسوا روح النضال المرير الذى جلب عليهم كثيراً من النكبات ، ونجحوا مع ذلك فى تهويد عدد لا يُستهان به من العرب ، وفى بدء الدعوة المحمدية دخل فى دين اليهودية عدد يُذكر من أبناء حِميَر ، ومن كِنْدة ، وولد كهلان ، كما دخل فيه بنو قريظة ، والنضير فى خيبر ، ويثرب ، وهما قبيلتان من بنى إسماعيل ، ولكنهم استعربوا منذ زمن سحيق .. وقد يكون هذا الرأى متأثراً بما ذكر ياقوت فى معجمه من أن يهود يثرب عرب تهوَّدوا .

ويذكر بعض المؤرخين أن يهود بنى قريظة والنضير من أسباط بنى إسرائيل ، هاجر أجدادهم فى التاريخ القديم بعد أن طُرِدوا من أوطانهم فى عهد الأشوريين واليونان والرومان .

يقول العلاَّمة الخضر حسين : لليهود فى جزيرة العرب - على ما يقول بعض الكاتبين فى تاريخها - طوران ، أولهما : كان لبطون من اليهود نزلوا

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

بلاد العرب ، وانتهى هذا الطور فى القرن الخامس قبل ميلاد المسيح ، ثانيهما : ابتدأ فى القرن الأول والثانى بعد ميلاد المسيح ، ذلك أن جموعاً كثيرة من اليهود هاجروا من فلسطين إلى البلاد العربية ، فنزل اليهود فى شمال الحجاز بيثرب ، وأرض خيبر ، ووادى القرى ، وتيماء ، واتخذوا الحصون ، والآطام ، على رؤوس الجبال . ومَن دخل فى اليهودية من العرب : طوائف من بنى كنانة ، وبنى كندة ، وبنى نمير ، وكانت هذه التبائل مجاورة لمواطن اليهود بيثرب وأم القرى وتيماء . .

وقال الجاحظ : ومعظم اليهود إنما كانوا بيثرب ، وتيماء ، ووادى القرى ، من ولد هارون دون العرب .

وفى كتاب أبى الفرج أنه لما ظهرت الروم على بنى إسرائيل جميعاً فى الشام فوطئوهم ، وقتلوهم ، ونكحوا نساءهم ، خرج بنو النضير ، وبنو قريظة ، وبنو بهدل ، هاربين منهم .

ويقول العلامة ابن كثير المفسِّر المؤرِّخ فى تفسير قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ : يعنى بنى قريظة من اليهود ، ومن بعض بنى إسرائيل ، كان نزل آباؤهم الحجاز قديماً ، طمعاً فى اتباع النبى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة .

وهذا هو الرأى الذى نميل إليه ، ولدينا من الحجج ما يكاد يكون قاطعاً بصحته ، من ذلك ما قاله كعب بن أسد سيد بنى قريظة لقومه ، وهم فى الحصون : « يا معشر اليهود ؛ نتابع هذا الرجل ونُصدِّقه ، فوالله لقد تبين لكم أنه النبى الذى تجدونه فى كتابكم ، وأن المدينة دار هجرته ، وما منعنا من الدخول معه إلا الحسد للعرب ، حيث لم يكن من بنى إسرائيل ، ولقد كنت كارهاً لنقض العهد ، ولم يكن البلاء والشؤم إلا من هذا الجالس - يعنى حُيَىّ ابن أخطب » . ويبدو أن هذا واضح فى دلالته على أن بنى قريظة ليسوا من العرب ، وأنهم حسدوا العرب على أن كان منهم نبى ، ولم يكن من بنى إسرائيل .

ومن ذلك قول حُيَىّ بن أخطب وهو يُقاد إلى الموت : أيها الناس ؛ إنه لا بأس بأمر الله تعالى ، كتاب وقدر ، وملحمة ، كُتبت على بنى إسرائيل .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

والرسول عليه السلام يقول : « يا إخوان القردة ، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته » ؟

وأبو سفيان يقول : ألا أرانى أستعين بإخوة القردة .

ويقول محب الدين الخطيب فى التعريف بأم المؤمنين صفية بنت حُيَىّ رضى الله عنها قال : وواحدة غير عربية ، من بنى إسرائيل وهى صفية بنت حُيَىّ بن أخطب من بنى النضير .. ويروى فى كتابه « السمط الثمين » عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال لما بلغ صفية : أن حفصة رضى الله عنها قالت : بنت يهودى ، فبكت ، فدخل عليها رسول الله ﷺ وهى تبكى فقال : « ما يبكيك » ؟ قال : قالت لى حفصة بنت عمر إنى ابنة يهودى ، فقال النبى ﷺ : « إنك لابنة نبى ، وإن عمك لنبى ، وإنك لتحت نبى ، ففيم تفخر عليك » ، ثم قال : « اتقِّ الله يا حفصة » .

وقد أخرج الترمذى عن صفية هذه القصة قالت : دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغنى عن عائشة وحفصة كلام ، فذكرتُ ذلك له ، فقال : « ألا قلت : فكيف يكونان خيراً منى ، وزوجى محمد ، وأبى هارون ، وعمى موسى » صلوات الله وسلامه عليهم .

وهذه أدلة تراها قوية وواضحة ، ولا يُحتاج بعدها إلى شىء ، وبقى أن أشير إلى أن ما نراه من هذا الشعور القوى بالانتماء ، بين اليهود فى جزيرة العرب - وهو شعور قوى جداً ، حتى إن رسول الله ﷺ قد مَنَّ على بعضهم فى هذه الواقعة ولكنهم رفضوا البقاء ، وطلبوا أن ينفذ فيهم حكم القتل ، كما نفذ فى إخوتهم - أقول : إن هذا الشعور القوى بالانتماء لم تكن الديانة اليهودية أساساً له ؛ لأنهم فى الواقع ليسوا متدينين ، ولو فتشنا فى نفوسهم لوجدناها خالية من التقدير والإيمان العميق بالشريعة الموسوية . فالتوراة التى هى دليل روحى لمن يفهم مقاصدها ، ومراميها ، ويتبعها من كل قلبه ونفسه ، لم تؤثر فى سلوكهم ، ولم تهذب أخلاقهم ، وعوائدهم ، ولم تعصمهم كما قلنا ، وكما قال كاتبهم « إسرائيل ولفنسن » من مناصرتهم

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الوثنية على التوحيد . وقد وصفهم « الأنبا غبريال » وصفاً دقيقاً فى كتابه « الأدب الدينى » ، فقال : وكان علماؤهم يقيمون مراسم الدين ، وطقوسه ، ولكنهم ما كانوا يهتمون بمعانيها الروحية ، ولا بمراميها المقدسة ، لهذا كانوا بالظاهر متعصبين ومتدينين ، ولكن من الداخل كانوا مُدنَّسين ومتعجرفين ، بالظاهر خدمة لله ، وفى الداخل عَبَدة شهواتهم ، يؤدون العشور الشرعية ، ولكنهم فى أخلاقهم كانوا طماعين ، وعَبَدة مال .

أقول : إن هذا الانتماء الشديد لم يكن مبعثه عقيدة اليهودية وحدها ، وإنما كانت عوامل أخرى منها هذا الشعور الذى تشعر به الجماعات المضطهدة والتى تعانى معاً قسوة النزوح والهجرة .

ويشير أحمد أمين إلى اضطراب الآراء فى بيان أصل اليهود الذين عاصروا محمداً ﷺ فى الجزيرة ، فيقول : انتشرت اليهودية فى جزيرة العرب قبل الإسلام ، وتكوَّنت فيها مستعمرات يهودية ، وأشهرها يثرب ، وهى التى سميت بعد بالمدينة ، ولكن مَن هم هؤلاء اليهود فى جزيرة العرب ؟ هل هم من عنصر يهودى ؟ أم عرب تهوَّدوا ؟ وإن كانت الأولى فمن أين أتوا ؟ هل أتوا من فلسطين ، أو من غيرها ، اضطربت الأخبار فى ذلك ، ويظهر أن الصنفين كانا موجودين فى الجزيرة ، يهود نزحوا وعرب تهوَّدوا .

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (الآيتان : ٢٨ - ٢٩) .

* *

قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ ﴾ ناداه فيه سبحانه بوصف النبوة لأن المقام مقام إنباء لأزواجه وتبليغ بالاختيار ، وفى وصف النبوة إشارة إلى عظمة قدره ومكانته ، وأنه هو النبى المنبَّأ من قِبَل الله أو المنبىء عن الله ، وليس فى

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

مراتب الشرف أفضل من هذا ، وإلى الثانى يرجع شرف العلماء لأنهم يُبلِّغون عن الله ويُنبِّئون خلقه نبأه سبحانه ، وهذا هو إرث النبوة فيهم ، وهذه الإشارة لجلال مكانة النبى لها أهمية فى هذا السياق ، لأن هذا التخيير فى تصورنا إشارة إلى أن كل نفس رهينة بما تُقدِّم من خير أو شر فى هذا الوجود ، فكلٌ مأخوذ بكسب يده ، لا يُغنى أحد عن أحد شيئاً ، حتى إن هذا النبى الجليل القدر ، العظيم المكانة عند الله ، والذى يُنبىء الأرض بخبر السماء ، لا يُغنى شيئاً عن أزواجه اللائى يخالطهن أتم مخالطة ويعاشرهن أدق معاشرة ، واللائى يُهدهدن آلامه ويُذهبن عنه ما يجده من عناء الدعوة لله الواحد ، ومواجهة هذه الوثنية العاتية ، وهذه الجاهلية الحمقاء .

هذا النبى لا يُغنى عن نسائه من الله شيئاً ، وإنما تنهض كل واحدة منهن عند الله بما قدَّمت يداها ، من عمل صالح وتمثل لدعوة الحق واستمساك بالدين الحنيف .

وقوله : ﴿ قُل لِّأَزْوَاجِكَ ﴾ ، وقع فيه الأمر بعد النداء ، وإنَّ سبق الأمر بالنداء فيه دلالة على كمال العناية بهذا الأمر ، من حيث كان النداء تنبيهاً ، وإيقاظاً ، وتهيئة ، للعقل والحس ، حتى يتلقى هذا الأمر تلقياً واعياً . وقد كثر هذا الأسلوب فى كتاب الله للعناية بهذه الأوامر ، وبثها فى النفوس ، وهى يقظة واعية . . وشىء آخر فى أساليب النداء فى القرآن ، هو حرص القرآن على إيقاظ الإنسان ، وبعث وعيه ، واستثاره حسه ، وشعوره ، وملكاته ، ونفى الغفلة والركود والجمود ، وكل ما هو من هذا الباب عن حياة هذا الإنسان الذى سخَّر الله له كبريات آياته فى ملكوت الأرض والسماء . . وشىء آخر فى هذا الأمر هو صرف الكلام عن مخاطبة أزواج النبى ﷺ خطاباً مباشراً فى هذا المقام اللائى يُخيَرنَّ فيه بين الله ورسوله والدار الآخرة ، والحياة الدنيا ، حتى يكون الخيار خياراً خالصاً يُترك فيه الأمر لمحض إرادة المخيَّر وفكره ، فقد يكون فى إقبال الله عليهن بالخطاب ما يُحبِّبُ إليهن اختيار

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الله ورسوله ، ولهذا قدَّم فى الاختيار قوله : ﴿ إن كُنتنَّ تُرِدنَ الحَيَاةَ الدُّنيَا وَزِينَتَهَا ﴾ على قوله : ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ ﴾ .

وإرادة الحياة الدنيا وزينتها جاء فى هذا المقام مقابلاً لإرادة الله ورسوله والدار الآخرة ، وهذا لا يعنى أن إرادة الله ورسوله تعنى أن نترك الدنيا لغيرنا وأن ندع عمارة الأرض وأن نعيش على هامش الحياة ، أجراء عسفاء ، كيف والخَيريَّة فينا : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّة ﴾ (١) ، ولن تكون الخيرية فى أمة مغلوبة وفى مجموعة من الجهلة والغوغاء .

ونحب أن نقف هنا قليلاً لنلقى بعض الضوء على أشياء نرى من الضرورى أن تكون واضحة فى وعى ناشئة المسلمين ، ذلك هو أن إرادة الحياة الدنيا التى يُزَهِّد القرآن فيها ليست هى الرغبة فى الانتفاع بما أودع الله فى هذا الكون مما يعود على الإنسان بالسعادة والرفاهية والتقدم ، أى ليست هى الرغبة فى عمارة الكون وتطوير حياة الإنسان المادية والمعنوية ، فى سلم الحضارة والرقى ، بل الإسلام يحض على هذا حضاً ويحث عليه حثاً ، وليس مما يدخل فى حيز التزهيد فى الحياة الدنيا ، ويراه جزءاً من الدين ، فإن الله الذى أمرنا أن نضرب فى الأرض وسخَّر لنا ملكوتها وسخَّر لنا الشمس ، والقمر ، والنجوم ، لا يرضى إلا أن تنطلق عقولنا وأيدينا فى هذا الكون ، تفتش فيه عن أسرار نِعَم الله ، وأسرار آياته ، وإنه بمقدار ما نبذل من الجهد فى هذا الكون ، وبمقدار ما نكتشف من مطاوى النِعَم التى تعود على الإنسان من أسرار هذا الوجود ، يكون وعينا لآيات القرآن التى ترشدنا إلى تكريم الإنسان ، واستعلائه ، وتسخير الأرض ، والسماء ، والنجوم ، والشمس ، والقمر ، كل ذلك لهذا الإنسان ، وبهذا يصبح درس الكيمياء والطبيعة والفلك والرياضة والتشريح والبَيُولُوجى والفضاء دروساً دينية ، كدرس التوحيد ، والفقه ، والتفسير ، وبهذا يكون البحث العلمى فى دولة الإسلام فرضاً من فروض الدين ، وتكون مراكز هذه الأبحاث دور عبادة كمعاهد الفقه

---

(١) آل عمران : ١١٠

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

والتفسير والتوحيد ، وكالمساجد ، وحافز البحث والكشف فى هذه المراكز حافز دينى ، والهجرة إليه هجرة لله ولرسوله ، فعلماء الكون والطبيعة هنا عابدون يشيع فى جوهم الخير ، والطُهْر ، والنور ، قِبْلَتهم هى الله وصالح الإنسان .

أما إرادة الحياة وزينتها التى يُزَهِّد فيها القرآن ، فهى الانغماس فى الملاذ والشهوات الحيوانية التى تضاد إنسانية الإنسان وتَنْزِلُ به ولا ترتفع ، هى البهيمية المعطِّلة لطاقات الإنسان ، وكلمة الدنيا - هنا - وصف من الدنو والالتصاق بالتراب ، والأرض ، والجسدية ، والطين ، والانصراف وراء الشهوات ، ولم يكن للقرآن أن يذم الحياة أو يُزَهِّد فيها ؛ لأن دعوة القرآن هى دعوة الحياة ، لأن الله جعل آدم فى الأرض خليفة ، وخلافة الله لا تكون فى حياة ذميمة ، وأن الجد فى الدنيا جد فى عمارة الكون ، وهو من أفضل ما يُعبد الله به ، بشرط دوام الصلة بالله والتسليم له والاحتساب عنده .

قال تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ (١) ، والحياة صفة من صفات الجلال سبحانه ، فهو الحى القيوم ، وإنما يُزَهِّد القرآن كما قلت فى الحياة الدنيا الهابطة ، وحين نقول الانغماس فى الشهوات ، وملذَّات الجسد ، والنفوس المادية ، والمظلمة ، لا نريد بذلك سقطات الجنس ، ودنس لذَّاته فحسب ، كما يتبادر إلى الأذهان عند ذكر هذه العبارات ، وإنما نريد به كل انحراف عن جادة الأخلاق ، والقِيَم الإنسانية العليا ، التى أكَّدتها الأديان كلها ، فهؤلاء الانتهازيون الذين يركضون وراء أنانيتهم ، ويدورون فى فلك نفوسهم الضيقة ، وأهوائهم الخاصة ، هم مُرْتَضِخُون فى هذا الخبال ، ومثلهم أولئك المحافظون الذين لا يضربون على أيديهم ، ولا يجتهدون فى تطهير الجماعة الإنسانية من دنسهم وأنانيتهم ، فى حدود فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإن المسلم لا تبرأ ذمَّته عند الله إذا حفظ القِيَم الإنسانية والأخلاق القرآنية فى حياته فحسب ، وإنما تبرأ ذِمَّته إذا كان مع ذلك حارساً

---

(١) الأنعام : ١٢٢

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

عليها ، ضارباً على أيدى العابثين بها ، هو فى الأولى عبد من عباد الله ، وهو فى الثانية واحد من جنود الله ، وكل ذلك تحكمه الضوابط الشرعية وليست غوغائية العامة .

وقوله : ﴿ وَزِينَتَهَا ﴾ إنما هو تزهيد فى زينتها هى ، أى زينة الدنيا الهابطة التى مرَّ بياننا لها ، وليس تزهيداً فى زينة الحياة مطلقاً ، لأن الزينة فى دين الله ليست حراماً ، وقد أنكر القرآن بأسلوب قوى تحريم زينة الحياة ، تجد ذلك فى نبرة هذا الأسلوب الظاهر : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (١) ، وزينة الله زينة مضافة إليه سبحانه ، فهى الزينة التى أصلها الطُهْر ، والنقاء ، والقرآن يخاطب البَشرية كلها ، ويأمرها بأن تأخذ زينتها ، فيقول : ﴿ يَا بَنِى آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (٢) ، وفيه إشارة إلى أن ارتياد المساجد والكون عندها من مظان الزينة والإقبال على الحياة من الأخيار الأطهار الذين وفّروا لأنفسهم حياة طيبة كريمة تجللها الزينة وترفع قيمها العندية عند بيوت الله وطلب مرضاته وابتغاء وجهه .

وانظر إلى التعبير بقوله : ﴿ تُرِدْنَ ﴾ والإرادة معناها أن يتجه الهم كله ، وأن تتجه النفس بكلياتها إلى الحياة الدنيا وزينتها ، ويكمن فى هذا التعبير سر التزهيد فيها ، والانحراف عن الدين عند خلوص الهم والإرادة إليها ، لأن الإنسان فى هذه الحالة سوف يقصر نظره ، ويتركز على الأرض ، والطين ، فلا يستشرف إلى غيرها من القيَم العليا ، والآفاق المضيئة ، التى تلهمه النقاء ، والطُهْر ، وتمده بالوعى المتفتح ، وتخرج به من دائرة الأنانية الضيقة ، والفردية العفنة ، إلى الأفق الإنسانى الأعلى ، وأؤكد أن القرآن لا يُزَهِّد المسلم فى الدنيا ، بمعنى أنه يأمره بأن يكرهها ويوليها ظهره ، بل القرآن يأمره أمراً علويا حاسماً بأن يطأ بأقدامه مناكب الأرض ، وأن يُخرج منها كل طيب من الرزق المشتهَى ، وكل زينة ، ورياش ، وأن يُعدَّ فيها الغلبة والقوة ، التى

---

(١) الأعراف : ٣٢ (٢) الأعراف : ٣١

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

يُرهب بها عدو الخير والحق وإنسانية الإنسان ، وهل يكون لك بنفض اليدين من الدنيا ، والانصراف عنها ، والتغنى بأناشيد الموت والفناء ؟ وحين نقرأ فى كتب الإسلام عبارات التجرد إلى الله ، وطلب ما عنده ، وخلوص القلب ، والنفس إليه ، يحسن بنا أن نقف قليلاً لنحرر فهمنا لهذه الأفكار ، وإياك أن يلتبس فى ذهنك أن هذه دعوة إلى الهروب من الحياة ، والانجذاب الأعمى نحو الموت ، وإنما يجب أن نفهم أن المراد بالتجرد إلى الله هو عمارة هذا الوجود ، وتحقيق معنى خلافة الله فى هذه الأرض ، والكد بالعقل ، واليد ، جرياً وراء التفقه فى آيات الله ، بالبحث فى أسرار القدرة فى الأرض ، والسماء ، والكواكب التى تسبح فى هذا الفضاء ، أما الهروب من الدنيا ، والركض نحو الفناء ، فسلبية وإبطال ، وليس منه شىء فى كتابنا ، ولا فى سُنَّة نبينا ، ولا فى سيرة أئمة هذا الدين . والذى فى الدين أن غمس اليد فى جوف الأرض ، والعمل فى مناجمها ، وصبغ اليد فى استخراج دفائنها ، أبَرُّ عند بعض الفقهاء من صلاة النافلة .

وقوله : ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾ : نلحظ فى كلمة « تعالين » حين نتعمق معناه إشارة خصبة لأنه لا يفيد الأمر بالإقبال فحسب ، وإنما هو إقبال فيه سمو ، وارتفاع ، وفيه أيضاً خلوص واندفاع ، كأنه قال : أقبلن غير صاغرات ، وأقبلن بمحض إرادتكن ، واختياركن ، على حد قولهم : أقبل يُخاصمنى ، وذهب يكلمنى ، وقام يهددنى . . فالتعبير فى هذا يفيد أن الفاعل منصرف إلى الفعل انصرافاً كاملاً ، بمحض إرادته ، واختياره . قال صاحب اللسان : وقالوا فى النداء : تعال أى أعْلُ ، ولا يُستعمل فى غير الأمر ، وقال الراغب : و« تَعَالَ » ، قيل : أصله أن يُدعى الإنسان إلى مكان مرتفع ، ثم جُعِل للدعاء إلى كل مكان ، قال بعضهم : أصله من العلو ، وهو ارتفاع المنزلة ، فكأنه دُعِىَ إلى ما فيه رفعة ، كقولك : افعل كذا غير صاغر ، تشريفاً للمفعول ، وعلى ذلك قال تعالى :

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

﴿ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا ﴾ (١) ، ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ﴾ (٢) ، ويشير الأزهرى إلى خروجها فى الاستعمال عن الأصل الذى هو الدعاء إلى مكان مرتفع فيقول العرب فى النداء للرجل : تعال ، وللاثنين : تعاليا ، وللرجال : تعالوا ، وللمرأة : تعالَىْ ، وللنساء : تعالَيْنَ ، ولا يبالون أن يكون المدعو فى مكان أعلى من مكان الداعى ، أو مكان دونه .

وهذا المعنى فى سياقنا يؤكد لأزواج النبى عليه السلام حرية الاختيار ، ويدفع عنهن كل خاطر من خواطر الإغراء ، أو التهديد ، أو الإرغام ، فكأنه يضاف إلى ما قلناه فى سر قوله : ﴿ قُل لأَزْوَاجِكَ ﴾ وعدم توجه الخطاب من المولى إليهن مباشرة ، ويضاف إلى هذا ، أى إلى تأكيد حرية الاختيار ، تقديم المتاع على التسريح ، لأن التسريح هو الطلاق ، والتمتيع إعطاء المتعة ، وتقديم المتاع الى التسريح يكاد يكون ضرباً من الإغراء ، وقد جاء فى الآيات المقابلة : ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارُ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴾ فذكر : ﴿ أَجْراً عَظِيماً ﴾ قد أعدّه ذو الجلال بنفسه وهو وعد أى وعد ، ولم يذكر فى اختيار الدنيا وزينتها وعيداً ؛ أى لم يقل : فإن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فإن الله أعدّ لكنّ عذاباً عظيماً ، وذلك لشدة الاحتياط والمحافظة على حرية الاختيار ، وقد أشار إلى هذا المعنى العلامة الألوسى ، فقال : وتجريد الشرطية الأولى عن الوعيد للمبالغة فى تحقيق معنى التخيير ، والاحتراز عن شائبة الإكراه ، قيل : وهو السر فى تقديم التمتيع على التسريح . وعلينا أن نُحكم فهم هذا حتى نستيقن أنه لا إكراه فى دين ، ولا إكراه فى طاعة ، وأن سبيل الله أرفع شأناً من أن يكره أحد إليه ، وإنما الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة حتى تكون الطاعة مصحوبة بالإقبال الحىّ والقلب الحىّ .

وقوله : ﴿ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ ﴾ ولم يقل : أعد لَكُنَّ ، لأنه جعل مناط

---

(١) آل عمران : ٦١ (٢) آل عمران : ٦٤

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الوعد على الإحسان ، والعمل النافع . والمتعة - كما قلنا - ومثلها المتاع ، ما يعطى للمُطلَّقة لتنتفع به فى مدة عِدَّتها ، والعرب تقول : أمتعتُ المرأة ومتعتها أى أعطيتها المتعة ، ولم يستعمل القرآن : أمتعتها ، وإنما جاء فيه « متَّع » بالتشديد ، قال تعالى : ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ﴾ (١) ، وأصل المادة من المتوع وهو الامتداد والارتفاع ، تقول : متع النبات ، أى ارتفع ، وكأن المتاع لوحظ فيه امتداد وقت الانتفاع به ، ومتعة المُطلَّقة عند سعيد بن جبير ، حق مفروض لكل مُطلَّقة ، وكذلك عند الحسن ، إلا المختلعة والملاعنة ، وهى عند أبى حنيفة فرض للمُطلَّقة غير المدخول بها التى لم يُفرض لها فى العقد ، ومستحَبة لسائر المُطلَّقات غيرها ، ويُستقصى بحث هذا فى علم الفروع . والتسريح - الذى هو الطلاق - مستعار من تسريح الإبل ، لأنه يترتب على كل منها الإرسال والذهاب ، ومثله فى ذلك الطلاق فإنه مستعار من إطلاق الإبل أى حل قيدها وإرسالها ، والتسريح فعل مشتق من السرح وهو شجر له ثمر ، الواحدة : سرحة ، قال الراغب : سرحت الإبل أصله أن ترعيه السَّرْحَ أى تجعله يرعاه ، ثم جُعِل لكل إرسال فى الرعى ، والرجوع بالكلمة إلى أصل استعمالها من البحوث اللُّغوية التى تستهوينا ، وخاصة حين ترجع بنا إلى أحوال البداوة فى تاريخ أصحاب هذا اللِّسان ، ولا يستطيع أن ينهض بهذا كل باحث ؛ لأن النظر فيه محتاج إلى فطنة ، وذكاء ، وخبرة لُغوية وتاريخية واسعة ، ومن خير ما قرأنا فى هذا الباب بحث قِيِّم للعلامة المرحوم العقاد نشره فى الجزء الثامن من مجلة مجمع اللُّغة ، وكان عجيب الذكاء فى البحث عن أصل المعانى والرجوع بها إلى دلالتها الأولى ، وقد انتفع به كثير من الدارسين ولم يشيروا إليه .

و« السراح الجميل » فسَّره بعضهم بالطلاق السُّنِّى الذى لا ضرر فيه ، أى أنه

---

(١) البقرة : ٢٣٦

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

عليه السلام يُسرِّحهن فى طُهْرٍ لم يمسسهن فيه ، وقال صاحب مجمع البيان من تفسير « السراح الجميل » : إنه الطلاق الخالى عن الخصومة والمشاجرة .

وقد روى أكثر المفسِّرين أن سبب نزول هذه الآية مطالبة نسائه عليه السلام بمزيد من النفقة ، وذلك اعتماداً على ما رواه مسلم والنسائى وابن مردويه وغيرهم . قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو ، حدثنا زكريا بن إسحاق ، عن ابن الزبير ، عن جابر رضى الله عنه قال : أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن رسول الله ﷺ ، والناس ببابه جلوس ، والنبى صلى الله عليه وسلم جالس فلم يُؤذَن له ، ثم أقبل عمر رضى الله عنه فاستأذن فلم يُؤذَن له ، ثم أُذِنَ لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما فدخلا ، والنبى ﷺ جالس ، وحوله نساؤه ، وهو - صلى الله عليه وسلم - ساكت ، فقال عمر رضى الله عنه : لأكلمن النبى ﷺ لعله يضحك ، فقال عمر رضى الله عنه : يا رسول الله ؛ لو رأيتَ ابنة زيد - امرأة عمر - ألتنى النفقة آنفاً ، فوجأتُ عنقها ، فضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه - وقال : « هن حولى يسألننى النفقة » ، فقام أبو بكر رضى الله عنه إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر رضى الله عنه إلى حفصة كلاهما يقولان : تسألان النبى ﷺ ما ليس عنده ، فنهاهما رسول الله ﷺ ، فقلن : والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده ، قال : وأنزل الله عَزَّ وجَلَّ الخيار ، فبدأ بعائشة رضى الله عنها ، فقال : « إنى أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك » ، قالت : وما هو ؟ قال : فتلا عليها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لأَزْوَاجِكَ ﴾ . . . الآية ، قالت عائشة رضى الله عنها : أفيك أستأمر أبوىَّ ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله ، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترتُ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى لم يبعثنى مُعَنِّفاً ولكن بعثنى مُعلِّماً مُيسِّراً ، لا تسألنى امرأة منهن عما أخذتِ إلا أخبرتها » ، قال ابن كثير فى تخريج هذا الحديث : انفرد بإخراجه مسلم ، دون البخارى ، فرواه هو والنسائى من حديث زكريا بن إسحاق المكى .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وقد كان رسول الله ﷺ يأخذ نفسه وأهله بسيرة شاقة فى الزهد وخشونة العيش ، لم نعهد شبيهاً لها فى حياة أحد من البَشر ، روى الشيخان عن عائشة رضى الله عنها قالت : « ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين ، حتى قُبِضَ رسول الله ﷺ » ، ولم يكن رسول الله ﷺ فقيراً مدقعاً كما يُفهم من ظاهر هذا القول ، وإنما كان يجود بما عنده ، ويُؤثر على نفسه ، لأنه اختار هذا الأسلوب ليضرب بذلك المثل لحملة رسالة الحق فى أمته ، كأنه يقول لنا : يجب أن يكون أداء رسالة الخير فوق مطالب الحياة والعيش ، ويجب أن تزهد نفوس أهل البلاغ إلا فيما يُقرِّبها إلى الله زُلفَى ، وعائشة رضى الله عنها التى تروى لنا هذا الحديث الذى يصف هذه الحياة الشاقة ، تقول فى رواية البيهقى : « ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام متوالية ، ولو شئنا لشبعنا ، ولكنه كان يؤثر على نفسه » ، فلم يكن الرسول فى ضيق المال ، ولكنه كان يكون المال بين يديه ، ويُؤثر به ذَوِى الحاجات ، منصرفاً هو إلى غايته . وحياة الرسول فى هذا الباب كما قلنا مثل لدعاة الخير وحَمَلة الرسالة من بعده ، وحين يُشغل دعاة رسالة السماء بحطام الأرض فهم كذبة حين يزعمون أنهم دعاة ، والرسول عليه الصلاة والسلام يصف لنا تجرده لدعوة الخير وصفاً رفيعاً ، فيقول فيما روته عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سأل عنى ، أوْ سَرَّهُ أن ينظر إلىّ ، فلينظر إلى أشْعَثَ ، شاحب ، مُشَمِّر ، لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة ، رُفِع له عَلَم فشمر إليه ، اليوم المضمار ، وغداً السبَّاق ، والغاية الجنة أو النار » (الحديث رواه الطبرانى فى الأوسط) .

أرأيت ذلك الأشعث الشاحب المشمِّر ؟ أرأيت الاندفاع نحو العلَم ؟ أرأيت الانهماك فى المضمار ؟ ذلك هو داع الخير ؟ وذلك هو محمد عليه السلام .

كان هذا الأسلوب الشاق من شأنه أن يشق على نسائه ، فلسن فى مرتبة النبوة ، وكنَّ يعرفن أن هذا الضرب من الحياة لم يكن قد فرضه الله على

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

رسوله وأهل بيته ، فكانت تنزع نفوسهن أحياناً إلى التخفف من هذه القسوة على النفس ، ولا يعنى هذا أنهن طالبن رسول الله بعد ما فتح الله عليه ذخائر بنى قريظة والنضير بألوان من ترف الحياة ومتعها ، وأن يكن كنساء كسرى وقيصر ، فإن أمهات المؤمنين كنَّ أعرف الناس بالفروق بين زعامة قيصرية أو كسروية ، وتاريخ جديد للبَشرية ، يصنعه ذلك الأشعث المشمِّر الذى كُنَّ يعشن فى أحضانه ، صلوات الله وسلامه عليه ، ولذلك أرفض ما يرويه أبو حيان من أنه لما نصر الله نبيه ﷺ ، وردَّ عنه الأحزاب ، وفتح عليه النضير وقريظة ، ظن أزواجه - عليه الصلاة والسلام - أنه اختُصَّ بنفائس اليهود ، وذخائرهم ، فقعدن حوله وقلن : يا رسول الله ؛ بنات كسرى وقيصر فى الحُلِىّ والحُلَلِ ، والإماء ، والخول ، ونحن على ما تراه من الفاقة ، والضيق ، وآلمن قلبه الشريف - عليه الصلاة والسلام - بمطالبتهن له بتوسعة الحال ، وأن يُعامِلهنّ بما تُعامِل به الملوك أزواجهم ، فأمره الله تعالى بأن يتلو عليهن ما نزل فى أمرهن .

أرفض هذا وأرفض ما يشبهه من الروايات التى تجاوزت حد الحقيقة ، واندفعت وراء القول بأن نساء النبى غير معصومات ، وأنهنّ بَشَر ، وأن الرسول كان يأذن لفطرتهن بالانطلاق ، والتصرف ، فصوَّرت حياة النبى فى بيته وبين أمهات المؤمنين فى صورة تملؤها مداعبات الكواعب ، ودلال الحسان النواهد ، وتملؤها أيضاً مؤامرات الضرائر ، وأحاديث الغيرة التى كانت تشتط بهن فيما يزعمون ، حتى تخرج بهن عن حدود الشريعة ، وآداب الإسلام ، وحين أرفض هذا القول لا أزعم أن نساء النبى معصومات ، ولا أزعم أنهن لم يقعن تحت تأثير الضعف البَشرى الذى هو جزء من طبيعة البَشر ، ولا أنفى عنهن الغيرة ، ولا التطلع أحياناً إلى شىء من بسط العيش ، بل أؤكد ذلك وأقول : إنه كان فى بيت النبى ﷺ يعطى الفرق الواضح بين شخصية النبى ، التى تتنزل عليها آيات الله ، والتى يخاطبها رب السموات والأرض ، وبين الشخصيات المحيطة بها ، وإن كانت منها فى مكان قريب .. وتعجبنى تلك

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الكلمة الواعية التى وصفت بها الدكتورة « زهية قدورة » عائشة أُم المؤمنين فى رسالتها عنها ، وأراها منهجاً واعياً فى فهم ما روته الكتب الصحيحة ، من أخبار نساء النبى فى بيته ، قالت الفاضلة : إن الغيرة لم تكن لتتغلغل إلى أعماقها - تعنى عائشة - بل كانت تقف عند الحدود التى تقضى بها قواعد الدين والعدل ، وأن الأمر لم يكن ليدخل فى باب الخصومات الحزبية ، كما يحلو لبعض كُتَّاب التاريخ الإسلامى من الإفرنج أن يصفوها ، ولعل ما يرد على هؤلاء ما رأينا من صور الوفاق الرائع بين الضرائر ، وتفانيهن فى إرضاء زوجهن رسول الله ، ولست أدرى كيف ترفض صاحبة كتاب « نساء النبى » هذا القول الواعى ، الحسن الظن بأمهات المؤمنين ، وكيف تؤكد أن عائشة كانت تخرج بها الغيرة عن حدود الشرع والدين ، وكتاب « نساء النبى » كتاب لا نرضى منهجه فى فهم حياة النبى الخاصة ، وقد ذكرت ذلك لصاحبته فذكرت أنها غيَّرت منه فى الطبعات اللاحقة ، وهذا شأن أهل العلم .

وأؤكد أن الغيرة السطحية ، والتطلع المحدود إلى بسط العيش ، كان يحدث أحياناً فى منزل الوحى ، وكان مثله لا يُذهب عن هذا البيت جلال النبوة ، ولا يخدش فيه آداب الرسالة .

ولما لجَّت الأقلام المغرضة من أعداء الإسلام ، واندفعت آراء عاجزة لأدعياء الفكر والتنوير ، من كتبة المسلمين فى الحديث عن المؤامرات التى تُحاك فى بيت النبى صلوات الله وسلامه عليه ، وحديث غيرة نسائه ، وبالغت فى تصوير هذه الأحداث السطحية ، واستملحت هذا واستطرفته عقول تتوهم أنها تعرف حرية الدرس ، وموضوعية البحث ، لما كان ذلك اندفعت فى الاتجاه المقابل أقلام ترفض كل ما يُقال عن تطلع أُمهات المؤمنين إلى شىء من متاع الدنيا ، وبالغت فى ذلك فنفت ما أثبتته الكتب الصحيحة ، ورفضت ما رواه أئمة الدين من وقوع هذه الأحداث السطحية النادرة ، ومن هؤلاء الذى يقول :

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

« يُكثر المفسِّرون فى إيراد أسباب النزول لهذه الآيات ، ومن هذه الأسباب أن أزواج النبى ﷺ قد وجدن فى المعيشة التى كنّ يعشنها مع النبى ضيقاً فى المعيشة ، لاقين فيه كثيراً من الضيق ، ووَدِدْن لو أن الرسول ﷺ أخرجهن من هذا العيش الخشن ، إلى حياة يجدن فيها بعض ما يجد غيرهن من النساء من لين ورقة ، وتمضى الرواية فتقول : إن نساء النبى جئن مجتمعات بهذا الطلب ، وأنه صلى الله عليه وسلم وجد شيئاً من الضيق بهن فنزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إن كُنتُنَّ . . . ﴾ الآية ، وهذا الخبر وما يدور فى مدراه هو فى نظرنا غير معقول على صورته تلك ، وإن كان قد ورد فى كتب السُّنَّة الصحاح مثل صحيح مسلم ، وذلك لأمور منها . . . . ، وذكر الفاضل من أخلاق أُمهات المؤمنين ما يؤكد فضلهن ، واقتداءهن برسول الله ، وحياتهن فى أنفاس النبوة ، وإيثارهن رسول الله على آبائهن ، وأنفسهن ، ثم يقول : « فليس يصح بعد هذا أن يُسمع لقول يُقال بأن أزواج النبى ﷺ شكون يوماً من ضيق العيش فى جناب الرسول ، وأن واحدة منهن مدَّت عينها إلى شىء من وراء هذا العالَم الروحى الذى كانت تعيش فيه ، وتجد منه ما يملأ عليها وجودها سعادة ورضاء » .

قلت : إن هذا كان من الكاتب اندفاعاً فى مواجهة هذه المبالغات السخيفة والمراهقة فى تصوير ما كان يحدث فى بيت النبى ، ولكن الكاتب الفاضل وقع فى أحرج مما وقع فيه غيره ، فقد تجرأ هو الآخر على كتب السُّنَّة الصحاح ، ووصف خبراً من أخبارها بأنه غير معقول ، ومثل هذا جهل بأبسط القواعد التى وضعها سَلَف هذه الأمة لبيان القبول والرفض فى أمر نسبة الأحاديث إلى رسول الله ﷺ ، فليس إنكار نص من نصوص الشريعة شيئاً سهلاً ، وخصوصاً إذا كان مروياً فى الكتب الصحاح المشهورة أو فى واحد منها .

وهناك أُصول وقواعد قررها علماء الحديث ، ويجرى فى ضوئها أمر القبول والرفض ، فما استقامت روايته وصحَّت نسبته إلى رسول الله ﷺ كان لنا شرعاً ملزماً ، ثم علينا أن نجتهد فى فهمه على الوجه الصحيح ، وحينئذ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

لا نجد تناقضاً ، ولا حَرَجاً ، اما أن يقول كاتب يعرض لتفسير القرآن ، وسياق التفسير سياق تُحقق فيه الأحاديث ، ويُعنى بأمرها : إن هذا ليس معقولاً وإن رواه مسلم ، فتلك جريرة فى العلم ، وضلالة فى العقل ، وكبيرة فى الدين ، وكنا نرجو ألا يقع فيها صاحب هذا القلم ، وكان عليه أن ينقد الرواية ، أو ينقد النص فى ضوء الأصول المقررة ، والتى أنفق فيها العلماء جهوداً طيبة مباركة ، ولو هداه هذا النقد إلى رفض الحديث لقبلنا منه هذا الرفض ، لأن ذلك شىء مقرر فى الشريعة ، وشىء نحرص عليه فى تعليم المسلمين ، أى نحرص على أن يتعمق فى وعى الجماعة المسلمة أن الحديث الوارد فى أحد هذه الكتب الصحيحة لا يُرفض إلا فى ضوء أُصول وقواعد ارتضاها أئمة الدين فى نقد الحديث ، والرواية ، حتى لا تتجرأ العقول المستخفة ، والأقلام الطائشة - وما أكثر ذلك فى زماننا - على مصادر الدين ، وعلى سُنَّة رسول الله ﷺ ، أما أن يقول مسلم يحمل قلماً يدافع به عن الإسلام - فى حديث رواه أحمد فى مسنده (٣/٣٢٨) ، ومسلم فى صحيحه ، كتاب الطلاق ، باب : بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية (٤/١٨٧ - ١٨٨) ، والنسائى من حديث زكريا بن إسحاق المكى عن أبى الزبير عن جابر رضى الله عنه : « إن ما يدل عليه غير معقول ، ولو رواه مسلم » ، فذلك - كما قلنا - ضلال وتخريب .

وماذا علينا لو قلنا : إن شيئاً من التطلع ، والغيرة كان يحدث نادراً فى بيت النبى عليه السلام ، وكان ذلك يوضح كما قلنا الفرق بين التمثل الكامل لأخلاق الدعوة فى شخصية النبى ، والتأدب الكامل بآداب الدعوة فى شخصية مَن حوله ، وليس يقدح فى أُمهات المؤمنين أن تكون منزلتهن فى التمسك والتمثل لقِيَم الإسلام أقل منزلة من صاحب الدعوة عليه السلام ، بل هذا شىء من اللازم أن يكون ، وبهذا الموقف المحدد نرفض الإفراط فى تجسيم ما كان يحدث ، والمبالغة فيه ، كما نرفض الوجه المتطرف فى مقابلة هذا الوجه ، حين يبالغ ويرفض ما روته الكتب الصحيحة ، ومما لا يقدح

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

صحته فى أمهات المؤمنين ، وليس من صالح المسلمين أن يقع فى أوهامهم أن هذه الصحبة التى عاشت حول شخصية الرسول عليه السلام كانت مبرأة من عوامل الصراع النفسى الذى يعانى منه الإنسان ، حين يأخذ نفسه فى طريق الجادة ، والخير ، بل من الصالح أن يعرف المسلمون أن ما يعانونه من مغالبة للنفس ، والأهواء ، كان يعانيه غيرهم ممن فى هذه الصحبة المباركة الطيبة ، وأن هذه المغالبة بين حاجات النفس ، ورغبات الهوى من جانب ، وبين الحفاظ على القِيمَ العليا ومبادىء الخير والدين من جانب آخر ، هذه المغالبة هى قانون التقوى ، وأصل الطاعة ، وأن قوة المؤمن إنما تتولّد فى بوتقة هذا الصراع الداخلى ، فإذا عظم سلطانه على نفسه ، وصار قَوَّاماً عليها ، فأحرى به أن يكون له سلطان على غيره فى هذا الوجود ، وأن يكون له قدم فى مواجهة الشدائد ، أما إذا تراخى فى مواجهة نفسه ، وهزمته أهواؤه ، وغرائزه ، ونزعاته ، فأحرى به أن يكون ضعيفاً عبداً لنفسه ، وعبداً لغيره ، عاجزاً ، متراخياً ، لا يقوى على البناء والخير والتعمير فى هذه الحياة ، وهذا الصراع الداخلى حين يرشح على ظاهر السلوك والحياة ، لا يكون ذلك قدحاً ولا عيباً ما دام الإنسان لا يأذن لهذه الأهواء فى التمرد والانطلاق ، وإنما هو قادر على قمع هذه الشهوات وحبس هذه الرغبات حين يسمع كلمة الله وحين ينبه إلى واجب الشرع والدين ، وأعتقد أن هذه هى مرتبة الصلاح والتقوى .

وهذا الوجه الذى أدرنا حوله هذه المناقشة ، لم يكن وحده سبب النزول عند المفسِّرين جميعاً - فقد روى العلامة عبد الرحمن بن الجوزى فى كتابه « زاد المسير فى علم التفسير » رأياً حكاه أبو القاسم الصَّيْمِرى قال فيه : إن الله سبحانه لما خيَّر نبيه بين مُلْك الدنيا ونعيم الآخرة فاختار الآخرة ، أُمِرَ بتخيير نسائه ليكُنَّ على مثل حاله ، فليس السبب هو مسألة طلب المزيد من النفقة ، وليس القصد إلى المواجهة القاسية لأمهات المؤمنين ، وتهديد لهن بالخروج من

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

بيت النبوة ، وإنما هو تكريم لأمهات المؤمنين ، وإرداف لهن فى المكانة بالنبى عليه السلام ، حين أجرى عليهن من التخيير ما أجراه على صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه .

وفى الآيات أحكام وآراء كثيرة تتعلق بالتخيير فى باب الطلاق ، وقد استوعبها العلَّامة صاحب روح المعانى فلتُراجع هناك .

ولقد كان لحديث المطالبة بالنفقة أثراً فى بيان صلة الآية بما قبلها ، فذكر بعضهم أن وقوعها بعد بيان غنائم بنى قريظة مؤذن بأن نساء النبى عليه السلام طالبنه بعد ما فتح الله عليه ، وألقى فى يديه هذا الميراث الهائل ؛ وهذا ربط نرفضه لأن نساء النبى عليه السلام كن يعلمن أنه داعية وليس جابياً ، وقد قالت الصدِّيقة : « ولو شئنا لشبعنا » ، فلا علاقة بين الغنائم والمطالبة بالنفقة ، لأن حياة التقشف فى بيت النبوة لم تكن عن ضيق وعوَز ، حتى نتوهم أن الغنائم كانت أملاً بارقاً لبيت محروم ، فما إن رأوها حتى ألحن فى طلب الرخاء ، لا .. لم يكن هذا هو حقيقة الأمر فى بيت النبوة ، وإنما هو التسامى فى ضرب المثل : « ولو شئنا لَشَبِعْنا » ، ولهذا لا يطمئن يقيننا لما قاله صاحب التفسير الحديث من أن الآيات فصل مستأنف لا صلة موضوعية لها بالآيات السابقة ، غير أن مجيئها بعدها مباشرة يورد على البال أن تكون مطالبة نساء النبى كانت بعد أن فتح الله على النبى والمسلمين من أموال بنى قريظة ، والآيتان الأوليان تلهمان أن النبى ﷺ كان يعيش فى بيته عيشة شظفٍ وزهد ، وهو ما أيَّدته الروايات ، فلما وسّع الله بما وسَّع ظن نساء النبى أن آن لهن أن ينعمن بالحياة وتتسع نفقاتهن ، فطالبن بما طالبن ، ولهذا من المحتمل كثيراً أن تكون المطالبة وقعت عقب تقسيم أموال بنى قريظة ، وأخذ النبى خُمُسَها المخصص لله وللرسول ، ولذى القُرْبَى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، على ما قضت سورة الأنفال .. انتهى كلامه .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وليس هذا قول الأستاذ « عزّة دَرْوزَةَ » وحده ، وإنما هو قول شائع فى كتب التفسير القديمة ، والحديثة ، وبين يدىّ الآن نصوص كثيرة للمفسِّرين فى عصرنا والعصور السابقة ، وكلها تدور حول هذه الفكرة .

وربما كان مجىء التخيير عقب فتح بنى قريظة فيه بيان لفلسفة الإسلام فى الفتح ، والغزو ، وأن هذا الفتح ليس استلاباً ، وليس جباية ، ولا مغامرات ، وأطماعاً دنيوية ، وأن مسيرة المسلمين فى أرض الله إنما هى مسيرة تعمير ، وبناء ، وأن حَمَلَة لواء هذه الدعوة - وفى صدرهم بيت هذا النبى - إنما يعمرون فى هذه الدنيا ، وأنظارهم طامحة إلى السماء ، ولا يريدون إلا وجه الله ، ورسوله ، وإن كانت بين أيديهم كنوز من الأسلاب والغنائم .

ثم هو يشير من وجه آخر إلى حال مَن يكونون حول قيادة الأُمة المسلمة ، والذين يكونون فى معية هذه القيادة ، وأن على هؤلاء من الالتزام والحفاظ ، ما ليس على غيرهم من عامة الناس ، فإذا كان من الواجب أن تكون أيدى الناس بعيدة عن أموال الدولة مثلاً ، فالواجب أن تكون أيدى هؤلاء أبعد ، كما يجب أن يبتعدوا عن مواطن الشبهة ، والتكسب ، بمواقعهم من القيادة ، وهذا مما تنصُّ عليه أنظمة الأمم ، وهو قياس لا يخطىء فى التقدير الحقيقى لصدق القيادة ، ووطنيّتها وطهارتها .

وقد رأينا فى عهود « الملكية السابقة » .. والعهود الغابرة .. هؤلاء الذين تتاجر نساؤهم فى أقوات الشعوب .. أو يفتح أصهارهم ، ومَن حولهم مكاتب « سمسرة » .. وتخليص .. وتصدير .. واستيراد .. إلخ .. فهؤلاء ليسوا قادة ولا حكام ولكنهم « شطار » أو لصوص .. وفى أحسن الأحوال « أصحاب مصالح » ، ولذلك لا ترى الأوطان تتقدم على أيديهم خطوة واحدة .. وتلحظ صلاتهم بأعداء الأوطان .. سواء أكان - الشرق

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

.. أو الغرب .. كما تلحظ حقدهم على شعوبهم وإرهاق هذه الشعوب وتجويعها وإفقارها .. وهذا هو معنى استشراء الفساد الذى يذكره المؤرخون . والذى يعقبه التغيير ، وانتفاضة الأمم .

وذكر العلّامة البقاعى ملخصاً آخر فى مناسبة الآية لما قبلها ، فقد أشار إلى أن الآيات السابقة تجلّت فيها قُدرة الله سبحانه ، ودفعه عن عبادة الأخيار ، وأنه كاف مَن توكّل عليه ، وأقبل بكليته إليه ، ولذلك ناسب أن يقع بعد ذلك الأمر بخلوص النفس والهمة إلى الله ، وألا يتجه من الوهم شىء إلى غيره ، وأن هذا التجرد المطلق إلى الله ليس له نفع يعود على الدعوة ، وصاحبها ، وإنما نفعه يعود إلى هذا المتجرد ، ويظهر هذا فى الأمر بالتخيير ، وبيان أن مَن اختار الدنيا فإنما يأخذ متاعاً ترضى به نفسه ، وإنما جاء الأمر بالتجرد والتخيير فى بيت النبوة ليكون ذلك مثلاً ، وتأديباً لكافة الناس ، ولا بأس هنا من ذكر عبارة البقاعى المقتبسة من كتابه المخطوط ، قال رحمه الله : « ولما تقرر بهذه الوقائع التى نصر فيها سبحانه ، وحده ، بأسباب باطنة سببها ، وأُمور خفية رتبها ، تعجز عنها الجيوش المتجبرة المستكثرة ، والملوك المتجردة المستكبرة ، ما قدَّم من أنه كاف مَن توكّل عليه ، وأقبل بكليته إليه ، وختم بصفة القدرة العامة الدائمة تحرر أنه قادر على كل ما يريد ، وأنه لو شاء أجرى مع وليه كنوز الأرض ، وأنه لا يجوز لأحد أن يراعى غيره ، وأن يرمق بوجه ما سواه ، وعلم أنه مَن أقبل إلى هذا الدين فإنما نفعه له ، والتفضل لصاحب الدين عليه ، ومَن أعرض عنه فإنما وبال إعراضه على نفسه ، ولا ضرر على الدين بإعراض هذا المعرض ، كما أنه لا نفع له بإقبال ذلك المقبل ، وكان قد قضى سبحانه أن مَن انقطع إليه حماه من الدنيا ، إكراماً له ، ورفعاً لمنزلته عن خسيسها إلى نفيس ما عنده ، لأن كل أمرها إلى زوال ، وتلاش ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

واضمحلال ، ولا يعلق همته بذلك إلا قاصر ضال ، فأخذ سبحانه بأمر أحب الخلق إليه ، وأعزّهم منزلة لديه ، المعلوم امتثاله للأمر بالتوكل والإعراض عن كل ما سواه سبحانه ، وأنه لا يختار من الدنيا غير الكفاف ، والقناعة ، والعفاف ، بتخيير ألصق الناس به ، تأديباً لكافة الناس » . . انتهى كلامه .

وربط الآية بما قبلها واضح فى هذا النص ، أى أن القدرة الإلٰهية لما تجلّت فى رد الذين كفروا ، كان المناسب للمسلمين ألا تتجه همتهم إلا إلى هذه القوة ، وأن يتجردوا فى مرضاتها تجرداً كاملاً ، وجاء ذلك فى بيت النبى ليكون تأديباً للكافة .

ويمكن أن نلحظ شيئاً آخر فى صلة هذه الآية بما قبلها فنقول : إن الآية الكريمة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ (١) ، لأن ما ذُكِر فى شأن بنى قريظة ليس أصلاً ، وإنما هو شىء استتبعه تفصيل النعمة التى أُمِروا بذكرها ، وشكرها ، وكانت هذه الحادثة - أعنى قصة بنى قريظة - حدثاً وقع فى ذيل غزوة الخندق ، ولذلك كانت قصتهم فى الآيات الكريمة مروية فى ساقة خبر الأحزاب وذيله ، ومن المهم فى بناء ربط الآيات أن نبحث عن صلة الموضوع الجديد ، بالموضوع الذى سبقه ، ليتبين لنا الخيط الذى يصل الأحداث الكبرى فى السورة .

وأن نلحظ أيضاً نوعاً من العلاقة بين الموضوع الجديد ، وما جاء فى ساقة الموضوع الآخر ، كما بينا فى نص البقاعى ، وما أشرنا إليه من أن هذا التتابع يشير إلى فلسفة الإسلام فى الفتح ، والمهم هنا أن نحاول بيان المناسبة بين قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ ، الذى هو الموضوع الأصلى والذى تداعت

---

(١) الأحزاب : ٩

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

فيه أحداث القصة ، وأسلم بعضها إلى بعض ، وبين قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ . . الذى يبدو لنا أن الأمر فى الآيتين يتدرج ، ويتصاعد من وجهين ، الوجه الأول : تصاعد من حيث المأمور ، والوجه الثانى : تصاعد من حيث المأمور به ؛ أما التدرج من حيث المأمور ، فإن الآية الأولى تخاطب وتأمر الذين آمنوا جميعاً وفيهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وأهل بيته ، والثانية تخاطب وتأمر محمداً صلوات الله وسلامه عليه وأهل بيته ، وهذا تخصيص بعد عموم يعطى الكلام لوناً من التوكيد ، والوجه الثانى أعنى التدرج من حيث المأمور به ، فإن الآية الأولى تأمر بتذكر نعمة الله ، وما يستتبع ذلك من الشكر ، وأداء فرائض الدين ، والآية الثانية تأمر المؤمنين جميعاً فى هذه الصفوة المختارة أن يتجردوا لله تجرداً كاملاً ، وأن يقمعوا فى أوهامهم كل خاطر يخرج بها عن دائرة الله ، وأن يصرفوا البصر كله إلى السماء ، وألا ينقلب هذا البصر إلى الأرض إلا بمقدار ما يستلهم منها طاقة السمو ، وبهذا يظهر لنا أن الآية الثانية تسير فى طريق الأولى ، وتصعد فى معراجها ، وهكذا تكون النداءات الثلاثة المتعاقبة فى السورة الكريمة تبدأ بدءاً أعلى فتنادى النبى وحده فى أولها ، وتأمره بالتقوى ، ثم يتنزل النداء برفق إلى الأمة كلها ، فيناديها بالتذكر ، ثم يصعد مرة ثانية إلى بيت النبى ، داعياً فى حسم شديد إلى التجرد الكامل للحق ، والقضاء الحاسم على كل خاطر من خواطر الأرض .

وأُنبِّه إلى أنه من نبوغ هذا البيان الحكيم وأمارات إعجازه ، أنه لا يضيق بواحد منها ، وكأن كل قول مجتهد إنما يكشف جانباً من جوانب بلاغة الآيات ، ويصف تلك الوشائج الدقيقة ، التى تصل بعضها ببعض ، والتى لا يمكن أن يكون مثلها فى دقته ، وجلائه ، إلا فى كلام غير الله الذى أتقن كل شيء ، فحيثما التفتَّ فى الآية بهرتك دقة الصنع وعجيب التدبير ، كأنك تتأمل السماء ونجومها والأفلاك ودورانها .

* * *

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً * وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ للهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً ﴾.

(الآيتان : ٣٠ - ٣١)

* *

يتجه الخطاب هنا من الله سبحانه وتعالى إلى أمهات المؤمنين بلا واسطة ، وقد قال فى الآية الأولى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لأَزْوَاجِكَ ﴾ ؛ فخاطبهن بواسطة النبى عليه السلام ، وذلك مؤذن بخطورة الأمر الذي جاء الخطاب من أجله ، فإن موضوع هذا الخطاب يعالج قضية من أعضل القضايا التى تعانى منها المجتمعات الإنسانية ، وهى قضية الأخلاق وسلوك النساء ، ولذلك آثر هنا لفظ النساء ، ولم يُذكَرْن بلفظ الأزواج ، كما قال هناك : ﴿ قُل لأَزْوَاجِكَ ﴾ . . . القضية هنا قضية نساء الأرض . . . والفاحشة التى يُضاعَف العذاب لهن من أجلها من المحال أن تقع فى بيت النبوة ، والكلام وارد على سبيل الفرض ، والتقدير ، مبالغة فى التنفير من هذه الفاحشة ، ومبالغة فى بيان خطرها ، وهو كلام يُلوِّحُ بسوط العذاب ، وبالغ النقمة ، والغضب ، على أرباب الخطيئة فى الأرض .

ولما وردت « الفاحشة » هنا فى سياق الحديث إلى نساء النبى عليه السلام ، حاول بعض المفسِّرين أن يذكر لها تفسيراً يخفف من معناها الغليظ الذى طُبعت النفوس على استهجانه ، واستقباحه ، فوجدنا صاحب البحر يمنع أن يُراد بها الزنا ، قال : لأن النبى ﷺ معصوم من ارتكاب نسائه ذلك ، ثم قال : وينبغى أن تُحمل الفاحشة على عقوق الزوج ، وفساد عِشْرته ، وهو مروى عن ابن عباس ، فقد قال : المراد بالفاحشة النشوز وسوء الخُلُق .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وتورط آخرون فى محاولة البحث عن معنى أقل غلظة لكلمة الفاحشة فقالوا : إن الفاحشة إذا وردت مُعرَّفة فهى الزنا ، واللواط ، وإذا وردت منكَّرة فهى سائر المعاصى ، وإذا وردت منعوتة فهى عقوق الزوج وفساد عِشْرته ، وهذا عندنا خطأ لأن الفاحشة جاءت موصوفة والمراد بها الزنا .

قال الحسن فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ (١) أى الزنا .. وقال ابن الأثير : « الفاحشة المبينة أن تزنى فتخرج للحد » ، والذى أغراهم بالبحث عن معنى خفيف للفاحشة هو ما تواتر من أنه لم تبغ امرأة نبى قط ؛ حتى امرأة نوح وامرأة لوط كانت خيانتهما فيما يتعلق بالإيمان والدعوة ، وليس فى غير ذلك ، لأن الله عصم أعراض أنبيائه عليهم السلام .

وكل المعانى التى تذكرها كتب اللُّغة لمعنى الفاحشة تبرأ منها أمهات المؤمنين المرضى عنهن جميعاً من الله سبحانه ، وفى الحديث : « إن الله سبحانه يبغض الفاحش المتفحش » أى ذا الفُحْش ، ويقول اللُّغويون : الفاحشة : القبيح من القول والفعل ، كما قال ابن سِيدَه ، وقد لوحظ أنها تدور فى لسان رسول الله ﷺ وتكثر فيما يشتد قبحه من الذنوب ، والمعاصى ، هكذا قال ابن منظور ، وقال ابن الأثير : وكثيراً ما ترد الفاحشة بمعنى الزنى ويسمى الزنا فاحشة ، وقال الله تعالى : ﴿ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ قيل : الفاحشة المبينة أن تزنى فتخرج للحد ، وتأتى الفاحشة فى القرآن فى سياق الكبائر مثل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْىِ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ (٣) ،

---

(١) النساء : ١٩ ، الطلاق : ١ (٢) النحل : ٩٠ (٣) الأعراف : ٢٨

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وقوله : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [1] ، ونرى أن الفاحشة فى الآية الكريمة تفيد أياً من هذه المعانى فليس بعضها أولى بها من بعض ، لأن الكلام وارد ما قلنا على سبيل الفرض ، والتقدير ، ومشير إلى غاية السخط والغضب لمرتكب الفاحشة ، وكأن التعبير يقول : إن مرتكب هذه الجريمة يناله من الله أنكل ألوان العذاب ولو كان فاعلها من أحب الناس وأقربهم إلى خير خلقه ، لَوَقَعَ العذاب عليه من الله ضعفين ، والزمخشرى يطلق معنى الفاحشة فى الآية بين جملة المعانى التى تفيدها والتى تدور حول الكبائر ، ثم يذكر المعانى المخففة بصيغة التمريض وعبارته :

« الفاحشة : السيئة البليغة فى القبح ، وهى الكبيرة ، والبيِّنة الظاهرة فُحْشها ، والمراد كل ما اقْتَرفْنَ من الكبائر ، وقيل : هى عصيانهن رسول الله ﷺ ، ونشوزهن ، وطلبهن منه ما يشق عليه ، أو ما يضيق به ذرعه ويَغْتَمُّ لأجله » .

وقول الزمخشرى : « والمراد كل ما اقترفن من الكبائر » عبارة جائرة ولا أدرى كيف سقطت من قلمه ، وما هى الكبائر التى اقترفتها أُمهات المؤمنين ، وكيف يكُنَّ فى حوزة رِضَى الله ، ورِضَى رسوله ، وهن مقترفات لهاتيك الكبائر ، هذه عبارة جريئة كما قلنا على مقام أُمهات المؤمنين ، وهى مع جرأتها تنطوى على باطل فى المعنى ، وخطأ فى اللُّغة ، أما باطل المعنى فهو الزعم بأنهن اقترفن كبائر ، وذلك ما يُكذِّبه كل دليل ، وتُبطله كل حُجَّة ، وأظن أن الأمر فيه واضح ، فهن عدول ، وراويات لحديث رسول الله ، ومرتكب الكبيرة فى الشرع لا يكون عدلاً ولا راوية .

وأما الخطأ فى اللُّغة فالتعبير فى الآية مبنى على الشرط - أى التعليق : أى مَن يكن منه كذا يجد كذا ، إن حصلت منكن فاحشة عذبتُنَّ عذاباً مضاعفاً ، والتفسير يقول : المراد كل ما اقترفن من الكبائر . . فكيف يستقيم هذا الكلام

---

(1) الأعراف : ٣٣

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الدال على الحصول ، تفسيراً لهذا الكلام المبنى على الشرط فى الاستقبال ، أرجو أن يكون المراد واضحاً ، والزمخشرى رحمه الله من العلماء الذين أخذنا عنهم كثيراً ، ولمحنا فيما كتبوا شفافية صادقة ، ومثل هذه العبارة قد يرمى بها القلم أحياناً ، ويفوت صاحبها تعمق معناها ، وقد رأينا مثل هذا للزمخشرى ورآه مَن قبلنا .

فقد روى السبكى الصغير أن أباه الإمام السبكى الكبير ، لما قرأ فى كتاب الكشاف تفسير قوله تعالى : ﴿ عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ (١) ، وقد قال الزمخشرى فى معناه : أخطأت وبئس ما فعلت - طوى الإمام السبكى كتاب الكشاف ، وكان يقرأه لطُلّابه وكتب رسالة سمّاها « أسباب الانكشاف عن إقراء الكشاف » .

وقوله : ﴿ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ أى يُعذَبن ضعفى عذاب غيرهن ، أى مثليه ، فإن كان غيرهن ممن أتى بفاحشة مبيّنة يُحبس فى النار يوماً مثلاً مكثن هن يومين ، وإن وجب على غيرهن حد لفاحشة ، وجب عليهن حدّان ، هكذا قال المفسّرون ، وهذا التفسير ناظر لقولهم : ضعّف الشيء بالتشديد ، أى أطبق بعضه ، وثناه ، فصار كأنه ضعف ، قال ابن منظور : عذاب ضعف « كأنه ضوعف بعضه على بعض » ، ولكن المذكور يضاعف ضعفين ، فما معنى هذا التأكيد ؟

قال أبو عبيدة : معناه يجعل الواحد ثلاثة أى تُعذّب ثلاثة أعذبة ، وقال : كان عليها أن تُعذّب مرة ، فإذا ضوعف ضعفين صار العذاب ثلاثة أعذبة ، وقال الأزهرى : هذا الذى قاله أبو عبيدة هو ما تستعمله الناس فى مجاز كلامهم ، وما يتعارفونه فى خطابهم .

قال : وقد قال الشافعى ما يقارب قوله فى رجل أوصى ، فقال : أعطوا

(١) التوبة : ٤٣

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

فلاناً ضعف ما يصيب ولدى ، قال : يُعطَى مثله مرتين ، قال : ولو قال : ضعفى ما يصيب ولدى ، نظرت ، فإن أصابه مائة أعطيته ثلاثمائة .. انتهى كلامه .

وكلام الشافعى رضى الله عنه حَقٌّ فيمَا ذَكَرَهُ من المثال ، لأن سياق القائل أعطوا فلاناً ضعف ما يصيب ولدى . . . إلى آخره ، سياق بيان وتقرير ، واللّفظ فيه لا يحمل أكثر من معناه القريب الذى يناسب هذا السياق ، أما قوله : ﴿ يُضَاعَفْ لَهَا العَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ فسياقه سياق زجر ، وتهديد ، ولذلك تجد اللّفظ فيه يحمل أكبر قدر من المعنى المناسب لهذا السياق ، وكأنه قال : يُضاعَف لها العذاب أضعافاً كثيرة . وقد جاء الضعف فى مقام الثناء والوعد بعطاء الله ، فأفاد أكثر من المثلين والثلاثة .

انظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ (١) ، فإن المراد - والله أعلم - فأولئك لهم فى الجزاء منا أضعافاً كثيرة ، قال الزمخشرى : جزاء الضعف أن تُضاعَف لهن حسناتهن الواحدة عشراً .. ونجد كلمة الضعف لا حدود لمعناها فى سياق الدعاء بالانتقام وشدة العذاب . انظر إلى قوله : ﴿ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ ﴾ (٣) ، ومثلها كلمة « ضعفين » نجدها كذلك لا حدود لمعناها فى قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً ﴾ (٤) ، وفى كلام أصحاب اللّغة : الضعف فى كلام العرب أصله المثل إلى ما زاد وليس بمقصور على مثلين .

---

(١) سبأ : ٣٧ (٢) الأعراف : ٣٨
(٣) سورة ص : ٦١ (٤) الأحزاب : ٦٨

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وخلاصة هذا أن المراد بمضاعفة العذاب ضعفين - والله أعلم بمراده - ليس المثلين ، ولا الثلاثة ، وإنما هى مضاعفات تبلغ أقصى المدى فى النكال ، والعذاب ، ويشهد لهذا الذى نقوله أن هذا التعبير : ﴿ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ ، والذى نجد فيه تراكب التضاعف - من حيث توكيد يضاعف بضعفين - لم يقع فى القرآن كله إلا فى هذه الآية ، وقد ذكر الضعف والضعفين فى مواضع أخرى من القرآن ، أما أن يذكر هذا التركيب المؤكد والمتراكب ويضاعف « ضعفين » فذلك خاص بهذا الموضع ، ولذلك نُحمّله ما نشاء من المبالغة والدلالة على نهاية الوعيد والتشديد .

والآية الكريمة تشير إلى فضل أمهات المؤمنين ، وكلما أوغل الأسلوب فى المبالغة بالوعيد على حد ما بيّنا وصف من هذا الوجه نفسه المبالغة فى بيان أقدارهن عليهن رضوان الله .

ومرجع ذلك إلى أن عقوبة الإثم تتأثر تأثراً واضحاً بأقدار فاعليها ، فكلما صعد فى درج الفضل ، والكمال ، كان هويه إلى المعصية أوضح وهو بالعقاب والزجر أولى .

وقد رأينا فى القرآن حديثاً عن عقوبة الفاحشة التى تهبط إليها الإماء من فتياتكم المؤمنات ، وهى نصف ما على المحصنات من العذاب ، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ (١) ، وحين نتأمل هذه الآية ونضع بجانبها قوله : ﴿ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ﴾ ، يظهر لنا التفوق العالى لأمهات المؤمنين ، لأنهن يُضاعَف لهن العذاب أضعافاً كثيرة بالنسبة للحرائر ، وكأن نساء الأرض طبقات ثلاثة ، طبقتان متدانيتان : الإماء والحرائر ، والنسبة بينهما كنسبة النصف إلى الواحد ، فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ، وطبقة بائنة

(١) النساء : ٢٥

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وفائتة فى الفضل ، وهى طبقة أمهات المؤمنين ونسبتهن إلى الحرائر كنسبة الواحد إلى ما لا يُدرك كنهه من الأضعاف المضاعفة .

وفى الآية قرع عنيف ، وطرد لأشباح الوثنية ، وتقديس الإنسان ، ونقاء الجماعة المسلمة من فكرة الأسر المقدسة ، التى شقَيت بها المجتمعات ، والتى أثقلت كاهل الإنسان فى آماد طويلة ، فأهل بيت النبى يُعاقَبون عقابين ، وكان أهل هذا البيت رضوان الله عليهم يعرفون طبائع الناس ، ويعرفون قيمة هذه الآيات فى كتاب الله ، ويعلنون فى أمة الإسلام هذا المبدأ السماوى الذى قرره الله فى شأنهم ، ويقطعون فى نفوس المؤمنين كل خاطر من خواطر التنزيه ، أو التعالى لهذا البيت الطاهر ، إخلاصاً منهم للرسالة ، وفقهاً للدعوة ، ومطاردة لأشباح الوثنية التى تقدس الإنسان .

قال رجل لزين العابدين رضى الله عنه : إنكم أهل البيت مغفور لكم ، فغضب غضبة الحق وقال : نحن أحرى أن يجرى فينا ما أجرى الله تعالى فى أزواج النبى ﷺ من أن نكون كما نقول : إنَّا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر ، ولمسيئنا ضعفين من العذاب . . . وقرأ هذه الآية .

وقوله : ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً ﴾ القنوت ورد فى لسان الشرع والقوم بمعانى كثيرة ، وتدور حول الإمساك عن الكلام . . والخشوع . . والطاعة . . والدعاء . . والإقرار بالعبودية . . والقيام ، وزعم ثعلب أنه الأصل .

وقال زيد بن أرقم فى قوله تعالى : ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [1] : كنا نتكلم فى الصلاة حتى نزلت ، و﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ فأُمرنا بالسكوت ، ونُهينا عن الكلام ، وهذا يفيد أن القنوت معناه الإمساك عن الكلام .

---

(١) البقرة : ٢٣٨

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وقال ابن سيدَه : القُنوتُ : الطّاعَةُ ، هذا هو الأصل ، ومنه قوله : ﴿ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ﴾ (١) ، ثم سُمِّىَ القيام فى الصلاة قنوتاً ، ومنه قنوت الوتر ، وقَنَتَ الله يَقْنُتُه : أطاعه ، ومنه : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ (٢) أى مطيعون .

وقال الزمخشرى : القانت : القائم بما يجب عليه من الطاعة ، ومنه قوله عليه السلام : « أفضل الصلاة طول القنوت » ، وهو القيام فيها .

ويمكن أن نقول : إن القنوت يفيد معنى الخشوع المطلق ، والخضوع الكامل ، الذى تخبت فيه القلوب لله وتلين ، ومن مظاهر هذه الحالة النفسية طول الصمت ، والسكوت ، وقد يظهر هذا المعنى الذى هو التطامن المطلق لله سبحانه ، فى الوقوف بين يدى الله ، والقيام للصلاة ، وقد يظهر هذا فى التضرع اللاهف ، والدعاء الحزين ، ولهذا تلحظ نوعاً من المقابلة الخفية بين قوله : ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لله وَرَسُولِه ﴾ ، وقوله : ﴿ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ لأن الإتيان بالفاحشة المبينة الظاهرة ، فى جهارة ، وتبجح ، لا يكون إلا من قلب غليظ جاف خال من معانى الخضوع والخشية والقنوت .

وفى تقييد القنوت بقوله : ﴿ لله ﴾ : معنى يدعو إلى هذا القنوت ويُلقى عليه فيضاً من نور الجلال ، والحب ، والميل ، ينساب من لفظ الجلالة ، ومن لألائه المشرق الوضاء ، وذكر « الرسول » عقب لفظ الجلالة فى سياق الخشوع ، والطاعة ، تقدير لرسول الله ﷺ ، ورفع لمنزلته ، وكأن خشيته جزء من خشية الله .

وانظر إلى المقابلة الحسنة الواضحة بين قوله : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى الله

---

(١) الأحزاب : ٣٥ (٢) البقرة : ١١٦ ، الروم : ٢٦

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

يَسيراً ﴾ ، وقوله : ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لله وَرَسُولِه وتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِها أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً ﴾ .

انظر إلى سياق الوعيد ، وسياق الوعد ، وكيف تزاحمت الكلمات الشديدة ، والمخيفة فى الآية الأولى ، فجاءت فيها : الفاحشة المبينة ، وما لها من وقع بشع ، وقوله : العذاب ، وما وراءه ، من إيجاع ، وتنكيل ، وإهانة ، وقوله : « يُضاعَف ضِعْفين » وما يفيده من تراكب ألوان العذاب ، ومضاعفاتها ، التى لا تتناهى وما وراء ذلك من غضب ممدود ، ثم انظر إلى الكلمات الوضيئة فى سياق الوعد ، تجد القنوت ، وما وراءه من شفافية باصرة وضَّاحة ، والله والرسول ، وما وراء ذلك من سكينة القلب ، وقرار النفس ، ثم تجد العمل الصالح ، والرزق الكريم ، وكلها كلمات تبعث فى النفس معانى الرضا ، والطمأنينة ، وتملأ القلب شعوراً بالخير والأمل ، ثم انظر الفرق بين قوله فى جزاء الفاحشة : ﴿ يُضَاعَفْ لَهَا العَذَابُ ﴾ ببناء الفعل للمجهول ، وإشارة وراء هذا البناء أن العذاب يسقط على هذه النفس من حيث لا تدرى ، وكأنها تُرجَم به من وراء الغيب ، ثم قال فى جزاء القنوت والعمل الصالح : ﴿ نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ ، فأسند الإتيان إلى ذاته الشريفة ، ليكون إتياناً جذلاً ، وعطاءً وفراً ، وماذا تقول فى عطاء تمتد به يد الوجود كله من عطائها ، وانظر إلى قوله فى آية الوعيد : ﴿ وكَانَ ذَلكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً ﴾ ، وكيف كانت هذه الجملة كأنها دمدمة فى هذا الوعيد ، فمضاعفة العذاب ، والنكال ، يسير على المنتقم العزيز ، ويقول البقاعى فى هذه الجملة : « وهى عبارة ناظرة إلى مقام الجلال ، والكبرياء ، والعظمة » .

ثم قابل هذا فى الوعد : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً ﴾ ، وانظر إلى هذا

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الرزق الكريم الذى أعدَّه صاحب الجلال والكبرياء والعظمة والسلطان ، أعدَّه بذاته وجلاله ، وتأمل ما وراء ذلك من التقدير والتكريم ، ثم قل : لماذا لم يقل : يُضاعَف لها الثواب ضعفين ؟ كما قال هناك : ﴿ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ ؟ لتعلم أن وراء ذلك رمزاً ذكياً ، فإن مضاعفة الثواب - كما قال الألوسى - ليست خاصة بأهل بيت النبوة ، وذلك بخلاف مضاعفة العقاب فإنها خاصة بهم ، فلو قال : يضاعَف لها الثواب ضعفين ، لم يكن ذلك ظاهراً فى التكريم ، لأن الله يضاعف ثواب الصالحين جميعاً ، ولهذا جاء قوله : ﴿ نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ ، للدلالة على هذه الخصوصية ، وفيه أيضاً إشارة إلى أن الله يعطى الأجر الوفير مرة ، ثم يستأنف العطاء الوفير مرة ثانية ، وهذا دال على التكريم الجميل ، وفى كلمة « الأجر » رمز آخر إلى الإعزاز والتكريم ، وكأن ما يأخذن من هذا الوفر ليس عطاءً ، وإنما هو أجر مستحق لهن ، على طيب ما قدَّمن من الخير .

ولما قال : ﴿ وَمَن يَقْنُتْ ﴾ فذكر الخشوع ، وتطامن القلب ، أردفه بالعمل الصالح ، والعمل الصالح لا يُراد به فى لسان الشرع والقوم : الصلاة ، والصيام ، وأخواتها فحسب ، وإنما هو كل عمل يُصلح به صاحبه أمراً من أُمور الدنيا ، التى تعود على المجتمع المسلم خاصة ، والمجتمع الإنسانى عامة ، بشىء من النفع ، والصلاح ، وتفسير العمل الصالح فى القرآن والحديث بالصلاة والزكاة وما شابهها فحسب ، تضييق لمدلول اللَّفظ ، ترفضه اللُّغة التى لم تُقيِّد العمل الصالح بهذا المعنى ، وترفضه روح الرسالة التى تهدف إلى تعمير الأرض بالخير ، والرفاهية ، والعلم ، والعدل ، ويجب أن نفهم الطاعة بهذا المعنى ، فطاعة الله معناها العمل على تحقيق أمره ، والله سبحانه لم يأمر بالصلاة والصوم فحسب ، وإنما أمر أمراً حاسماً

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

بالعمل ، والكد فى الأرض ، وإعداد العُدَّة للدفع عن العدل والخير ، ومطاردة الظلم والزيف والرشوة والباطل والانتهازية وكل صور الضلالات فى المجتمع المسلم ، وقد دلّنا على هذا ما تقرره الشريعة من أن أفضل الطاعات : « كلمة حق عند سلطان جائر » ، وكلمة الحق فى وجه السلطان الجائر تلخيص جليل للمعارضة السياسية المنظمة والصادقة والطاهرة ، لأنه رمز لها بـ « كلمة حق » ، وأداء هذا طاعة لله ، كأداء الصلاة والصوم ، ويجب أن يفهم المسلمون معانى الإسلام على وجهها الصحيح ، ليتقرر فى قلوبهم أن التدين اهتمام بحياة الناس ، كما أمر الله ، وصياغة الدنيا على منهج الوحى ، والإسلام لا يزهد فى الدنيا ، ولا يحقرها ، لأنها أصل فى تكييف الحياة الآخرة ، فمن عمَّر فى الدنيا ، وبنى وزرع الخير فى أرض المسلمين ، وتُرْبة هذا الدين ، حصد خيراً فى الآخرة . العمل الصالح الكِد فى الأرض ، وملؤها بالخير المشرق الطاهر ، تعمير الأرض بقلوب تُسَبِّح ، وأيادٍ طاهرة ندية بماء الوضوء ، وأؤكد أن تفسير « العمل الصالح » بالصلاة والصوم فحسب ، تفسير خاطىء يهادن الكسل والتواكل ، كما يهادن الضلال ، والزيف ، والباطل ، ويميل إلى أنواع من العبادة الهادئة ، التى لا تكلف صاحبها أكثر من غسل الوجه واليدين ، وترفع عنه مشقة الدعوة إلى الخير ، والإلقاء بالنفس والبدن فى مشكلات الإنسان ، وحياة الناس ، وإرواء بذور الخير فى تُرْبة الإسلام ، والإسلام يقرر أن أفضل أنواع العبادة أحمزها ، أى أشقها على النفس ، وإياكم أن ينحرف بكم الفهم ، فتتوهموا أننا ننزل بالصلاة والزكاة وأخواتها عن محلها الأسنى فى الإسلام ، فهى أركان الدين ، وقواعده التى بُنِى عليها ، وإنما نحارب هذا الفهم الضيق لطاعة الله ، والعمل الصالح ، والذى أذاعه فى المجتمعات الإسلامية نظر أعشى ، نظر إلى وظيفة الإسلام فى ضوء التأثير بوظيفة النصرانية ، وهذا قياس خاطىء ترفضه أصول

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الإسلام ، وصريح آيات القرآن ، وكان من الثمار الـمُرَّة لهذا الفهم الضيق أن وجدنا جهلة المفكرين ، وحَمَلَة الأقلام فى هذا الزمن المتعفن يدعون إلى حصر الإسلام فى دائرة الفرد والأسرة ، وتخلية الساحة الاجتماعية والسياسية والعقائد ، والنظم التى تموج بها ساحة العالَمين الشرقى والغربى ، تخلية هذا كله للمغامرين السياسيين وتلاميذ « ميكيافيللى » الذى أباح لحوم البشر لمن أراد أن يصل إلى السُلْطة ، والأصل أن الغاية تبرر الوسيلة .

وهذا فى تقديرنا إبطال للإسلام ، وخلع لربقته من الأعناق ، وارتداد عنه مُقَنَّع بقناع تافه ، والمأساة أن سماسرة هذه الفلسفات ، وهذه العقائد ، وهذا الفكر يعيشون بأموال المسلمين ، ويقفون من الجماعة موقف الموجِّه ، وقد وضعت بعض النظم إمكانات دولهم التى هى أموال المسلمين فى أيديهم ، وحاول معهم أن يقنع المسلمين بخطر ما سموه « الإسلام السياسى » ، وهذه تسمية غريبة ربما وضعها اليهود فى أفواههم ، ولكن كل هذا يزيد المسلمين استمساكاً وتمسكاً ، وهذا من حفظ الله لدينه ، ومن هنا صار فهم الإسلام فهماً واعياً بصيراً ، ودراسة التيارات الفكرية المعاصرة دراسة واعية ، نافذة ، فرض على الشباب المسلم ، الذى يُعِد نفسه لتوجيه قلب الأمة ، وصياغة ضميرها ، حين يقوم بتربية أبنائها . أقول : إن هذا فرض عَيْن على هذه الجماعة من الشباب ، إذا قام البعض لا يسقط عن الباقين ، ويجب أن نعلم أننا لن ندخل الجنة إذا لقينا الله ونحن جهلة صامتون ، يُحاط بالإسلام من حولنا ونحن نقول : لا حول ولا قُوَّة إلا بالله ، وكأننا مسحورون فى تيهاء ، من عمى العقل ، وضلال القلب ، لا لن ندخل الجنة ونحن غادرون ، وعلينا الآن إذا أردنا أن نلقى الله مسلمين أن نبدأ فى وضع خطة لتربية عقولنا ، ونفوسنا ، حتى لا نعيش أيضاً على هامش الدنيا ، تلك الحياة التى يأنف منها

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الرجل الكريم ، وكأننا « تَيْم » أعنى تلك القبيلة التى قذعها هذا الشاعر اللّقِن بعار الأبد ، وذل الدهر ، حين قال فيها (من الوافر) :

وَيُقْضَى الأمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ ... وَلا يُسْـتَأذَنُونَ وَهُـمْ حُضُورُ

وباختصار . . علينا أن نُعِد أنفسنا لنشارك فى بناء الحياة .

هذا . . ويقول الإمام البقاعى فى سر تقديم آية الوعيد على آية الوعد : « ولما قدم درء المفاسد الذى هو من باب التخلى ، أتبعه جلب المصالح الذى هو من طراز التحلى ، وفى هذا أن الإسلام يعنى بطهارة القلب ، واليد التى يُعِدها لتعمير الأرض والعمل الصالح ، حتى تكون عمارة لا دنس فيه ، ولا ضلال » .

وينظر الإمام البقاعى إلى الفرق بين لفظ « يَقْنُتْ » ولفظ « وَتَعْمَل » ، فيجد الأول قد نظر إلى لفظ « مَن » ، فجاء على التذكير ، والثانى قد نظر إلى معنى « مَن » فجاء على التأنيث ، ويُفسِّر ذلك بأن القنوت عمل من أعمال القلب ، ويمكن للنساء أن يبلغن فيه الغاية التى يبلغها الرجال ، فلذلك جىء معه بضمير المذكر الذى لحظ لفظ « مَن » ، أما العمل الذى هو من عمل الجوارح ، فإن طاقة المرأة فيه لا تبلغ طاقة الرجل ، فهى مهما عالجت من العمل ، وشقت على نفسها فيه لن تبلغ نهاية ما يبلغ الرجل ، الذى يشق على نفسه ، ولذلك جاء فى فعل العمل بالتأنيث ، ليشير إلى هذه الحقيقة ، وهذا تدقيق فى الفهم لو نقلناه إلى مجالات شرح النصوص لكان لنا منه منهج ، أما قراءة حمزة بالياء فى الفعلين ، فإنها حث لهن على منازل الرجال ، ليبلغنَ فى العمل الطاقة ، وهذه لفتة ذكية ، وإن غضب منها بعض المتنورين ، الذين ينافقون الحضارة والمرأة ، ويزعمون أن الله فطرها على مثل ما فطر الرجل ، ولا أجهل أن من بينْ النساء مَن تسبق كثيراً من متخلفى الرجال ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

فى ميادين مختلفة ، بل إننى أجد فى ميدان عملى بعض الطالبات أقدر على فهم اللُّغة وعلومها ، التى قالوا عنها إنها صعبة ، من كثير من الطُّلاب ، ولكن الكثرة فى النبوغ ، والتفوق ، يظل لواؤه فى يد الرجل ، وضعف المرأة عموماً لا يخطئه الرجل البصير الذى تُتاح له معرفة مستوياتهن الثقافية ، والاجتماعية العالية ، وكان علماء اللُّغة صادقين فى فهم الفطرة ، حين هَدُوا إلى أن التأنيث ، يعطى معنى اللين والرخاوة ، كما أن التذكير يعطى معنى القوة والصلابة ، ويذكر المفسِّرون أن القرآن يجئ بأوصاف آلهة الوثنيين ، على صفة التأنيث ، أحياناً كقوله : ﴿ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ (١) ليضعفها ويعجزها ، زيادة تضعيف ، وتعجيز ، لأن الأُنوثة من باب اللين ، والرخاوة ، كما أن الذكورة من باب الشدة ، والصلابة . وتراهم يقولون : إنه يقال فى وصف المولى سبحانه : « علام » ، ولا يقال : علامة ، وإن كان العلامة - بالتاء - أبلغ ، وذلك لصيانة الرب عن شبهة التأنيث .

* * *

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ، إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً * وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ، وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً * وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ ، إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً ﴾ (الآيات : ٣٢ - ٣٤) .

* *

قوله : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ يتكرر فيه النداء إلى أمهات المؤمنين ، فيؤكد بهذا التكرار أهمية الغرض الذى يُساق من أجله

---

(١) الزمر : ٣٨

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الحديث ، وهو تنقية الأخلاق ، وتهذيب السلوك ، ويتكرر هنا حرف النداء الذى يُستعمل مع المنادَى البعيد ، ليكون امتداد الصوت مؤذناً بالبلاغ ، والذى ينادِى - سبحانه - قريب من كل منادَى ، ولا زالت الآيات تذكر أمهات المؤمنين بلفظ النساء ، ليكون هذا اللّفظ وحياً إلى نساء الأرض ، وإلى أنهن - من وراء أمهات المؤمنين - يتجه إليهن الخطاب مهذباً وموجهاً ، والدرس - فى هذه الآيات - يشرح وسيلة الصيانة ، والعفاف .

ويبدأ الدرس بالتنويه والثناء على أمهات المؤمنين ، ورفع منزلتهن عن النساء جميعاً ، فيقول : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ ، وقد ذهب المفسِّرون فى تحديد معناه مذهبين ، قالوا : المراد ليس كل واحدة منكن كشخص واحدة من النساء ، أى من نساء عصركن ، أى كل واحدة منكن أفضل من كل واحدة منهن ، لما امتازت بشرف الزوجية لرسول الله ﷺ ، وأمومة المؤمنين ، فـ « أحد » باق على كونه وصفاً لمذكر ، إلا أن موصوفه محذوف ، ولا بد من اعتبار الحذف فى جانب المشبه ، كما أشير إليه بالتقدير ، أى لشخص واحد ، وإذا كانت كل واحدة منهن أفضل من كل واحدة من نساء عصرها ، فإن ذلك لا ينقص فضل فاطمة الزهراء ، بنت رسول الله ﷺ ، وأخواتها ، لأن أفضلية عائشة ، وحفصة ، وسَوَدة ، وزينب ، وصفية ، وغيرهن إنما كانت من جهة الزوجية ، وأُمومة المؤمنين ، ما دام قد تحقق شرط التقوى ، لا من سائر الحيثيات ، فلا يتعارض مع كون فاطمة وأخواتها ، أفضل لبعض الحيثيات الأخرى ، ففاطمة من حيث كونها بنت محمد ﷺ أفضل من عائشة من حيث كونها بنت أبى بكر ، وعائشة من حيث كونها زوجة محمد عليه السلام ، أفضل من فاطمة من حيث كونها زوجة علىّ كرَّم الله وجهه ، قالوا : إن بناته عليه السلام ، إذا نُظِر إلى أنهن بضعة منه ، فهن أفضل من الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين ، والمسألة مسألة اعتبارات وحيثيات كما قالوا . . هذا وجه فى بيان المعنى .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

والوجه الثانى يقول - كما يقرر الزمخشرى - : المراد بقوله : ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ : لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء ، أى إذا تقصيت أمة النساء ، جماعة جماعة ، لم يوجد بينهن جماعة واحدة تساويكنّ فى الفضل ، والسابقة ، وليس فى الآية دلالة على أن كل واحدة منهن ، أفضل من كل واحدة من نساء عصرها ، لأن المعتبر هنا جماعة نساء النبى ، لا واحدة واحدة ، و« أحد » جاء فى سياق النفى ، فاستوى فيه المذكر والمؤنث ، والواحد وما وراءه ؛ وهذه دقيقة فتنبَّه إليها .

أما كلمة « أحد » وأصل حروفها ، فقد ذكروا فيها وجهين :

الأول : ما ذهب إليه أبو على الفارسى وجماعة ، من أن ألف « أحد » الواقع فى النفى العام أصيلة وليست منقلبة .

والثانى : ما ذهب إليه الرضى والزمخشرى قالوا : إن ألف « أحد » منقلبة عن الواو ، سواء أكانت فى النفى أو الإثبات ؛ وقالوا فى ترجيح هذا الرأى : إنهما - أى « أحد » الواقع فى النفى والواقع فى الإثبات - صورتهما واحدة ، ومعنى الوحدة قائم فيهما ، والواو فى الوحدة أصلية ، فيلزم أن تكون هذه الواو أصلاً ، للألف فيهما ، وجعل الواو أصلاً لواحدة دون الأخرى تحكم ، ثم زعم الألوسى أن الله قد أطلعه على فرق بين الوحدة فى « أحد » المستعمل فى النفى العام ، والمستعمل فى الإثبات ، وبذلك يضعف ما رجح به الوجه الثانى ، قال : قد أطلعنى الله تعالى على جوابه ، وهو أن « أحد » الذى لا يُستعمل إلا فى النفى ، معناه : « إنسان » بإجماع أهل اللُّغة ، و« أحد » الذى يُستعمل فى الإثبات معناه الفرد من العدد ، فإذا تغاير معناهما تغاير اشتقاقهما ، لأنه لا بد فيه من المناسبة بين اللَّفظ والمعنى ، ولا يكفى فيه أحدهما ، فإذا كان المقصود به الإنسان فهو الذى لا يُستعمل إلا فى النفى ، وهمزته أصلية ، وإن قُصد به العدد ، ونصف الاثنين ، فهو الصالح للإثبات ، والنفى ، وألفه منقلبة عن واو .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

والواقع أن المتأمل فى « البحر المحيط » يدرك أن هذا الذى أطلع الله الألوسى عليه مأخوذ من كلام أبى حيان ، والمهم أن المشهور هو أن همزة « أحد » الواقع فى النفى العام أصلية ، كما قال أبو على ، وهمزة « أحد » الواقع فى الإثبات منقلبة عن الواو .

قال الراغب : ويُستعمل « أحد » فى الإثبات على ثلاثة أوجه : استعماله فى الواحد المضموم إلى العشرات ، كأحد عشر ، وأحد وعشرين ، واستعماله مضافاً إليه بمعنى الأول نحو : ﴿ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي ﴾ (١) ، وقولنا : يوم الأحد ، واستعماله وصفاً ، وهذا لا يصح إلا فى وصفه تعالى شأنه ، أما أصل « أحد » - أعنى كلمة وحد - فقد يُستعمل فى وصف غيره سبحانه كقول النابغة (من البسيط) :

كـأنَّ رَحْـلِي وَقَدْ زَالَ النَّهَـارُ بِنَا … بِذِى الْجَلِيلِ عَلَى مُسْتَأْنِسٍ وَحَدِ

وبعض المعربين يقطع قوله تعالى : ﴿ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ عن الكلام الوارد بعده ويجعل الفاء فى قوله : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾ واقعة فى جواب الشرط ، ويفيد هذا أن فضل أُمهات المؤمنين فى الآية على نساء الأرض ، ليس مشروطاً بقوله : ﴿ إنِ اتَّـقَـيْتُنَّ ﴾ ، وإنما هو تنويه بهن ، وبمنزلتهن عند الله ، وثناء عليهن ، وقوله بعد ذلك : ﴿ إِنِ اتَّقَـيْـتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾ كلام وارد مورد الإشارة ، والتهيج ، لأنهن مبرءات عن التخضع بالقول ، وملاينة الحديث للغرباء ، ووراء هذه الإشارة ، نهى مؤكد لنساء المسلمين عن الخضوع والملاينة ، وانظر إلى ارتباط التقوى بالنهى عن التخضع ، وملاينة الحديث ، وإشارة هذا إلى أن ملاينة الحديث بين الرجال والنساء ، دليل على أن مهابة الحق وجلال الدين قد سقط من القلوب ، ثم انظر إلى موقع هذه الجملة : ﴿ إِنِ اتَّقَـيْـتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾ بعد الثناء

---

(١) يوسف : ٤١

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

البالغ فى قوله : ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ ، وإشارة ذلك إلى أن منزلتكن السامية عند الله ليس فيها غناء عن التذكير ، والإثارة ، للاستمساك بمثل الخير ، وملاحظة النفس ، وأخذها على الطريق القويم ، وفيه قرع العصا لنساء الأرض ، من جهة أن هذا الأسلوب الحاسم فى النهى عن التخضع والملاينة ، وربطه بالتقوى ، قد ورد موجهاً إلى الطاهرات ، بعد بيان فضلهن على النساء جميعاً ، فماذا يكون الحال بالنسبة لغيرهن ؟ هذا واضح حين تكون الفاء فى قوله : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ ﴾ واقعة فى جواب الشرط .

أما إذا قلنا : إن قوله : ﴿ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ﴾ شرط جوابه محذوف دل عليه قوله : ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ ﴾ ويكون حينئذ نفى المثلية فى قوله : ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ ﴾ مشروطاً بالتقوى ، فإن الكلام يفيد أن فضلهن مشروط بالتقوى ، وأن منزلتهن عند الله رهن بها ، فليس بين السماء والأرض إلا معراج واحد ، هو تربية المهابة فى القلوب ، أعنى يكون دلالة التركيب على هذا المعنى أوضح وهو نص فيه .

وأصل الخضوع الطأطأة ، والتطامن ، ومنه : ظليم أخضع ، وبعير فى عنقه خَضَعٌ - بفتحتين ، وقالوا : خضعت الإبل فى سيرها : أى جدَّت ، وهو من المجاز المرسل ، لأن الخضوع - أى تطامن الأعناق - لازم من لوازم جدِّ الإبل فى سيرها ، وذل الرجال وخضوعهم ، يظهر كذلك فى أعناقهم ، ومن هنا قالوا : خضعت أعناق بنى فلان ، إذا ذَلُّوا ، ومن أحسن ما لوحظ فيه ذلك قوله تعالى : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ (١) .

انظر فى هذا التصوير الفذ ترى أعناق الصيد من قريش ، وأئمة العناد ، متطامنة لهذه الآيات ، مستسلمة خاضعة ، ولا نهمل قوله : ﴿ فَظَلَّتْ ﴾

(١) الشعراء : ٤

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ودلالتها على أن استسلامهم لهذه الآيات وقع فى سرعة فائقة ، حتى كأن الخضوع قد وقع بمجرد المشيئة ، أو قبلها ، ثم انظر إلى هذه الفاء ، ودلالتها على وقوع ذلك سريعاً ، وبلا إمهال ، فالسرعة يؤكدها فى التعبير أمران : الأول الفعل الماضى ، والثانى هذه الفاء .

المراد بالخضوع فى الآية كما بيَّنا فى الشرح ملاينة الحديث ، وهم يقولون : خضع الرجل وأخضع ، يريدون ألان كلامه للمرأة ، قال ابن الأعرابى : والرجل يخاضع المرأة وهى تخاضعه ، إذا خضع لها بكلامه ، وخضعت له ، « وقد نهى النبى ﷺ أن يخضع الرجل لغير امرأته ، أى يلين لها فى القول بما يُطمعها ، ولا شىء فى أن تخضع المرأة فى القول لزوجها ، وكان المجتمع الأول يضرب على أيدى الخاضعين ، والخواضع ، ليحفظ بذلك نقاء الأُمة ، ويصون شرفها ، وطُهْرها ، وأنسابها ، وقد أهدر عمر حق الرجل الذى لاين امرأة فى القول ، ضربه مسلم حتى شجه ، قالوا : مرَّ رجل فى زمان عمر رضى الله عنه برجل وامرأة ، قد خضعا بينهما حديثاً ، فضربه الرجل حتى شجَّه ، فرُفع إلى عمر رضى الله عنه فأهدره » ، وهكذا كان المسلمون فى مجتمعهم حُرَّاساً على الأخلاق أو آداب الإسلام .

وكان الحاكم المسلم من وراء هؤلاء الجنود الأيقاظ يحمى ، ويدفع ، وبقى أن نؤكد أن نهى نساء النبى عليه السلام عن الخضوع بالقول لا محل له ، وأنهن حافظات ، ولكن النهى وُجِّه إليهن ، لحكمة عالية تشير إلى أن حفظ الأُمة من هذه الناحية من الأُمور الحاسمة ، التى تُؤخذ فيها بكل حيطة ، فلا ينخدع المجتمع ، ولا تنخدع الأُمة بشىء ما ، وإن جَلَّ وعظم ، يجعلها تتهاون فى هذا الحفظ ؛ فالمرأة وإن علت قيمتها العلمية ، والأدبية ، يجب أن تأخذ نفسها كأُنثى بآداب هذا الدين ، فلا تلين القول ، ولا تخضع ، فإن ذلك يُطمع قلوب الرجال ، وليست الملاينة هى حديث الريبة فحسب ، وإنما

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

هى تلوين الصوت والتكسر فيه وتحسينه ، ولو كان الحديث فى أمر من أمور العلم والدين ، كما يُفهم من إطلاق التخضع ، وفاء السببية التى فى قوله : ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ مؤذن بأن الملاينة وتحسين الصوت ، وترقيقه ، والتصنع فيه ، سبب يُطمع الرجال ، ولو كانت المتحدثة من فضليات النساء ، وفى جو كله نقاء ، الآية تنهى أمهات المؤمنين نهياً حاسماً عن التخضع والملاينة ، وهُنَّ فى زمن الغُرِّ الميامن من صحابة رسول الله ﷺ .

وقد قرأ أبان بن عثمان وابن هرمز : « فيطمع » - بالجزم وكسر العين لالتقاء الساكنين .

قال الألوسى : « وهو عطف محل فعل النهى على أنه لنهى مريض القلب عن الطمع ، عقيب نهيهن عن الخضوع بالقول ، كأنه قيل : فلا تخضعن بالقول ، فلا يطمع الذى فى قلبه مرض » .. انتهى كلامه .

يعنى أن القرآن فى هذه القراءة يوجه النهى الموعد إلى الرجل ليواجه فى نفسه وسوسة الجنس ، بالقطع والحسم ، بقوله : « فيطمع » - بالسكون ، بعد ما وجَّه النهى إلى المرأة ، وقال : « فلا تخضعن » .

وقوله : ﴿ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ﴾ قال الضحاك : عفيفاً ، وقال الكلبى : صحيحاً بلا هُجر ولا تمريض ، وقيل : حسناً ، بعيداً عن الريبة ، غير مطمع لأحد ، وقيل : قَوْلٌ أذنَ لَكُنَّ فيه ، وقيل : ذِكْرُ الله وما يحتاج إليه من الكلام ، والجملة تسع كل هذه المعانى ، وأكثر منها ، لأنها لم تحدد القول المعروف بشيء معين ، وإنما أطلقته ليشمل كل قول ، واضح مكشوف ، متعالم ، فى باب الخير والفضيلة ، ولعل هذا الأمر جاء ليواجه فى حياة المجتمعات ضروباً من الأخلاق ، والسلوك ، صوَّر الشعر العربى صوراً منها حين ذكر اللَّحن فى القول ، والإماء من الجوارى الحسان ، ورأى ذلك أمارة الظرف ، قال مالك بن أسماء الفزارى :

مَنْطِقٌ رائعٌ وتَلْحَنُ أحْيَاناً وَخَيْرُ الحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْناً

قالوا : أراد مالك أنها تتكلم بالشيء ، وهى تريد غيره ، وتعرض حديثها ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

فتزيله عن جهته من فطنتها ، وذكروا المرأة الرَّمارة أى ذات الصوت الخفى كالهمس ، والتى تحرك شَفَتَيْها بالكلام غير المفهوم باللَّفظ ، من غير إبانة ، أو التى تشير ، وتومىء بالعينين والحاجب ، ويكون ذلك فى باب الفجور والخنا ، قال الأخطل :

* رَمَّازَةُ مَالَتْ لِمَنْ يَسْتَمِيلُهَا *

ولا زالت هذه الصور الكريهة تنوء بها أخلاق الأمم ، ولا زال الرمز ، واللَّحن ، والإيماء لغة ذوات الخنا ، وقد جاء أمر السماء يخاطب أطْهر نساء الأرض ، بأن يقلن قولاً معروفاً فى باب الأخلاق ، والشرف ، ليستأصل شأفة هذا الداء فى حياة الناس ، وليضرب على أيدى العابثات ، ويكفح تلك الوجوه المتبجحة ، والتى تزعم زوراً أن مثله من خفة الروح البريئة ، وقوله : ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾ قُرئت بفتح القاف قالوا : وهو من قَرَّ بالمكان يقر من باب عَلِم ، وأصله اقْرَرْن - كاعلمن - فحذفت الراء الأولى ، ونقلت فتحتها إلى القاف الساكنة واستغنى عن همزة الوصل ، فصارت : « وقرن » ، والمعنى أمرهن رضى الله عنهن بالقرار فى بيوتهن ، ألا يخرجن منها إلا لحاجة ، وليس أمراً بالقرار مطلقاً ، وتحريماً للخروج ، فقد ثبت أنهن كن يخرجن مع رسول الله ﷺ ، بعد نزول الآية ، فى الحج ، والعُمْرة ، وكذلك صحبن رسول الله ﷺ فى الغزوات ، ولم يفهم أحد من الصحابة أن هذه الآية أمر يَحْبِسُ النساء فى البيوت ، وقد قرأنا فى تاريخ الإسلام أن نسيبة بنت كعب المازنية ، وكانت من فضليات المؤمنات ، قاتلت دون رسول الله ﷺ يوم أُحُد ، ورمت من ورائه بالقوس ، حتى أصابها اثنا عشر جرحاً ، ما بين ضربة بسيف ، وطعنة برمح ، وينادى الرسول عليه السلام ولدها ويقول : « يا ابن أم عمارة ؛ أمك أمك ، اعصب جرحها ، بارك الله عليكم من أهل بيت ، مقام أُمك خير من مقام فلان وفلان » . وقرأنا أيضاً فى تاريخ الإسلام أن الصِدِّيقة بنت الصِدِّيق خرجت مع طلحة ، والزبير ، لما سمعت بانضمام قتلة

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

عثمان إلى علىّ كرَّم الله وجهه ، لتعمل جمع شمل المسلمين ، ووأد الفتنة التى أثارها رجال من أهل الضلالة ، ولم يكن خروجها لقتال علىّ كرَّم الله وجهه وإراقة دماء المسلمين .

فليس الأمر بالقرار فى البيوت حبساً مطلقاً ، وإبعاداً لها من ميادين الحياة خارج البيت ، وإنما هو إشارة إلى أن رسالتها الكبرى هى البيت ، تحتضن فيه ناشئة الأمة ، وتُذْكى روح الطفولة بالخير ، وتُنَقِّى كيانها ، وتنشئها فى أحضان الوضاءة والنور ، وتعطى طفولة الإنسان حقها من الرعاية والحفظ .

وليس ذلك هضماً للمرأة ، ولا تجاهلاً لأهميتها فى الوجود ، وإنما هو تكريم لها من حيث كلَّفها بأدق عمل فى حياة البَشرية ، وهو صنع الإنسان نفسه ، ولو أحسنت أداء هذا الواجب ، وقدَّمت لأمتها جيلاً نقياً، طاهراً ، واعياً قادراً ، لكان ذلك أسرع فى تغيير الحياة ، والرقى بها من كل جهد آخر .

ويقول الأستاذ أبو الأعلى المودودى فى هذا الشأن : « وصفوة القول أن خروج المرأة من البيت لم يُحمَد فى حال من الأحوال ، وخير الهَدْى لها فى الإسلام أن تلازم بيتها كما تدل عليه آية : ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾ دلالة واضحة ، ولكنه لم يُشدِّد الإسلام فى هذا الباب تشديداً لكون خروج المرأة من بيتها قد يكون من اللازم فى بعض الأحوال ، كأن لا يكون لها قَيِّم من الرجال ، أو تضطر إلى العمل خارج البيت لخصاصة فى الأسرة ، أو ضآلة معاش القَيِّم ، أو عجزه ، أو سبب آخر من هذا القبيل ، فكل هذه الأوضاع والأحوال ، قد جعل لها فى القانون مندوحة ومتسعاً ، وجاء فى الحديث : « قد أُذِن لكنَّ أن تخرجن فى حوائجكن » ، ولكن مثل هذا الإذن قد مُنحته المرأة مراعاة للأحوال والضروريات فحسب ، لا يغير شيئاً من القاعدة الرئيسية فى نظام الاجتماع الإسلامى وهو أن دائرة عمل المرأة هى البيت ، وليس الإذن بخروجهن منه إلا رُخْصة وتيسيراً ، فيجب ألا يُحمل على غير معانيه ، ومقاصده » .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ويقول فى موضع آخر : « إنه يجب أن يُتاح للمرأة كل الفرص التى تستطيع بها أن تنمى كفاءتها ومواهبها الفطرية ، فى حدود النظام الاجتماعى بأكثر ما أمكنها ، وتقوم بنصيبها من العمل لتعمير التمدين على أحسن وجه ممكن . ويجب أن يكون من الممكن الميسور لها أن تبلغ أعلى مدارج النجاح ، والرقى ، ويجب مع ذلك أن يكون كل رقيها ، ونجاحها ، من حيث هى امرأة ، إذ ليست محاكاتها للرجال من حقوقها الواجبة ، وليس مما ينفع التمدين ، أو المرأة نفسها أن تُهَيأ ، وتُعَد لتحيا حياة الرجال ، ولا هى تستطيع أن تنجح فى ذلك النمط من الحياة » .

ويقول الأستاذ العقاد رحمه الله : « ولا تحسب أن المجتمع الإنسانى ناج من مشكلاته المعقدة فى سياسة الأمة ، وسياسة البيت ، وسياسة الحياة الفردية ، حتى يثوب إلى هذا التقسيم الطبيعى الذى لا محيص عنه ، فيعمل الرجال عمل الرجال ، ويعمل النساء عمل النساء ، وتقام دولة المرأة فى البيت ، ودولة الرجال فى معترك الحياة » .

ويقول : « وسياسة الدولة كلها ليست بأعظم شأناً ، ولا بأخطر عاقبة ، من سياسة البيت ، لأنهما عدلان متقابلان ، عالَم العراك والجهاد ، يقابله عالَم السكينة والاطمئنان ، وتدبير الجيل الحاضر ، يقابله تدبير الجيل المقبل ، وكلاهما فى اللزوم ، وجلالة الخطر سواء » .

وإنه ليفزعنى أن أسمع من بعض المتسبين إلى الإسلام أن المرأة تخرج من بيتها ثلاث مرات ، مرة لبيت الزوج ، ومرة للحج ، ومرة للقبر ، وهذا غريب ومغاير لطبائع البَشر وتاريخ الإسلام ، وقد ذكرنا خبر الصحابية الجليلة التى وقفت فى المعمان ترمى وتناضل .

وذكر أبو الفتح الهمدانى فى كتاب « البيان » أن قوله : ﴿ وَقَرْنَ ﴾ بفتح الأول مأخوذ من قار يقار إذا اجتمع ، ومنه القارَّة لاجتماعها ، والمعنى حينئذ : اجمعن أنفسكن فى البيوت ، أى ليكن هذا البيت ، وأعماله ، من راحة زوج مكدود ، ورعاية طفولة ، هدفاً لأنفسكن تجتمعن حوله ، لا تريم عنه نفوسكن ولا تحول .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وقرأ الأكثر : « وقِرْن » بكسر القاف من وقر يقر ، كوعد يعد إذا سكن وثبت ، وأصله من الوقر وهو الحمل ، ويقال لما يحطه الحمار ، والبغل : وِقرٌ ، ولِمَا يحمله البعيرُ : وَسْقَ - بفتح الأول - وقالوا : أوقر البغل ، والحمار ، أى حمل عليهما وقراً ، وأوقرت النخلة إذا أثقلها حملها ، وقالوا : أوقره الدَيْن ، أى أهمَّه ، وأجهده ، وقالوا فى ذى الحِلْم والأناة والرزانة : وقور ، فلحظوا فيه معنى الثقل ، والقرار ، قال فى اللّسان : وقوله : ﴿ وَقِرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾ هو من الوقار ، وهذا يعنى أنه أمرٌ للنساء بالتحلى بالرزانة ، والحِلْم ، والوقار ، فى بيوتهن وبين ولائدهن ، ليكنّ ملهمات بسلوكهن وحياتهن . . وقد أثار الفقهاء حول الإضافة التى فى قوله : ﴿ بُيُوتِكُنَّ ﴾ معنى ذكياً ، فقالوا : إن مَن بَنَى بيتاً لزوجته ، وأقبضها إياه ، كمن وهب زوجته بيتاً ، وسلَّمه إليها ، أى يصير مِلْكاً لها فى الحالين ، فالبيوت كأنها ملك للنساء ، وهذا حثٌ لهن على العناية بالبيوت ، والحفاظ عليها ، وقد احتجوا لهذا بأن نساء النبى عليه السلام ملكن بيوتهن بعد وفاته عليه السلام ، ولو كانت بيوت نسائه ملكاً له لآل ملكها إلى بيت المال بعد وفاته ، لأنه عليه السلام لا يورث ، لقوله : « نحن معاشر الأنبياء لا نُورَث » ، والثابت أن عمر رضى الله عنه ، استأذن عائشة فى دفنه فى حجرتها ، وكذلك الحسن ابن علىّ رضى الله عنهما ، ولو كانت حجرتها لبيت مال المسلمين لكان لعمر التصرف من غير إذنها ، ولا استأذن الحسنُ الوزغَ ابن مروان لأنه كان يحكم المدينة ، وصاحب الرأى فى بيت مالها . وقوله : ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ ، قال مجاهد وقتادة وابن أبى نجيح : التبرج : تبختر ، وتكسر ، وتغنج ، وقال مقاتل : أن تُلقى المرأة خمارها على رأسها ، ولا تشده ، فيوارى قلائدها ، وقرطها ، وعنقها ، ويبدو ذلك كله منها ، وقال المبرد : أن تُبدى من محاسنها ، ما يجب عليها ستره ، وقال الليث : يقال : تبرجت المرأة ، إذا أبدت محاسنها من وجهها وجسدها ، ويرى مع ذلك من عينيها حسن نظر ، وقال أبو عبيدة : أن تُخرِجَ من محاسنها ما تستدعى

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

به شهوة الرجال ، وفى اللّسان : البرْج - بسكون الراء - تباعد ما بين الحاجبين ، وكل ظاهر مرتفع فقد برج ، وإنما قيل للبروج بروج لظهورها ، وبيانها ، وارتفاعها ، وحين نتأمل ما رويناه عن أئمة المفسِّرين ، وما نقلناه من اللّسان ، نلحظ أن المعنى المشترك بينها جميعاً هو الانكشاف والظهور ، وهو ظاهر فى قول مقاتل والمبرد والليث وأبى عبيدة ، والتبختر والتكسر - فى قول مجاهد - ضروب من إبداء الزينة ، وإظهارها .

و« الجاهلية » مصدر صناعى من كلمة الجهل ، والغرض من المصادر الصناعية فى لُغة القوم الدلالة على الخصائص ، والصفات ، والأحوال المختلفة للاسم الذى لحقت به ، فكلمة « رجل » تدل على ذكر من بنى آدم ، أى على حقيقة الرجل ، وكلمة « رجولية » تدل على خصائص الرجل من الفتاءة ، والصلابة ، والشهامة ، والمروءة ، وحفظ الحُرْمة ، وشرف النفس ، وصدق اللّهجة . . . إلى آخر هذه المعانى التى نستوحيها من كلمة الرجولية .

وكلمة « الجهل » تدل على الحقيقة التى تغاير العلم والمعرفة ، و« الجاهلية » تدل على خصائص الجاهل من ضلال النفس ، وجحود القلب ، والتنكر للفضائل والقِيَم فى حياة الإنسان . وروى صاحب بلوغ الأرب عن ابن خالويه : أن هذا اللّفظ اسم حدث فى الإسلام للزمن الذى كان قبل البعثة ، قال العسقلانى فى شرحه للبخارى : وهذا هو الغالب ، ومنه : ﴿ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ (١) .

وقد اختلفت الأقوال فى تحديد زمن « الجاهلية الأولى » : فقيل : هى ما بين آدم ونوح عليهما السلام ، وقيل : ما بين نوح وإدريس عليهما السلام ، وقد روى هذا عن ابن عباس .

وقيل : ما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام .

---

(١) آل عمران : ١٥٤

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وقال مقاتل : « الجاهلية الأولى » كانت زمن نمرود ، وكان فيه بغايا يلبسن أرق الدروع ، ويمشين فى الطرق .

وقال أبو العالية : كانت « الجاهلية الأولى » زمن داود وسليمان عليهما السلام .

وكما كثرت الأقوال فى تحديد زمانها كثرت كذلك فى تفسيرها ، وبيان مظاهرها ، فقالوا : إن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل ، والآخر يسكن الجبل ، وكان فى رجال الجبال صباحة وجمال ، وفى النساء دمامة ، وكان نساء السهل ورجاله على العكس ، فاتخذ أهل السهل عيداً يجتمعون إليه فى السنة ، فتبرج النساء للرجال ، والرجال لهن ، وتستطرد الرواية استطراداً خيالياً فتقول : ثم هجم رجل من أهل الجبل عليهم فى عيدهم ، فرأى النساء وصباحتهن ، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحوَّلوا إليهن ، فنزلوا معهن ، فظهرت الفاحشة فيهن ، وروى غير ذلك فى تفسير هذه الجاهلية ، وكلها روايات فى ضباب التاريخ ، ومعتمدة فى ظننا على التوهم أو التخيل .

والذى يرجحه أكثر العلماء فى تحديد زمان « الجاهلية الأولى » ما ذهب إليه الشعبى من أنها ما بين عيسى ومحمد عليهما السلام ، قال الزجَّاج : وهو الأشبه لأنهم هم الجاهلية المعروفة كانوا يتخذون البغايا ، ووُصِفت بـ « الأُولى » ، لأنه يقال لكل متقدم : أول ، ولكل متقدمة : أُولى .

قال الزمخشرى : أو يجوز أن تكون « الجاهلية الأولى » جاهلية الكفر قبل الإسلام . وقال ابن عطية : « الذى يظهر عندى أن « الجاهلية الأولى » ، إشارة إلى الجاهلية التى تَخُصُّهم ، فأُمِرْنَ بالنُّقْلَةِ عن سِيرَتِهِنَّ فيها ، وهى ما كان قبل الشرع ، من سيرة الكفر » .

والمهم أن هذه الجاهلية تعنى مجموعة من الخصائص الأخلاقية التى قضت عليها شرائع الأنبياء ، فإذا ما ظهرت هذه الانحرافات ، وسادت هذه العوائد والأخلاق ، فإنها تسمى جاهلية ، ولو كانت فى زمن الحضارة والتمدين ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وقد قال صاحب « بلوغ الأرب » : الجاهلية المقيدة قد تقوم فى بعض ديار المسلمين ، وفى كثير من الأشخاص المسلمين ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « أربع فى أُمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الْفَخْرُ بالأحْسَابِ ، والطعنُ فى الأنْسَابِ ، والاستسقاءُ بالنجومِ ، والنِّيَاحة » .

وقال الزمخشرى : « الجاهلية الأخرى » - أى التى تقابل الجاهلية الأولى - جاهلية الفسوق ، والفجور فى الإسلام » .

وقد أشار الرسول عليه السلام إلى جاهلية الأخلاق والسلوك حين قال لأبى ذر ضى الله عنه لما عيَّر رجلاً بأمه : « إنك امرؤٌ فيك جاهلية » .

وقد كتب بعض المعاصرين فى جاهلية هذا الزمان ، أى فى عوائد الجاهلية وأخلاقها التى سادت فى هذا الزمان ، وموقف الإسلام منها ، كتب فى ذلك أبو الأعلى المودودى ، وعالج قضية الجاهلية المعاصرة فى العقيدة ، والسلوك ، والأخلاق ، فى كتابه القيم « تاريخ تجديد الدين وإحيائه » ، وفى كتاب « الحجاب » و« الإسلام والجاهلية » .

وكتب الأستاذ محمد البهى دراسة مستفيضة بيَّن فيها العلاقة الواضحة بين عوائد الجاهلية الأولى التى أشرنا إليها ، وبين عوائد فى السلوك والأخلاق فى عواصم أوروبا ، كما جاء وصفها بأقلام كُتَّابهم ، ومن أبرزها صور أنكحة الجاهلية مثل نكاح البدل ، ونكاح المتعة ، ونكاح الخدان ، ونكاح الصداقة ، ونكاح الرهط ، ونكاح الاستبضاع ، وغير ذلك من صور هذه الأنكحة قائمة بوضوح فى العواصم الأوروبية المتحضرة ، وأسماؤها عندهم قريبة إلى حد بعيد من هذه التسمية القديمة ، وخصوصاً نكاح البدل .

وفى ضوء هذا نقول : إن تبرج المرأة ، وانكشافها ، وتكسرها ، حيث يوجد فهو جاهلية ، ومظهر من مظاهرها ، وخُلُق من أخلاقها ، وهذا النهى الحاسم فى قوله : ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ ﴾ - وإن كان خطاباً لأمهات المؤمنين - فهو دعوة إلى وجوب تطهير المجتمع المسلم من عوائد الجاهلية ، ومطاردة كل مظهر من مظاهرها ، فى حياة المسلمين ، ومن توجه النهى

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

لأمهات المؤمنين فائدة جليلة هى الإشارة إلى أن هذه الجاهلية قد تتقنَّعُ وتلبس ثوب الزور ، حتى يقع فيها خياركم من حيث لا يشعرون ، وإن كثيراً من ذوى الرأى فى الثقافة ، والفكر فى بلاد المسلمين ، قد صيغت عقولهم صياغة غير إسلامية فصاروا يدافعون عن عوائد الجاهلية ، بل ويتحمسون للدعوة إليها ، وخصوصاً ما يتعلق بالحجاب وقضايا المرأة .

ومهما قيل فى فلسفة التزين ، والتبرج ، فإنه ضرب من الجنس ونداء له ، والمرأة المتبرجة امرأة تستثير الغرائز فيمن يراها ، وتصير فى صورة مَن تسعد بأن تكون مرمى العيون الجائعة ، يشتهيها كل عربيد ، وتزنى بها كل عين ، والإسلام يرفض أن تكون هذه الحيوانية ، وهذه الجسدية المسعورة خُلُقاً من أخلاق المسلمات ، لأنه يرفع إنسانية المسلمة بآدابه ، وأخلاقه ، فوق مرتبة الحيوانية الدنسة الهابطة .

ويكافح الإسلام حيوانية الشهوة فى المجتمع المسلم ، ويغلق دونها كل باب . انظر إلى قول رسول الله ﷺ فى الحديث القدسى : « إنَّ النظرةَ سَهْمٌ من سِهَام إبْلِيسَ مَسْمُومٌ ، مَن تَرَكَها مَخَافَتِى أَبْدَلْتَهُ إيماناً يجد حلاوته فى قلبه » ، ويقول : « ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره ، إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها . . . » .

ويدعو عليه السلام إلى حفظ الجوارح من الدنس ، والفساد ، وينفر النفوس المؤمنة من فاحشة العين ، والأذن ، واللّسان ، والأطراف فيقول : « كُتبَ على ابن آدم حظُّه من الزِّنَا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العينين النَّظَرُ ، وزَنَا اللِّسان النطقُ ، وزَنَا الأُذُنَيْنِ الاستِمَاعُ ، وزَنَا اليدين البطشُ ، وزَنَا الرِّجْلَيْن الخُطَا ، والنفس تَمَنَّى وتَشْتَهِى ، والفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلك ، أو يُكَذِّبُهُ » .

وقوله : ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ ﴾ توجيه إلى تطهير النفس ، وتنقيتها من شوائب الشهوة ، والهوى ، وإرشاد إلى ما يُستعان به على

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

المحافظة على حدود الدين ، ومطاردة هواجس الشر ووسوسة الشيطان ، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهى وسيلة من أصح الوسائل ، وأصدقها فى تربية الباطن النظيف ، وخلق الشفافية الروحية التى تؤهل النفس لقبول أمر الله ، وتؤهل القلب للوجل ، والخوف ، والانكفاف عن ما يستوجب عقابه ، وقد جربها الناس فوجدوها صادقة فى هذا الباب ، لأنها ذِكر ، وذِكر الله أكبر من هواجس الشر ، ووسوسات الشياطين . وجاء الأمر بالصلاة بعد النهى عن التبرج ليشير إلى أن عدم إظهار الزينة ، وعدم الملاينة فى القول ، ليس وحده مقصود الشرع ، وإنما لا بد أن يكون وراء هذا الحجاب نقاء ، وطهارة ، ووضاءة ، ونظافة ، وخلو من كل دنس . والصلاة الصحيحة ، درس فى توجيه العزيمة ، والهمة ، والكيان كله إلى الله ، وابتغاء وجهه خاصة ، وكأن ذِكر الصلاة هنا ، وفيها معنى الخلوص المطلق لله ، يقول : ليكن هذا الحجاب استجابة لأمر الله ، لا مداهنة ، ولا رياء ، وليكن كالصلاة ، التى لا تتجه بها المسلمة إلا إلى الله ، وبهذا يبرأ المجتمع من نفاق الحجاب ، ومن دنس يكون وراء النقاب ، وتتخلص مظاهر الدين للدين نفسه ، وليس لألاعيب مسرح السياسة ، ويكون الدين لله .

وشىء آخر وراء هذا العطف ، فالصلاة التى هى فى الإسلام عماد الدين ، وسناده ، والتى هى فرق بين المؤمن ، والكافر ، والتى لعن الرسول تاركها ، وجار تاركها ، جاءت فى السياق مقترنة بالنهى عن التبرج ، وكأن صيانة المجتمع من دنس الفاحشة ، هو ركن فى إقامة كيان الأُمة ، كما أن الصلاة ركن من أركان الإسلام ، والوقوف بين يدى الله ، والتجرد الكامل له سبحانه ، ينفث فى نفس المسلم قوة من روح الله ، حين يتدرب فى مواقف الصلاة المتعددة ، على قصد وجهه وحده سبحانه ، وذلك يعطى مسلمة العصر ، دفعاً قوياً فى مواجهة ضلالات الجاهلية ، التى تغرى بالدنس ، والتبرج ، وتَزْوَرّ من العفاف والحجاب ، وقد قامت حملة على الحجاب من عبيد اليهود

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وفواسق النساء ، وكل هذا يؤدى إلى مزيد من الصمود والتمسك من جانب أهل الدين .

و« إقامة الصلاة» قالوا : معناه المحافظة عليها ودوام أدائها ، وهم يقولون : قامت السوق إذا كثر فيها البيع ، والشراء ، فهى سوق نافقة ، ورائجة ، ويقولون : قامت السوق وقعدت إذا كسدت ، قال الزمخشرى : إقامة الصلاة معناه : الدوام عليها والمحافظة كما قال عزَّ وعلا : ﴿ الَّذينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ [1] ، ﴿ وَالَّذينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [2] من قامت السوق إذا نَفَقَتْ وأقامها .. قال :

أَقَامَتْ غَزَالَةُ سُوقَ الضِّرَابِ   لأهْلِ الْعِرَاقَيْنِ حَوْلاً قَميطاً

لأنها إذا حوفظ عليها كانت كالشيء النافق الذى تتوجه إليه الرغبات ، ويتنافس فيه المحصلون ، وإذا أُضيعت وعُطِّلَتْ كَانَتْ كالشيءِ الكاسدِ الذى لا يُرغَبُ فيه .

و« غزالة » امرأة شبيب الخارجىّ ، وقد أشعلت الحرب ضد الحجاج ، لما قتل زوجها حَوْلاً كاملاً .

وقالوا أيضاً : إن إقامة الصلاة معناه تعديل أركانها ، وحفظها ، من أن يقع زيغ فى فرائضها ، وسننها ، وآدابها ، من أقام العودَ إذا قوَّمه ، وتكون الصلاة على هذا الوجه مشبهة بشيء محسوس يجرى فيه التقويم والاعتدال ، ونفى العوج ، ويكون قوله : « أقام » بمعنى قَوَّم وعدَّل لازم من لوازم المشبه به . وإقامة الصلاة بمعنى تقويمها ، والمحافظة على سننها وفضائلها ، تعبير له مغزى جليل ، من حيث إنه يفيد أن المعتبر فى هذه الصلاة هو أداؤها أداءً وافياً ، سليماً ، تُحفظ فيه كل فضيلة من فضائلها ، وفضائل الصلاة التى ذكرها الفقهاء ورويت عن رسول الله ﷺ وأصحابه كثيرة ، وأخذ النفس

---

(١) المعارج : ٢٣   (٢) المعارج : ٣٤

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

بالمحافظة على دقائقها فى اليوم خمس مرات درس نافع فى تربية النفس على الدقة الواعية ، والإتقان البصير ، ولأمر أراده الله تفرَّقت أوقاتها ، وتخللت ساعات العمل اليومى ، ليكون ذلك تدريباً على التركيز ، والوعى ، يشمل ساحة المجتمع المسلم كله ، فى مختلف مجالات نشاطه ، ولهذا المعنى فى لفظ الإقامة ، قالوا : إن كل موضع من مواضع مدح الصلاة ، والحث عليها جاء بلفظ الإقامة مثل : ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ﴾ (١) ، ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ (٢) ، ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ ﴾ (٣) ، ولم يقل : « الْمُصَلِّين » إلا فى المنافقين ، وقالوا أيضاً : إن المصلين كثير والمقيمين لها قليل .

و« الصلاة » : قالوا : أصلها فى لسان القوم : الدعاء ، وهذا هو المشهور فى كتبنا ، وإطلاقها على العبادة المعروفة ، لأن الدعاء جزء منها ، فالصلاة وإن كانت حقيقة شرعية فى هذه العبادة ، فهى مجاز عند اللُّغويين ، وأصله من إطلاق الجزء على الكل .

وقال الزمخشرى : إن أصل الصلاة من قولهم : حرك الصلوين ؛ لأن المصلى يفعل ذلك فى ركوعه وسجوده ، وقيل للداعى : مصلٍّ تشبيهاً له فى تخشعه بالراكع ، والساجد ، فالصلاة بمعنى الدعاء ليست حقيقة لُغوية ، وإنما الحققة اللُّغوية لهذا اللَّفظ عند التحقيق ترجع إلى هذا المعنى الحسى ، الذى هو تحريك الصلوين ، والصلوان مثنى « صلا » ، والصلا كما يقول الفيروآبادى : وسط الظهر منا ، ومن كل ذى أربع ، أو ما انحدر من الوركين ، أو الفرجة بين الجاعرة والذنب ، أو ما عَن يمين الذنب وشماله ، وقالوا للفرس الذى يجىء بعد السابق : مصل ، لأن رأسه يلى صلاة المتقدم ، أى ما اكتنف ذنبه ، وقال بعض اللُّغوين : صلى - بتضعيف اللام - معناه : أزال عن نفسه الصلاة - بكسر الصاد ، كما قالوا : قَرَّدَ البعيرَ : أى أزال قُراده ، ومرَّضه : أىَ أزال مرضه ، وقشَّره : أزال قشره ، والمصلى يزيل عن نفسه الصِلاة الذى هو الاصطلاء ، ومقاساة حر النار .

---

(١) النساء : ١٦٢ (٢) البقرة : ٢٧٧ ، فاطر : ٢٩ (٣) الأحزاب : ٣٣

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

و« الزكاة » فى لسان الشرع تدور حول النماء ، والزيادة - كقول : زَكَى ماله وزرعه (بالرفع) ، أى نما ، وقالوا : رجل زَكِىّ ، أى زائد فى الفضل والعقل ؛ وزكَّى نفسه أى نسبها إلى الزيادة فى الفضل ، والعقل ، وهذا مدح لها . قال تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [1] ، وأصل الكلمة : « زَكَوَةَ » على وزن فَعَلَة تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً فصارت زكاة ، وفى حديث علىّ كرَّم الله وجهه : « المال تُنقصه النفقة ، والعلم يزكو على الإنفاق » أى يزيد وينمو ، والزكاة تُطلق على القدر المعطى أى المزكَّى به ، كما يُطلق العلم على العلوم ، والخلق على المخلوق ، وقد أشرنا إلى مثله فى إطلاق الرد على المردود ، وتسمية هذه الفريضة « زكاة » يُقصد بها الحث على فعلها وإعطائها .

وليس المغزى من إخراج قدر معلوم من المال بشروط معلومة هو إطعام فقراء المسلمين ، وحمل معدمهم على الجماعة الموسرة فحسب ، وإن كان هذا المعنى جليلاً ، ومظهراً من مظاهر التكافل والتضامن الإنسانى الرفيع فى المجتمع المسلم ، وإنما يُقصد به مع ذلك تدريب النفس المالكة للثروة على العطاء ، والتضحية ، وتطهيرها من الشُّح ، وداء الطمع ، وكلما زادت الثروة زاد هذا القدر المحدود من الزكاة ، ليكون مقابلاً لما عساه يتجسد من خلائق الحرص والمنع ، والشُّح ، وغيرها مما يتولَّد فى ظل زيادة المال ، وقد كتب الأستاذ محمد البهى دراسة قيمة فى الزكاة والتكافل الاجتماعى فى كتابه « مشكلات الأسرة والتكافل » فليُراجع هناك .

وقوله : ﴿ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ معنى عام يدخل فيه : ﴿ أَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ، كما يدخل فيه : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ . . . ﴾ ، وغيره مما تقدم ، فكأنه ذكر هذه الأشياء جميعاً مرة ثانية ، وفى هذا التكرار الخفى ، توكيد وتثبيت لهذه المعانى فى القلوب ، وله مزية فى فضل الكلام وفصاحته ، يعنى أن آخر الكلام قد عاد إلى أوله ، واتصل به اتصال الكل

---

(١) النجم : ٣٢

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

بجزئه ، ثم إن ذكر طاعة الله بعد هذه الأوامر والنواهى ، له مغزى جليل هو الإشارة إلى فلسفة الإسلام فى إقامة السلوك ، وتحديد الواجبات والآداب ، وتكوين نظام الاجتماع فى الأمة المسلمة ، على أساس من طاعة الله ، ورسوله ، وتربية المهابة فى القلوب .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ تكريم بالغ من الله لأهل بيت نبيه الأطهار ، من حيث أن الله الذى فى قبضته ملكوت السموات والأرض يريد لهذا البيت أن يُذهب عنه كل ما تعافه النفس ، ويأنفه الطبع ، ويريد كذلك أن يطهرهم بذاته العلية ، تطهيراً مؤكداً نقياً ؛ وفى هذا الأسلوب الجليل مزايا منها حذف حرف النداء فى قوله : ﴿ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ وهو مُشْعِر بالتقريب ، والتكريم ، فكأن أهل هذا البيت فى حضرة الملك القدوس ، وفى المكانة المتسامية ، يُخاطَبون خطاب القُرْب والملاطفة ، ومنها أداة القصر التى صدرت بها الجملة الشريفة ، وهى تفيد الكلام قدراً من التوكيد وكأن المعنى : ما يريد الله إلا أن يُذهب عنكم الرجس أهل البيت ، فمراد الله جَلَّ جلاله قد انحسر فى إذهاب الرجس عن هذا البيت ، وتطهيره ، وليس هناك مراد وراء ذلك فى شأن من شئون الخلق ، أى أن الله سبحانه قد أقبل على أهل هذا البيت إقبالاً كاملاً ، وهذه زيادة فى التكريم ، ومبالغة فى إظهار عظيم العناية والرعاية ، ويصح أن يكون المراد بهذا القصر قصر مراد الله سبحانه على إذهاب الرجس والتطهير ، لا على العنت ، والتضييق ، فهذه الشرائع لا يُراد بها وضع قيود ثقيلة ، وإرهاقكم بتكاليفها ، وإنما يُراد بذلك إذهاب الرجس عنكم ، والتطهير . وجاء القصر بـ « إنما » التى تفيد أن ما تدخل عليه كأنه شيء مقرر ، ومعلوم ، لا يسع أحداً أن ينكره لشهرته وذيوعه ، وكأن قصر مراد المولى سبحانه على إذهاب الرجس عن هذه الجماعة ، وتطهيرها أمر معلوم ، لا يدفعه دافع ، ولا يخالف فيه عاقل ، وناهيك عما وراء هذا من التكريم ، ومنها إسناد أفعال الجملة كلها إلى الله ، فهو الذى يريد ، وهو الذى يُذهب الرجس عنهم ، وينقّى قلوبهم ونفوسهم

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

بيده القادرة ، وهو الذى يطهرهم بنفسه تطهيراً ، وأظنك لستَ فى حاجة إلى أن أحدثك عما وراء هذا كله من تكريم هذا البيت ، ومنها التعريف باللام فى قوله : ﴿ البَيْت ﴾ ، وهو يفيد أنه بيت متعالم مشهور ، لا ينصرف الذهن إلى غيره ، والإضافة فى قوله : ﴿ أَهْلَ البَيْت ﴾ تفيد التعظيم ، والتشريف ، أى : يا أهل هذا البيت القائم فى العالمين رمز الهداية ، والرشاد ، والطُهر ، والنور .. أما موقع هذه الجملة من الكلام السابق ، فقد جاءت مفصولة عنها ، لأنها واقعة منها موقع التعليل والبيان ، فكل ما تقدَّم من أوامره ونواهيه لا يُراد به إلا إذهاب الرجس والتطهير ، فهى شرائع وُضِعت لمصلحة هذه الجماعة ولحفظها ، من الرجس الذى يُستعمل أساساً فى معنى الاضطراب والقلق ، من قولهم : رَجَسَتْ السماء رجساً وارتجست أى قصفت بالرعد ، وقالوا : سحاب رجَّاس ومُرتَجِسٌ ، والمرجوسة هو الاضطراب ، والاختلاط ، ومن كلامهم : صار الناس فى مرجوسة ، أى فى أمر مختلط عليهم ، فالمولى سبحانه شرع آداب السلوك فى المجتمع المسلم ليطهر هذا المجتمع من الاضطراب ، والقلق ، والتمزق ، والاختلاط الذى يدمر الكيان الاجتماعى ، حين تشيع فيه الفاحشة ، وحين تتحلل نساؤه من ضوابط الأخلاق والدين . والآداب التى تقدمت كلها ، من النهى عن ملاينة الخطاب ، والأمر بالقول المعروف ، والنهى عن التبرج ، من شأنها أن تُضفى على حياة الجماعة شيئاً من القرار حين تتحقق ، وأن تكون حياة الجماعة بدونها مضطربة ، فزعة ، قلقة ، مختلطة . وكذلك الشأن فى إقامة الصلاة فهى سكينة ، وهدوء . وإيتاء الزكاة التى تكسر جوع الفقراء ، وتقى المجتمع شر أحقاد تتولد فى جو الشُّح ، والأنانية ، والتفاوت الطبقى .. وهكذا يقع نفى الرجس والاضطراب هذا الموقع الحسن . وكلمة ﴿ الرِّجْسَ ﴾ يدل صوتها على القلق ، والفزع ، وانتشار الأمر ، تحس ذلك فى اضطراب اللِّسان ، وارتعاشه ، حين ينطق بالراء ، وتحسه فى الاختلاط الواقع بين صوتى الجيم ، والسين ، وقد كثرت الخلافات والروايات حول تحديد المراد بأهل بيت النبى عليه السلام ، وكان

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

للعلويين وشيعتهم ، ولبنى العباس ولغيرهم ، محاولات فى توجيه معناها ، وسياق الآية يفيد أن المراد بأهل البيت نساؤه رضى الله عنهن ، قالوا : وجاء الضمير مذكراً فى قوله : ﴿ عَنكُم ﴾ ، و﴿ يُطَهِّرَكُمْ ﴾ ولم يأت مؤنثاً مراعاة للفظ الأهل ، والعرب كثيراً ما يستعملون صيغ المذكر فى مثل هذا ، ومنه قوله تعالى فى خطاب امرأة الخليل عليهما السلام : ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ ، رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ [1] . وقالوا أيضاً : إن اعتبار التذكير هنا أدخل فى التعظيم ، أو إن المراد بأهل البيت هنا النبى عليه السلام ونساؤه ، وجاء الضمير مذكراً على قاعدة التغليب . وقيل : المراد بأهل البيت أهل البيت النسبى أى أسرته وعصبته ؛ واختلف فى تعيينهم فقيل : هم بنو هاشم ، وبنو المطلب ؛ وقيل : هم آل علىّ ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل عباس . وكان عكرمة رضى الله عنه يرفض هذا بانفعال شديد وينادى فى السوق ويقول : إن قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ ﴾ نزل فى نساء النبى عليه السلام ؛ ويقول : مَن شاء باهلته أنها نزلت فى أزواج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكأنه رضى الله عنه قد أحس بأثر الأغراض السياسية ، والاجتماعة ، فى توجيه معنى الآية فكره ذلك ؛ ويروى ابن كثير والألوسى قدراً من الآثار ، وقدراً من الآراء فى توجيهها ، فلتُراجَع هناك .

ونقول هنا : إن الرسول عليه السلام حين قال : « سلمان منا أهل البيت » إنما كان يصل لُحمة الدين ، بلُحمة النسب ؛ وينهض بالأخوة فى الإسلام ، إلى مستوى الأخوة فى الدم ؛ وجاء فى رواية صحيحة أن واثلة قال : وأنا من أهلك يا رسول الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « وأنت من أهلى » ، فكان واثلة يقول : « إنَّها لِمَنْ رَجَى ما أرجو » ولا يمتنع عندنا أن يُراد بأهل البيت عصبته عليه السلام ، ونساؤه ، ورحمة الله واسعة ، ولا حَرَج على فضله ، ولأجل عَيْن تُكرم ألف عَيْن - كما يقول أهل السُّنَّة ، وكل هذا

---

(١) هود : ٧٣

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

مشروط فى الأجيال اللاحقة بحُسن السيرة وقوة الدين ، حتى يُحفظ لهذا النسب الجليل حُرمته ، أما من ظلم أو دنَّس أو قبل أن يكون عبداً لأبناء القردة وأبناء الحيات ، فليس من بنى هاشم فى شىء ، وليس من آل النبى ، وأهلية البيت لأهل التقوى أولاً ، و« البيت » مأخوذ من البيات لأنه يأوى صاحبه ليلاً ، وهذا أهم ما فيه ، ولذلك روعى فى تسميته ، والعرب يقولون : بيَّت الأمر أى دبَّره ليلاً ، وفى التنزيل : ﴿ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ (١) ، وأطلقوا « البيت » على المرأة والولد ، كما يطلقون المحل على الحال ، وسموا بيت الشعر بيتاً ، لأنه يضم المعانى كما يضم البيت أهله ؛ وقد لحظوا أحوال بيت الشَّعر (بفتح الشين) ، فى أحوال بيت الشِّعر (بكسرها) ، فذكروا فى الثانى الأسباب ، والأوتاد ، على التشبيه بأسباب البيوت ، وأوتادها ، وقالوا : بنى بيوتاً على ظهر المطايا ، أى أنشأ أشعاراً فى أسفاره ؛ قال الشاعر :

وَبَيْتٍ عَلَى ظَهْرِ الْمَطَايَا بَنَيْتُهُ ... بِأَسْمَرَ مَشْقُوقِ الْخَيَاشِمِ يَرْعَفُ

أراد أنه أنشأ بيتاً من الشِّعر ، وهو على ظهر مطيته ، وقد بنى هذا البيت بأسمر ، أى بقلم أسمر مشقوق الخياشم ، يرعف أى يسيل مداده . وقد كثر جمع بيت السكن على « بيوت » ، وكثر جمع بيت الشِّعر على « أبيات » ، وقالوا : بيوتات بنى فزارة وبيوتات تميم لمحضهم ، وخالصهم ، وأسبقهم فى الشرف .

وقوله : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ ، أمر بالتذكر ، واستحضار صورة آيات الله فى القلب ، والوجدان ، وتمثلها فى الروح ، والضمير ، ليكون ذلك التذكر زجراً للنفس عند نزع الهوى ، ووسوسة الشياطين ، و﴿ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ المراد بها القرآن الذى يتضمن الآيات ، والدلائل على صدق هذا النبى ، وصدق شرائعه ، ونفاذها إلى دقائق الفطرة ؛ لأنها شريعة مَن خلق ، ويتضمن أيضاً الحكمة الخالصة ، التى تصف حقائق الأشياء ، وتبنى آدابها على علم محيط .

---

(١) النساء : ١٠٨

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وقال : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾ ولم يقل : واذكرن ما أُنزِلَ فى بيوتكن ، والإنزال أدخل فى باب الموعظة لنساء النبى عليه السلام ، لأنه يعنى المشاهدة الحسية ، ورؤية الرسول عليه السلام وهو يعانى تلقى أمر السماء ، وذلك ليس وراءه شيء أوعظ منه ، قلت : قال : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ ﴾ ولم يقل : واذكرن ما أُنزِل ، لأن المراد إرشاد نساء المؤمنين وراء الأمر الموجه لأمهات المؤمنين ، وأهمية ذكر الإنزال فى الوعظ ، وتهذيب السلوك خاص بمن فى هذا البيت ، أما أهمية تذكر ما يُتلى فليس خاصاً بمن فى منزل الوحى ، ولا بمن فى زمنه ، وإنما شيء يعم المسلمين جميعاً ، فى كل عصر ومصر ؛ ويشير موقع الآية فى هذا السياق إلى أن ذكره يكشف أمام بصائركم ضباب الضلال الذى يذهب بكم فى هُنَيَّات الطريق ؛ وصيغة المضارع فى قوله : ﴿ يُتْلَىٰ ﴾ تُشْعِر بأن تلاوته تتجدد فى بيوتكم ، وأن أنفاس الحق فيه توشك أن تملأ آفاقكم ، فاذكروه ، أى استحضروه فى القلوب والضمائر ، لتعمر به ، فتستقيم على هَدْيه ، ولهذا المعنى آثر قوله : ﴿ مَا يُتْلَىٰ ﴾ على القرآن ، أى لم يقل : واذكُرْ القرآن ، لأن ذكر تلاوته فى البيوت حَثٌ على التذكر ، أى اذكرن صوت الحق الذى تتجاوب أنفاسه فى غرفكم ، ومضاجعكم .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً ﴾ فاصلة تقع فى النفس موقعاً جليلاً فى هذا السياق ، وذلك لأن الآيات تتحدث عن الملاينة فى القول ، والتبرج ، والقول السديد الصائب ، وغير ذلك مما هو خاص بالسلوك والآداب ، وذكر هذين الوصفين الجليلين من أسماء الله الحسنى ، يشير إلى أن ما قد تهمس به النفوس فى سرائرها لا يفوت اللّطيف الخبير علمه وإدراكه ، وخواطر النفس فى باب الجنس ليست خواطر طافية على سطحها ، وإنما هى وسوسات فى أبعد مطاويها ، واللّطيف الخبير لا تعزب عنه همهمة فى قاعها السحيق .

* * *

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ (الآية : ٣٥) .

* *

قالوا : إن أم سَلَمة زوج النبى ﷺ قالت للنبى عليه السلام : ما لنا لا نُذكر فى القرآن كما يُذكر الرجال ؟ فلم يرعنى منه صلى الله عليه وسلم ذات يوم إلا نداءه على المنبر وهو يقول : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ . . . إلى آخر الآية . وقد أخرجه أحمد والنسائى وغيرهم .

وأخرج الترمذى والطبرانى وعبد بن حميد وآخرون ، عن أم عمارة الأنصارية ؛ أنها أتت النبى ﷺ فقالت : ما أرى كل شىء إلا للرجال ، وما أرى النساء يُذكرن فى شىء ، فنزلت هذه الآية : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن قتادة : دخل نساء على نساء النبى ﷺ فقلن : قد ذكركن الله تعالى فى القرآن ، وما يذكرنا بشىء ، أما فينا ما يُذكر ؟ فأنزل الله : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ . . . الآية ، قال العلامة الألوسى : ولا مانع أن يكون كل ذلك .

والآية الكريمة وإن نزلت فى حادثة خاصة ، واستجابت فى رفق ودود للتطلعات الراجية التى جاشت بها نفوس المؤمنات ، فقد ميَّزت المرأة ، وأبرزت مكانتها ، وأن لها ما للرجل من القرب والتساوى فى جنب الله . والمساواة بين الرجال والنساء فى هذا الميدان - أعنى ميدان الجزاء - تؤكد أن الإسلام لم يهضم المرأة ، ولم يُنقص قدرها عن الرجل ، وإنما المسلمون والمسلمات ، سواء فى أشرف الميادين ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

مثل الرجال تماماً ، أما ما فى الإسلام من تحديد سلوك المرأة ، وميدان أعمالها ، فذلك راجع إلى ما يقتضيه تنظيم الحياة واختلاف الإمكانات والقدرات وممارسات شئون الحياة كما بيّنا فى آية : ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾ .

وقد كان القرآن يجمع الرجال والنساء فى طريقة واحدة من طرق الخطاب ، فإذا قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ ﴾ [(١)] فإن المراد : المؤمنون والمؤمنات ، وإذا قال : ﴿ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [(٢)] فالأمر للمسلم والمسلمة ، وهكذا يجرى أسلوب القرآن فى كثير من آياته ، وهذه طريقة معروفة فى اللّسان ، فالعرب يقولون : القمرين للشمس والقمر ، والأبوين للأب والأم ، والعمرين لأبى بكر وعمر ، ويسمى العلماء هذه الطريقة « التغليب » ؛ أى تغليب أحد اللّفظين على الآخر ، ولا يكون ذلك دالاً على شرف المغَلب - بفتح الغين - فى كل حال ، فليس فى مخاطبة الرجال والنساء بطريقة التذكير دليل على علو منزلة الرجال ، لأن التغليب اللُّغوى مبناه الخفة ، وليست الأفضلية ، فليس فى قولنا : « القمرين » تفضيل للقمر على الشمس ، كما أنه ليس فى قولنا : « العمرين » تفضيل لعمر على أبى بكر ، وإنما هى مسألة خفة ؛ أى يغلب أخف اللّفظين ، وضمير خطاب الرجال أجرى وأخف من ضمير خطاب النساء .

هذا شيء فى بيان وجه مخاطبة الفريقين بطريقة التذكير ، والشيء الآخر أن الرجال فى هذا المجتمع الذى خاطبه القرآن كانوا هم صانعو أحداثه ، فهم الذين يواجهون صراع الجحود والعناد ، من الوثنيين واليهود . . والذين كانوا وما زالوا ، ولن يزالوا أعداء هذه الأمة ، بل وإن العداء الذى يأتى من جهة النصرانية إنما أساسه يهود ، والعداء الذى يأتى من جهة الشيوعية إنما أساسه يهود ، ومن جهة العلمانية ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ [(٣)] ، والآية معرفة الطرفين ودلالتها الظاهرة قصر العداوة عليهم ،

---

(١) الأحزاب : ٩ (٢) البقرة : ٤٣ (٣) المنافقون : ٤

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وكأن ما فيهم من حقد وبغضاء لأمة الإسلام يرجح ما عند أهل الأرض جميعاً ويفوق عليه حتى يصح أن يُوصفوا وحدهم بأنهم هم العدو لا غيرهم .

وواجبنا أن نُعلِّمكم هذا لأنه هو الذى عَلَّمنا ربنا وذكره فى قرآنه ، وواجبكم أن تُعلِّموا مَن تُعلِّمون كما نُعلِّمكم وأن توصوهم وصاة الحق ، وأن يُعلِّموا مَن يُعلِّمون ، كما نوصيكم حتى ننقذ وعْىَ الأمة من حَمَلَة تزييف الوعى وتزويره وتضليله التى يقوم بها كُتَّاب رضوا أن يكونوا عبيداً لأبناء القِردة والخنازير أو أبناء الحيات ، كما كان يسميهم سيدنا يحيى المعمدان ، أى يحيى بن زكريا عليه السلام ، أقول : نجتهد فى إنقاذ وعى الأمة من حملة التزييف والتزوير ، وأن عداء اليهود لنا ليس عندهم كلام فيهم ، وأنهم يُعلِّمون أبناءهم ويورثون أجيالهم أحقاداً تتلوها أحقاد ، حتى لا نرى يهودياً إلا ويكاد يتميز غيظاً وحقداً على المسلمين ، وهؤلاء الذين يفرطون فى هذا ويزيفونه ويحاولون التقرب منهم ، ويحاربون بيان حقيقتهم وموقفهم من بغض هذه الأمة هم فى عِداد الخونة ، وإن القرار السياسى شىء وعقائد الشعوب شىء آخر ، للسياسة أن تهادن وتصالح وتسالم ، ولكن يجب أن تكون عقائد الشعوب فى أعدائها وأعداء دينها ورسالتها ثابتة ما دام هذا العدو لا تزيده الأيام إلا بغضاً وكراهية .

أقول : إن الرجال هم الذين يجالدون بالسيف حين ينتقل الصراع إلى ميدان المنازلة ، فهم العنصر البارز الذى يدير صراع الحياة ، ويصنع أحداث التاريخ . وهذا ليس إهداراً للمرأة لأن لها ميدانها الذى تُعِد فيه هؤلاء الجنود ، وهؤلاء الأبطال ، وتصوغهم صياغتها التى قد تحسن فيها فتبلغ المدى ، وقد تسىء فيها فترمى المجتمع بالشر المستطير ، وقد نبهنا إلى شىء من ذلك ، وليس أفضل من الرجل الصادق المخلص ، إلا الأم التى ربَّتْه .

والآية الكريمة تتصل بما قبلها اتصالاً واضحاً ، فقد قلنا : إن الغرض الأهم هناك هو تنقية الأمة المسلمة ، وحفظ المجتمع الإنسانى عامة ، من وباء

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الانحراف فى سلوك النساء ، وإن الآيات السابقة ترسم طريق الحياة الطاهرة ، وتُذكِّر المؤمنات بما يُتلَى فى بيوتهن من آيات الله والحكمة ، وقد أردف القرآن ذلك بقوله : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ ، فذكر النماذج والأصناف ، التى تعمر بها الحياة ، والَتِى تُكوِّن المَجتمعَ الإنسانى الراقى فى صورته النظيفة الطاهرة ، وقد انتقل فيها أسلوب الحديث من مخاطبة أمهات المؤمنين هناك ، حيث قلنا : إن الأمر يتجه إلى نساء الأرض جميعاً وراء هذه المخاطبة . وبيَّنا أهميتها فى أداء المعنى - أقول : انتقل أسلوب الحديث من مخاطبة أمهات المؤمنين إلى ذكر المسلمين والمسلمات . وفى هذا إشارة إلى أن المستجيبات لأمر الله يدخلن جميعاً فى نعمته ، ورحمته ، وأنه سبحانه قد أعدَّ لهن أجراً عظيماً ، يستوى فى ذلك اللائى عشن فى بيت النبوة ، مع غيرهن من بنات حواء ، فى هذا الانتقال تأكيد لمعنى إلحاق المؤمنات فى المنزلة بأمهات المؤمنين ، وإعلاء درج العابدات ، والسمو بهن ، ولا غرابة فى ذلك فإن بعض الصالحين يكونون فى معية الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين ، وحَسُنَ أُولئك رفيقاً .

وهذا معنى جليل فى الإسلام حيث يُفْتح باب الله لكل مَن أخلص للحق ، ولرسالة الخير ، فتتساوى المناكب هناك ، وتتزاحم الأقدار .

وأعتقد أن هذا ليس وصلاً غامضاً ، وإنما هو وشيجة بيِّنَةٌ ولُحْمة ظاهرة .

ومن الحسن هنا أن نشير إلى أمر يتصل بالمناسبات فى نظم القرآن . فقد ذكرنا أن آية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ ﴾ ، وما جاء فى غيرها من آداب النفس والسلوك كان لنزوله سبب قدَّمنا القول فيه ، ثم إن آية : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ كان لنزولها سبب آخر مغاير للسبب الأول ، أى كانت لكل آية قصة مختلفة عن الأخرى . . وأكثر آيات القرآن نزلت مفرَّقة على حسب الوقائع والدواعى ، وكانت هذه الدواعى والأحداث تتباعد فى الزمان وتتباين فى الأحوال .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وكان ترتيب الآيات فى المصحف بأمر الله وكان عجيباً ، فقد تنزل الآية التى تُختم بها السورة قبل الآية التى تبدأ بها ، أو التى تقع فى الوسط ، بل إن كثيراً من السور نزلت آياتها فى العهدين المدنى والمكى ، ثم إن هذه الآيات التى نزلت استجابة لأحداث متباينة ومتباعدة يجرى فيها من قوة المناسبة ، ووضوح التلاحم ، ما يجعلها كأنها نزلت دفعة واحدة ، أو كأن أحداثها قد تتابعت تتابع أحداث القصة الواحدة ، وهذا مما يملأ قلب المتأمل جلالاً وعجباً ، وهو لا نظير له فى الكلام ، وهو وجه من وجوه إعجازه .

يقول العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله فى وصف قيّم لمناسبة الآيات ، وتماسكها :

« أجل . . إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثاً من المثانى حُشيَت حَشْواً ، وأوزاعاً من المبانى جُمِعت عفواً ، فإذا هى لو تدبَّرْت بِنْيةٌ متماسكةٌ قد بنيت من المقاصد الكلية ، على أساس وأُصول ، وأُقيم على كل أصل منها شُعَب ، وفصول ، وامتد من كل شعبة منها فروع تقتصر أو تطول ، فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية فى بنيان واحد ، قد وُضِع رسمه مرة واحدة ، لا تحس بشىء من تناكر الأوضاع فى التقسيم ، والتنسيق ، ولا بشىء من الانفصال فى الخروج من طريق إلى طريق ، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة ، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضامن والالتحام ، كل ذلك بغير تكلف ، ولا استعانة بأمر من خارج المعانى أنفسها ، وإنما هو حُسن السياقة ، ولطف التمهيد ، من مطلع كل غرض ومقطعه ، وأثنائه ، يريك المنفصل متصلاً والمختلف مؤتلفاً .

« ولماذا نقول : إن هذه المعانى تتسق فى السورة كما تتسق الحجرات فى البنيان ؟ لا . . بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء فى جسم الإنسان ، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعى من أنفسهما ، كما يلتقى العظمان عند المفصل ، ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

كما يشتبك العضوان بالشرايين ، والعروق ، والأعصاب ، ومن وراء ذلك كله يسرى فى جملة السورة اتجاه معين ، وتؤدى بمجموعها غرضاً خاصاً ، كما يأخذ الجسم قواماً ، واحداً ، ويتعاون بجملته على أداء واحد مع اختلاف وظائفه العضوية » .

وفى الموضوع مجاذبات ، ومناقشات ، ويمكن أن نقول : إن الوحدة التى تدور حولها آيات السورة ، والوشائج الخفية التى تصل بعضها ببعض تخفى وتغيب عن النظر المتعجل السريع ، وإنما تتبدى فى دقتها ، وجلائها ، عند الفحص ، والتأمل ، والوعى البصير ، ولهذا أنكرها كثير من الدارسين . ولهذا ترى بحثها من أدق البحوث القرآنية ، وقد توجست أقلام فلم تقترب من هذا اللّون ، وإنما تصدَّى لبيانه نفر من المفسِّرين الأدباء وفى صدرهم الإمام البقاعى .

وهذا الرأى فى السورة ، أو قل : هذا الموقف الفكرى من تناسب الآيات يذكرنا بما يقال فى قصيدة الشعر الجاهلى ، فإن إدراك الوحدة بين موضوعاتها المتنوعة ، ولمح المناسبات الشعرية ، والوشائج الوجدانية ، وتداعى المثيرات النفسية ، يحتاج إلى وعى جاهد ، وهو كائن قطعاً إذا استقامت لنا القصيدة ، كما نظمها الشاعر ، أعنى إذا سلمت من التبديد ، والضياع ، ونقض الترتيب ووقعنا عليها كاملة مرتبة .

وعلم المناسبة - وقد نظرت فى تاريخ رجاله فوجدتهم جميعاً من الأدباء وممن تميزوا برهافة الحس فى الشعر والأدب - هذا العلم حين تنتفع به الدراسة الأدبية ، والنقدية ، سوف يثمر هناك ثماراً طيبة ، وسوف يكشف كثيراً من الغموض ، ويحسم كثيراً من الخلافات ، وخاصة ما يتعلق بوحدة القصيدة .

وفى كلمة « المسلم » : إشارة إلى أنه ينبغى أن يسلم من داء الأنانية ، والأثرة ، وحب الذات ، وأن يُسلم نفسه ، وجهده ، وماله لمبدئه ، وعقيدته ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

فيعيش لها مدافعاً ، وحامياً ، وأن يُسلم لله أمره ، فيحيا مأموراً بأمر الحق ، مذعناً لداعى الله فى اندفاع ، واستسلام ، لا يهاب شيئاً ولا يعول على شيء ، ما دام قد سمع أمر ربه .

والأمة المسلمة هى التى برئت من هذه الأدواء ، أعنى داء الأثرة ، والأنانية ، وحب الذات ، وهى أخطر ما يُضعف كيان الأمة ، والأمة المسلمة أيضاً هى التى تأخذ عن الله وتبنى وجودها ، وتعمر حياتها ، مذعنة ومستسلمة فى كل شيء لداع الحق والخير ، فليس للهوى ، ولا للأنانية ، ولا للصوصية فيها مكان . وبهذا يتحقق الإسلام ، فالإسلام سلام فى النفس ، والجماعة ، وسلم فى الحياة الخاصة ، والعامة ، وكان الشعراء يُطلقون السِلم - بكسر السين - على الإسلام ملاحظين ما فى هذه التسمية - أعنى تسميةَ هذا الدين بالإسلام - من معنى السلامة والمسالمة ، قال الأحوص :

فَذَادُوا عَدوَّ السِّلْمِ مِنْ عُقْرِ دَارِهِمْ وأرْسَوا عَمُودَ الدِّينِ بَعْدَ التَّمَايُلِ

أى دفعوا عدو الإسلام من عقر دارهم ، وأقاموا الناس على طريقة الدين بعد ما مالوا ، ومثله قول امرىء القيس بن عابس :

فَلَسْتُ مُبَدِّلاً بِاللهِ رَبًا وَلَا مُسْتَبْدِلاً بالسِّلْمِ دِينَا

أى بالإسلام ، والإسلام حين يشير إلى هذه المعانى التى ذكرناها يكون وصفاً للمتدينين جميعاً ، وإن اختلف أديانهم ، أى هو وصف لمن أخلص وأسلم لعقيدة اليهودية الصحيحة ، ووصف لمن أخلص وأسلم لعقيدة المسيحية الصحيحة ، وقد أُمر نوح عليه السلام وهو الأب الثانى للأنبياء والبَشر جميعاً أُمر بأن يكون مسلماً ، قال عليه السلام لقومه كما يحكى القرآن : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللهِ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

وسيدنا إبراهيم عليه السلام ما كان يهودياً ، ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً ، ويدعو هو وولده إسماعيل ، وهما يرفعان لله أول بيت وُضِعَ

(١) يونس : ٧٢

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

للناس : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ، إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

ثم إنه عليه السلام يوصى بنيه كما يوصى يعقوب بنيه كلٌّ يقول : ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (٢) .

وأبناء يعقوب هم أنبياء بنى إسرائيل ومن ذُرِّيتهم موسى وهارون ، وسيدنا يوسف يدعو شاكراً راجياً : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (٣) .

والحواريون يقولون لعيسى عليه السلام : ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٤) .

إذن . . وصف « الإسلام » وصف لكل دين جاء به نبى ، وكلمة « مسلم » وصف لكل مَن تبع دعوة نبى بصدق ، ووفاء ، أما حين تُنسخ الرسالة ، ويُؤمر هؤلاء بشرع جديد ثم ينكصون ، فهم ليسوا مسلمين ؛ لا لأنهم لم يؤمنوا بمحمد فقط ، وإنما لأنهم كفروا بشريعة نبيهم ، التى بشَّرت بنبى جديد . هم إذن رفضوا الانتقال المتدرج ، والمتسامى ، فى معراج الشرائع ، وقد حرصت الرسالات السماوية على أن تقرر فى ضمير البَشر ضرورة المتابعة ، والملاحقة المتجددة لوحى الله والتى تتعالى بالبَشر من درج ، إلى درج ، وكان هذا جزءاً فى كل رسالة ، وأمراً فى شرع كل نبى ، فإذا أنكره أتباعه فقد أنكروا روح الوحى المتسامية ، وحمَّلوا رسالة نبيهم ما لا تتحمله ، حين انطووا عليها فى الأزمنة المتتابعة ، وقد كانت محدودة بزمن ، وهذا إنكار منهم لرسالة نبيهم الذين يزعمون أنهم أتباعه ، فضلاً عن أنه رفض صريح لجزء الكتاب الذى بشَّر بمحمد صلوات الله وسلامه عليه ، وقولهم : إنهم

(١) البقرة : ١٢٨
(٢) البقرة : ١٣٢
(٣) يوسف : ١٠١
(٤) آل عمران : ٥٢

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

لا ينكرون هذا الجزء من كتبهم ، وإنما ينكرون أن يكون محمد هذا هو الذى بُشِّرَ به ، قولهم هذا كذب على أنفسهم لأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ثم إنهم لما أدركوا عجز شريعتهم عن متابعة الأزمنة والأطوار أضافوا إليها من فلسفات رهبانهم ، وقساوستهم ، وأحبارهم ، حتى صارت الشرائع شيئاً آخر غير ما جاء به النبيون الذين أسلموا ، وتروى كتب السير أن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ : ألستَ تزعم أنك تؤمن بما عندنا من التوراة وتشهد أنها من الله حق ؟ قالا : « بلى ، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ الله عليكم من الميثاق ، وكتمتم ما أُمرتم أن تبينوه للناس ، فبرئتُ من أحداثكم » .

وقد يُطلق الإسلام على الإذعان والقبول الظاهرى لما جاء به النبى ﷺ ، ومن هنا كان الإيمان أعلى درجة من الإسلام ، لأن الإيمان تصديق الباطن والإسلام إقرار الظاهر ، وهذا المعنى ناظر إلى بعض المواقف والمقامات التى تحدد فيها الإسلام بهذا المدلول ، وأهم ذلك قصة الأعراب الذين قالوا آمنا ، فأمر النبى عليه السلام بأن يقول لهم : ﴿ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ (١) .

وقد قال أهل القرآن : إن النبى عليه السلام أُمِرَ بأن يُكذِّبهم بأسلوب مهذب ، فقال : « لم تؤمنوا » ولم يقل لهم : كذبتم ، وإن أدى بقوله : « لم تؤمنوا » معنى كذبتم ، وقال : قولوا : « أسلمنا » ، ولم يقل : ولكن « أسلمتم » ، لأنه لو قال ذلك لكان إقراراً منه بأنهم أسلموا ، والآية لا تريد ذلك ، وإنما تريد أن يظل إسلامهم باقياً على سبيل الدعوى منهم ، يزعمون أنهم أسلموا .

وقالوا : إن قوله بعد ذلك : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِه ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٢) تعريض بكذب هؤلاء الأعراب ، وخاصة قوله :

---

(١) الحجرات : ١٤ (٢) الحجرات : ١٥

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ بهذه الصيغة التى تحصر الصدق فى هؤلاء ، وكأنه يقول للأعراب : هؤلاء هم الصادقون لا أنتم .

الإسلام إذن استُعمل فى بعض السياقات لمعنى الإقرار الظاهرى الذى يدفع عن صاحبه تهمة حرب الجماعة المسلمة ، ويُدخله فى أمانها ، فهو بهذا المعنى مسلم . وكان ناس من صحابة رسول الله لا يقبلون هذا النوع من الإسلام الذى تُحقن به الدماء ، لأنهم كانوا يعتقدون أن الذى يدخل فى الإسلام لهذه التقية لا يصح أن يكون واحداً من الجماعة ، ولكن الله سبحانه نبههم إلى أن هذا خطأ ، وعاتبهم شديداً فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ، كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ ، إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ [1] .

وكأن الله سبحانه قد أراد بهذا أن تكون الخطوة الأولى فى سبيل هذا الدين كافَّةً للدماء ، حافظة للنفس ، وأن يُفسح لصاحبها ، فلعل نور الحق يُشرِق فى جنباته فيصير بعد ذلك من الأخيار ، ثم إن هذا كان ضرورياً فى الدعوى ، أى أنه لا سبيل إلى معرفة الصادق من الكاذب فى تلك الساعات الأولى من الإقبال على الرسالة ، وكأن الناس جميعاً خارجين عن دائرتها ، فمَن أراد أن يدخل هذه الدائرة فليس له من سبيل إلا أن يعلن ، ويذعن بظاهره . وقد قالوا : إن رجلاً من أهل فَدَك أسلم ، ولم يسلم غيره من قومه ، فطلبتهم سرية رسول الله ، وكان عليها غالب بن فُضَالة الليثى ، فهربوا ، وبقى منهم من أهل فدك مرداس ، لثقته بإسلامه ، فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل ، وصعد ، فلما تلاحقوا ، وكبَّروا ، كبَّر ونزل ، وقال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، السلام عليكم ، فقتله أسامة بن زيد واستاق غنمه ، فأخبروا رسول الله ﷺ فوجَد وَجْداً شديداً ، وقال : « قتلتموه إرادة ما معه » ،

(١) النساء : ٩٤

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ثم قرأ الآية على أسامة فقال : يا رسول الله ؛ استغفر لى ، قال : « فكيف بـ « لا إله إلّا الله » ؟ ، قال أسامة : فما زال يعيدها حتى وددت أن لم أكن أسلمت إلا يومئذ ، ثم استغفر لى ، وقال : « أعتق رقبة » .

أقول : إن هذه الظروف التى مرَّت بالدعوة ، كان لا مفر من قبول الإسلام ممن يدَّعيه بلسانه ، حيث لا سبيل إلى معرفة ما وراء ذلك من سريرة تنطوى على الصدق ، أو سريرة تنطوى على المخادعة والنفاق ، فجرى فى كتب التوحيد تعريف الإسلام بهذا المعنى المحدد ، والذى يُعتبر إسلاماً ظاهراً ، أو انقياداً ظاهراً فقط ، وفرَّقوا بينه وبين الإيمان وجعلوه أقل مرتبة منه .

والإسلام فى كثير من الاستعمالات القرآنية يعرج بمضمونه إلى مستوى من الإذعان ، والخضوع ، والقُرْب ، فيُساق وصفاً للنبيين فى سياق الثناء عليهم ، والتنويه بهم ، انظر إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ، يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ (١) ، قال الزمخشرى : قوله : ﴿ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴾ صفة أجريت على النبيين على سبيل المدح . . هذا ومثله كثير .

وقد أردتُ بكل هذا أن يكون فهمنا لكلمة الإسلام ، والمسلم ، فهماً قرآنياً أى يستوجب - استعمالات القرآن فى سياقاته المختلفة ، وبهذا يصير المسلم صنفاً من الأصناف التى أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ، أما مجرد الإقرار باللِّسان ، فإنى أعتقد أنه لا يُذكر فى سياق ذكر الصفوة الممتازة من المؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات .

وقوله : ﴿ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ليس المراد به وصفاً مغايراً للوصف الأول ، ولا جماعة مغايرة للجماعة الأولى ، التى وُصفت بالإسلام . وقد لوحظ هنا وصف الإيمان الذى هو من الأمن ، وطمأنينة القلب ، وقرار

(١) المائدة : ٤٤

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الروح . والقلب المؤمن ، هو القلب الذى صدَّق برسالة الخير ، تصديقاً صار به يقيناً كله ، ثم إن المؤمن وصف من أوصافه سبحانه لأنه يهب الأمن لمن يشاء من عباده .

والرسول عليه الصلاة والسلام أمنة لأصحابه ، قال فى الحديث الذى ذكره ابن منظور : « النجوم أمنة السماء ، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما تُوعَد ، وأنا أمْنة لأصحابى ، فإذا ذهبتُ أتى أصحابى ما يُوعَدون ، وأصحابى أمنة لأمتى فإذا ذهب أصحابى أتى الأمة ما تُوعَد » ، قالوا : أراد بوعد السماء انشقاقها وذهابها يوم القيامة ، وذهاب النجوم تكويرها ، وانكدارها ، وإعدامها ، وأراد بوعد أصحابه ما وقع بينهم من الفتن ، وكذلك أراد وعد الأمة ، والإشارة فى الجملة إلى مجىء الشر عند ذهاب أهل الخير .

والإيمان لله له موجباته ، وتكاليفه ، لأنه يعنى التمثل الصادق لآداب الرسالة ، والسلوك الدقيق المنضبط على وفق ما بين المصحف ، أى أن يكون المؤمن ذا سلوك قرآنى ، وذا حياة قرآنية ، فإذا كان عاملاً أتقن وأحسن ، لأن رسالته وقرآنه يأمره بذلك ، وإذا كان تاجراً تخلّق بخُلق المؤمن الأمين الصادق ، وهكذا يكون المصحف فى ضمير كل فرد يدفعه ، ويكفه ، ومثل هذا حين يُتوفر يأتى بالخير للأمة ، ثم إن الأُمة المؤمنة هى التى تقيم حياتها على موجب الإيمان ومقتضاه ، أى هى التى تجتهد اجتهاداً صادقاً وباراً فى أن تصوغ وجودها صياغة قرآنية ، وأن تُقيم نظامها على أساس قرآنى . أما إذا كانت تلهث وراء أفكار ، ونظم ، وفلسفات ، ليست من محيط القرآن ، فإنها كاذبة حين تزعم أنها مؤمنة ، وهى كاذبة ومنافقة وفاجرة أيضاً ، حين تحاول أن تُخضع المصحف لهذه الفلسفات ، فتبحث عن شرعية قرآنية لهذا الضلال ، فتخدع بذلك جماهيرها العوام ، لأنها تعلم أنهم سيصرخون فى وجهها إذا كشفت قناعها ، وظهرت حقيقتها ، أى حقيقة موقفها من القرآن ، وقد ذكرت أن أُمم الغرب واليهود يؤيدون ويثبتون الحكام الظالمين والفُسَّاق والمغامرين واللُّصوص والفجرة ليدمروا بهم شعوبهم المسلمة ، وحيثما ترى

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الصوت الإسلامى الصادق والنظيف يُحارَب ، فاعلم أن الحاكم من أهل الدنس ؛ لأنه لا يحارب النظيف إلا غير النظيف ، ولا يحارب الشريف إلا اللئيم ، ولا يحارب الرجال المخلصين لأوطانهم إلا حاكم عميل متآمر ، وهذه أُصول مستمَدة من حركة التاريخ . وعليك أن تنظر بفهم نافذ لأن كثيراً من اللُّصوص يعلنون راية الإسلام فلا يلتبس عليك ، ولا تحسبنَّ الشحم فيمن شحمه ورم .

﴿ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَات ﴾ وصف آخر يكشف وجهاً من وجوه هذه الجماعة التى تعمر بهَا الحياة الطَاهرة والنظيفة ، والقنوت - كما قلنا - خشوع مطلق ، وخضوع كامل ، تخبت فيه القلوب لله وتلين ، وذكر القنوت عقب الإيمان يشير إلى ما ينبغى أن يكون عليه موقف المؤمن من آداب كتابه ، فهو موقف القانت العابد الصامت الذى يعنيه أن يكتنه حقيقة ما يؤمن به ، وأن يدرك مرامى المصحف ، وآداب القرآن فى خشوع وصمت ، غير ملتفت إلى شىء وراء ذلك من نظم ، وفلسفات ، ولو أذَّنت لها الدنيا كلها بالإصابة والفلاح ، هو مؤمن بالقرآن وقانت ، أى عابد أبلغ العبادة ، فى صمت وتطامن وخشوع .

والأُمة القانتة هى التى تؤمن بهذا المصحف ، وتخشع له ، وتجتهد فى دأب لتدرك موقف القرآن فى كل قضية من قضاياها ، وتستهدى بنوره فى كل أمر من أُمورها ، يستوى فى ذلك ما عظم من الأمر وما ضؤل .

ويذكر ابن سيده أن القنوت بمعنى الطاعة ، وهو الأصل فى معناه ، وقد قدمنا ذلك ، وعليه يكون ذكر القانتين مشيراً إلى هذه الناحية العملية ، وموضحاً لها فى صفات هذه الجماعة ، والطاعة التى تسمى قنوتاً ، هى الطاعة الخاشعة العابدة ، وهذا ضرب من العمل والسلوك ، تكون فيه الجماعة أقرب إلى السلوك المثالى ، الذى تنشده الإنسانية فى أحلام فلاسفتها ، ونحن نفهم الطاعة بمعناها الواسع الذى شرحناه قبل ذلك ، أى العمل الصالح الذى تصلح به حياة الإنسان .

وقوله : ﴿ وَالْصَّادِقِينَ وَالْصَّادِقَاتِ ﴾ وصف آخر يرشد إلى وجه من

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وجوه أخلاق هذه الجماعة وهو الصدق بمعناه العام ، والشامل ، الذى يعنى فى أبسط معانيه صدق السلوك ، وصدق الكلمة ، وصدق المعتقد ، والصدق دليل على سلامة النفس ، وقوتها ، وقدرتها على معاناة المواقف ، وصناعة الحياة . ثم إن هذا الوصف أى ﴿ الصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾ ينفى عن هذه الجماعة كل دَعِىّ ، ومزور فى يقينه ، أو سلوكه ، وما أكثر هذا الصنف فى حياة الأمم ، وما أبرعه فى إخفاء دخيلته الفاسدة ، وما أقدره على رفع شعار الإصلاح ، وانظر حولك تجد الدنيا عامرة بالمزيِّفين فى المبادىء ، والكاذبين فى العقائد ، وأنت فى حاجة إلى أن تمزق ألف رداء ، وأن تشق ألف إهاب ، حتى تصل إلى مضمر الكذب فى قلب كثير من نوابغ الغش ، وحُذَّاق التضليل ، والخداع .

وصف الصادقين ينفى عن أمة القرآن هذا الخطر الذى يتسلط على ضميرها ، ويقود مسيرتها إلى الضلال ، حين تستجيب لخادع كاذب ضليل ، يسكب فى آذانها أحلى أنغام الإصلاح ، وأجمل أحلام التقدم ، والرفاهية ، فتُلقِى إليه المقادة ، ثم يقودها الملعون على درب الضياع . وقد ابتليت أكثر الشعوب الإسلامية بهذا الصنف الخسيس الملعون ، وتكلم فيها الكذَّابون وسكت فيها العقلاء .

وقوله : ﴿ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ﴾ وصف يصف جَلَد هذه الجماعة ، وقدرتها على مواجهة الحياة ، والأحداث ، والصبر خُلُق لازم لكل صاحب همة ، فهو وسيلة لتحقيق مراميه ، فإذا لم يكن آخذاً نفسه بهذا الخُلُق ، فإنه ينقطع قبل كل غاية ، والأمم فى ذلك كالأفراد .

ثم إن هذا الصبر الممدوح هو صبر العاملين المجاهدين ، هو صبر الدأب ، والعناء ، وهو الصبر المحمود ، الذى هو نصف الإيمان . أما الصبر العاجز ، أو الصبر العاطل الكئيب ، الصبر على الجهل ، والتخلف ، فليس محموداً ، وهو بوصف العجز والذل أشبه ، وهو لا يورث النفس قوة ، ولا عزَّة ، ولا يجعلها تستشعر الغلبة والاقتدار ، وهذا - أى الشعور بالغلبة والاقتدار - من أحوال النفس الصابرة فى ميادين الكفاح ، والمجالدة ، والغلبة .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وقوله : ﴿ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ﴾ وصف كاشف لحال قلوب هذه الجماعة ، وإبراز وتوضيح لصفة الخشوع ، الذى هو إطراق السريرة ، وانقياد الباطن للحق ، فقلوب هذه الجماعة منعطفة نحو الحق ، والخير ، انعطافاً دائماً ، فليس صبرها ، وجلدها ، وطاعتها ، وتصديقها ، إلا خشوعاً فى محراب الخير .

﴿ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ﴾ وصف يكشف جانب البذل ، والعطاء ، فى هذه النفوس ، فإن دعاة الخير ، وحملة رسالة الحق ، وهم كل مسلم صحيح الإسلام ، من أوصافهم العطاء ، عطاء النفس ، والمال ، والجهد ، لعقيدتهم ، وما يدينون به .

والصدقة فى ديننا لا يقف مدلولها الشرعى ومقصدها الدينى عند سد حاجة الفقير ، وإنما هى كما قلنا كبح لخُلُق الأثرة ، وقتل لشعور الأنانية ، وتدريب للنفوس على البذل والسماحة ، وإعدادها للتضحية والفداء .

﴿ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ﴾ وصف لخُلُق الانضباط ، والإمساك ، والكبح ، وإعلاء له ، وهو من أبر الأخلاق ، وأجذها لشعور الأثرة ، والأنانية ، وأقدرها على تربية القلب الذى يتحمل تبعة البناء ، وتعمير الحياة .

وقوله : ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ﴾ إشارة إلى هذا الجانب العف الطاهر ، فى خُلُق الجماعة القرآنية .

وفى هذه الصياغة ضرب من الامتهان والاحتقار لأصحاب الرذيلة ، فإنهم قد أضاعوا فروجهم ، وجعلوا موضع الحياء من الإنسان مباحاً ، وبدداً ، هذا التعبير فيه تنفير من الرذيلة وحث على فضيلة العفاف ، وأصل كلمة « الفَرْج » ما بين الرجلين ، كفُرجة الحائط ، وفُرجة الشق ، ثم أُطلق على العورة ، قالوا : كناية ، أو هو مجاز مرسل من إطلاق المحل على الحال . قالوا : وكثرت هذه الكناية حتى صارت كالصريح فى الدلالة .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وجاء « الفرج » فى القرآن بمعناه الأصلى ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ [(١)] أى انشقت ، وقال : ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [(٢)] أى شقوق وفتوق .

وقوله : ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ جاء فى ساقة هذه الأوصاف ، والأخلاق ، ليرشد إلى أن الذِّكْر - أى ملء النفس ، والقلب ، بهيبة الحق ذى الجلال سبحانه - هو المناخ الذى تتنفس فيه جهود العاملين فى مجتمع القرآن ، وأبرز سمات المجتمع القرآنى هو الذكر ، والمراقبة الباطنية ، التى توجه الجهد ، والطاقة ، والسلوك ، والعمل كله إلى الخير النافع ، والبار ببنى الإنسان .

وقوله : ﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ خبر « إن » فى قوله : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ ، فالآية جملة واحدة ، أجملت أصناف الرجال والنساء الذين تعمر بهم الحياة عمارة طاهرة ، والذين يُكوِّنون مجتمعاً فاضلاً ، لا تسعى البَشرية إلى مسعى أشرف منه ، ولا تطمح أحلام المصلحين ورجال الأخلاق إلى مستوى أرقى من هذا المستوى الذى عددته هذه الجملة القرآنية الفذة .

وتتضمن هذه الجملة نوعين من العطف ، ففيها عطف المسلمات على المسلمين ، والمؤمنات على المؤمنين ، والقانتات على القانتين ، وهكذا فى كل هذه الأصناف عطف الإناث على الذكور . وهذا العطف يذكر البلاغيون أنه عطف لازم لأن الواو فيه توسطت بين جنسين متقابلين ، أعنى الإناث والذكور ، وحين تتقابل الصفات يجب العطف كما قالوا .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ [(٣)] . وقوله تعالى فى سورة التحريم : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً

---

(١) المرسلات : ٩ (٢) سورة ق : ٦ (٣) الحديد : ٣

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

خيراً منكنَّ مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً ﴾ (١) ، فقد عدَّد الصفات من غير عاطف ، فلما تقابلت الثيوبة والبكارة ، قال : ﴿ ثيبات وأبكاراً ﴾ وجاء بالواو . ومنه قوله تعالى : ﴿ التَّائبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (٢) ، فذكر الصفات على سبيل التعديد الخالى من العطف ، فلما جاءت الصفات المتقابلة فصلها بالواو فقال : ﴿ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ .. وإذا لم تتقابل الصفات فإنها تجيء تارة بالواو ، وتارة من غير واو ، فإذا جاءت بالواو فقد تفيد معنى أن المذكور جامع لهذه الصفات كقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ (٣) ، فقد جاءت الواو بين هذه الصفات لتفيد أن هؤلاء المذكورين قد جمعوا بين هذه الصفات ، فهم صابرون ، وهم صادقون ، وهم قانتون ، وهم منفقون ، وهم مستغفرون بالأسحار ، وهذا يفيد أنهم بلغوا الغاية فى كل صفة من هذه الصفات ، وواضح أنه ليس بينها تقابل .

وبعض الدارسين يرى أن الواو لا تقع إلا بين الصفات المتقابلة ، فإذا ووجه فى الأساليب بمثل هذا تكلَّف ، وتمحَّل ، كما فعل العلاَّمة العلوى فى قوله تعالى : ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ ﴾ (٤) . فقد لحظ - رحمه الله - أن الواو هنا توسطت بين ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ ﴾ ، و﴿ قَابِلِ التَّوْبِ ﴾ ، ولم تُذكر بين ﴿ قَابِلِ التَّوْبِ ﴾ ، و﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ ، و﴿ ذِى الطَّوْلِ ﴾ ، فذهب إلى أن هناك تقابلاً خفياً بين ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ ﴾ و﴿ قَابِلِ التَّوْبِ ﴾ ، فغفران

---

(١) التحريم : ٥ — (٢) التوبة : ١١٢

(٣) آل عمران : ١٦ - ١٧ — (٤) غافر : ٢ - ٣

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الذنوب صفة سلبية لأن « الغافر » هو الذى لا يفعل العقوبة مع الاستحقاق ، و﴿ قَابِلِ التَّوْبِ ﴾ صفة إيجابية أى من قبيل الإثبات ، لأن معناه أنه يقبل العذر ، والندم ، وليس الذى ذهب إليه بشىء ، لأن السر فى هذه الواو هو ما ذكره الزمخشرى رحمه الله ، وقد نقل العلوى - بعد ما تكلَّف التكلف الذى ذكرناه - ملاحظة الزمخشرى ، وقال فيها : وهو وجه لطيف .

قال الزمخشرى : إن سر هذه الواو هو إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين ، بين أن تُقبل توبته ، فيكتبها له طاعة من الطاعات ، وأن يجعلها محاءة للذنوب كأنه لم يذنب ، كأنه قال : جامع المغفرة والقبول .

هذا .. والذى أراه أن تقابل الصفات لا يوجب العطف ، كما أن عدم تقابلها لا يوجب حذف العاطف ، ويرجع ذكر الواو وحذفها لقصد المتكلم ، ومراده من قوله ، انظر قولنا : عاش فلان عيشة متغيرة ، متقلبة ، عاش ضاحكاً ، باكياً ، سليماً ، سقيماً ، مستغنياً ، محتاجاً ، جمعت حياته صنوفاً شتَّى من المتناقضات ، وتقلب هو فى هذه الصنوف راضياً ، وصابراً ومتبرماً ، وساخطاً .. أترانى أخطأتُ حين قلت هذا ؟ وهل خالفتُ أصول البلاغة فى هذا التركيب ؟ أنا لا أحسبنى أخطأت ، لأننى أردت أنه كان بين هذه المتناقضات ، وكانت تجتمع عليه فى الآن الواحد ، ولو قلت لى : قل تراه ضاحكاً وباكياً ، سليماً وسقيماً ، مستغنياً ومحتاجاً ، فإنى أقول لك : إن هذا شىء غير الذى أريده ، لأنه يعنى أنها تتوارد عليه ، فهو يضحك حيناً ، ويبكى آخر ، ويستغنى تارة ، ويحتاج أُخرى ، ويمرض يوماً ، ويصح يوماً ، وأنا لا أريد أن هذه المتناقضات تتوارد عليه ، وإنما أريد أنها تجتمع عليه معاً ، وليس هذا شاذاً وغريباً فى لسان القوم ، فإن امرأ القيس لما أراد أن يصف فرسه بالسرعة وقوة الجرى والاندفاع قال (من الطويل) :

مِكَـرٍّ مِفَـرٍّ مُقْبِـلٍ مُدْبِـرٍ مَعـاً ... كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

فسقط الواو ليوهم أنه يُقبل فى حال الإدبار ، ويكر فى حال الفرار ، ولو

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

قال : مِكَرٍّ ومِفَرٍّ ومُقْبِلٍ ومُدْبِرٍ ؛ لأفاد غير هذا المعنى الذى أفاده بإسقاط الواو ، وأحسب أن الواو تفسد بيت امرىء القيس ، لأنها تفيد أن الفرس يكر تارة ويفر أخرى ، ويُقبل مرة ويُدبر أخرى . وهذا شىء غير الذى يقوله الشاعر .

الواو لها فى كل سياق دلالة ، وحذفها له مع جملة مغزى ، ويخطىء مَن يضع لها قاعدة ، ألا ترى الواو وقعت بين الصفات غير المتقابلة فى قوله : ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ (١) ، وسقطت فى مثله فى قوله تعالى : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ ﴾ (٢) .

ألا ترى الواو ذُكرت بين الصفات المتقابلة كما ذكرنا فى ﴿ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ ، ثم حُذِفت فى مثله فى بيت امرىء القيس وفى المثال الذى سقناه . . . ودع ذا فليس هنا مجال تحقيقه .

والمهم أن الواو الواقعة بين الذكور والإناث ، تعطف الإناث على الذكور ، ليتكون من مجموعهما معطوفاً على المجموع السابق ، فـ ﴿ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ معطوف على ﴿ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، و﴿ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَات ﴾ بجملته معطوف على ﴿ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَات ﴾ ، وكذلك ﴿ الْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَات ﴾ ، وهكذا تترابط هذه الصفات ، ويتوارد بعضها على بعض ، وقد قلنا : إن كل صفة منها تشير إلى لون من ألوان الأخلاق والسلوك الذى يتكون منه مجتمع القرآن ، وهذا يعنى عندنا أنها ليست متغايرة ، فالمسلمون والمسلمات ، هم مؤمنون ومؤمنات ، وهم أيضاً قانتون وقانتات ، وصادقون وصادقات . . . إلى آخره ، وكل صفة من هذه الصفات تُبرز اللَّون الأغلب للجماعة التى تعطفها على غيرها ، فهناك فئة هى مسلمة ، ومؤمنة ، وقانتة ، وصادقة ، ولكن أبرز أخلاقها التسليم ، والمسالمة ، والإسلام ؛ فغلب ذلك الوصف عليهم فذُكروا به . . وهناك فئة أغلب أوصافها الاقتناع ، والتصديق ، واطمئنان القلب

---

(١) آل عمران : ١٧ (٢) التوبة : ١١٢

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

لعقيدة الخير ، ورسالة النور ، فيبرز ذلك الوصف فيهم ، ويغلب على غيره ، فيُذكروا به ، وهناك فئة يغلب على سمتها القنوت ، والطاعة ، وهى مؤمنة ، ومسلمة ، فيُذكرون به ، وهكذا الخاشعون ، والصائمون ، والمتصدِّقون . . . إلى آخره .

والآية الكريمة وإن كانت تذكر الأخيار بصفاتهم البارزة ، والغالبة عليهم ، فإنها أقامت بناءها على نسق من الترتيب ، أومأ إليه ابن كثير حين قال : « فالإسلام بعده مرتبة يُرتقى إليها وهى الإيمان ، ثم القنوت ناشىء عنهما » . . ولا بأس عندنا من مراعاة هذا الترقى فى الصفات ، فإنه بيِّن ، ولا ينقض ما ذهبنا إليه فى تفسير الإسلام ، وأنه دين الأنبياء ، ورفضنا أن يراد به هنا ذلك المعنى الظاهرى الذى أُخذ من آية الحجرات . فالإسلام بمعناه العالى الذى ذكرناه ، يأتى وراءه فى التَسامى ، والقُرب من الله آفاق أخرى تستشرف إليها النفوس ، وتصعد فى معراجها . وقد وفق صاحب « التفسير القرآنى للقرآن » حين بسط ما أجمله ابن كثير فى ترتيب هذه الصفات فقال : « إن جميع هذه الأوصاف من تدبير الحكيم العليم ، وتعالت حكمة الله وجَلَّ علمه أن يجىء تدبير من تدبير الله عن غير حكمة ، وعلم ، فالإسلام الذى جاء بدءاً هو أولى درجات السلم الذى يرقى فيه المرء إلى منازل الشريعة ، وهو المدخل الذى يُدخَل منه إلى دين الله ، والإيمان هو العروج بالإسلام إلى موطنه من القلب ، والقنوت هو استجابة القلب وتقبله لهذا الإيمان الذى استقر فيه واطمأن به ، والصدق هو نبتة تنبت من بذرة الإيمان فى القلب ، والصبر هو الغذاء الذى تتغذى منه تلك النبتة حتى تقاوم الآفات التى تعرض لها ، وحتى تعطى الثمر المرجو منها ، والخشوع - وهو الولاء لله ، والامتثال لأمره - هو أول ما تفتح من زهر » .

وتلاحظ أن حفظ الفروج جاء فى هذا الترتيب المتسامى فى درجاته العالية ، وذلك لأن حفظ القلب ، وضبط الخواطر ، وتطهير الكيان النفسى من وسوسات الجنس ، والتمثل الصادق لأدب الإسلام ، فى هذا الباب ، من الأمور الشاقة ، وهذا هو معنى حفظ الفَرْج فى هذا السياق الصاعد ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ولا يقدر على هذا الحفظ إلا مَن صعد فى هذا الدرج العالى ، وكانت أبرز صفاته أنه ربانى ، حافظ لا يسنح فى أفقه شيطان .

والآية الكريمة قد بدئت بـ « إن » التى للتوكيد ، وهذا التوكيد تقرير للوعد ، واعتناء به ، وتثبيته فى نفوس الجماعة ، وإغراء لها بالنهوض ، والإسراع إلى دائرته ، ثم إن فيه تكريماً للمذكورين من حيث عناية الحق جَلَّ جلاله بوعدهم ، وسوقه فى مساق التوكيد .

وقد ذكر البلاغيون أن النمط العالى من القول الممتاز هو ما ترى أجزاءه تتداخل وتتراكب ، ويدخل بعضها فى بعض ، ويشتد ارتباط ثان منها بأول ، كأن يُبنى الكلام على الشرط ، وما فيه من ترابط ، وتداخل ، أو يُبنى على التشبيه التركيبى ، حيث تتضام الأوصاف ، وتتلاحم لتكون شيئاً واحداً ، أو يُبنى على التقسيم ، حيث يظهر فى القول ما يشبه الطى والنشر ، أو يُبنى على الإجمال والتفصيل ، أو المزاوجة ، أو غير ذلك مما ترى فيه أجزاء الكلام متداخلة ، يأخذ الأول فيها بالثانى ، والثانى بالثالث ، وهكذا . . . ويذكرون فى شواهد ذلك قول كثير :

وَإِنِّى وَتَهْيَامِى بِعَزَّةَ بَعْدَمَا ... تَخَلَّيْتُ مِمَّا بَيْنَنَا وَتَخَلَّتِ

لَكَالْمُرْتَجِى ظِلَّ الْغَمَامَةِ كُلَّمَا ... تَبَوَّأَ مِنْهَا لِلْمَقِيلِ اضْمَحَلَّتِ

وقال البحترى :

إِذَا مَا نَهَى النَّاهِى فَلَجَّ بِىَ الْهَوَى ... أَصَاخَتْ إِلَى الْوَاشِى فَلَجَّ بِهَا الْهَجْرُ

وقوله الآخر :

إذا احْتَرَبَتْ يَوْماً فَفَاضَتْ دِمَاؤُهَا ... تَذَكَّرَتِ الْقُرْبَى فَفَاضَتْ دُمُوعُهَا

ويذكرون فى مقابل هذا النمط العالى نمطاً آخر لا تعظم فيه المزية ، كعظمها فى النمط الأول ، وذلك حين يُبْنَى الكلام بناءً تتلاحق جمله فى غير متابعة ، ولا تهيئة ، أى فى غير ترابط وتداخل ، وسبيل المتكلم فى هذا

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

النمط - كما يقول عبد القاهر - سبيل مَن عمد إلى لآلىء فَخرطَها فى سلك ، لا يَبْغِى أكثرَ من أنْ يَمنعها التفرق ، وكمن نضد أشياء بعضها على بعض لا يريد فى نضده ذلك أن تجئ له منه هيئة ، أو صورة ، بل ليس إلا أن يكون مجموعة فى رأى العين ، وذلك إذا كان معناه معنى لا يحتاج أن تصنع فيه شيئاً غير أن تعطف لفظاً على مثله ، كقول الجاحظ : « جنَّبَك اللهُ الشُّبْهَةَ ، وعَصمكَ منَ الْحَيْرَةِ ، وجَعَلَ بَيْنَك وبَيْنَ المعرفة نَسَباً ، وبين الصدق سبباً ، وحببَّ إليك التثبتَ ، وزيّنَ فى عينك الإنصافَ ، وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشْعَرَ قلبك عز الحق ، وأودع صدرك برد اليقين ، وطرد عنك ذل اليأس » .

وكقول بعضهم : « لله دَرُّ خَطِيب قام عندك يا أميرَ المؤمنين ، ما أفْصَح لسانَه ، وأحْسَنَ بيانه ، وأمْضى جنانه ، وأبَلَّ ريقه ، وأسهل طريقه » .

وهذا اللَّون من التعبير لا يحسن عندهم إلا بمعناه ، إن كان معناه حسناً ، أو ألفاظه ، أما أن يكون فيه حُسن راجع إلى الصياغة ، والتركيب ، والنظم ، فذلك ما يرفضه عبد القاهر .

قلت : إن هذه الآية الكريمة بُنيت على التعداد ، وذكر الأصناف ، من المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، وليس فى مدلولها تشابك ، وتراكب ، كما ترى فى الآية السابقة عليها ، واللاحقة بها ، فالآية السابقة تتلاحق فيها الأوامر والنواهى ، التى تهدف إلى تنقية المجتمع كما قلنا ، والآيات اللاحقة يتشابك بناؤها ، ويتداخل ، انظر : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (١) ، وتأمل نظمها تجده متداخلاً ، ونظماً متلاحماً ، يظهر لك ذلك فى الاعتراض ، والشرط المضمن فى « إذا » الظرفية ، وتقديم خبر « كان » على اسمها ، وهذا كله لا يجعل التعبير دانياً ميسوراً ، وإنما هو بناء متين

---

(١) الأحزاب ٣٦

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

متراكب . . . وآية : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ ليس بناؤها من هذا النوع ، وإنما هى أوصاف تترادف ، وذلك واضح وغير محتاج إلى تفصيل . ثم إن ترادفها ليس من هذا النمط الثانى الذى ذكروه ، ومثَّلوا له بكلام الجاحظ وغيره ، وذلك لأنه ليس فى هذا النمط الثانى ترابط بين الجمل ، وأعنى بالترابط : بناء الكلام على ترتيب ما ، بحيث تقع الجملة موقعها الذى لو تركته إلى غيره لكان هناك نبو ، وإن كان يخفى على غير صاحب البصر النافذ فى فهم الكلام ، والكلام الذى ذُكِر فى شواهد النمط الثانى ليس من هذا القبيل ، ولذلك لا أجد فرقاً بين هذا التعدد الذى ذكره الجاحظ فى أسلوبه ، وبين قولنا فيه : « أشعر الله قلبك عز الحق ، وأودع صدرك برد اليقين ، وأذاقك حلاوة التقوى ، وزيَّن فى عينك الإنصاف ، وحبَّب إليك التثبتْ ، وعرَّفك ما فى الباطل من الذلة » .

وكذلك لو قلنا فى وصف الخطيب : « ما أسهل طريقه ، وأبل ريقه ، وأحسن بيانه ، وأمضى جنانه ، وأفصح لسانه » . . لا فرق بين ما قالوه وما قلناه ، وإن كنا قد أدرنا كلامهم فى غير الأسلوب الذى أداروه فيه ، ولا نسمع هنا لقول متكلف يختلق ما لا وجود له ليقيم فرقاً بين ما قالوه ، وما صار إليه بعد ما تصرفنا فيه .

المهم أن هذا الأسلوب ليس فيه تماسك ضرورى من حيث الترتيب ، وإحداث هيئة ، وإنما هو تماسك يحفظ نظام الكلام من غير أن يُحدث فيه صورة ، وأن يجعل له هيئة كما يقولون .

قلت : إن ترادف الكلمات فى الآية الكريمة ليس من هذا النمط ، وإنما هو ترادف يتسامى ، ويأتى ثانيه عقب أوله ، وقد أشرنا إلى عطف الإناث على الذكور فى كل وصف ، ثم عطف الجنسين على الوصف السابق لهما ، وهذا نمط من التماسك اللين السهل الذى لا يكون فى شدته وقوته كالنمط الأول الذى ذكره عبد القاهر .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وبهذا تُقدِّم لنا هذه الآية الكريمة نمطاً ثالثاً من الأساليب تظهر فيها سماحة البناء ، وسهولة التركيب ، ثم ترى سلطان المزية يعظم فيه ، ويعلو إلى حد الإعجاز . إذن ليس الأمر فى سمو القول مشروطاً بصعوبة المأتى فى التراكيب ، وأنه لا فضيلة حتى نجد فى الأمر مَصْنعاً كما قالوا ، وإنما قد يكون السمو فى تسلسل البناء ، وليونة الأسلوب ، بل قد تكون شدة التماسك مجتمعة فى ليونة التركيب ، وسلامة العبارة كما هنا ، فالآية لا سبيل فيها إلى تقديم كلمة وتأخيرها ، وهذا هو معنى شدة التماسك ، ثم إن الأمر فيها يجرى على التسلسل والتحدُّر كما ترى فى نسقها المتتابع ، ونحن هنا نستعمل الكلمات التى ليست محددة الدلالة تحديداً متميزاً ، لأن المعانى التى نريد بيانها من هذا النوع . . ثم إن الذين يتحدثون فى العبارات ، وبلاغتها لا مفر لهم من استعمال مثل هذه العبارات .

هذا . . والآية الكريمة أقيم بناؤها الصوتى على ضرب من التنغيم الذى كأنه يتماوج ، وتستطيع أن تدرك ذلك بسهولة إذا أصغيت إلى أصواتها فى تتابعها وتلاحقها ، فالمسلمين مثل المؤمنين ، ومثل الصادقين ، والقانتين ، والخاشعين ، وهكذا كل أوصاف الذكور متناسبة فى الإيقاع ، أعنى الوزن . . والمسلمات والصادقات . . . إلى آخر أوصاف الإناث كلها أيضاً متناسبة فى الإيقاع ، ثم تداخلت هذه الأوزان فجاء « المسلمين » بهذا الصوت الممتد إلى أسفل ، وبعده « المسلمات » بهذا الصوت الممتد إلى أعلى ، وأردف ذلك بـ « المؤمنين » فعاد الصوت فى إيقاعه إلى حالته الأولى التى بدأ بها ، ثم جاء « المؤمنات » فرجع به إلى حالته الثانية ، وهكذا ظل الصوت إلى نهاية الآية يتماوج بين هذين الإيقاعين الواضحين ، واللذين حَدَّدتهما كلمتا : « المسلمين والمسلمات » ، ثم إن أجراس هذه الكلمات وما فيها من ترديد لأصوات الحروف التى تتكوَّن منها مادة كل وصف من هذه الأوصاف ، يتداخل ذلك مع هذا الإيقاع المتماوج ، فتولَّدت فى الآية أنغام خاصة ، لها رنين متميز ، يبعث فى النفس الإيحاء والإيقاظ . ومن المقرر فى الدراسات الجادة أن

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

أصوات الحروف - بَلْه الكلمات - تتسرب إلى مركز الحس ، ومواطن التأثير ، فتثير الرؤى ، والأطياف ، وتعمل أوصافها من اللين ، والقوة ، والرخاوة ، والتماسك ، عملها الخفى ، والمضمر فى النفس الحساسة ، فإذا ما تكرر صوت الحرف كان كأنه نقرة تتبع أُخرى على وتر واحد فيتميز الرنين ، ويقوى باعث الإيقاظ ، والتأثير ، وقل ضعف ذلك إذا تكرر حرفان ، ثم تَصورً جملة الحروف فى مثل : ﴿ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ، وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ، وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ، وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ، وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ واضح أن هذا التكرار وذلك التماوج قد أحدثا للآية أنغاماً شجية ، يعظم سلطانها على النفس الرهفة ، فتسلط عليها تسلطاً استهوائياً عجيباً ، فتخف أحلامها ، وتتراءى أطيافها ، مستشرفة نحو السمو إلى مراتب القدس ، والمناشدة ، والتطلع الضارع ، لتكون فى جملة هذه الصفوة التى أعد الله لها مغفرة وأجراً عظيماً .

وأعتقد أن حذف المفعول فى قوله : ﴿ وَالْحَافِظَاتِ ﴾ وفى قوله : ﴿ وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ كان من بعض دلالته الحفاظ على هذا النغم ، ومراعاة أثره فى النفس . قال العلامة « الجمل » فى حاشيته : « وحسَّن الحذف رؤوس الفواصل » : نعم إن المحذوف قد دل عليه المذكور دلالة واضحة ، ولو ذُكر لكان ثقيلاً نابياً ، ولكنه أيضاً يفيد كما قلنا هذه الفائدة ، أعنى التوازن اللَّفظى فى الأسلوب ، ونؤكد فى غير حَرَج أنها فائدة عظيمة ، ومقصد من المقاصد الممتازة فى القول البليغ . وليس هناك معنى للاستخفاف بهذه الميزة البلاغية . وقد أثبتت الدراسات الجادة أثر الصوت فى يقظة النفس ، وفعله البالغ فى بعث رؤاها وذكرياتها ، وقد كان سَلَفنا من علماء هذه الأُمة يدركون هذه الحقيقة إدراكاً واعياً ، ويؤكدون أن الأصوات والأجراس أفعل فى النفس من

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الصور ، والمعانى ، والأفكار ، وأن هناك فى السراديب الخفية المضمرة أحاسيس ومشاعر ، لا تبعثها إلا رنة الصوت فى تنظيم وتتابع . وقد أشرت إلى هذا فى دراسة أخرى ، وحسبى هنا أن أقول : إن الكلمة التى كانت تقع فى النفس الهادئة هدوء القرار فتحيلها هادرة كغضبة الموت ، أو تقع فى النفس الهادرة فتحيلها وادعة ساكنة ، لم تكن الكلمة لتفعل ذلك إلا لأن كل صوت فيها ، وكل نبرة ، كأنه نفثة من نفثات السحر ، تفعل فى الروح فعل الأعاجيب .

هذا .. ويمكن أن نلمس فى حذف مفعول ﴿ الحَافِظَاتِ ﴾ إشارة لَمّاحة إلى صون هذا المفعول وستره ، فإنه موطن الحياء من المرأة ، والمرأة أشد تصوناً وأكثر حياءً ، فرمز القرآن بحذفه وستره إلى ما يجب من المبالغة فى صونه وحفظه .

ولما سمت الآية الكريمة بروح المسلم والمسلمة ، إلى هذا الأفق القدسى أسمعها « الحق » وهى فى هذه الروحانية الشفافة ، والتطلع الضارع لأن تكون فى عِداد مَن أعدَّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ، أسمعها أمراً سماوياً حاسماً يقضى بأن المؤمن والمؤمنة مستسلمين لقضاء الله استسلاماً يقبض من أيديهما كل تصرف فى الأمر ، واختيار فيه ، بعد ما يقضى الله أمراً ، فقال :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً ﴾ .
(الآية : ٣٦)

* *

تأمل هذا الأسلوب وأحسن الإصغاء إليه ، ومعناه : ما ينبغى للمؤمن والمؤمنة ، أن يكون لهم الاختيار فى أمر من أمورهم بعد ما يقضى فيه الله ورسوله ، وهذا التركيب ﴿ مَا كَانَ ﴾ أى ما صَحَّ وما استقام ، ومعناه الحظر والمنع ، فيجىء لحظر الشىء والحكم بأنه لا يكون ، ولهذا كان تعبيراً قوياً فى

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

أداء المعنى ، لأن فيه أثرةَ غضَبٍ ، ونَبْرَةَ تَهْدِيد من حيث أفاد أن الشأن فى المؤمن والمؤمنة الاستجابة ، والإذعان لأمر الله ، والتسليم بحكمه وقضائه فى كل أمر من أمور الحياة ، جليلها وصغيرها ، فإذا كانت هنا محاولة من الفرد ، أو من الجماعة ، تبحث عن أمر ترى فيه الخير والنفع ، بعد سماع الحسم فيه بالقضاء ، كان ذلك خلعاً لشريعة الإيمان ، وخروجاً من دائرة اليقين . . . .

والقضاء هنا فصل الأمر ، وبيانه ، والإعلام بهذا الفصل والبيان ، فنفى الخيرة أعنى الاختيار ، يكون عند فصل الله فى الأمر ورسوله ، وإعلام المؤمنين بذلك ، وهو غير التقدير ، قال الراغب : القضاء من الله أخص من القَدَر ، لأنه الفصل بين التقدير ، فالقدر هو التقدير ، والقضاء هو الفصل والقطع . وقوله : ﴿ إذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ قالوا : أراد : قضى رسول الله ، لأنه هو الناطق بقضاء الله وفصله ، وذكر لفظ الجلالة للإشارة بأن الرسول من الله بمكان عظيم ، وهذه عادة فى لغتهم ، يذكرون المعطوف عليه وهو غير مراد بالحكم ، ليشير بذلك إلى عظيم الصلة ، وقوة العلاقة ، بين المعطوف والمعطوف عليه ، كما قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَى اللهِ وَرَسُولِه ﴾ (١) أى لا تُقدِّموا بين يدى رسول الله ، وكما قال : ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ﴾ (٢) أى لتحطمنكم جنود سليمان ، وقد أشرنا إلى ذلك . وقوله : ﴿ أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ اسم « كان » وقد تأخر ، وقوله : ﴿ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ خبر « كان » وقد تقدم ، وقوله : ﴿ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ ظرف فيه معنى شرط وقد وقع معترضاً .

و« الخِيْرة » كالعنبة ، وتسكن ياؤها ، قالوا : هو مصدر من تخيَّر ، كالطِّيَرة ، من تطيَّر ، وذكر بعضهم أنه لم يأت مصدر على هذا الوزن سوى هذين المصدرين ، هكذا فى روح المعانى .

---

(١) الحجرات : ١ (٢) النمل : ١٨

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وقال اللّيث : الخيرة : مصدر اختار خيرة ، مثل ارتاب ريبة ، وقال الزَّجاج : الخيرة : التخير ، وقال ابن منظور : الخيرة : الاسم من قولك اختاره الله ، قال الفيروزآبادى : اختَرْتُه الرجالَ - بفتح الرجال - واختَرْتُه منهم ، وعليهم ، والاسم الخِيْرة - بالكسر - كالعِنبة ، وسواء أكانت الخيرة مصدراً كما يقول الأكثر ، أو كانت اسم مصدر ، فإنها قد أوثرت هنا على الاختيار ، أو التخيير - فى تقديرنا - لأمرين . الأول : يرجع إلى مبنى الآية وخصائص تركيبها ؛ فإن بناءها قد تداخل ، وصار فيه شىء من التراكب ، فتقدم خبر « كان » وهو جار ومجرور ، وتأخر اسمها ، وهو مصدر مؤول ، واعترض بينهما ظرف فيه معنى الشرط ، وجوابه محذوف لدلالة الجملة عليه ، وهذا كله جعل الكلمة « الخيرة » بخفتها وقصرها أنسب لهذا التركيب .

والثانى : أن الاختيار أكثر حروفاً ، وأوفر معنى ، و« الخيرة » أقل حروفاً ، وهم يقولون : إن زيادة المبنى تدل غالباً على زيادة المعنى ، والآية الكريمة تنفى أقل قدر من الاختيار بعد ما يقضى الله ورسوله ، فناسب ذلك أن يذكر « الخيرة » ، الذى يفيد هذا القدر القليل من الاختيار .

ثم إن لموقع الظرف هنا معترضاً مغزى جليلاً ، لأن نفى الاختيار ، وسلب المؤمن هذا الحق من التدبير ، والحرية ، والقبول ، والرفض ، لا يكون فى ظرف من الظروف إلا حين يقضى الله فى الأمر أمراً ، أما فيما عدا ذلك فإن الاختيار والتدبير لا حَرَج فيه ، بل إنه واجب المؤمن ، ولهذا بادر بذكر هذا الظرف ، أو الشرط قبل ذكر الخيرة .

وقد قالوا : إنه قال : ﴿ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ فجمع الضمير ، والسياق أن يقول : من أمرهما ، أى المؤمن والمؤمنة ، وذلك لأنه يشير من وراء ذلك إلى أن الجماعة المؤمنة ليس من حقها الخيرة بعد قضاء الله ، فإذا كان قضاء الله أمراً ملزماً للمؤمن فى محيطه الفردى ، فهو ملزم للجماعة فى محيطها العام ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وهذا يعنى أن الأمة المسلمة إذا راحت تبحث عن فلسفة أو نظام فى شأن من شئون حياتها ، سواء فى ذلك السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، هذا الشأن قضى الله ورسوله فيه قضاء ، فهى أمة تخلع رِبقة الإيمان من أعناقها ، أعنى أنها ليست مؤمنة ، وهذا يحدد تحديداً صريحاً ضرورة التزام الجماعة المؤمنة بأمر القرآن ، التزاماً لا ترخص فيه ، فكل قضاء قد قضاه القرآن ، والحديث الصحيح ، فى أمر من أمور الحياة ، والأخلاق ، والتعامل ، يكون خروج الجماعة المؤمنة عليه رِدَّة وكفراً . وأنا أعنى بالخروج هنا أن تستحل الجماعة ما تختاره ، أى أن تعتقد أن الخير فيما ذهبت إليه ، وهذا معنى كلمة الخيرة ، لأن الاختيار يعنى الاصطفاء ، وطلب الخير ، أما أن يخالف المؤمن أمر الله وقضاءه وهو يعلم أنه مخطىء ، فهذه معصية ، وفرق كبير بين الأمرين ، والذين يردون فتاوى الفقهاء المدققين ويستخفون بما كتبه الله على عباده مثل حجاب المرأة المسلمة الذى نص القرآن عليه نصاً ، ويذكرون أنه من مظاهر التخلف ، هم بهذا مخالفون ، لأنهم ينكرون أو يعطلون آية من الكتاب ويرون أن ما عندهم من العلم أفضل مما ذكر الله .

وقوله : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبيناً ﴾ بيان لحال مَن خالفوا واختاروا ، بعد ما قضى الله ورسوله أمراً ، وجواب الشرط هنا ماض مسبوق بـ « قد » المقرونة بالفاء ، و« قد » تفيد التحقيق أى تحقق وقوع الفعل ، والماضى حين يستعمل مكان المضارع يفيد تأكيد وقوع الفعل ، أى أن الفعل الذى سيقع فى المستقبل كأنه وقع الآن ، وهو يُخبر عنه ، وهذا واضح ، ومعروف ، ولكننى ذكرته لأقول : إن قوله : ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ﴾ يشير إلى أن مخالفة قضاء الله فى أمر من الأمور التى قضى فيها ، سواء أكان ذلك فى سلوك الفرد ، أو سلوك الجماعة ، يعقبه حتْماً الضياع ، والضلال ، أعنى ذهاب الجماعة بدداً ، وكأنها جمع قد تفرقت به السُبُل فضاع ، وضلّ ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

فليس لها كيان ، وليس لها وجود واضح ، وإنما هى شىء خَلّى مكانه فى هذا الوجود ، وكذلك حال الفرد المؤمن حين يختار أمراً غير ما قضى الله ، أى حين يخالف المخالفة التى بيَّنا وجهها ، أعنى اعتقاد أن ما يختاره هو أنفع له مما قضى به الله ، يضيع ، ويضل ، ويذهب فى متاهة عمياء ، ويُخلى مكانه فى الجماعة المؤمنة ، فلا يشارك فى حياة ، ولا بناء ، ومن هذا يبدو لنا أن العقوبة التى يمثلها جواب الشرط ، أى عقوبة مَن يختار فى أمر حياته شيئاً بعد ما قضى الله فيه أمره ، ليست إعداد عذاب أليم فحسب ، وإنما هى ضلال بعيد ، أى هى عقوبة أقرب إلى أن تكون دنيوية ، فضلاً عن أنها عذاب أليم فى الآخرة ، وأكرر أن الرِدَّة مشروطة برفض أمر الله ، وتشويهه ، والمجاهرة بأن غيره خيراً منه ، والاعتقاد بأن الخيرة فى غيره .

والمهم أن الآية نصت هنا على الضلال البعيد ، وهو متضمن للعذاب الأليم فى الآخرة ، وكأن الله سبحانه ينبه المؤمن ، والمؤمنة ، وجماعتهما ، أى ينبه الأُمة الإسلامية أفراداً وجماعات ، بأن انسلاخكم عن أمر الله ، وقضائه ، وجدكم فى البحث عن أُصول للسلوك ، والسياسة ، والتعامل ، والحياة فيما قضى فيه القرآن ، والحديث ، يعقبه ضلالكم وضياعكم فى هذه الحياة الزاخرة ، وذهاب شملكم ، وقوتكم ، وتخلفكم عن أداء دوركم فى حركة الوجود ، وعلى الجماعة المؤمنة أن تذهب إلى القرآن الذى يتضمن أمر الله ، والحديث الصحيح الذى يتضمن أمر رسوله ، وتبحث ، وتفتش ، وتجتهد فى الفهم ، وأن تأخذ منهما ، وهى تعتقد أنه ليس لها الخيرة فى أمرها ، ما دام قد وقع القضاء فيه من جهة السماء ، هذا بعض ما يُفهم من الآية الكريمة فى عموم دلالتها .

وقد قال بعض الأئمة : إنها نزلت فى شأن زينب بنت جحش رضى الله عنها .

قال العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ ... الآية ، وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فَتَاهُ زَيْدِ بنِ حارثة رضى الله عنه ، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رضى الله عنها فخطبها ، فقالت : لست بناكحته ، فقال رسول الله ﷺ : « بل فانكحيه » ، قالت : يا رسول الله ؛ أؤامر نفسى . فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله ﷺ : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ .. قالت : رضيتَه لى يا رسول الله منكحاً ؟ قال رسول الله ﷺ : « نعم » قالت : إذن لا أعصى رسول الله ﷺ ، قد أنكحته نفسى ، وهكذا قال مجاهد وقتادة ومقاتل .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت فى أم كلثوم بنت عقبة ابن أبى معيط رضى الله عنها ، وكانت أول مَن هاجر من النساء ، يعنى بعد صلح الحديبية ، فوهبت نفسها للنبى ﷺ ، فزوجها زيد بن حارثة رضى الله عنه ، يعنى - والله أعلم - بعد فراقه زينب ، فسخطت هى وأخوها ، وقالا : إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجنا عبده ، فنزل القرآن : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن ثابت البنانى ، عن أنس رضى الله عنه ، قال : خطب النبى ﷺ على جُلَيْبِيب امرأة من الأنصار إلى أبيها ، فقال : حتى أستأذن أمها ، فقال النبى ﷺ : « فنعم إذن » ، قال : فانطلق الرجل إلى امرأته ، فذكر ذلك لها ، فقالت : لاهَا اللهُ ، إذن ما وجد رسول الله ﷺ إلا جُلَيْبِيباً ، وقد منعناها من فلان وفلان ، والجارية فى سترها تسمع ، قال : فانطلق الرجل يريد أن يُخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقالت الجارية : أتريدون أن تردوا على رسول الله ﷺ أمره ، إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه ، قال : فكأنها جلت عن أبويها ، وقالا : صدقتِ ، فذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ ، فقال : إن كنتَ رضيته فقد رضيناه ، قال صلى الله عليه وسلم : « فإنى قد رضيته » ، قال : فزوجها .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وابن الأثير فى أُسْد الغابة يقول : جُلَيبيب - بضم الجيم - على وزن قُنيديل - وهو أنصارى له ذكر فى حديث برزة الأسلمى ، من إنكاح رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنة رجل من الأنصار ، وكان قصيراً ، دميماً ، فكأن الأنصارى وامرأته كرها ذلك .. ويروى ابن الأثير أن الجارية قرأت من وراء الستار لأبويها : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ وهذا يعنى أنها نزلت قبل قصة زواج جُلَيْبِيبٍ .

وسواء أكان سبب النزول قصة زينب ، أو قصة زواج جُلَيبيب من فتاة الأنصار ، فإن الآية تحدد فى حياة المؤمن والمؤمنة هذا الأصل فى أسلوب مرعد ، يبدأ بدءاً حاسماً فينفى أصل الإيمان عن كل مَن يحاول أن تكون له الخيرة ، فى أمر قد قضى فيه الرحمن ، ومن مظاهر الإعجاز - كما قدمنا - أن تكون الآية مرتبطة بحادثة ، ثم تنزل منزلتها من السورة فتقع من الآيات السابقة واللاحقة ، موقعاً متلائماً ، كما بيَّنا فهى بالنسبة للآية السابقة امتداد لها ، وقد قلنا : إنها وقعت بعد ذكر الموصوفين بهذه الصفات ، والذين هم صفوة المجتمع المسلم ، وبعدما استشرفت القلوب إلى أن تكون فى صحبة هذه الصفوة ، وكأنها كانت إشارة حاسمة لمن أراد أن يكون منهم ، أى كأنها تقول للنفس المستشرفة لهذه الكوكبة : إنه لن يتحقق أصل الإيمان الذى يمكن به أن يؤذن بشرف الصحبة ، إلا بإلقاء المقادة فى طواعية لله سبحانه ، وألا يكون هناك خِيَرة بعد ما يقضى الله أمراً ، ثم هى من وجه تمهد لهذا الأمر الحاسم ، أى زواج النبى عليه الصلاة والسلام من مطلقة متبناه زيد ابن حارثة ، لأن الأمر فى هذا الزواج كان قضاءً من الله ، وكان تشريعاً يستأصل ما تقرر فى النفوس من تحريم زواج مطلَّقة المتبنى ، وما كان للرسول أن يكون له خيار فى هذا الزواج بعد ما قضى الله فيه أمره .

وأظن أن اللُّحمة التى تصل الآيات بما بعدها وما قبلها قد اتضحت فى غير تكلف ، والآن نبدأ الحديث فى آية زواج النبى ﷺ من زينب .

* * *

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَراً ، وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً * مَّا كَانَ عَلَى النَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ ، سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ، وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَّقْدُوراً * الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ ، وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيباً ﴾ (الآيات : ٣٧ - ٣٩) .

* *

هذه الآيات الكريمة من آيات الكتاب التى كثرت حولها الأقاويل ، ورأينا بعض علماء المِلَّة يتحرج أن ينقل فيها ما روى عن بعض علماء السَلَف ، لأنه - كما قالوا - رأى فيه من الهُجْنة ما لا يصح أن يُنسب إلى رسول الله ﷺ . وقد ظل رجع هذه الأقاويل يتردد مع الزمن ، حتى عصرنا هذا ، ولا زال كُتَّابنا المعاصرون يمثلون فى مجموعهم فرقتين ، فرقة هى امتداد لبعض علماء المِلَّة الذين يتحرجون من مجرد نقل ما رآه بعضهم ، وآخرون يحتضنون هذا الذى يتحرَّج غيرهم من مجرد نقله ، والحقيقة أننى شُغلتُ زمناً ليس باليسير فى متابعة كلام الأئمة فى تحديد معنى الآيات الكريمة ، وبيان المراد بكلماتها ، وكنت أجتهد فى النظر فى الآراء ، راجياً أن أهتدى إلى أقربها ، وحين كنت أناقش المشتغلين بالتفسير ، والحديث ، والسيرة ، أجدهم امتداداً للوجهتين السابقتين ، ولم أجد أحداً هُدِىَ إلى شىء خصَّه الله به فحرر رأياً أو قوَّم وجهة نظر .

وخلاصة ما قيل فيها : إن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ، كان قد زوَّجه النبى عليه السلام من زينب بنت جحش ، ابنة عمة رسول الله ، وهى أسدية معتزة بالانتماء لبنى أسد ، وكانت قبيلة لها شأن فى تاريخ الجاهلية

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

والإسلام ، فهم الذين دقوا عُنق حجر بن الحارث ملك كندة ، وطلبهم ولده امرؤ القيس وأعنتوه ؛ زينب إذن أسدية تنتمى إلى حُرِّ قبائل مُضَر ، وهم وكنانة - أى قريش - أبناء عمومة ، كلاهما من ولد خزيمة ، وقد أراد الرسول عليه السلام أن يقرر قِيَم المساواة فى المجتمع الإسلامى ، وفى هذه البيئة المحمية بفوران التعالى ، فاختار زينب لما بينه وبينها من صلة ، فإنها إذا كانت أسدية العمومة فإنها هاشمية الخؤولة ، أُمها أُميمة بنت عبد المطلب ، سيد مكة ، وصاحب عيرها ، وبهذا يجتمع لها ما لم يجتمع للكثير مما به يكون الاعتزاز والتعالى ، اختار الرسول زينب لأنها من أهله ، أى بنت عمته ، فخطبها لزيد ، وكان ما ذكرناه من رفض زينب ورفض أخيها ثم من إذعانهما لأمر الله ورسوله .

وكانت الحياة - كما تروى أكثر الكتب - بين زيد ، وزينب ، حياة غير قارة ، فقد كانت تفخر عليه بشرفها ، وكان يسمع منها ما يكره ، فشكاها لرسول الله ، فقال له عليه السلام : ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ ﴾ قالوا : وكان رسول الله قد أوحى الله إليه ، وأعلمه أن زيداً سيُطلِّق زينب ، وستتزوجها ، ليكون ذلك استئصالاً لبقايا آثار التبنى الذى أبطله قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ ﴾ (٢) .

وكان زيد بن حارثة يُدعى زيد بن محمد ، فلما نزلت الآيات المبطلة للتبنى صار زيد يدعى زيد بن حارثة كما قدَّمنا ؛ ولكنهم ظلوا يُحَرِّمون مطلقة المتبنَّى بعد إبطال التبنى ، فكان لا بد من تشريع عملى ، ليواجه هذه العادة المتأصلة ، أعنى تحريم زوجة المتبنَّى ، فانتدب لذلك الأمر الصعب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد روى عن علىّ بن الحسين : « أن النبى ﷺ قد أوحى الله إليه أن زيداً

---

(١) الأحزاب : ٤ (٢) الأحزاب : ٥

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

يُطلّق زينب ، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها ، فلما شكا زيد للنبى ﷺ خلُق زينب ، وأنها لا تطيعه ، وأعلمه بأنه يريد طلاقها ، قال له رسول الله ﷺ على جهة الأدب والوصية : « اتّقِ الله فى قولك ، وأمسك عليك زوجك » ، وهذا هو الذى أخفى فى نفسه ، وخشى رسول الله ﷺ أن يلحقه قول من الناس فى أن تزوج زينب ، بعد زيد - وهو مولاه - لو أمره بطلاقها ، فعاتبه الله على هذا القدر من أن خشى الناس فى شىء قد أباحه الله تعالى ، بأن قال : أمسك عليك زوجك ، مع علمه بأنه يُطلّقها ، وأعلمه الله أنه أحق بخشيته ، أى فى كل حال » .

وقد روى مثل هذا عن علىّ بن الحسين رضى الله عنهما ، قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا علىّ بن هاشم بن مرزوق ، حدثنا ابن عُيَيْنة عن علىّ بن زيد بن جَدْعان ، قال : سألت علىّ بن الحسين رضى الله عنهما ما يقول الحسن فى قوله تعالى : ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ فذكرت له ، فقال : لا ، ولكن الله تعالى أعلم نبيه أنها تكون بين أزواجه ، قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد رضى الله عنه ليشكوها إليه قال : « اتّقِ الله وأمسك عليك زوجك » ، فقال : أخبرتك أنى مزوجها وتُخفى فى نفسك ما الله مبديه .

قال ابن كثير : وهكذا رُوى عن السُّدّى أنه قال نحو ذلك .. قال صاحب حاشية الفتوحات الإلهية : وهذا القول أحسن ما قيل فى هذه الآية ، وهو الذى عليه أهل التحقيق من المفسِّرين والعلماء الراسخين ، كالزهرى ، والقاضى أبى بكر بن العلاء ، والقشيرى ، والقاضى أبى بكر بن العربى ، وغيرهم ، والمراد بقوله تعالى : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ إنما هو إرجاف المنافقين بأنه نهى عن التزوج بنساء الأبناء ، وتزوج هو زوجة ابنه .

وقال صاحب « روح المعانى » : والظاهر أن الله لما أراد نسخ تحريم زوجة المتبنَّى أوحى إليه عليه الصلاة والسلام ، أنه يتزوج زينب ، إذا طلّقها زيد ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

فلم يبادر صلى الله عليه وسلم مخافة طعن الأعداء ، فعوتب عليه ، ثم قال: وهو توجيه وجيه قاله الخفاجى عليه الرحمة .

وكان بينى وبين الاطمئنان الكامل إلى قبول هذا الرأى خاطر يمضى فى القلب ويقول : إن الرسول عليه الصلاة والسلام مأمور من الله أمراً حاسماً بتبليغ ما يُوحَى إليه ، فلو كان المولى قد أعلمه أو أوحى إليه أن زيداً سيُطلِّقها ، وأنه عليه الصلاة والسلام سيتزوجها ، لصدع بهذا البلاغ صدعاً بيِّناً مكشوفاً لا خشية فيه ، ولا مواربة ، والتبليغ من أخص أوصاف الرسل وأهمها ، لأن الرسالة بلاغ . ولندع هذا الآن لنذكر الوجه الآخر فى تفسير الآية وكنا على أن ندعه كما فعل المحققون ، لولا ما عرض لنا من واجب البحث والدرس ، يقتضينا أن نذكر ما يقال ، وأن نعرضه على الرأى والمناقشة الهادئة ، ولا ضير فى ذلك ما كان الحوار مع طُلّاب الحقيقة ، هذا فضلاً عن أن هناك أقلاماً معاصرة لا زالت تردده وتلهج به وتدفع عنه .

والمهم أن ابن سعد ، والحاكم ، والطبرى ، والزمخشرى ، وغيرهم من المفسِّرين يذكرون كلاماً ملخصه : أن الرسول جاء إلى بيت زيد فلم يجده ، ورأى زينب فى سترها ، فأعجبه حسنها ، فذهب وهو يقول : « سبحان مُقَلِّب القلوب » ، فسمعته زينب ، فلما جاء زيد أخبرته بالذى حدث ، فقال زيد لرسول الله : بلغنى يا رسول الله أنك جئت منزلى ، فهلا دخلت يا رسول الله ، لعل زينب أعجبتك فأفارقها ، فقال عليه الصلاة والسلام : « أمسك عليك زوجك واتَّقِ الله » ، فما استطاع زيد إليها سبيلاً بعد ، وتزيد هذه الرواية تطرفاً فتروى أن الرسول رأى زينب جالسة وسط حجرتها ، تسحق طيباً ، فلما نظر إليها قال : « سبحانه خالق النور ، وتبارك الله أحسن الخالقين » .

ثم إن أصحاب هذه الروايات الذين وضعوها ودسوها فى كتب القوم ، موَّهوا وخدعوا ، فذكروا فى بيان جواز صحتها ، أن حب الرسول لزينب ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وهى فى بيت زيد شىء خطر فى قلبه ، وذلك مما لا يستطيع البَشر دفعه ، وكان عتاب الله له ، لأنه قال لزيد : « أمسك عليك زوجك » ، وأخفى رسول الله ما تولّد فى قلبه من حبها ، وكان الأولى أن يسكت فلا يقول له شيئاً ، لأنه حين قال : « أمسك عليك زوجك » ، قد أخبر بما لا يتفق مع قلبه وهواه ، والله يريد لأنبيائه تساوى الظاهر والباطن ، وكان من غير المستكره أن ينزل الرجل عن زوجته - أى يُطلّقها - ليتزوجها صاحبه ، وحين دخل المهاجرون المدينة ، واستهم الأنصار فى كل شىء ، حتى إن الرجل منهم إذا كانت له امرأتان نزل عن إحداهما ، وأنكحها المهاجر ، وهكذا سوغ أهل البدع هذه الضلالة ، فذكرها مثل ابن سعد ، والحاكم ، والطبرى ، والزمخشرى ، ولا يعنى ذكرها فى كتب هؤلاء العلماء صحتها عندهم ، وإنما كان من عادتهم أن يذكروا فى الحادثة كل ما يروى .

وصريح مدلول الآية يرفضها . . . وبيان ذلك أن هذه الضلالة تعنى أن قوله : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ أى تُخفى فى نفسك حب زينب ، ورغبتك فى الزواج منها لما أعجبك حسنها ، وهذا خطأ لأن الذى أخفاه النبى عليه الصلاة والسلام هو ما الله مبديه ، والذى أبداه الله هو : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ أى طلاق زيد زينب ، وزواج النبى منها ، لاستئصال آثار التبنِّى ، ولو كان الذى أخفاه هو رغبته فى الزواج من زينب ، لكان الذى أبداه الله هو ذلك الهوى والحب ، أى لأظهر الله هذا الذى خطر فى قلبه ، وهو إعجابه بزينب ، ووقوعها فى نفسه .

هذا ما يدل عليه صريح الكلام ، ثم إننا نرفض أن يكون محمد الذى أدَّبه ربه فأحسن تأديبه ، والذى ذكر الحق جلَّ جلاله أنه على خُلُق عظيم . . أن يكون على هذا المستوى الأخلاقى مهما قيل فى تسويغه . وماذا نقول فى رجل يحب رجلاً كل الحب ، وينعم عليه نعمة ، يتذكرها الناس ، ثم هو يحب امرأته ، ويشتاقها ، ويتمناها لنفسه ، وهو يعانى هذا الحب ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ولا يفصح عنه فى تصرف ، ولا سلوك ، لأن له إمامة فى قومه : ماذا نقول فى هذا ؟

أعتقد أنه ليس موقف إنسان نبيل ، فضلاً عن أن يكون موقف نبى هو خاتم وحى السماء إلى الأرض ، أى الذى تلقى آخر كلمة بقيت تنغم أنغام الحق فى ضمير الوجود ، ثم إن هذه الروايات التى روت هذه الضلالة كلها ساقطة ، من ناحية السند كما قال العلامة ابن كثير : وهو من أهل التحقيق فى الروايات والأسانيد ، قال رحمه الله : وهنا فى آثار عن بعض السَّلَف رضى الله عنهم أحببنا أن نضرب عنا صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها .

قلت : إن الوجه الأول الذى ذكره المحققون من المفسِّرين والعلماء الراسخين كان أدخل فى القلب ، وأقرب إلى اليقين ، لولا خاطر يهمس بما ذكرناه هناك ، وظلت النفس تستشرف إلى ما تطمئن إليه اطمئنان اليقين ، حتى رأينا ما يحرر هذا الوجه ، وينفى عنه هذا الخاطر فيما ذكره المرحوم سيد قطب « فقد ذكر أن الذى أخفاه النبى عليه الصلاة والسلام لم يكن وحياً ، ولا علماً ، وإنما كان إلهاماً ، وقع فى نفسه ، وهو أن زيداً سيُطلِّق زينب ، وأنه عليه السلام سيتزوجها ، ليقضى بذلك على آثار التَبنِّى فى بيئة المسلمين قضاءً حاسماً ، قال : ثم شاء الله أن يحمل نبيه بعد ذلك فيما يحمل من أعباء الرسالة مؤونة إزالة آثار نظام التَبنِّى ، فيتزوج من مُطلَّقة متبناه ، زيد ابن حارثة ، ويواجه المجتمع بهذا العمل الذى لا يستطيع أحد أن يواجه المجتمع به ، على الرغم من إبطال عادة التَبنِّى فى ذاتها ، وألهم الله نبيه أن زيداً سيُطلِّق زينب ، وأنه هو سيتزوجها للحكمة التى قضى الله بها ، وكانت العلاقات بين زيد وزينب قد اضطربت ، وعادت توحى بأن حياتهما لن تستقيم طويلاً ، وجاء زيد مرة بعد مرة يشكو إلى رسول الله ﷺ اضطراب حياته مع زينب ، وعدم استطاعته المضى معها ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه على شجاعته فى مواجهة قومه فى أمر العقيدة دون لجلجة ولا خشية ، يحس ثقل التبعة فيما ألهمه الله من أمر زينب ، ويتردد فى

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

مواجهة القوم بتحطيم ذلك التقليد العميق ، فيقول لزيد الذى أنعم عليه بالإسلام ، وبالقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبحب الرسول له ذلك الحب الذى يتقدم به فى قلبه على كل أحد بلا استثناء ، والذى أنعم عليه الرسول بالعتق ، والتربية ، والحب يقول له : ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ ، ويؤخر بهذا مواجهة الأمر العظيم الذى يتردد فى الخروج به على الناس كما قال الله تعالى : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ .

وهذا الذى أخفاه النبى عليه الصلاة والسلام فى نفسه ، وهو يعلم أن الله مبديه هو ما ألهمه الله أنه سيفعله ، ولم يكن أمراً صريحاً من الله ، وإلا ما تردد فيه ، ولا أخَّره ، ولا حاول تأجيله ، والجهر به فى حينه ، مهما كانت العواقب التى يتوقعها من إعلانه ، ولكنه صلى الله عليه وسلم كان أمام إلهام يجده فى نفسه ، ويتوجس فى الوقت ذاته من مواجهته ، ومواجهة الناس به ، حتى أذن الله بكونه ، فطلَّق زيد زوجه فى النهاية ، وهو لا يفكر هو ولا زينب فيما سيكون بعد ، لأن العُرف السائد كان يَعُدُّ زينب مُطلَّقةَ ابن محمد ، لا تحل له حتى بعد إبطال عادة التَبنِّى فى ذاتها ، ولم يكن قد نزل بعد إحلال مطلَّقات الأدعياء ، إنما كان حادث زواج النبى بها فيما بعد هو الذى قرر هذه القاعدة ، بعد ما قوبل هذا القرار بالدهشة والمفاجأة والاستنكار . وفى هذا ما يهدم كل الروايات التى رويت عن هذا الحادث ، والتى تشبت بها أعداء الإسلام قديماً ، وحديثاً ، وصاغوا حولها الأحاديث والمفتريات ، وكانت هذه إحدى ضرائب الرسالة الباهظة ، حملها رسول الله صلى الله عليه وسلم حملاً ، وواجه بها المجتمع الكاره لها كل الكراهية ، حتى يتردد فى مواجهته بها ، وهو الذى لم يتردد فى مواجهته بعقيدة التوحيد ، وذم الآلهة ، والشركاء ، وتخطئة الآباء والأجداد » . . انتهى .

وهذا فى تقديرنا أعدل ما يُقال فى هذه الآية ، وهو ليس بعيداً عن رأى المحققين ، وإن كان فيه ما يحرره ، ويزيل شبهة سكوت النبى ﷺ عن شيء

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

أوحاه الله إليه ، لأنه قد حدد ما وقع فى نفس النبى بأنه إلهام ، ولم يكن أمراً صريحاً من الله ، وهذا احتراس حسن ، وفهم بصير بأهمية البلاغ ، وخطر الكتمان فى رسالة السماء ، ورحم الله سيد قطب ، فقد أساء إليه أتباعه أكثر مما أساء إليه أعداؤه .

ثم إن الضلالة التى بُنِى عليها الوجه الثانى فى تفسير الآية ، والتى دلس فى بقائها قولهم إن الحب ، وميل القلب مما لا يؤاخذ الإنسان عليه ، وإن هذا العصر كان لا يُنكر أن ينزل الرجل عن زوجته لصاحبه ، هذه الضلالة التى اندست فى تفسير الكتاب ، وتفلتت مع الزمن ، وتناقلتها كتب التفسير إلى هذا العصر ، التفت نحوها المستشرقون ، وأضافوا إليها الكثير ، فصار موضوع زواج النبى من زينب الذى هو فى حقيقته تكليف ثقيل وأحد أعباء الرسالة التى حملها محمد عليه السلام حكاية غرام ، وقصة هَوَى ، بدأت بتلك النظرة التى وقعت من محمد على زينب ، لما عبث الهواء بالستار ، فألفاها ممدة فى قميصها ، وكأنها مدام « ركامييه » ، فانقلب قلبه فجأة ونسى سَوْدة ، وعائشة ، وحفصة ، وزينب بنت خزيمة ، وأُم سلمة ، ونسى كذلك ذكر خديجة ، هكذا يقول المستشرقون ، ويقول المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل معلقاً على هذا بقوله : « إنها شهوة التبشير المكشوف تارة ، والتبشير باسم العلم أخرى ، والخصومة القديمة للإسلام خصومة تأصلت فى النفوس منذ الحرب الصليبية ، هى التى تُملى على هؤلاء جميعاً ما يكتبون ، وتجعلهم فى زواج النبى ، وفى أمر زواجه من زينب بنت جحش خاصة ، يتجنون على التاريخ ، ويتلمسون أضعف الروايات بما دُسَّ عليه ونُسِبَ إليه » .

وقد أذن الله لهذه الضلالة أن تلبس ثوباً آخر من ثياب الزور ، فتعصبت لها كاتبة فاضلة ، تزعم إنها تخصصت فى فقه القرآن ، والسيرة ، ورأت أنه لا حَرَج فى أن يقع حب زينب فى قلب رسول الله ، وهى فى بيت زيد ، لأن الرسول بَشر ، ونفسه تجيش بما تجيش به نفوس الأناس ، من ميل ، وعشق ، وهوى ، وهذا - أى حب رسول الله لزوجة زيد - لا ينبغى أن يُنكر فى الدين ، وحسبه عليه السلام أنه انصرف حين دعته زينب للدخول

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وهو يُسبِّح ويقول : « سبحان مُقَلِّب القلوب » ، وهذا عندها يكفى لأن يكون محمد على خُلُق عظيم ، تقول الفاضلة : « أفينكر على بشر رسول أن يرى مثل زينب فيُعجَب بها ؟ وماذا يُطلب من مثله فى سمو خُلُقه ، وعفة ضميره ، أكثر من أن يشيح بوجهه عمن أعجبته ، وهو يُسبِّح باسم الله العظيم مُقلِّب القلوب ، وأى ضبط للنفس يُنتظر من بَشر رسول أكثر من أن يجيئه زيد فيستأذنه من جديد فى طلاقها ، فيأبى عليه إلا أن يمسكها ويتقى الله » .

وهذا المستوى الذى ترضاه الفاضلة لأخلاق محمد عليه الصلاة والسلام هو مستوى أخلاق الإنسان الذى ليس منحرفاً ، فهو يشيح بوجهه حياءً ، أو ديناً ، عمن أعجبته ، لأنه لو لم يفعل ذلك لكان متجاوزاً حدود الأدب ، والأخلاق ، أو لكان عِربيداً ، فهل يوصف محمد بأنه أدَّبه ربه ، وبأنه على خُلُقٍ عظيم ، لأنه أشاح بوجهه عن امرأة فى بيت زوجها ، وقد جاشت نفسه نحوها ، وهل كان يُتصور فى عُرف الأخلاق أن يجىء زيد إلى رسول الله فيشكو من زينب ، ثم يُخبره رسول الله بأنه يريدها لنفسه ، وعليه أن يبادر فيُطلِّقها ، وعندنا أن هذا لو حدث من أراذل الناس لكان دليلاً على الترقى فى السقوط ، والتقدم المندفع فى باب الأنانية المتبجحة ، والحيوانية المنطلقة ، التى لا يهذبها ذوق ، ولا عقل ، وإشاحة الرسول بوجهه عن زينب التى أحبها ، وهى فى بيت زوجها يُعتبر فى باب الأخلاق عند الفاضلة أقصى ما تطيقه بشرية ، من عفة ، وضبط للنفس ، واعتقال للهوى ، وإنها لجديرة بأن تُعَد مفخرة لمحمد والإسلام ، ولستُ أدرى ماذا يمكن أن يكون غير هذا من رجل فيه شىء من الخُلُق ؟ وإذا كانت هذه عليا المراتب فى أخلاق النبيين ، فما هى المرتبة التى تليها ، والتى يمكن أن يتصف بها الصالحون من غير الأنبياء ، وهى لا تقدح فى الدين ؟ هل هى متابعة النظر ، ومجاراة الهوى ، والإقبال بالوجه بدل الإشاحة ؟ وتذكر الفاضلة ما ذكره المرحوم الدكتور هيكل ، وإنكاره ما ذهب إليه المستشرقون ، ثم ترفض هذا ، لأن الرسول عندها قد أحب زينب ، كما ذكر المستشرقون وهو « يكتم رغبته »

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ويقاوم عاطفته نحو بنت عمته ، التى انتزعها زهرة غَضَّة من أشرف بيت فى قريش ، فزفَّها بالرغم منها إلى زوج مُلصَق يُدعى لغير أبيه !!

ولهذا كان الدكتور هيكل عندها .. أخطأ من حيث أراد الدفاع عن الرسول ، ذلك أنه بادر بإنكار ميل الرسول إلى زينب ، ورفضه أن يكون صلى الله عليه وسلم تعلَّق بها ، قد ألقى على المسألة ظلاً من الريبة ، توهم أن هذا التعلق خطأ ، لا يجوز على الرسول ، ومنقصة يجب أن يتنزه عنها ، وما فى الأمر شىء من ذلك قط . . .

ولا شك أن هذا كله عندنا ضلال ، لأن بَشرية الرسول بَشرية مهذبة ، راقية ، والقول فى البَشرية التى تطيق الرسالة قد أُثير فى صدر هذا القرن ، وكانت هناك محاورات خصبة ومقالات علمية مهمة ، لعل القارئة الفاضلة قد أفادت من أحد طرفيها كثيراً ، والكاتبة الفاضلة لم تذكر فى زواج الرسول من زينب سوى هذا القول الساقط ، وسكتت سكوتاً كاملاً عن رأى المحققين من علماء المِلَّة فى هذا الموضوع .

وقد ذكر مَن كتبوا مذكراتهم من رجال هذه المرحلة أن كثيراً من كُتَّابنا « النجوم » كانوا أعضاء فى الجهاز الطليعى فى الزمن الأسود ، زمن العسكر الذى لا تزال تظلنا غياهبه ، وقد أقام أولهم دولة يهود ، وفتح الثانى لها بوَّابة مصر ، ولا تزال اللَّيالى حبالى وفى الزوايا خبايا ، وغداً ينطق اليوم الصامت ، وينكشف اللَّيل عن رؤوس الحيَّات .

وقد ترددتُ كثيراً فى إثارة ما كتبته الفاضلة ، ثم رأيت من واجب الدرس أن نخوض فيه ، لأن كتاب « نساء النبى » من الكتب المتداولة ، ولعل جرأته المراهقة على حياة الرسول الخاصة مما هيأ له أن ينتشر ، ثم إن الفاضلة مُنحت جائزة عالمية تحمل اسم شخصية عزيزة على الإسلام والعروبة ، وكل ذلك يروِّج للذى تكتب فوجب التنبيه .

وقوله : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ أراد زيداً

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

ولكنه ذكره باسم الموصول ، أى قال : ﴿ الَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ ، ولم يقل « زيد » كما قال بعد ذلك : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا ﴾ للثناء البالغ على زيد ، والتنويه بقُربه من الله ورسوله ، فهو ممن أنعم الله عليهم وهذه ليست منزلة قريبة ؛ لأن زيداً بها صار من أصحاب الصراط المستقيم ، وهذا رجاء كل مسلم يضرع إلى الله فى صلاته ، أن يهديه صراط الذين أنعم الله عليهم ، وقد أنعم الله على زيد حين هداه لما هداه إليه من أعمال البر التى صار بها صاحب منزل عالية يذكره لسان الحق فى كتابه المبين ، وقوله : ﴿ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ اعتداد بنعمة النبى عليه السلام على زيد ، من حيث ذُكرت مع نعمة اللهَ عليه ، وكان عليه السلام يُقرِّبه ويحبه ، فكان يقال لزيد : الحِبّ ، ويقال لابنه أُسامة : الحبُّ ابن الحبِّ ، قالوا : قالت عائشة رضى الله عنها : ما بعثه رسول الله ﷺ فى سَرِيَّةٍ إلا أمّره عليها ، ولو عاش بعده لاستخلفه ، وقد روى أن العباس وعلىّ بن أبى طالب سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى أهلك أحب إليك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « أحب أهلى إلىَّ فاطمة بنت محمد » ، قالا : يا رسول الله ؛ ما نسألك عن فاطمة ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « فأسامة بن زيد بن حارثة الذى أنعم الله عليه ، وأنعمتُ عليه » .

وفى قوله : ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ إشارة تُبطل هذه الضلالة لأن الذى يرغب فى زوجة مولاه ، لا يوصف بأنه أنعم عليه ، وقوله : ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ ﴾ أى استمسك بها ، واحفظها ، وإمساك الشىء التعلق به وحفظه ، وأمسك الشىء : حبسه ، وقد جاء فى الآية الكريمة معدى بحرف الجر ، وهو مما يتعدى بنفسه ، قال تعالى : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ ﴾ (١) ، وهم يقولون : أمسك الحبل ، وأمسك الشىء ، فإذا أرادوا منه معنى الكف ، قالوا : أمسك عن الأمر ؛ أى كفَّ عنه ، وإذا أراوا به معنى الحبس ، قالوا : أمسك عليه ماله ؛ حبسه ، وقد جاء فى الآية معدى

(١) الحج : ٦٥

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

بـ « على » ، لأن فيه معنى الحبس ، كما قالوا . ووراء هذا التعبير : ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ ، ما يشير إلى أن زيداً رضى الله عنه كان يشكو لرسول الله وهو ضائق ، وكان يُبْدِى الرغبة فى إرسال زوجه ، وكانت زينب تعيش فى بيته عيشة تبرّم وضجر ، وضيق ، وكانت كأنها حبيسة نافرة لا تطيق أن تعيش مع زيد ، ولم يكن صلاحه وقُربه من رسول الله وإمارته على السرايا ، لم يكن ذلك بقادر على أن يؤنس به قلب زينب ، بل كانت برمة ، وضائقة ، وضجرة ، ولعل ذلك لما منى به رضى الله عنه من الرِّق ، وكانت النفوس لا تزال بها علقة من جاهلية ، ولا تفتؤ تلتفت إلى مثل هذا ، فزيد مولى ، وليس من سراة القوم ، وهو أيضاً قصير أسود اللَّون ، وكانت زينب فتاة طامحة إلى ما يعرج إلى حسبها ، وشبابها ، وجمالها ، وكانت تذكر أهلها الذين هم فى القمة من قومها ، فيزداد ضيقها ، وبرمها بزيد ، وقد أحست رضى الله عنها بقسوتها على زيد ، فكانت فى بيت محمد بعد ذلك من أكثر أُمهات المؤمنين خشية ، وأطولهن يداً ، أى أكثرهن براً بالضعفاء وحدباً عليهم ، ويمكن أن يقال : إنها فى حياتها مع زيد كانت مدفوعة بقدر خفى ؛ لأن الله اختارها لتقيم أصلين مهمين فى أُصول العقيدة ، الأول : تحقيق معنى المساواة فى الإسلام ، وتدمير تلك الفوارق الطبقة الطاغية فى هذا المجتمع ، والثانى : تشريع حلّ مطلقة المتبنَّى ، ولهذا رجحان كبير ، وأن ضيقها بزيد كان من تدبير الله الذى إذا أراد شيئاً هيأ له أسبابه .

وقوله : ﴿ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ فيه معنى أن المرأة مهما كانت متعالية ومعتزة هى فى حاجة إلى رفق الزوج ، وإن كان فى تقديرها ممن لا يعرجون إلى رفيع مكانتها ، وفيه أن تقوى الله ومراقبته فى أمر النساء ، وسياسة المرأة مما يعين على إصلاح ذات البَيْن ، فى بيوت المسلمين ، ولولا أن طلاق زيد لزينب شىء قدَّره الحق ليبنى عليه أصلاً فى أُصول التشريع ، لكان زيد بتقواه ، وسماعه وصية رسول الله جديراً بأن يُصلح ذات بينه ، وقوله : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ كلام سيق على طريقة الإثارة ، والإلهاب ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

والتهييج ، وفى الحق الثابت أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان أشد أهل الخشية خشية لله ، وفى حديث المغيرة المروى فى صحيح البخارى ، أنه كان النبى ﷺ ليقوم أو يُصلّى حتى تَرِم قدماه ، فيقال له ، فيقول : « أفلا أكون عبداً شكوراً » ؟ وسئلت أُم المؤمنين عائشة عن عمل رسول الله ﷺ ، فقالت : كان عمله دِيمةً ، وأيكم يطيق ما كان رسول الله ﷺ يطيق . وتاريخه فى الدعوة يكشف مواقف حاسمة ، لا يرقب فيها إلا الله ، ولا يبالى فى أمر ربه لأوة لأواء ، وذلك واضح فى موقفه الحاسم ضد الجاهلية ، والوثنية ، وحين قال عندما أطلق الصيحة الأولى لدعوة الحق : « والله يا عمى لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يُظهره الله أو أهلك دونه » ، ووراء هذه الإثارة التى تَشْحَذُ النفس فى دعوة الحق ، وتجدد همتها بالنهوض بأعبائها الجليلة ، إشارة حاسمة إلى حملة الرسالة وأهل البلاغ ، أن اصدعوا بأمر الله فى غير لجلجة ، ولا خشية ، وأن ارموا فى وجه الباطل فى صلابة ، وقوة ، غير ناظرين إلا إلى الله ، ولا معتدين بغير حَوْله وطَوْله ، فلا ينبغى أن يعظم فى نفس الدعاة أمر إلا أمر الله ، ومن الضرورى أن يتوفَّر لهم قدر من الشجاعة الأصيلة الواعية ، النابعة من خشية الله ، وفى ضوء هذه اللمحة يسقط من كوكبة الدعاة كل دعى مُتَلَجْلِج ، يُقيم فى نفسه لغير الله حساباً ، وبهذا يبقى حملة لواء الدعوة الحقيقيين ، قلَّة قليلة ، فيهم أثارة من عزائم النبيين ، وصلابة الصدِّيقين ، هم قلَّة وإن لبس رداءهم حشد هائل ممن يختلون الدنيا بالدين ، ويلبسون مسوح الرهبان وهم ينطوون على سرائر الشياطين .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ ، بيان صريح للقصد الشرعى فى زواج الرسول عليه السلام من زينب ، والوطر : الحاجة التى لصاحبها فيها همَّة ، كما يقول اللَّيث ، وقال أيضاً : إنه – أى اللَّيث – لم يسمع له فعلاً أكثر من قولهم : قضيتُ من أمر كذا وطرى ، أى حاجتى ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

والمراد بقوله : ﴿ قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً ﴾ ، أى لم تبق له فيها حاجة ، أى طلَّقها ، فالتعبير كناية عن الطلاق ، وفضل هذا الأسلوب على قولنا : « فلما طلَّقها زيد » هو الإشارة إلى أن طلاق زيد لها ثم زواج الرسول منها ليحسم أمر التَّبَنِّى ويصير محمد صلوات الله وسلامه عليه فى ذلك قدوة لقومه ، فيقتلع تلك العادة الاجتماعية من جذورها ، ويستأصلها بآثارها ، ولو قال : « فلما طلَّقها زيد » لكان يمكن أن يكون هذا الطلاق متأثراً بشىء من هذا الموقف ، أى أن زيداً طلَّقها وله فيها حاجة ، ولهذا أوثرت هذه الكناية فى هذا الموقف على لفظ الطلاق ، لما فيها من دلالة بيِّنة على نفى أن يكون هناك عامل ما فى طلاق زيد لزينب إلا أن يكون فراغ حاجته منها ، وأنه لم يصبح له فيها مأرب ، ويؤكد هذا الذى ذهبنا إليه أن هذه الكناية لم تُستعمل فى القرآن إلا فى هذا الموضع ، ليخلص الطلاق فيه من أى شائبة يمكن أن تتدخل فى أسباب الطلاق ، وبهذا يكفح القرآن هذا الهذر الساقط الذى يزعم أن زيداً قال لرسول الله : لعل زينب أعجبتك فأفارقها ، أو أنه قال لزينب : لعلكِ وقعتِ فى قلب رسول الله ، فهل لكِ أن أُطلقِّك حتى يتزوجك . . إلى آخره .

وقوله : ﴿ زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ فيه إسناد زواج الرسول من زينب إلى ضمير الجلال سبحانه ، ليكون ذلك مؤذناً من أول الأمر بأن زواج الرسول من زينب لم يكن عملاً من أعمال محمد ﷺ ، وإنما هو فعل من أفعال الله ، فالله هو الذى زوَّجه إياها . الطلاق هنا مُسنَد إلى زيد فى صورة توحى بأنه كان من محض إرادته واختياره كما قدَّمنا ، والتزويج هنا مسند إلى الله ، فهو الذى زوَّج ، ومحمد لا فعل له فى الحالين ، وإنما عليه أن يتحمل أعباء الموقف ويواجه القوم ، بما لا عهد لهم به ، وبما جرت طباعهم على خلافه ، أقول : إن القرآن لم يقل : « فلما قضى زيد منها وطراً تزوجتَها ، أو بنيتَ بها » ، وما هو من هذا القبيل الذى يسند فيها الفعل إلى محمد ، لأن القرآن يحرص

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

على أن يوضح موقفه عليه الصلاة والسلام من هذا الزواج ، وأنه كان لا فعل له ألبتة ، وإنما كانت الأحداث تجرى فيها على ما شاء القَدَر ، من غير أن يكون هناك أثر لشخصية محمد صلوات الله عليه فى هذه الأحداث .

وقوله : ﴿ لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ ﴾ بيان لعلّة الزواج ، وأنه نفى الحَرَج أى الضيق . والتعبير بالحَرَج هنا له دلالة لأن أصل معناه كما قال ابن عباس : الموضع الكثير الشجر ، الذى لا يصل إليه الراعية ، ومنه نُقِل إلى الضيق ، لأن الضيق لازم لهذه الحالة ، ومثله الإثم أى الفعل الحاجب عن الرحمة ، والحَرَج يُطلق على الضيق ، وعلى الإثم ، وهل تدرون ما الإثم ؟ إنه فى أصل معناه الفعل البطىء الذى لا يصل صاحبه إلى غاياته ، وهذا الأصل فى مدلول الكلمة لا يذهب عنها كاملاً ، وإنما يظل فى مطاويها ، يومض هناك ، ويومىء للعين المتفحصة لدلالة الكلمات والتراكيب ، والقول الجيد هو الذى تجد فيه هذا المعنى البعيد ، يُعمِّق الدلالة ، ويعطى الأسلوب مذاقاً خاصاً ، انظر إلى المعنى البعيد لكلمة الحَرَج ، وهو اشتجار الشجر ، كما قلنا ، وصعوبة اجتيازه ، وتأمل مسألة زواج مُطلَّقة المتبنَّى الذى كان فى هذا المجتمع يأخذ حق الابن من الصلب ، وله حُرمة الابن ، وتحرم مطلقته ، كما تحرم مطلقة الابن ، والنفوس صوادف عن مُطلَّقات الأدعياء ، كما هى صوادف عن مُطلَّقات الأبناء ، إذن الإقدام على هذا الزواج أمر فيه تجشم ، وصعوبة ، هو اجتياز طريق لم يُعهد ، وسلوك سبيل غير ممهد ، هو دخول فى منطقة من السلوك كانت قبل ذلك حراماً ، أليس هذا قريباً من تلك الأرض التى تكاثرت أشجارها ، وأشجرت فروعها ، وتداخلت أغصانها ، فى تكاثف ، وكثرة ، فصار سلوكها غير ميسور ، ولا معهود ، وانظر إلى قوله : ﴿ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً ﴾ ، وتذكر ما قلنا هناك فى فائدة هذه الكناية ، ومزيتها ، على التصريح بلفظ الطلاق ، واعلم أن مزيتها هنا كمزيتها هناك ، أى أنها تشير إلى ضرورة الاحتياط فى هذا الباب ، فلا يُطلِّق أحد الأدعياء زوجه لشىء يتصل برغبة مولاه .. وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً ﴾ فاصلة واقعة أحسن موقع ، فكل الذى مضى من

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

زواج زيد ، وطلاقه ، ثم زواج محمد صلوات الله عليه من زينب ، كل ذلك بأمر الله ، وأمر الله مفعول لا محالة ، فهو يجرى على أعناق الوجود ، وليس ثمة ما يقدر على المواجهة .

وفى هذه الفاصلة صوت الربوبية الذى يعلو الوجود كله ، ومثل هذه الكلمة فى القرآن قوله : ﴿ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ (٣) . . . إلى آخر هذه العبارات التى تصف الاقتدار الفائت ، والملك الأعلى ، وقوله : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ ﴾ كأنه توكيد أو تفسير لقوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً ﴾ أى أنه ما دام أمر الله شيئاً مقدوراً ، ولا محالة ، فكيف يكون على محمد حَرَج فى شىء هو من أمر الله ، والآية دفع عن النبى ﷺ وإبطال لما قد تجرى به السنة أهل النفاق فى مثل هذا الموقف ، وقد رجف بعضهم بأن محمداً يتزوج زوجة مُتبنَّاه ، وقوله : ﴿ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ ﴾ بهذا الإبهام الكامن فى الاسم الموصول ، يجعل التعبير أوسع مدلولاً ، من أن يكون محدداً بهذه الحادثة ، فكل ما تميَّز به رسول الله صلى الله عليه وسلم مما هو من خصوصياته ، داخل فى قوله : ﴿ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ ﴾ . ولهذا قال قتادة : « فيما أحلَّ الله له » ، وقال الحسن : « فيما خصَّه به من صحة النكاح بلا صداق » ، وقال الضحاك : « من الزيادة على الأربع » ، وكان زواج الرسول بزينب زواجاً من النوع الخاص به ، فقد روت كتب السير وصحيح البخارى والترمذى أنها - رضى الله عنها - كانت تفخر على أزواج النبى ﷺ وتقول : « زوجكن أهاليكن ، وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سموات » ، وقد أخرج أحمد ومسلم والنسائي وغيرهم عن أنس قال : لما انقضت عدة زينب ، قال رسول الله ﷺ لزيد : « اذهب فاذكرها علىّ » . قال : فانطلق ، قال : فلما رأيتها عظمت

---

(١) المؤمنون : ١٨ (٢) الواقعة : ٦٥ (٣) غافر : ١٦

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

فى صدرى ، فقلت : يا زينب ؛ أبشرى ، أرسلنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يذكرك ، قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربى ، فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن ، وجاء رسول الله ﷺ ودخل عليها بغير إذن ، وهذا يعنى أن زواج الرسول من زينب كان بلا خطبة ، ولا شهادة ، فهو زواج من النوع الخاص به عليه الصلاة والسلام ، وما كان عليه من حَرَج فيما فرضه الله .. الإبهام فى قوله : ﴿ فِيمَا فَرَضَ اللهُ ﴾ يشمل ذلك ، ويشمل غيره من الأعباء الثقال التى ينهض بها النبى عليه الصلاة والسلام فى أمر البلاغ والدعوة ، وقوله : ﴿ سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ﴾ تأكيد لمعنى نفى الحَرَج ، أى كيف يكون حَرَج فيما هو سُنَّة قد سَنَّها الله فى النبيين وأصحاب الرسالات من قبل محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وقد قلت : إن الإبهام فى قوله : ﴿ فِيمَا فَرَضَ اللهُ ﴾ يشمل أعباء الرسالة والبلاغ كلها ، لقوله بعد ذلك : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ ﴾ فذكر أهل البلاغ بعد ما بيَّن أن الذى فُرِضَ على محمد ﷺ : ﴿ سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ﴾ فهو واحد من أهل البلاغ .. الآية تشمل نفى الحَرَج عنهم فيما أحلَّ الله لهم ، ونفى الحَرَج عنهم فيما يجدون من أعباء البلاغ ، بمعنى أن الله من ورائهم ، وهو ناصرهم لا محالة ، مهما كان هناك من صعوبات وأذى ، وقوله : ﴿ سُنَّةَ اللهِ ﴾ قالوا : هو مصدر منصوب بفعل مُقدَّر من لفظه ، وقالوا : هو اسم موضوع موضع المصدر كقولهم : « تُرْباً وَجَنْدَلاً » أى ضيماً وهواناً وخيبة ، وقالوا : هو منصوب بتقدير ألزم ، وقالوا : هو منصوب على الإغراء ، ودفع هذا بأن عامل الاسم فى الإغراء لا يُحذف ، هكذا قال أبو حيان .

وقلنا إن قوله : ﴿ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ﴾ فُسِّر بالنبيين ، وأهل البلاغ ، ونراه لا يضيق بجميع دعاة الحق من ورثة النبيين ، أى هؤلاء الذين حملوا على عواتقهم تبليغ رسالات النبيين ، وتحمَّلوا فى سبيل هذا البلاغ ما يحمله دعاة الخير ، من صنوف الأذى ، والإعنات ، وواضح أن هؤلاء الورثة ليسوا داخلين فيما خصَّ الله به النبيين من أمور خاصة بهم ، هم شركاؤهم فى هذا

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الجانب الذى هو أعباء البلاغ ، ومواجهة الباطل الشرس ، مواجهة لا تعبأ بشراسته ، بل إنها قد تُقدِّم الحياة ثمناً لبلاغ كلمة الحق ، والتاريخ عامر بسير هؤلاء الأبطال .

والآية التى هى : ﴿ سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ﴾ تربط رسالة محمد عليه الصلاة والسلام بهذه السلسلة النورانية ، التى يمسك طرفها الأول آدم عليه الصلاة والسلام ، ويمسك طرفها الثانى محمد عليه الصلاة والسلام ، ويقف من بعده من رجال أمته الشرفاء الذين يحفظون هذا الميراث ويبلغونه أجيال الناس حتى تقوم الساعة .

وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَّقْدُوراً ﴾ قول صيغ على طريقة التوكيد ، فهو كقولهم : ليل أليل ، ويوم أيوم ، وظل ظليل ، فهو توكيد لنفاذ ما قدَّره الله وقضاه . وحين تقارن بين قوله فى الآية السابقة : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً ﴾ ، وقوله هنا : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَّقْدُوراً ﴾ تلحظ أن الفاصلة الثانية أوكد من الأولى ، وذلك لأن ما قررته آية الفاصلة الثانية أشمل وأكثر للأعباء والصعاب التى يواجهها النبيون وأهل البلاغ ؛ لأنها تشمل كل ما يتصل بذلك من أذى ، وعناء ، فناسبها التوكيد الذى يقرر أن ذلك قدر هؤلاء ، وأنهم منتهون إلى الفوز حتماً ، لأن الله قدَّرَ أن يدفع الحقُّ الباطلَ ، فإذا هو زاهق ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَّقْدُوراً ﴾ ، والآية الأولى قررت أصلاً واحداً من أصول الإسلام ، وقوله : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ ﴾ جاء صفة للذين خلَوْا من قبل ، فهو فى محل جر ، أو هو فى محل رفع ، أى صفة مقطوعة للمدح ، وقد يكون فى محل نصب ، أى أمدح الذين يبلغون رسالات الله ، وقوله : ﴿ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً ﴾ تعبير فيه توكيد ، وتقرير ، بمعنى أن هؤلاء المبلِّغين يخشون الله ثم هم لا يَخْشون أحداً إلا الله ، وصفهم أولاً بالخشية ، ثم قصر هذه الخشية التى تكون منهم على الله ، أى هم لا يَخْشون طواغيت الضلال ، وأهل البغى ، ولو كانت فى أيديهم الصوْلة ، والدولة ، وإنما يصدعون بأمر الله فى

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

غير هيبة ، ولا خشية ، لأن قلوبهم لا تعرف إلا خشية الله ، ليس الرجال الذين « بَرْمَجتْ » الأنظمة الفَاجِرَةُ ألسنتهم ، ليسوا من أهل البلاغ ، وإن طالت لحاهم ، وتكوّرت عمائمهم ، أهل البلاغ لهم سِيمًا لا تشق على البصر .

وحين ندقق النظر فى هذا القصر نجده قصراً مبنياً على عدم الاعتداد بغير المذكور ، أى أن أهل البلاغ - ومنهم النبيون - يَخْشون الموت ، ويَخْشون المهلكات ، ولكنها خشية لا ينظرون إليها ، ولا يعتدون بها ، إذا قيست بخشية الله سبحانه ، والخشية كما يقول الراغب : الخوف الذى يشوبه تعظيم ، وهذه الآية التى تقرر أن النبيين ، وأهل البلاغ - ومنهم محمد عليه السلام - لا يَخْشون أحداً إلا الله ، تؤكد ما ذهبنا إليه فى بيان قوله : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ ، وأنه سيق مساق الإثارة والإلهاب ، وأنه لم يكن من النبى عليه الصلاة والسلام خشية من الناس ، وإنما خشيته الدائمة من الله ، وإن لم يَخْش أحداً سواه ، والآية تصف خُلُق الدُّعاة ، وأنه يقوم على أساس الشجاعة الثابتة ، والجرأة الواضحة ، التى لا تداهن ، ولا تمالىء ، ولا تخشى فى الله لومة لائم ، وكل ذلك فى حدود الحجة القوية ، والفهم المستنير ، وإلا كانت الجرأة ضرباً من الحماقة ، ونوعاً كريهاً من التنطع ، وتأمل : ﴿ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ ﴾ تجده دالاً على أنهم قد فهموا الرسالة ، وأدركوا مقاصدها ، وأَصولهاَ ، وفروعها ، وليسوا هم العامة الذين تراهم فى الجماعات الغوغائية ، والتنظيمات التى ربما انتمت إلى أُصول غير معلومة .

المبدأ القرآنى فى كيفية الدعوة وأسلوب أهل البلاغ ، هو قوله : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ (١) ، وما قاله فى آية أخرى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ ، عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ (٢) ، فالحكمة ، والبصيرة ، والوعى المستنير ، أساس فى أسلوب الدعوة .

---

(١) النحل : ١٢٥ (٢) يوسف : ١٠٨

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وبهذا الوصف الحاسم الذى هو تجرد أهل البلاغ لله ، وأنه لا يعظم فى قلوبهم سواه ، تُصان فى أمة القرآن قداسة الحق ، إذا كان وراءه رجال من هذا النوع ، رجال يطاردون كل سلوك غريب ، وكل نظام غريب ، وكل فلسفة غريبة ، وكل فكرة غريبة يرفضها الإسلام .

رجال من ذوى الحكمة ، والبصيرة ، والشجاعة ، والعلم الواعى ، بأحوال الأمم والنظم ، ثم هم لا يَخْشون أحداً إلا الله ، وكل ذلك بالحجة والبلاغ والفهم وليس بالتصفيات الجسدية ، لأن هذا أسلوب القتلة وليس أسلوب الدعاة ، ومَن قال : لا إله إلا الله ، فقد عصم الله بها دمه وماله ، ولا بد من الفهم والإحاطة والعلم وإلا كان البلاغ فى غير طريق الله .

يقول العلامة الداعية المرحوم محمد الخضر حسين ، يصف واجب أهل البلاغ وأسلوبهم فى صيانة الأمة القرآنية :

« نحن نعلم أن فى كل أمة فئة يفتحون صدورهم لقبول كل دِعوة توافق أهواءهم ، أو تأتيهم فى طلاء يلائم أذواقهم ، ولكن نهوض العلماء بعزم ، وحكمة ، إن لم يسحق آراء زعماء هذه الفئة سحقاً ؛ فإنه يكشف عما فيها من سوء ، فلا يسكن إليها إلا مَن هم إلى الحيوان الأعجم أقرب منهم إلى الإنسان ، يرقب أهل العلم كل حركة تقوم بها جماعة من الأمة ، فينقدونها بالنظر الخالص ، ويصدعون فيها بآراء مدعومة بالأدلة المقنعة ، ولا تعد هذه المراقبة وهذا النقد خارجين عن خطة العالَم الإسلامى ، بل هما واجبان فى عنقه كواجب التعليم والإفتاء . . . » .

وهذا كلام حسن جداً ، وكأنه لشيخ يكتبه لمعترك زماننا ، فلا سبيل لما يطرحه الماركسيون والملحدون وأهل الفجور إلا النقد بالنظر الخالص والرأى المدعوم بالأدلة المقنعة ، ورحم الله الشيخ الخضر فقد كان مجاهداً فى بلده تونس .

* * *

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً ﴾ (الآيات : ٤٠ - ٤٤) .

* *

واضح أن الآيات لا تزال تعالج أمر زواج الرسول ﷺ من زينب عن طريق مباشر ، وتبين أنه لا غرابة فى هذا الزواج ، فإن محمداً لم يكن أبا أحد منكم ، حتى تحرم عليه زوجه ، وإنما صلته بكم جميعاً صلة الداعى إلى الله بمن يدعوهم ، ثم إن صلته هذه ستظل باقية بقاء هذه الدنيا ، لأنه لا نبى بعده .

وترى أن الرسول عليه الصلاة والسلام ذُكِرَ هنا باسمه : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ ﴾ مع أنه يُذكر بوصف النبوة فى مواقع كثيرة من هذه السورة ، وقد جاء قبل ذلك بقليل : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ ﴾ ، وجاء بعد ذلك بقليل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ﴾ [(١)] ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ ﴾ [(٢)] . . . إلى آخر هذه النداءات التى يُذكر فيها عليه الصلاة والسلام بلفظ النبوة ، وربما كان ذكره بلفظ « محمد » فى هذه الآية لأنهم كانوا يقولون : زيد بن محمد ، قبل نزول قوله : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ ﴾ [(٣)] فأراد أن ينص على نفى ذلك ، ولأن نفى محظورات البُنُوَّة الحقيقية عن بُنُوَّة التَّبَنِّى أمر ليس خاصاً بالنبى بوصفه نبياً ، حتى يُذكر عليه الصلاة والسلام بوصفها ، وإنما الذى ينطبق على محمد بوصفه رجلاً منكم لا بوصفه

---

(١) الأحزاب : ٤٥ (٢) الأحزاب : ٥٠ (٣) الأحزاب : ٤

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

نبياً ، ينطبق على جميعكم ، فكما حلّت له زوجة مُتبنَّاه لأنه ليس من صلبه ، كذلك يحل لكم جميعاً أزواج أدعيائكم . فالسياق هنا مخالف لسياق : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ، و﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ ﴾ لارتباط الأخيرين بوصف النبوة ، وهذا واضح .

ثم نرى احتياطاً دقيقاً فى كلمة ﴿ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ ، وأنه لم يقل : ما كان محمد أبا أحد منكم ، لأنه عليه الصلاة والسلام كان أباً للقاسم ، والطَّيِّب ، والطاهر ، وكانوا قد لحقوا بربهم ، ثم إنه سيصبح بعد قليل أباً لإبراهيم ، والآية نزلت فى السنة الخامسة ، وهم رضوان الله عليهم من القوم ، فلو قال : ما كان محمد أبا أحد منكم ، لاصطدم التعبير بهذا الأمر ، وقد ماتوا جميعاً ولم يبلغوا مبلغ الرجال ، فلم يصدق عليهم أنهم من رجالهم .

وقوله : ﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ نرى أنه ذُكِرَ عليه الصلاة والسلام بوصفين جليلين ، كل منهما يوجب له عظيم التوقير والإكرام ، فهو رسول الله ، وفى الإضافة تنبيه إلى عظيم مكانته عليه الصلاة والسلام ، ورفع لقدره عن قالة السوء التى يرجف بها مرضى القلوب ، فهو رسول الله الذى بيده الأمر ، اختاره ، وخصه بهذا القُرب ، وتلقى كلمته سبحانه ، وإبلاغها إلى خلقه من الثقلين ، فهو عليه الصلاة والسلام صفوة الصفوة ، وإنما يكون تقلبه بأمر ربه ، الذى يتلقى عنه ، وهو الذى أمره بزواج زينب .

ثم ترى الإشارة إلى عموم هذا التكريم ، وشموله الدهر كله ، حين يشير إلى أنه خاتم النبيين ، ومتلقى آخر كلمة من منهج السماء لإصلاح الأرض وعمارتها بالخير ، والطُهْر ، وتحطيم ظلمات الضلال ، وانحرافات الأهواء ، فهو ليس مصدر الخير وينبوع الرحمة بالنسبة لكم فحسب ، وإنما هو كذلك للآتى من الزمن كله ، هو خاتم النبيين الذى ستظل شريعته ينبوعاً فياضاً ، يجرى فى عصب الأرض ، فتطارد منها كل دنس ، وشهوانية ، وضلال .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وانظر إلى هذا المجاز المصور فى قوله : ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ ، وقد قرىء بكسر التاء وفتحها ، وهو فى القراءتين يُصوِّر صفحة النبوة الرحبة التى امتدت من آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد ، والتى خط فيها كل نبى ما شاء الله له أن يخط ، حتى جاء محمد عليه الصلاة والسلام فكتب آخر الصفحة ، وركز فى سطورها الأخيرة مضمون النبوات من قبله ، كما أوحى إليه ربه ، ثم طُوِيت صفحة النبوة ، وخُتِمت ، فهو خاتمها ، الذى طُبِعت به أو خاتمها الذى طبعها .

وقد شُغل المفسرون ببيان معنى الاستدراك فى قوله : ﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ ومن بين ما قالوه فى ذلك : إن تكريم الله لنبيه عليه الصلاة والسلام أن يجعل أولاده أنبياء ، كما كرَّم سيدنا إبراهيم بنبوة إسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، قالوا : ولكن الله شاء أن يكرمه بالخاتمية ، فمنع ذلك من أن يعيش له أبناء ، ،وبهذا تظهر صلة الجملة الواقعة بعد أداة الاستدراك بما قبلها .

وأوضح من هذا وأقرب ما ذكره عمدة المحققين ، العلامة شهاب الدين الألوسى « من أن الاستدراك من نفى الأُبوة الحقيقية الشرعية ، التى يترتب عليها حرمة المصاهرة ونحوها ، إلى إثبات الأبوة المجازية اللُّغوية ، التى هى من شأن الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومقتضى التوقير ، من جانبهم ، والشفقة من جانبه » .

وقد ساق المفسِّرون حول هذه الآية جملة من كلام رسول الله ﷺ تؤكد أنه خاتم النبيين ، وهذه المسألة مع وضوحها فى شريعة الله ، ورسالة النبى عليه الصلاة والسلام ، قد حرَّفها نفر من المضلين ، وأجازوا وجود نبى بعده عليه السلام ، وجعلوا من شياطينهم أنبياء ، وهذه ضلالة قديمة وحديثة معاً ،

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

فإذا كان من مفكرى الإسلام المعاصرين [١] مَن يتصدى لأمثال هذه الخرافات ، التى تأخذ طابع المذهب ، والأتباع ، والتى تتعهدها الاتجاهات المضادة للإسلام من صليبية ، ويهودية ، كما هو الحال فى القاديانية وغيرها ، فإن القصة نفسها نشأت من القديم ، ورأينا مفكراً مثل الإمام الغزالى يؤكد من أواخر القرن الخامس لهجرة النبى ﷺ معنى الخاتمية ، ويحرص الإمام البقاعى على نقل وتوثيق نصوص الإمام الغزالى فى هذا الصدد ، فيقول فى تعليقه على هذه الآية : « إن الأمة فهمت من هذا اللفظ - أى لفظ هذه الآية - ومن قرائن أحواله صلى الله عليه وسلم ، أنه أفهم عدم نبى بعده أبداً ، وعدم رسول بعده أبداً ، وأنه ليس فيه تأويل ولا تخصيص » ، وقال : « إن مَن أوَّله بتخصيص النبيين بأولى العزم من الرسل ، ونحو هذا ، فكلامه من أنواع الهذيان ، لا يمنع الحكم بتكفيره ، لأنه مُكذِّب بهذا النص الذى أجمعت الأمة على أنه غير مُؤوَّل ، ولا مخصوص » .

قال البقاعى : « هذا كلامه فى كتاب « الاقتصاد » ، ونقلته منه بغير واسطة ، فإياك أن تصغى إلى مَن نقل عنه غير هذا ، فإنه تحريف يحاشى حُجَّة الإسلام » [٢] .

ويُفهم من هذه الإشارة الأخيرة ، أن المبطلين يفترون على كبار علماء المسلمين فى هذا الصدد ، ويوهمون أنهم ينقلون عنهم ما يؤيد ضلالهم .

وانظر إلى الفاصلة التى خُتِمت فيها الآية الكريمة ، حيث أشارت إلى عموم علمه ، وإحاطته بالأشياء كلها ، وهذا متناسق تماماً مع خاتمية محمد عليه السلام ، لصفحة النبيين ، ورسالات السماء ، من حيث إن الخاتمية تعنى امتداد شريعته بأصولها وفروعها ، على الساحة الزمنية الباقية من الدهر ،

---

(١) انظر كتاب « القاديانية ثورة على النبوة المحمدية » للعلامة أبو الحسن الندوى ، وكتاب « الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى » للدكتور محمد البهى .

(٢) انظر تفسير البقاعى ، مخطوط بدار الكتب والأزهر .

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

فكان لا بد من الإشارة إلى عموم علمه بهذه الساحة ، وعلمه بصلاحية هذه الرسالة الخاتمة لهذا الزمن كله ، فالذين يذهبون إلى أن حياة الإنسان قد حدث فيها تطورات ، وأحداث ، تجعل شريعة القرآن غير قادرة على تنظيم حركتها ، واتجاهاتها ، يخطئون ، ويرتكبون كبيرة ، حيث يؤول كلامهم إلى أن عموم التشريع لم يكن من عموم العلم ، وجَلَّ الله عن ذلك .

وانظر كيف اتجهت الآية الثانية بالخطاب إلى الفئة المؤمنة ، وذلك تشريف عظيم يتردد فى كتاب الله كثيراً ، وهو أيضاً يحث على الانضمام إلى هذه الجماعة التى كثيراً ما يُقبل الله عليها بالنداء والتكريم .

ثم ترى الأمر بذكر الله مباشرة ، وقد مرَّ بنا أن ذلك لا يكون إلا للمؤمنين من هذه الأمة ، لأنهم هم الذين تهيأت قلوبهم لذكر الله ، واستحضار جلاله ، وطى الأحوال الزمانية ، والمكانية ، والاندماج فى الحق المطلق ، وذلك بخلاف ما رأينا من أن الأمر يُوجَّه إلى بنى إسرائيل بـ ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ﴾ [1] حيث تكون النعمة واسطة بينهم وبين الحق ، أما هذه الآية فقد جاءت بإلغاء الواسطة ، وصارت قلوبهم تشافه الرحمن : ﴿ اذْكُرُواْ اللهَ ﴾ .

وذكرُ الله تُغَرِّدُ به بلابلُ النفس ، ويترسَّخُ به يقينها ، ويعظم من الله بلاؤها ، وتأخذ منه زاداً لا يخذلها ، فى مواقف صراعها وجلادها لأعداء الفضيلة والخير ، ولا يزال المرء يكثر من الذكر ، حتى يكون قلبه ربانياً يمضى فى أمر الله ، وعلى طريقة الله لا يلوى على شىء .

هؤلاء الذاكرون الماضون فى أرض الله ، وعلى طريقة الله ، كأنهم قبسات من نور النبوة ، أو فلذات من معادن الحق ، لا تزال قائمة على أمر الله فى أرضه .

ولأهمية الذكر فى تكوين شخصية المؤمن ، ودعمها بالطاقة الربانية الفاعلة ، اهتمَّ التشريع الحكيم فى أمر هذه العبادة ، فذكر ابن عباس فيما رواه على ابن طلحة : « إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حداً

---

(١) البقرة : ٤٧

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

معلوماً ، ثم عذر أهلها فى حال العذر ، غير الذكر ، فإن الله تعالى لم يجعل له حداً ينتهى إليه ، ولم يعذر أحداً فى تركه إلا مغلوباً على عقله .

« فقال : اذكروا الله قياماً ، وقعوداً وعلى جنوبكم ، بالليل والنهار ، فى البر والبحر ، وفى السفر والحَضَر ، والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال » .

وقد أُمِر المؤمنون بالذكر فى آيات كثيرة من الكتاب ، كما روى فى ذلك كثير من كلام النبى عليه الصلاة والسلام ، وليس فى ذلك غرابة ، فذكر الله رأس الأمر كله ، وبه تتهيأ القلوب لكل ضروب الطاعة ، وهو شرط فى قبولها كلها عند الله ، لأنه يعنى النية المتجهة إلى الله ، والعزم الذى يبغى وجه الحق فى كل ما يفعل ، وهذا أصل فى سلوك المسلم .

ثم انظر إلى التعبير فى هذه الآية وكيف بُنِى على نسق من الاهتمام بالذكر ، وتوكيد الأمر به ، فجاء النداء فى هذه الصورة المؤكدة ، والتى سبق تحليلها فى صدر السورة ، حيث قلنا : إنه النداء الغالب فى القرآن ، وكأن فيه من تنبيه النفس ، وإيقاظ دواخلها قبل إلقاء الأمر ما يُشعرها بخطورة هذا الأمر ، وهكذا كل أمر يُسبق بالنداء . ثم قال : ﴿ اذْكُرُواْ اللهَ ذِكْراً كَثِيراً ﴾ ، فأكد بالمصدر والوصف ، ثم أردف ذلك بقوله : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ .

والذكر شامل للتسبيح إلا أنه نَصَّ عليه ، وأفرده ، لأنه أعلى أنواع الذكر ، فهو تنزيه للحق جَلَّ جلاله عما لا يليق به من كلام المبطلين ، وكلام الذين يعتقدون أنه يوجد منهج لقيادة الإنسان أبر به ، وأنفع من منهج الله ، وأنه يمكن بعث الأمة الإسلامية ودفعها فى ساحة الحياة مرة ثانية بصوت غير صوت الله ، وقوله : ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ المراد تسبيحه فى الأوقات كلها ، ولكنه خص هذين الوقتين لأن آيات الحق تتجلى فيهما ، فهما المقطعان اللّذان يتعاقب عندهما اللّيل والنهار ، وهما من آيات الله الكبرى سبحانه : ﴿ فَالِقِ

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً ﴾ [١] ، وقد نبّه القرآن إلى هاتين الآيتين فى كثير من الآيات ، وفيها تتجلى أيضاً عظائم نِعَم الله على الإنسان ، فلو أنه سبحانه جعل اللَّيل سرمداً إلى يوم القيامة ، فمن إله غير الله يأتيكم بضياء ، أو لو أنه سبحانه جعل النهار سرمداً إلى يوم القيامة ، فمن إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه [٢] . انظر إلى الأسلوب : ﴿ اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [٣] تجد أنه يمكن أن يقال : اذكروا الله كثيراً ، ويُفهم منه كل ما جاءت به الآية ، لأن قوله : ﴿ ذِكْراً ﴾ توكيد للفعل ، والتسبيح داخل فى الذكر ، والكثرة تشمل البُكرة ، والأصيل ، ولكن جاء التعبير هكذا يقرر بعضه بعضاً ، لأن وراء كل كلمة مزيداً من الحث على الذكر ، فتوكيد الأفعال بمصادرها ليس كذكرها وحدها ، فرق بين قولك : ادفع هذا الشيء ؟ وقولك : ادفعه دفعاً ، وقولك : أخلص فى الخبر ، وأخلص فى الخبر إخلاصاً ، التعبير الثانى أكثر حرصاً ، وقد أشرنا إلى الفائدة فى النص على التسبيح ، وأنه لُبّ الذكر ، ومحضه ، كما أشرنا إلى فائدة النص على البكرة ، والعشىّ ، ثم ترى الذى بعد ذلك كأنه أيضاً يحث عليه : ﴿ هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً عَظِيماً ﴾ .

وكان ابن كثير مع انصرافه إلى التفسير بالمأثور عن النبى عليه الصلاة والسلام وأصحابه والتابعين يمس العبارة أحياناً بكلمة تنفذ إلى صميم مدلولها البلاغى ، فهو يقول فى تعقيبه على هذه الآية الكريمة : هذا تهييج إلى الذكر ، أى أنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم ، كقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

---

(١) الأنعام : ٩٦ (٢) إشارة إلى الآيتين (٧١ - ٧٢) من سورة القصص .

(٣) الأحزاب : ٤١ - ٤٢

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (١) .

فهذه الآية أفادت مزيداً من الحث على الذكر الوارد فى الآية السابقة ، وانظر إلى التعبير وكيف جاء على هذا الأسلوب : ﴿ هُوَ الَّذِى يُصَلِّى ﴾ ولم يقل : هو يصلى ، ليتحقق بالطريق الأول أنه سبحانه هو الذى تكون منه الصلاة ، والرحمة لكم ، وأنه لا يكون ذلك عن غيره ، فهو وحده الذى يملك الرحمة لكم ، والصلاة عليكم . وترى المفسِّرين يلحظون هذا المعنى فى تعريف الطرفين من الجملة : ﴿ هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ ، يقولون : إن قوله : ﴿ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ عطف على الضمير فى ﴿ يُصَلِّى ﴾ ، وقد سوَّغ الفصل هذا العطفَ من غير حاجة إلى توكيده بضمير متصل ، وليس عطفاً على قوله ﴿ هُوَ ﴾ ، وبهذا تصير صلاة الملائكة تابعة للخبر ، ومندمجة فى الصلة ، فليس ههنا جملتان كما تقول : زيد منطلق وعمرو ، أعنى وعمرو كذلك ، لأنك حين تعرف الخبر تكون قد قصرته عليه فلا يصح إسناده إلى غيره ، وليس من كلامهم أن تقول : زيد القائم وعمرو كذلك ، لأنك قصرت القيام على زيد ، ثم رجعت ، وأشركت معه عَمْراً وهذا تناقض ، وإنما تقول : زيد وعمرو القائمان ، فليس المعنى فى الآية أنه هو الذى يُصلِّى عليكم ، وملائكته يُصلُّون عليكم ، وإنما المعنى : هو الذى يُصلِّى هو وملائكته عليكم ، وبينهما فرق دقيق ولطيف .

وقد اختلف المفسِّرون فى معنى الصلاة التى تتحقق من الله والملائكة ، فذهبَ الزمخشرى إلى أن الصلاة من الله معناها الرحمة ، والأصل فى هذه الدلالة أنه من شأن المُصلِّى أن يعطف فى ركوعه ، وسجوده ، وكأنها مأخوذة من الصلوين كما قدمنا ، ثم انتقل المعنى إلى مَن ينعطف انعطافاً معنوياً ، أى إلى مَن ينعطف على غيره حنواً وترؤفاً ، ثم كثر حتى شمل الرحمة

---

(١) البقرة : ١٥١ - ١٥٢

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

www.Quranonlinelibrary.com

والترؤف ، فصار يُطلق عليهما ، ومنه : صلَّى الله عليك - أى ترحَّم ، وترأف ... هكذا يتابع الزمخشرى مسيرة الكلمة ، وحركتها من محيطها ، وهو بحث شيق ، وقد أشرنا إلى مثله ، وربما قلنا فى دلالة الكلمة على هذا المعنى الذى آلت إليه : إنه حقيقة لأنها شاعت فيه ، حتى صارت كأنها حقيقة ، وليس بلازم أن يُنسى أصلها ، أو أن يُنسى سُلَّمَها الذى صعدت فيه ، أعنى مراحل دلالتها السابقة ، وربما اعتبرنا هذا الأصل ، وقلنا : إنها هنا مجاز ، لأنها تتشبث بهذا المدلول الأصلى ، الذى يمكن أن تتمسك بقصر الحقيقة عليه ، والمسألة اعتبارية .

ثم إن الزمخشرى لحظ أن هذا المدلول لا ينطبق على صلاة الملائكة ، لأنه يقال : صلَّى الله عليه وسلم ، بمعنى رحمه ، ولا يقال : صلَّت الملائكة عليه بمعنى رحمته ، لأنها لا تملك الرحمة ، ولهذا ذهب إلى أن الصلاة فى جانب الملائكة بمعنى الرحمة ، نظراً لأن دعاءهم كان كأنه قد استُجيب ، فجُعِلُوا هُمُ المصلِّين كما تقول : حييتك ، وأنت تريد حيَّاك الله ، ولكنك جعلت دعوتك كأنها استُجيبت ، ومثله : عمرتك ، وسقيتك ، وأنت تريد عمرك الله ، وسقاك الله ، ولكنك تفيد قوة سببية دعوتك فى الفعل ، وكأنك بدعوتك فعلته ، وعبارة الزمخشرى :

« إن فسَّرته بمعنى هو الذى يُصلِّى عليكم ، بمعنى يترحم ، فما تصنع بقوله : وملائكته ، وما معنى صلاتهم ؟ قلت : هو قولهم : اللَّهم صلِّ على المؤمنين ، جُعِلوا لكونهم مستجابى الدعوة كأنهم فاعلوا الرحمة ، والرأفة ، ونظيره قوله : حياك الله ، وأبقاك ، وحَيَّيْتُكَ ، أى دعوتُ لك بأن يحييك الله ، لأنك لاتكالك على إجابة دعوتك ، كأنك تُبقيه على الحقيقة ، وكذلك : عمرك الله وعمرتك ، وسقاك الله وسقيتك .. » .

وكان هذا مجازاً فى الإسناد ، ولهذا لا نميل إلى ما يقوله ابن المنير من أن الزمخشرى - وهو الذى يرفض أن يستعمل اللَّفظ فى معنيين : حقيقى

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

ومجازى - يقول هنا بذلك ، لأننا إذا فسَّرنا كلام الزمخشرى بالمجاز الإسنادى لا يرد عليه هذا الاعتراض .

قلت : إن هذه الآية حث على معنى الذكر ، ولذلك تراها تتصل بالآية السابقة على طريقة الاستئناف الجارى مجرى التعليل ، فكأنه قال : سبِّحوه بُكْرَةً وَأَصِيلاً ، لأنه هو الذى يُصلِّى عليكم ، ووجه الحث فى هذا أن الله سبحانه يرحم المؤمنين ، ويعطف عليهم ، ويغمرهم بفيض حبه ، وملائكته المكرَّمون ، يحبون المؤمنين ، ويضرعون إلى الله أن يزيدهم رحمة وفضلاً ، وهذا تكريم يدعوهم إلى الامتثال ، والذكر ، ودوام التسبيح .

ثم إن صلاة الله وصلاة الملائكة معلَّلة بإخراج المؤمنين من الظلمات إلى النور : ﴿ هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ ، والظلمات هى دائرة الشك ، وانحرافات النفس فى مسارب الظلمة ، وما فى جوها من قلق ، ورهبة ، ونلحظ هنا أن الظلمة جاءت على طريق الجمع ، والنور جاء على طريق الإفراد ، وذلك لأن النفس إذا زلَّت عن منهج الله رأت نفسها فى محيط من الضلالات ، والأفكار المتصارعة ، لا تدرى بأى تأخذ ، ولا على أى منهج تسير ، فكل واحد منها يلطم الآخر ، ولا يقوم فى محيطها بناء إلا لينهدم ، هكذا ترى المناهج ، والشرائع ، التى هى من صنع الإنسان ، أما منهج الله ونور الحق ، فهو منهج واحد لا تأتيه ضلالة من بين يديه ، ولا من خلفه ، والنفس هنا تلتزم بمنهج واحد ، وتمضى وهى مطمئنة على سبيل واحد .

وقوله : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ استأنف فيه ضرباً آخر من التكريم ، ينطوى على مظهرين جليلين . المظهر الأول هو : أن هذه الجماعة تلقى الله وتكرم بالمثول فى حضرته ، والثانى هو : أن الله سبحانه يقبل على هذه الجماعة ، ويكلمهم ، ويحييهم بالأمن والسلام فى هذا اليوم المفزع ، وما أبرَّها تحية ، وما أبردها على قلوب المؤمنين . ثم انظر إلى إيجاز التحية ،

وكيف كانت بلفظ واف : ﴿ سَلَامٌ ﴾ ، وما وراء ذلك من الدلالة على سلطان الربوبية ، ثم إنه لفظ مليء جداً ، لأنه سلام من قِبَل الله ، والبلاغيون يقولون : إن كل سلام جاء فى القرآن من قِبَل الله جاء مُنكَّراً ، والتنكير فيه للتقليل ، على معنى أن القليل من قِبَله سبحانه كثير وكثير . . . وحسب المؤمنين فضلاً أن يلقاهم الله ، ويحييهم ، ويلقى عليهم رداء الأمن والسلام .

ثم انظر إلى قوله : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً ﴾ وتذكر ما قلناه فى لفظ ﴿ أَعَدَّ ﴾ ، وبيان أصله ، وكيف يخيل مثل هذا التعبير أن الأجر كأنه مائدة أُعِدت ، يعنى اكتملت ، وعُدَّ ما فيها عداً ، حتى لا يكون هناك ضرب من ضروب الأجر والتكريم ، إلا وقد جيء به فى هذه القائمة المعدودة .

ثم انظر إلى هذه المخالفة فى صياغة الجملتين ، قال فى الأولى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ فبناها على طريقة الإسمية ، وجعلها مقطع كلام للإشارة إلى تمييز هذا الضرب من التكريم ، وأنه صنف آخر غير الصنف الأول الذى دلَّ عليه قوله : ﴿ هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ ﴾ ، فالأول واقع فى الدنيا ، والثانى واقع يوم لقائه ، ثم عطف عليه : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً ﴾ لأنهما من وادٍ واحد ، وفى سياق واحد .

هذه تحية ولقاء وتلك مائدة من الأجرة مُعَدَّة . وقد بُنيت الثانية على الفعل ولم يقل : تحيتهم يوم يلقونه سلام ، وأجرهم أجر كريم مُعَد ، أو ولهم أجر كريم مُعَد ، لأن فى هذا التركيب إشعاراً بأن الأجر قد أُعِدَ فعلاً قبل اللّقاء ، والتحية لا تكون إلا عند اللّقاء ، فلا تناسبها هذه الصيغة ، ثم انظر إلى الإسناد فى قوله : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُم ﴾ ، وكيف ترى ذا الجلال يعد بيده الكريمة تلك المائدة من الأجر لهذه الجماعة التى آمنت بالله ، وكافحت فى سبيل الخير .

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً * وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً ﴾
(الآيات : ٤٥ - ٤٨)

* *

انعطف الأسلوب من خطاب الجماعة المؤمنة بالله ، إلى خطاب رائد هذه الجماعة ، ليُذَكِّره برسالته فى الأرض ، ويحدد له مهماته ، وأنه شاهد ، ومُبشِّر يُبشِّر أولياء الحق ، ونذير يُنذر بالدمار والهلاك حزب الباطل ، وأنه داع يدعو إلى الله ، وأنه سراج منير يهدى الطريق إليه سبحانه .

ثم نرى الأسلوب يخالف النسق الإخبارى ، وينفتل إلى النبى مرة ثانية موجهاً إليه أمراً سماوياً بأن يُبشِّر المؤمنين : ﴿ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴾ ، ويعطف على ذلك ، كفَّه عن ملاينة أعداء هذه الجماعة ، أو طاعتها ، ثم يورد عليه أمراً بالصبر والجلادة : ﴿ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ ، ثم أمر بالتوكل عليه سبحانه ، ثم فاصلة تحمل إلى قلبه زاداً لا ينفد ﴿ وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ .

والخيط لا يزال موصولاً بقصة زواجه من زينب ، فإن هذه الأوصاف العالية ، والمهام الكبار المنوطة به عليه السلام ، تتلاقى مع ما قلناه فى : ﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ فهى تنبيه على عظم مكانته ، وأن رسالته فى هذه الأرض رسالة أكبر من أن تجعله يُشغَل بمثل ما يقول به المرجفون ، وأنه أطهر وأبر من أن يكون منه ما حاكُوه حول هذه الواقعة من ضلالات .

وواضح أيضاً أن هذا الخيط واصل إلى بداية السورة ، وربما لاحظت أن النغم الذى بدأت به الآيات من أولها يتردد هنا : ﴿ وَلَا تُطِعِ الكَافِرِينَ ، وَالْمُنَافِقِينَ ، وَدَعْ أَذَاهُمْ ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ .

ويُلاحَظ أن الصلة بين قصة زيد ، وما جاء فى السورة من أولها إلى هنا ،

ربما لم تكن فى كل حال صلة مباشرة بيِّنة ، وإنما تغمض أحياناً ، حتى لا تراها إلا إذا أمعنت ، وواضح جداً أن قصة الأحزاب ، إنما جاءت فى سياق ﴿ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ ﴾ (١) ، وكذلك ما تبعها من أمر أمهات المؤمنين كما بيَّنا .

وقد قالوا : « إن قوله : ﴿ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ✽ وَدَاعِياً ﴾ كلها أحوال ، ولكن الحالة الأولى - أعنى الشهادة - ليست حالاً مقارنة ، لأن الشهادة يكون أداؤها عند الله يوم القيامة ، كمسألة الكتاب التى ذكرها سيبويه فى قوله : رأيت رجلاً معه صقر صائداً به غداً ؛ أى مقدراً الصيد غداً ، ثم قالوا : إن شهادته عليه الصلاة والسلام على مَن عاصره من مصدِّقين ومبطلين ، أمر ظاهر ، وأما بالنسبة إلى مَن جاء بعد عصره عليه السلام ، فكيف يشهد على مَن لم يره ؟ كثر الكلام فى هذا ، وخاضوا فى مسألة علم النبى ﷺ بأعمال أمته ، أو عدم علمه بذلك ، ومسألة حياة الأنبياء فى البرزخ ، والكلام فى هذا كثير ، ويُستقصى فى مطولات التفسير .

وذهب البعض إلى أن شاهد على جميع الأمم يوم القيامة ، أى أن أنبياءهم بلَّغوهم ، أو أنه شاهد من الأرض بأنه لا إله إلا الله ، وليست هذه الأخيرة مهمة سهلة ، ولا شهادة ميسورة ، وإنما انطمست حقائقها أمام بصائرنا فصرنا نحسبها دانية المدلول ، وهى ذات معنى واسع ، وعميق ، ومن بعض وجوهها ودلالتها على نفى كل المعبودات التى تتجه إليها النفس ، سواء أكانت هذه المعبودات ماثلة فى أشخاص يتوهم المضعوفون أن فى أيديهم شيئاً من الأمر ، أو كانت ماثلة فى غايات ، وأهواء نفسية ، منحرفة عن منهج الحق ، يعظم سلطانها على النفس ، فتصير قبلتها ، أو ما شابه ذلك من ضروب الاهتمامات ، التى تأكل حياة الناس ، وتحترق حولها جهودهم ، ثم لا تدنو بهم من معنى إنسانى ، ولا توجه عزائمهم نحو ربهم .

الرسول عليه الصلاة والسلام شاهد ، بأنه لا سلطان فى الأرض إلا الله ، ولا سلطان فى النفس والضمير والقلب إلا الله ، ليس هناك تعدد للسلطان ؛

---

(١) الأحزاب : ٩

وما طواغيت الاستبداد ، وظلالهم الوخيمة إلا موجودات ، وُجِدت على طريق الشذوذ ، لما ضعف حس الوجدان بأنه لا إلٰه إلّا الله ، وهم يموتون كما تموت الذئاب ، وقد رأينا طغيانهم وعنفوانهم ، ثم رأيناهم رمَماً ورأينا أولادهم تطاردهم شعوبهم كما تطارد اللصوص ، ورأيناهم يهاجرون من الأوطان وكأنهم أبناء لصوص وليسوا أبناء زعماء .

وهذه الشهادة بمحق التعدد هى عمل النبيين عليهم السلام ، وبذلك يتسق الرسول الكريم مع هذه الكوكبة الطاهرة .

ويأتى بعد ذلك قوله : ﴿ وَمُبَشِّراً ﴾ أى لمن هُدىَ إلى شهادة أنْ لا إلٰه إلّا الله ، ﴿ وَنَذِيراً ﴾ لمن عاداها ﴿ وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ ﴾ أى داعياً إلى منهج الله ، وشريعته ، مبيناً حلالها وحرامها ، وانظر إلى التعبير بقوله : ﴿ وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ ﴾ ، فهو عليه السلام يدعو خلق الله إلى الله ، والداعى الذى يدعو إلى مثل ما يدعو إليه حرى أن يُستجاب له ، فهو لا يدعو إلى مبادئه وأفكاره ، كما هو الشأن فى أصحاب الفلسفات والعقائد ، لأن ذلك نوع من الاستبداد والتسلط ، وإنما يدعو الناس إلى أن ينعتقوا من ضلالاتهم ، وخرافات فلاسفتهم ، وحكمائهم ، فى أمر الخلق والكون ، وأن يتصلوا بربهم ، ويأخذوا عنه أخذاً مباشراً ، ومعه من الأدلة القاطعة ما يشهد له بأنه مأذون له بذلك ، وربما كان هذا هو معنى ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ أى بتيسيره لك ، الدليل والقرآن الذى يقنع الجماعات التى تدعوها ، قال المفسِّرون : أطلق الإذن على التسهيل مجازاً ، لأنه من أسبابه ، لا سيما الإذن من الله عزَّ وجلَّ . . وفى هذا إشارة إلى أن ميدان الدعوة إلى الله كأنه حرم مقدس ، لا يدخل فيه إلا مَن علم الله صدق عزيمته فى ابتغاء وجه ربه ، وعلمه مقدار فقهه ووعيه بدين الله فأذن له ، فيلتقى هناك مع تلك الكوكبة المؤمنة التى نذرت حياتها لربها ، فأفرغ عليها من رحمته ، وعلمه ، وفضله ، ما يجعلها أهلاً لأن تسمه بسمة أهل الحق ، وتدخل فى زمرة الدعاة الذين حملوا راية النبيين ، وخلفوهم على أمر ربهم ، ويسَّر الله لهم سبيل القلوب ، فعرفوا كيف يقودونها إلى

الله ، وفتح لهم نوافذ العقول والضمائر ، فعرفوا كيف يهتفون فيها باسم الله ، فتنقاد لهم ، وتسير على طريقتهم ، وتنضم إلى جماعتهم ، وهكذا يسير موكب الحق فى جلال الحق : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ ، أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) ، وقد أوما إلى هذا العلامة الألوسى فى قوله : « وقُيدت الدعوة بذلك إيذاناً بأنها أمر صعب وخطب فى غاية الإعضال لا يتأتى ، إلا بإمداد من جناب قدسه ، كيف لا ؟ وهو صرف للوجوه عن القِبَل المعبودة وإدخال للأعناق فى قلادة غير معهودة » .

وقوله : ﴿ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴾ جاء على تشبيه رسول الله ﷺ بالسراج المنير ، لأنه يُضىء طريق الحقيقة ، ويكشف الدروب التى يمكن أن تضل فى متاهاتها ، أو تنزلق عندها أقدام المفكرين ، حين يستقلون بالنظر فى مسألة المبدأ ، والمعاد ، أو الكون والفساد ، هو سراج منير ، لأنه يُخلِّص الناس من حيرة البحث عن الطريق الذى يُقيمون عليه أمر دينهم ودنياهم .. ثم يتجه الأسلوب كما قلت إلى شىء خاص بالمؤمنين ، وهى بشارتهم بفضل الله الكبير ، وفى هذا المقطع الذى ترى فيه سياق الكلام ينتقل من الخبر إلى الإنشاء ، وما فى طريقته من لفت وإثارة ، دليل على عظيم عناية الله بالمؤمنين ، وسوق البشرى التى تُسر قلوبهم .. يالله لهذه الجماعة وكرامتها عند الله . والبلاغيون يقفون بين هذين الضربين من الكلام ، لأن الثانى عطف على الأول ، وبينهما كمال الانقطاع كما يقولون ، وذلك يوجب الفصل ، يقولون : إن هذه الواو لم تعطف فعل « بَشِّر » على ما قبله ، وإنما عطفت جملة بشارة المؤمنين ، أعنى قصة هذه البشارة ، على جملة ما ذكر قبله من إرساله عليه السلام هادياً ، ومُبَشِّراً ، ونذيراً ، وأجازوا أن يكون من عطف المفرد ، والمعطوف عليه مقدَّر ، يستدعيه المقام ، أى راقب

(١) المجادلة : ٢٢

الناس ، وبَشِّر المؤمنين ، أو أن السابق فى معنى الأمر ، أى ادعوهم شاهداً ، ومُبشِّراً ، ونذيراً ، وبَشِّر المؤمنين .

ثم عطف على ذلك قوله : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ ، وهو كلام وارد على طريقة الإلهاب والتهييج ، لأن رسول الله ﷺ لا يُتصور منه ذلك حتى يتجه إليه النهى عنه ، ووراء ذلك إشارة إلى هذه الأمة أن تكون حذرة فى مسيرتها من هذين الصنفين الخبيثين من خلق الله ، فلا تطعهما فى أمر من أمور دنياها ، ولا تعول عليهما فى مشورة ، والبلوى أن هؤلاء الآن هم أصحاب الرأى فى الأمر وليس من نظام الدولة مستشارون من الكافرين والمنافقين ، والخطر أنهم يندسون فى التربية والتعليم والمناهج ، فضلاً عن الاقتصاد والدفاع والتصنيع .

وقوله : ﴿ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ أمر بمزيد من الصبر ، والتجلد فى مصارعة أهل الباطل ، أى لا تُشغَل بإيذائهم إياك ، وامض فى دعوة الخير والحق ، وجاهد هؤلاء المنحرفين ، وأغلظ عليهم ، وهذا ما يجب على أهل البلاغ من الاستمرار ، والصبر فى مجاهدة المبطلين ، وأهل البدع والضلالات ، وألا يبالوا بما يلاقون فى سبيل الله من ضروب الأذى ، وأن يحسن توكلهم على الله ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ . . ونرى الأمر بالتوكل على الله ، والإشارة إلى كفايته ، يتكرر فى كتاب الله كثيراً ليطبع فى القلوب هذا المعنى الجليل ، فإن القلب إذا أحسن التوكل على الله ، وصدق إحساسه بكفاية ربه ، تتكون فيه طاقة هائلة ، تمده بزاد لا ينفد فى مواقفه الصعبة ، وأخذه نفسه على طريق الجد النافع .

وقد لحظ المتأملون فى صياغة هذه الآيات أن جملة ما جاء منها على أسلوب الإنشاء كان مقابلاً مقابلة دقيقة لما جاء منها على أسلوب الخبر ، فقوله : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ كأنه كان مقتضى لقوله : ﴿ وَمُبَشِّراً ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ هو ما توجبه صفة الإنذار ، فإذا كان قد أرسله الله نذيراً للمنحرفين والمبطلين ، فمقتضى ذلك أن يكون موقفه منهم موقفاً حاسماً ، صارماً ، لا ملاينة فيه ، وقوله : ﴿ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ جاء فى

مقابلة قوله : ﴿ وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِه ﴾ ، لأن مَن تصدَّى للدعوة إلى الله ومجالدة أهل الباطل ، لا بد أن يناله أذى منهم ، وهذه إشارات لا تجد مثلها فى نسقها ودقتها فى كلام الناس .

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ، فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾ (الآية : ٤٩) .

* *

قالوا : إن لفظ النكاح لم يُستعمل فى القرآن لمعنى العقد فحسب استعمالاً صريحاً لا يحتمل غيره إلا فى هذه الآية ، فإنه قال : ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ ، فسمى العقد الذى لم تعقبه مماسة : نكاحاً ، ثم إن هذه الكلمة تُستعمل فى القرآن كثيراً بمعنى العقد الذى يتبعه دخول ، هكذا قال ابن كثير وغيره ، ولم يرد فى القرآن بمعنى المُمَاسَّة إلا فى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ﴾ (١) ، فقد ذهب الجمهور إلى أن المماسة هنا ضرورة ، فهى المرادة بالنكاح ، وخالف ابن المسيب ، والخلاف هنا فقهى فى مسألة تحديد مفهوم النكاح الذى تحل به المراجعة بعد الثلاث .

ثم إن الدارسين اختلفوا فى تحديد المعنى الحقيقى لكلمة « النكاح » هل يكون حقيقة فى العقد ، مجازاً فى الوطء ؟ أم العكس ؟

ثم رجعوا بالكلمة إلى معناها القديم فوجدوا أنها ترد فى كلام العرب بمعنى الضم كما فى قوله :

ضَمَمْتُ إِلَى صَدْرِى مُعَطَّرَ صَدْرِهَا ... كَمَا نَكَحَتْ أُمُّ الغُلامِ صَبِيَّهَا

---

(١) البقرة : ٢٣٠

أى كما ضمته إلى صدرها . . ثم قالوا : إذا كان المراد بالضم الذى هو أصل معناها الضم الحسى فقط ، فهو أقرب إلى أن يكون مجازاً فى العقد ، ويمكن أن يكون الضم أشمل من أن يكون حسياً فيصلح حقيقة فى العقد ، لأن العقد فى الحقيقة ضم .

والزمخشرى يرى أنه مجاز فى العقد ، ويقول فى مناسبته : « النكاح : الوطء ، وتسمية العقد نكاحاً لملابسته له من حيث إنه طريق إليه ، ونظيره تسميتهم الخمر إثماً ، لأنها سبب فى اقتراف الإثم ، ونحوه فى علم البيان قول الراجز :

* أَسْنِمَةُ الآبَالِ فِي سَحَابِهِ *

سمى الماء بأسنمة الآبال ، لأنه سبب سمن المال وارتفاع أسنمته ، ولم يرد لفظ « النكاح » فى كتاب الله إلا فى معنى العقد لأنه فى معنى الوطء من باب التصريح به ، ومن أدب القرآن الكناية عنه بلفظ الملامسة والمماسة والقُربان والتغشى والإتيان » .

ثم إن الراغب صاحب « مفردات القرآن » يرى أن النكاح حقيقة فى العقد ، مجاز فى الوطء ، عكس ما يقوله الزمخشرى ، وله فى ذلك ملحظ حسن ، هو أن « النكاح » إذا كان من الألفاظ الموضوعة صراحة ، وحقيقة للوطء ، لما شاع استعماله فى القرآن مجازاً لا حقيقة ، والقرآن يتحاشى الألفاظ التى من هذا الباب ، لشدة حساسية أسلوبه فى مخاطبة النفس ، والصعود بها فى مدارج السمو النبيل .

قال الراغب : ومحال أن يكون فى الأصل للجِماع ، ثم استُعير للعقد ، لأن أسماء الجِماع كلها كنايات لاستقباحهم ذِكره ، كاستقباح تعاطيه ، ومحال أن يستعير مَن لا يقصد فُحشاً اسم ما يستفظعونه لما يستحسنه .

قالوا : وكلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ جاءت هنا لمعنى مهم فى تحديد أمر العِدَّة ، وذلك لأنه قد يُظن وجوب العِدَّة على المرأة التى عُقِد عليها ، وطال زمن العقد ،

ثم طُلِّقت قبل الدخول ، فنص بهذه الكلمة على أن ذلك لا يجب ، والتى يُعقد عليها ، وتُطلَّق من غير تطاول ، تكون أولى من هذه فى عدم وجوب العِدَّة ، فكأن « ثم » هنا جاءت للنص على المتوهم ، وهذا أُسلوب دقيق فى تحديد الأحكام .

وقوله : ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ ﴾ فيه إشارة إلى حق الزوج فى العِدَّة ؛ لأن فى ذلك استبراء لرحم مُطلَّقته ، وحياطة فى حفظ نسب الولد وحق أبيه ، وذلك أساس فى تماسك كيان الأسرة ، وتنقية الأنساب وبُعْد بها عن كل ما يكدرها ، حتى تتواصل قلوب الآباء بالأبناء فى جو من الوثاقة والاطمئنان ، وحتى يقوم الآباء بواجبهم نحو الأبناء من غير أن تدور فى النفس نبضة شك . وواضح أن العِدَّة ليست حقاً للزوج فحسب ، وإنما هى أيضاً حق لله ، فلو تساهل الزوج وأهدر حقه فيها لا يجوز للمُطلَّقة التحلل منها ، وبذلك تحاط الأرحام هذه الحياطة المقدَّسة تكريماً للإنسان .

وقوله : ﴿ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ أى تستوفونها ، فهو مطاوع عد ، كما يقال : عدَّ الدراهم فاعتدها ، أى استوفى عددها ، نحو قولك : كِلْته فاكتلته ، ووزنته فاتزنته .

وقوله : ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ أى أعطوهن المُتعة ، وهى واجبة فيمن لم يُسمَّ لها صداق ، ومندوبة فيمن سُمِّى لها ، وقدرها يُعتبر فيه عُرف كل بلدة ، فيما تُكسى به المرأة عند الخروج ، وفى ذلك جبر للقلوب ، ومس على كلوم الفراق .

وقوله : ﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾ أى اتركوهن فى جو من حُسن المعاملة ، وكرم الخُلُق ، ولا ينبغى أن يتبع ذلك بالخوض فى أُمورهن ، والإساءة إلى سيرتهن ، وقد تقدم قولنا فى السرح ، وأنه شجر له ثمرة ترعاه الإبل ، ومنه أخذ التسريح ، ثم أُطلق على إرسالها للرعى مطلقاً غير مقيد برعى السرح ، ثم وثبت الكلمة إلى الإرسال مطلقاً غير مقيد بالرعى ،

والقرآن يُوصى بالسراح الجميل فى أمر النساء محافظة عليهن من قالة السوء ، ولأن مقامات الطلاق مقامات مشاحة ، ومضارة ، وربما انطلقت فيها الاتهامات ، أو الظنون ، فكان القرآن حكيماً كل الحكمة فى التركيز على هذه الظروف ، والأمر بالمتعة ، والسراح الجميل .

ثم إنك ترى الآيات التى سبقت هذه الآية المتضمنة حكماً من أحكام الله ، قد هيأت القلوب بأحسن ما تتهيأ به ، وذلك فى هذا الثناء والتكريم من الله لعباده المؤمنين ، ومثل هذا يجعل القلوب تُقبل على أمر الله ، وتحتاط فى المحافظة على حدوده .

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِى آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ، وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللَّاتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِى أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ، وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً * تُرْجِى مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُئْوِى إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ، وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ، ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ، وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَلِيماً * لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ، وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيباً ﴾ (الآيات : ٥٠ - ٥٢) .

* *

هكذا تزاوج هذه الآيات بين التوجه إلى المؤمنين وخطابهم ، والتوجه إلى النبى عليه السلام وخطابه ، وقد رأينا فى الآية السابقة أنها تتناول حكماً من

أحكام الله الخاصة بعلاقة الرجل بزوجه التى يُطلِّقها قبل أن يبنى بها ، وقلت إنها موصولة بما قبلها ، من حيث كان تهيئة للنفوس ، وإعداداً لها لتتلقى أمر الله ، وكذلك هذه الآية موصولة بما قبلها وصلا بيِّناً ، من حيث كانت الآية السابقة التى خوطب فيها النبى عليه السلام ، وأبرزت بعض مسؤوليات الرسالة ، وتبعاتها ، جاءت هذه الآية لتسوق له عليه السلام شيئاً من فضل الله ، والتوسعة عليه فى أمر النساء ، وكان عليه السلام يرتبط زواجه فى كل حال بموقف من مواقف البر بامرأة استشهد زوجها فى سبيل الله ، أو امرأة أسلمت وأخلصت بعد ما رأت ما نزل بأهلها على يد المسلمين ، كما هو معروف فى قصص زواجه . جاءت هذه الآية لتستثنى رسول الله ﷺ من التحديد الذى ذكرته سورة النساء ، فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ (١) ، وقد أرسل صحابة رسول الله ما زاد عن هذا العدد من بين نسائهم ، وقد مَنَّ الله على أمهات المؤمنين ، وأكرم رسوله باستثنائه من هذه القاعدة ، فلم يقض الله عليهن بمفارقة بيت النبوة بعد ما شرفهن بذلك ، وقد صنَّف القرآن هؤلاء الأزواج اللائى يباح لرسول الله أن يتزوج بهن ، وهن كما ذكرت الآية :

١ - اللائى أعطاهن مهورهن ، وإيتاء الأجور كما قال المفسِّرون : ليس شرطاً فى إقامة الزوجية ، وإنما هو الأولى من التسمية من غير أداء ، والتسمية من غير أداء أولى من عدم التسمية فى العقد ، فكأن المراتب ثلاثة أشارت الآية إلى أعلاها وأليقها برسول الله ﷺ .

٢ - ملك اليمين وقد قُيِّدن بما أفاء الله عليه ، لأن السبى من غير الفىء ربما كان قائماً على أساس ظالم ، ومن هنا كان السبى عندهم خبيثاً ، وطيباً ، وقد ملك عليه السلام صفية بنت حُيَىّ بن أخطب ، وجويرية بنت الحارثة المصطلقية ، وأعتقهما ، وتزوجهما ، كما ملك ريحانة بنت شمعون بن النضر ،

---

(١) النساء : ٣

ومارية القبطية ، أم ولده إبراهيم ، والتى أهداها له « جريج » أمير القبط فى مصر .

٣ - بنات عمه ، وبنات عمَّاته ، وبنات خاله ، وبنات خالاته اللاتى هاجرن معه ، والمعية هنا لا تعنى كما قالوا المقارنة الزمنية ، وإنما تعنى التشريك فى الهجرة ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ ﴾ (١) ليس المعنى على المقارنة الزمنية ، وهل بنى على هذا بيان الأفضل ، أم أن الهجرة شرط فى حل الأقارب المذكورات ؟ المسألة فيها خلاف كثير ، وإن كان الأرجح أنه بنى على بيان الأفضل . . .

وقد وقف المفسِّرون عند إفراد الذكور وجمع الإناث فى هذه الآية ، وأكثروا فيها القول ، حتى إن العلامة السبكى كتب رسالة موضوعها « الهِمَّة فى إفراد العَمّ وجمع العمَّة » ، وأقرب ما قيل : إنه لما كان العم يقوم مقام الأب ، ويُذكر بلفظ الأب ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾ (٢) أفرد لأن الأب لا يتعدد ، ثم جاءت العمَّات جمعاً على الأصل ، وقيس الخال على العم ، كما قيست الخالة على العمَّة ، وهذه عادة جارية فى كلامهم ، قال الألوسى : والذى يغلب على ظنى فى ذلك ما حكاه أبو حيان ، عن القاضى أبى بكر بن العربى ، من أن ما ذُكر عُرْف لُغوى ، على معنى أنه جرى عُرف اللُّغويين فى مثل ذلك على إفراد العم والخال ، وجمع العمَّة والخالة ، ونحن قد تتبعنا كثيراً من أشعار العرب ، فلم نر العم مضافاً إليه ابن أو بنت بالإفراد ، أو الجمع إلا مفرداً نحو قوله :

جَاء شَقِيقٌ عَارِضاً رُمْحَه ... إنَّ بَنِى عَمِّكَ فِيهِمْ رِمَاح

وقوله :

فَتىً لَيْسَ لابْنِ الْعَمِّ كَالذِّئْبِ إنْ رَأَى ... بِصَاحِبِه يَوْمَاً دَمَاً فَهُوَ آكِلُه

---

(١) النمل : ٤٤ (٢) الأنعام : ٧٤

وقوله :

قالت بَنَاتُ الْعَمِّ يا سَلْـمَى وإنْ　　كَانَ فَقِيـراً مُعْـدِماً قَالَـتْ وَإنْ

وقوله :

يا ابْنَةَ عَمِّى لا تلُومِى وَاهْجَعِى　　فَلَيْسَ يَخْلُو عَنْكِ يَوْماً مَضْجَعِى

إلى ما لا يُحصى كثرة ، وأما اضطراد إفراد الخال ، وجمع العمَّة والخالة إذا أُضيف إليها ما ذُكر ، فلست على ثقة من أمره ، فإذا كان الأمر فى المذكورات كالأمر فى العمِّ ، فليس فوق هذا الجواب جواب !

٤ - المرأة التى تهبه نفسها ، وهذا خاص به عليه السلام ، وإنما تكون من نسائه إذا استنكحها ، أى قَبلَ هِبتَها ، وقد قالوا : إنه عليه السلام لم يصح أنه تزوج واحدة من هذا النوع ، وإنما كان يُزوِّج الواهبات لغيره من أصحابه رضى الله عنهن ، وقيل : إن ميمونة بنت الحارث الهلالية قد وهبت نفسها للنبى وأنه عليه السلام أعرس بها .

وقوله : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعنى الهبة لا تكون إلا لك ، لأن الرغائب تتعلق برسول الله ﷺ ، وبشرف القُرب منه ، فأذن الله له فى ذلك ، وقال الزمخشرى : إنه مصدر مؤكد ، كوعد الله ، وصبغة الله ، قال : والفاعل والفاعلة فى المصادر غير عزيزين ، كالخارج ، والقاعد ، والعاقبة ، والكاذبة ، وقوله : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِى أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ إشارة إلى الأصل الذى قررته الشريعة فى عدد الأزواج ، والذى جاء تيسيراً من الله للنبى بخلافه ، وقد بيَّن الحكمة فى هذا بقوله : ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ، وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ فالله سبحانه يعلم ما يُحيط برسوله الكريم من ظروف خاصة ، تحتاج إلى هذه التوسعة . وليس الأمر أمر متاع ، لأن حياة الرسول كانت عامرة بجلائل الأعمال ، وإنما هى مقتضيات موقفه فى مركز القيادة ، كما يتبين ذلك فى قصة زواجه بكل واحدة من أُمهات المؤمنين ، وقد ذكرنا أن الإبقاء على أُمهات المؤمنين واستثناء رسول الله من آية

النساء ، كان تكريماً أيضاً لأمهات المؤمنين ، بإبقائهن فى بيت النبوة ، ذلك البيت الذى شرفهن الله بالانتماء إليه .

وفى الأسلوب هنا إشارات مهمة ، نجد ذلك فى الانتقال إلى الغيبة فى قوله : ﴿ إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ ولم يقل : إن وهبت نفسها لك ، لأن هذا التشريع خاص به بوصفه نبياً ، فالنبوة أساس فى هذا الحلّ ، ونجد ذلك فى هذا البدء الذى بدأت به الآيات : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ ﴾ فالله هو الذى يملك التحليل والتحريم ، وليس لمحمد فى هذا الأمر شىء ، وإنما الله الذى زوَّجه زينب ، هو الذى أحل له الأزواج المذكورات ، وقد ذكرنا هناك أن الإسناد إلى الله فى قوله : ﴿ زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ ذو أهمية فى تجريد محمد ﷺ من الفعل فى هذا الأمر الخاص بشخصه ، والذى كثرت فيه قالة المغرضين ، وكذلك هنا ، فالأمر كله لله ، وليس على محمد ﷺ إلا أن يمثل لهذا الأمر ، وهذا البناء الذى أكدته « إن » ، وبناء الخبر الفعلى على المسند إليه ، إنما يحقق هذا المعنى ، ويجرد محمداً ﷺ من الرغبة والفعل فى هذا المقام ، وتسبيح الله يعنى أن تكون أعماله سبحانه مبنية على وجوه من الحكمة ، وربما ظهر لنا منها ما يقنع نفوسنا ، وربما لم يظهر ، ومقتضى التسبيح ألا يسأل عن العلّة ، ولا عن الوجه ، لأن هذا السؤال يتصادم مع العبودية ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾[(1)] ، ولكن الله سبحانه أشار إلى علّة هذا الاستثناء ، ووجه هذا التشريع الخاص بالنبى ، وأن مقامه عليه الصلاة والسلام فى هذه الجماعة ربما يكون فيه شىء من الحَرَج ، لو ضيّقَ عليه فى المصاهرة وعدد الأزواج .

ونجد إشارة ثالثة فى قوله : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ والجملة جاءت على سبيل الاعتراض ، وهو اعتراض مهم لأنه ينص على أن فريضة التعدد ، إنما صدرت عن علم بالأحوال ، والطبائع ، فهو تقنين مبنى على الإدراك الكاشف ، والعلم الدقيق بخفى النوازع والأحوال .

---

(1) الأنبياء : ٢٣

ثم يتصاعد رفع الحَرَج عنه عليه الصلاة والسلام ، فيترك الخيار له فى أمر الواهبات من حيث قبول مَن يشاء ، أو إرجاء قبولها ، وله أن يُؤْويها إليه بعد هذا الإرجاء ، وكذلك فى حياته مع نسائه ، فله أن يُؤْوى إلى فراشه مَن يشاء ، وأن يُرجىء مَن يشاء ، فوَّض الله إليه أمر الواهبات فى الإيواء والإرجاء ، وكذلك أمر القسم بين نسائه . قال المفسِّرون : وإذا كان أمر القسم مفوَّضاً إليه عليه السلام وليس ثمة شرع مفروض عليه من قِبَل الله فى شأنه ، ثم كان منه عليه السلام العدل والتسوية ، فى هذا وغيره ، كان ذلك أقرب إلى إرضاء أُمهات المؤمنين ، وقرار قلوبهن فى هذا البيت الشريف الآمن .

قال الزمخشرى فى هذه الآية : يعنى تترك مضاجعة مَن تشاء منهن ، وتضاجع مَن تشاء ، أو تُطلِّق مَن تشاء ، وتُمسك مَن تشاء ، أو لا تقسم لأيتهن شئت ، وتقسم لمن شئت ، أو تترك تزوج مَن شئت من نساء أُمتك ، وتتزوج مَن شئت . ثم قال فى قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ ﴾ ذلك التفويض إلى مشيئتك أدنى إلى قُرَّة عيونهن ، وقِلَّة حزنهن ، ورضاهن جميعاً ، لأنه إذا سوَّى بينهن فى الإيواء ، والإرجاء ، والعزل ، والابتغاء ، وارتفع التفاضل ، ولم يكن لإحداهن مما تريد ومما لا تريد ، إلا مثل ما للأخرى ، وعلمن أن هذا التفويض من عند الله بوحيه ، اطمأنت نفوسهن ، وذهب التنافس ، والتغاير ، وحصل الرضا ، وقرَّت العيون ، وسَلَتْ القلوب » .

وترى البيان الكريم يشير إلى ما به تكون قناعة القلوب ، والعقول ، التى يتنزل عليها هذا التشريع ، والمطالبة بالمضى على طريقته ، فيقول : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ أى إن هذا السَّنَن الذى نهجه الحق ، إنما هو سنن مراعى فيه أحوال القلوب ، وما يجول فيها من نوازع ، وما يتردد فيها من خواطر ، وما يتصارع فيها من غرائز ، أو رغبات .

قلت فى صدر الحديث عن هذه الآية : إنها تكريم لأُمهات المؤمنين حين

كانت توسعة على رسول الله ، ورفعاً للحَرَج الذى فرضه الله على أمته فى عدد الأزواج ، وترى هذا التكريم يزداد فى قوله : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ من بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ، وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً ﴾ ، وترى قوله : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ ﴾ ، وإن كان أمراً تشريعياً إلا أن الأسلوب جاء على طريقة من الاحتمال ، جعل المفسِّرين يذهبون فيها إلى معان متعددة ، قالوا فى تقدير المضاف المحذوف : يعنى من بعد التسع ، اللائى كن فى عصمة رسول الله ﷺ ، وقالوا : من بعد ما اخْتَرْنَ اللهَ ورسوله ، وفى ذلك نص على أن التكريم كان بسبب هذا الموقف الكريم ، وقالوا : المراد من بعد اليوم ، أى يبدأ التحريم بعد نزول الآية ، فالمضاف هو الزمن ، وربما القول بأن المراد من بعد التسع هو الأقرب ، وذلك ليكون لقوله : ﴿ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴾ محل يرد فيه ، لأننا لو قلنا : لا يحل لك النساء من بعد اختيار الله ورسوله ، أو من بعد اليوم ، لكان ذلك قاضياً بتحريم التبديل أيضاً ، لأن المرأة التى هى بدل واحدة منهن ، داخلة ضمن النساء اللاتى يحللن له ، وإذا كان المراد التسع ، فقد يتوهم جواز أن يستبدل بهن ، فجاء قوله : ﴿ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴾ ، لنفى هذا التوهم ، والله أعلم بمراده ، ثم إن هناك وجهاً آخر من الفهم أخرج الآية عن معناها المتبادر ، وهو تحريم النساء على رسول الله ﷺ ، فقد قالوا : إن المضاف هو المبيَّنات فى الأصناف المذكورة السابقة : ﴿ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِى آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ . . . إلى آخره : وهذا الوجه وإن كان غير مشهور ، فهو مروى عن جماعة ، منهم علىّ بن أبى طالب ، والحسن ، وابن سيرين ، وأُبَىّ بن كعب ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم ، وقد روى الترمذى عن ابن عباس قال : نُهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات ، بقوله تعالى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ من بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ ، فأحلَّ

الله فتياتكم المؤمنات . . وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها ، وحرَّم كل ذات دين غير الإسلام ، رواه الإمام أحمد عن سفيان عن عمرو عن عطاء عن عائشة .

ولا محل لما روى عن عائشة من أنه ما مات صلى الله عليه وسلم حتى أحلَّ الله له النساء ، وكذلك ما رواه الترمذى ، والنسائى ، عن أم سلَمة رضى الله عنها أنها قالت : لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحلَّ الله له أن يتزوج من النساء ما شاء ، إلا ذات محرم ، لأن هذا الوجه فى تفسير المضاف ليس فيه تحريم النساء مطلقاً ، وإنما تحريم غير المذكورات ، ومن بينهن : بنات عمك ، وبنات عمَّاتك ، وبنات خالك ، وبنات خالاتك ، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها . . . وإنما يكون التحريم على الوجوه الأخرى فى بيان البعدية ، سواء أكانت بعد التسع ، أو بعد نزول الآية ، أو بعد التخيير ، والذين اعتمدوا واحداً من هذه الوجوه ، وصح عندهم ما روى عن عائشة ، وأم سلَمة ، يقولون : إن الآية الكريمة نُسخَت حكماً ، وبقيت تلاوة ، ويذهب بعضهم إلى أنها نُسخَت بما قبلها ، أى بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِى آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ وليس سبقها لها فى ترتيب المصحف دليلاً على سبقها فى النزول ، لأن ترتيب المصحف ليس كترتيب النزول ، قالوا : ومثل هذا آيتا عدَّة الوفاة فى البقرة ، فإن الأولى ناسخة للتى بعدها ، فقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ منكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً ﴾ (١) ناسخة لقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ منكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ، فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ (٢) .

وسواء نسخت أم لم تنسخ ، وسواء أكان المراد بها تحريم النساء على رسول الله ﷺ ، أو لم يكن ذلك ، فقد ثبت أنه عليه السلام لم يتزوج بعد

---

(١) البقرة : ٢٣٤ (٢) البقرة : ٢٤٠

نزول هذه الآية ، وهذه الاحتمالات الكثيرة فى أسلوب الآية ، وجه من وجوه بلاغتها ، لأن كثرة الاحتمالات فى البيان واستيعابه موفور المعانى ، عنصر من عناصر قوته ، ثم إذا كان الأمر فى سياق التشريع ، وكانت كل هذه المعانى والاحتمالات ، التى يتسع لها الكلام مقبولة كان ذلك وجهاً آخر من وجوه التوسعة فى شريعة الله .

وقوله : ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ وارد مورد الإلهاب ، والإثارة ، حتى تندفع النفس نحو أمر الله ، وهى يقظة جيَّاشة ، والله سبحانه يعلم أن النبى عليه الصلاة والسلام لن يتزوج بعد ذلك ، وأنه لم يكن يتعلق بحُسن النساء تعلقاً يُبيح لنفسه أن يخالف أمر ربه فى قوله : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ ﴾ ، ثم فى هذا الإلهاب ، إشارة من تلك الإشارات القرآنية الكثيرة التى تشير إلى بَشرية محمد عليه الصلاة والسلام ، ونوازعها فى نفسه ، وأنه واحد من المربوبين لله ، لن يكون أبداً خلاف ذلك ، وأن رُقِىَّ نفسه ، وتزكيتها ، وصيرورتها نفساً ربانية ، تمضى على طريقة الله وخُلُق القرآن ، كل ذلك لا ينزعها من أصلها البَشرى ، ولا يميت فيها تلك النوازع والهواتف ، وإلا لما كان لرسول الله فضل فى باب المجاهدة الذى سمَّاه الجهاد الأكبر .

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النَّبِىِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ فَيَسْتَحِى مِنكُمْ ، وَاللهُ لَا يَسْتَحِى مِنَ الْحَقِّ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ، وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ اللهِ وَلَا أَن تَنكِحُواْ أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيماً * إِن تُبْدُواْ شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً * لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ

فِى آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ، وَاتَّقِينَ اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيداً ﴾ (الآيات : ٥٣ - ٥٥) .

* *

ذهب كثير من المفسّرين إلى أن قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِىِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ خطاب لقوم كانوا يتحيَّنون طعام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيدخلون ، ويقعدون ، منتظرين لإدراكه ، فالآية مخصوصة بهم وبأمثالهم ممن يفعل مثل فعلهم فى المستقبل ، فالنهى مخصوص بمن دخل بغير دعوة ، وجلس منتظراً للطعام من غير حاجة ، فلا تفيد النهى عن الدخول بإذن لغير طعام ، ولا عن الجلوس واللبث بعد الطعام لمهم آخر ، ولو اعتبر الخطاب عاماً ، لكان الدخول واللبث المذكوران منهياً عنهما ، ولا قائل به .

وترى الآية الكريمة تخاطب هذه الجماعة ، التى كانت تتصرف هذا التصرف المؤذى لرسول الله ﷺ ، خطاباً رقيقاً ، فتناديهم بصفة الإيمان ، وهو الرابطة الوثقى بينهم وبين نبيهم الكريم ، ثم تذكر الرسول ﷺ بلفظ النبوة ، فتُؤكد وتُبرز هذا الترابط ، وأغلب ظنى أن هؤلاء الذين كانوا يتحينون وقت طعام رسول الله ﷺ لم يكونوا إلا رجالاً أحبوا نبيهم عليه السلام ، وتعلّقت نفوسهم ببيته الكريم ، وأرخى لهم فى ذلك ما عُرِف عنه عليه السلام من كرم النفس ، وسعة الصدر ، ولما كانت بيوته عليه السلام قِبْلة كل مسلم ، كان من الضرورى أن يكون هناك ضرب من التنظيم ، ووضع الحدود فى علاقتهم به عليه السلام فى بيوته ، فمنعت هذه الآية دخول بيوت النبى إلا حين يأذن عليه السلام ، وبذلك يكون دخولهم بإرادته هو ، وهو الذى يعرف ما يحيط به ، وقد جاءت صياغة الآية الكريمة على ضرب من التركيب والتداخل ، من حيث كثرت فيها القيود ، فلم يقل : لا تدخلوا

بيوت النبى إلا أن يُؤذن لكم فحسب ، ولكنه قيَّد الإذن بكونه إذناً لطعام ، ثم ذكر قيداً ثانياً يتولد عن هذا القيد ، وهو كونهم غير ناظرين إناه ، أى نضجه ، فإذا أُذن لهم إلى طعام ، وكانوا ناظرين إناه ، لا يكون ذلك إذناً ، ولا يصح دخولهم ، ولهذا ذهب أكثر المفسِّرين إلى ما ذكرناه ، من كونها مخصوصة بجماعة معينة ، قال الزمخشرى : « ومعناه لا تدخلوا يا هؤلاء المتحيِّنون للطعام ، إلا أن يُؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، وإلا فلو لم يكن لهؤلاء خصوصاً ، لما جاز لأحد أن يدخل بيوت النبى ﷺ إلا أن يؤذن له إذناً خاصاً ، وهو الإذن إلى الطعام فحسب » .

ويذكر الزمخشرى أن المصدر المؤل بعد « إلا » فى قوله : ﴿ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ واقع فى معنى الظرف ، أى إلا وقت أن يُؤذن لكم ، وقوله : ﴿ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ حال من الضمير فى قوله : ﴿ لَا تَدْخُلُواْ ﴾ ، وكأن الظرف والحال داخلان فى حكم الاستثناء ، والمستثنى منه - فى مثل هذه الحالات التى يكون فيها الاستثناء مفرغاً يُقدَّر عاماً - من جنس المستثنى ، فلو ذهبت تُقدِّره من جنس الوقت وعمومه ، تكون قد راعيت الظرف وأهملت الحال ، لأن الحال داخل فى حكم الاستثناء ، يعنى مستثنى من عموم الأحوال ، كما أن وقت الإذن مستثنى من عموم الأوقات ، فهم لا يدخلون بيت النبى فى أى وقت من الأوقات ، إلا وقت الإذن ، ولا فى أى حال من الأحوال إلا حال عدم الترقب لنضج الطعام ، ولما كانت طبيعة أسلوب الاستثناء تقوم على هذا الاعتبار المؤدى إلى معنى القصر ، قال جمهرة الدارسين : إنه لا يصح استثناء شيئين بأداة واحدة إلا إذا كان هناك عاطف ، لأن الكلام يكون على نية تكرار الأداة . . ولهذا وردت اعتراضات كثيرة على هذا التقدير ، وكثر القول فى بيان ما يجرى عليه تركيبها ، حتى إن الشيخ العلامة تقى الدين السبكى رحمه الله كتب رسالة سماها « الحلم والأناه فى إعراب غير ناظرين إناه » ، وقد جاء ذكر هذه الرسالة فى شعر صلاح الدين الصفدى على طريقة التورية فى قوله :

يَا طَالِبَ النَّحْوِ فِي زَمَانٍ　　أَطْوَلَ ظِـلاً مِـنْ قَـنَاهْ

وَمَـا تَحَـلَّى مِـنْه بِقَصْـدٍ　　عَلَيْـكَ بِالحِلْـمِ وَالأَنَـاهْ

والوجوه المستقيمة والبيِّنة فى تفسير هذا التركيب كثيرة إلا أن أسلافنا رحمهم الله كانوا يستوفون ذكر جميع الوجوه ، ومناقشة ما يرد عليها ، فتحولت الآية إلى رأس موضوع خصب فى الإعراب ، تتوارد فيه مشاكل النحاة وخلافاتهم ، ومن الممكن أن يقال : إن قوله : ﴿ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ حال من الضمير فى قوله : ﴿ لَا تَدْخُلُواْ ﴾ كما يقول الزمخشرى ، ولكنها لا تدخل فى حكم الاستثناء ، وإنما تُعتبر مؤخرة عن تقديم ، والأصل : لا تدخلوا بيوت النبى غير ناظرين إناء طعامه ، إلا أن يؤذن لكم ، فالنهى موجَّه إلى الدخول المقيَّد بكونهم غير منتظرين نُضج الطعام إلا فى حال الإذن ، ويدخل فى ذلك - من باب أولى - النهى عن الدخول وهم ينتظرون نضج الطعام ، فالنهى موجَّه إلى صورة أقل فى إيذاء رسول الله ﷺ من الصورة التى هم عليها ، وهذا واضح فى أنه ضرب من ضروب المبالغة فى النهى عما هم عليه ، ويمكن أن يقال : إن قوله : ﴿ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ داخل فى حكم الإذن من ناحية التركيب ، كأن يكون حالاً من ضمير فى ﴿ لَكُمْ ﴾ ويكون المقصود بالاستثناء هو الإذن المقيَّد بجملة هذه القيود ، فلا تكون هناك مخالفة للمشهور من كلامهم فى منع استثناء شيئين بأداة واحدة من غير عاطف .

وقد لوحظ أن الإذن عدى إلى الطعام بـ « إلى » ، وإنما يعدى بـ « فى » تقول : أذنت له فى كذا ، لأن الإذن هنا قد أشرب معنى الدعاء ، فالإذن إلى الطعام دعوة إليه ، ولهذا جاء الاستدراك بلفظ « دُعِيتُمْ » : ﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُواْ ﴾ .

ثم انظر إلى هذه الجمل الثلاث التى تحدد آداباً عامة ، وإن كانت فى سياق علاقة المسلمين ببيت النبى عليه السلام : ﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُواْ ﴾ جاء

الدعاء فيها مطلقاً ليشمل كل دعوة ، فيكون كأنه كلام يستقل ، بمعنى أنه يصح أن يُقتطع من سياقه ، وأن يفيد الغرض منه ، ثم تجد الأمر هنا بدخول بيت النبى ﷺ ، وكأنه يُذهب الوحشة فى النهى عن دخوله ، وقوله : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُواْ ﴾ يحدد مكثهم فى بيوت النبى بالقدر الذى تجرى به العادة فى علاقات الناس ، ويمهد للجملة الثالثة والتى تعالج حالة غير الحالة السابقة ، تعالج أمر الذين يستأنسون بالحديث فى بيوت النبى ﷺ أنْساً بها وحباً لها ، ويستغرقون الوقت الطويل الذى يُشغله عليه السلام عن أمر أهله ، وحاجة بيوته ، وقد حدث أن كان منهم ذلك فى ليلة بنائه عليه السلام بزينب بنت جحش رضى الله عنها ؛ روى البخارى وغيره عن أنس رضى الله عنه من أكثر من طريق ، قال : « بَنَى النبىُّ ﷺ بزينب بنت جحش ، بخبز ولحم ، فأُرسِلْتُ على الطعام داعياً ، فيجىء قوم فيأكلون ، ويخرجون ، ثم يجىء قوم فيأكلون ويخرجون ، فدَعَوْتُ حتى ما أجدُ أحداً أدعوه ، فقلت : يا رسول الله ؛ ما أجد أحداً أدعوه ، قال : « ارفعوا طعامكم » ، وبقى ثلاثة رهط يتحدثون فى البيت ، فخرج النبى ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة رضى الله عنها ، فقال : « السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته » ، قالت : وعليك السلام ورحمة الله ، كيف وجدتَ أهلك يا رسول الله ؟ فَتَقرَّى حُجَرَ نسائه كلهن يقول لهن كما يقول لعائشة ، ويقلن له كما قالت عائشة ، ثم رجع النبى ﷺ ، فإذا الثلاثة رهط فى البيت يتحدثون ، وكان النبى ﷺ شديد الحياء ، فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة ، فما أدرى أخبرته أم أُخبر أن القوم خرجوا ، فرجع حتى إذا وضع رجله فى أسْكفة الباب داخله والأخرى خارجه أرخى الستر بينى وبينه ، وأُنزلت آية الحجاب » . . . يعنى هذه الآية .

وهذا النفر الذى استأنس للحديث فى بيت رسول الله ﷺ ، لم يخطر فى نفوسهم أنهم يؤذون النبى ﷺ بذلك ، أو يضايقونه ، كيف وقلوبهم مجتمعة حولة ، ومرتبطة به ، ولذلك تراهم فى اللحظة التى أحسوا فيها أنهم أثقلوا

على رسول الله ابتدروا إلى الباب ، كما وصفهم أنس رضى الله عنه فى رواية أخرى .

وقال ابن كثير : ولو أُعلموا كان ذلك عليهم عزيزاً ، وقد قلنا فى الذين كانوا يتحيَّنون وقت إنضاج طعامه صلى الله عليه وسلم أنه إنما أغراهم بذلك ما عُرِف به عليه السلام من سماحة النفس ، وسعة الصدر .

لهذا نستوحش أن يُقال إن هذه الآية - أعنى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ - نزلت فى شأن الثقلاء ، أو أنها آية الثقلاء .

وقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِيَّ ﴾ وارد مورد العِلّة ، للحث على النهى السابق ، ولذلك فُصل عنه ، كما يجرى فى نظيره من مثل قوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ [1] ، وهذا فن بليغ يجرى فى أساليب الأمر ، كما يجرى فى أساليب النهى ، وقد تقدم مثله . وذكره عليه السلام بلفظ النبوة التى هى مناط تعلقهم به ، وحبهم له ، وأصل تحصيلهم وصف الإيمان الذى نُودُوا به ، وكذلك لفظ الإيذاء ، وإسناده إلى ما يكون منهم ، وأنه واقع على النبى ﷺ ، وكلمة ﴿ كَانَ ﴾ التى أدخلت الأحداث فى جوف الماضى ، كل شىء فى الجملة يزيد النفس المؤمنة نفوراً من هذا الفعل ، وامتثالاً للكف عنه ، ثم ترى قوله : ﴿ فَيَسْتَحْيِى مِنكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِى مِنَ الْحَقِّ ﴾ يأتى تكريماً لرسول الله ، ومرشداً إلى وفرة حيائه عليه الصلاة والسلام ، والحياء معدن الفضائل الإنسانية ، ومنبعها ، وكأنه خلاصة إنسانية الإنسان .

والرسول الكريم كان مع صلابته وقوة عزيمته ، شديد الحياء ، فلم يُحدِّث أصحابه فى هذا الأمر الذى كان يؤذيه ، وهو يعلم عليه السلام أنه إن بدر منه ما يلفتهم إلى ذلك كفوا طائعين ، ولكنه عليه السلام لم يفعل ، فتولى الله

---

(١) الإسراء : ٣٢

سبحانه إبلاغهم هذا الأمر ، وفي ذلك من التكريم ما ترى ، ثم يأتى بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْئَلُوهُنَّ مِنَ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ فيضرب بها الحجاب على أُمهات المؤمنين ، وهى واحدة مما نزل من القرآن تشريعاً كان ابن الخطاب رضى الله عنه قد أحسَّه بصادق فطرته ، فقد أخرج البخارى ، وابن جرير ، وابن مردويه ، عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : « قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : يا رسول الله ؛ يدخل عليك البرُّ والفاجرُ ، فلو أمرت أُمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله تعالى آية الحجاب » .

ثم ترى المولى سبحانه يذكر العِلَّة فى هذا فيقول : ﴿ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ ، وهذه الجملة مفصولة عن السابقة ، كما يُفصل الجواب عن سؤاله ، لأن الجمل التى تقع كالعلل لسابقتها تجرى كلها هذا المجرى ، ثم ترى الحجاب معللاً بطهارة القلوب من خواطر النفس ونزعاتها ، حين لا يكون حجاب بين الرجال والنساء ، وإذا كان هذا فى شأن أُمهات المؤمنين اللائى غذيت قلوبهن بآيات الله ، وسمعن رسول الله وهو يتلوها على أصحابه ، ولا تزال عَبِقَةً بفم جبريل ، كما هى عبقة بروح المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وإذا كانت هناك وسائل تسمو بها النفس ، وترقى إلى أُفق نبيل ، فلا أظن أن شيئاً منها يفعل فيها كما تفعل آيات الله فى اللائى تنزَّلت وهن فى حجر رسول الله . . ثم ترى الرجال الذين حُجِبوا عن نساء رسول الله هم الغر الميامين ، الذين وصل الرسول عليه السلام حُبَّهم بحب الرحمن .

وليقرأ هذه الآية هؤلاء العصريون ، الذين يرفعون الحجاب فى بيوتهم ، وليست نساؤهم أطهر قلباً من أُمهات المؤمنين ، كما أن أصحابهم ليسوا أنبل نفساً من صحابة رسول الله ﷺ ، ومجىء هذا الأمر مع أُمهات المؤمنين ومع صحابة رسول الله يُسكت كل محاولة لتبرير الفساد الذى أخذ طريقه إلى بيوت المسلمين ، لما تهاونوا فى أمر الله ، ورفعوا الحجاب فى بيوتهم استجابة

لمتطلبات المدنية ، هكذا ظنوا - وهى إن كانت كذلك - فهى مدنية دنسة ، لا تقوم على احترام الحرمات .

ثم يعود الأسلوب فيذكر ما يستجيش النفوس نحو الاستجابة لتوجيه الله ، فيقول : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ اللهِ ﴾ صلى الله عليه وسلم ، وتكون هذه الجملة كأنها مع إفادة معنى الحث على الامتثال لما جاء فى الآية الكريمة ، تمهد لأمر آخر ، وتذكر وطاء له ذلك هو قوله : ﴿ وَلَا أَن تَنكِحُواْ أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ﴾ فزواج أمهات المؤمنين بعد رسول الله ﷺ إيذاءٌ له ، والله سبحانه وتعالى يشدد الأمر فى ذلك كما ترى ، فى كلمة : ﴿ أَبَداً ﴾ ، وكما ترى فى هذا الاستئناف المحتفل بالأمر ، وكيف بُنِى على التوكيد فى قوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيماً ﴾ وكيف أشار اسم الإشارة إلى استبعاده فى فطرة النفوس الوفية الكريمة .

وقوله : ﴿ إِن تُبْدُواْ شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً ﴾ مما يرد كثيراً فى سياق الأوامر والنواهى ، ليُرشد إلى أن الأمر ليس انكفافاً ظاهراً ولا انقياداً شكلياً ، وإنما المهم هو الطهارة القلبية ومعالجة الدواخل بقطع الأهواء ومكافحة الهوى ، لأن الذى يحاسبك لا يحاسبك على ظاهر حالك كما يحاسب الناس ، وإنما يحاسبك على ما أخفيتَ فهو بكل شىء عليم ، وهذا هو الفرق الجوهرى بين الانقياد لقانون الله والانقيادات التى تكون لقانون الناس .

قالوا : إنه لما نزلت آية : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ قال الآباء والأقارب : يا رسول الله ؛ أوَ نحن أيضاً نكلمهن من وراء الحجاب ، فنزلت آية : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِى آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ، وَاتَّقِينَ اللهَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيداً ﴾ فاستثنت الآباء والأبناء والإخوة وأبناء الإخوة ونساء المؤمنين وما ملكت أيمانهن ، وقالوا : إن

المسلمة لا تُبدى زينتها للكافرة لقوله : ﴿ وَلَا نِسَائِهِنَّ ﴾ ، وقد جاء كذلك فى سورة النور ، وذكر الحارث بن قيس أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبى عبيدة : أما بعد ؛ فإنه بلغنى أن نساءً من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك ، فانْه مَنْ قبلَكَ فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل مِلَّتها ، وذكروا أيضاً أنه يجوز للمرأة أن تُبدى زينتها لما ملكت يمينها من عبد أو أَمَة .

وترى الأسلوب فى قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ﴾ ينفتل إلى أمهات المؤمنين ليخاطبهن خطاباً مباشراً ، ويصير الموقف موقف حضور ، وأمهات المؤمنين يسمعن من الرحمن سماع المخاطب ، وفى ذلك غاية الاهتمام بالأمر بالتقوى فى سياق تطهير القلوب ، وقطع خواطر السوء ، ويأتى التعليل بعد هذا الأمر كما هو الشأن فى كثير من أوامر القرآن : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيداً ﴾ فهو تأكيد للمشاهدة الداخلية ، وأنها من قِبَل الله مشاهدة تامة ، ومنكشفة ، تنفضح فيها كل سريرة من سرائر الضمير ، وكل همسة من همسات القلب .

وواضح أن نساء الأرض كلهن من وراء هذا الخطاب بالطريق الأَوْلى ، لأن نساء النبى أُمهات المؤمنين ، وقدوة طيبة لنساء الأرض ، ويأتى الأسلوب معهن فى هذه الصورة من الاهتمام ، وضرورة مراقبة دواخل النفس ، حتى يكون الحجاب حجاباً طاهراً ، وأن يكون انقياداً قلبياً لله ، لأن الحجاب حين يُضرب على المرأة وهى نافرة كارهة لا يكون حجاباً إسلامياً ، ولا تُؤمَن طهارته ، وحياطته من الدنس ، والتدليس ، وراجع آيات قليلة من التى عرضناها تجد هذا التوجيه يتكرر فى أعطافها كثيراً ، تجد : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ (١) ، ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ (٢) ، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ

---

(١) الأحزاب : ٥٠ (٢) الأحزاب : ٥١

عَليماً حَليماً ﴾ (١) ، ﴿ وكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقيباً ﴾ (٢) ، ﴿ فَإنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَليماً ﴾ (٣) ، ﴿ إنَّ اللهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيداً ﴾ (٤) .

وهذه الفواصل لها أثر كبير فى أن تلج آداب القرآن وتعاليم الله سبحانه سرائر النفوس ، فتستل منها سخائم الشيطان ، وهذا أساس فى منهج الله الذى يتوجه إلى الإنسان ، وإلى مواطن توجيه سلوكه ، فيُحدث التغيير هناك ، وإذا لم يكن سلوك المسلم نابعاً من هذا المنبع الحى بمراقبة الله ، وتوجيه الهمة نحوه ، كانت أعماله لا وزن لها عند الله .

* * *

﴿ إنَّ اللهَ ومَلَائكتَهُ يُصلُّونَ عَلَى النَّبىِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْليماً * إنَّ الَّذينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخرَةِ وأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهيناً * وَالَّذينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمنينَ وَالْمُؤْمنَات بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُواْ فَقَد احْتَمَلُواْ بُهْتَاناً وَإثماً مُّبيناً * يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتكَ وَنسَاءِ الْمُؤْمنينَ يُدْنينَ عَلَيْهِنَّ من جَلَابيبهِنَّ ، ذَلكَ أَدْنَىٰ أن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ، وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحيماً ﴾ (الآيات : ٥٦ - ٥٩) .

* *

توجّهتْ الآيات السابقة إلى الذين حول محمد عليه الصلاة والسلام ، وخطت لهم أسلوباً فى التعامل معه ، فنهتهم عن التحين لإنضاج طعامه ، كما كان يحدث من بعضهم ، كما نهتهم عن الاستغراق فى الحديث ، والاستئناس له ، مما كان يُضجر أهل بيت رسول الله ﷺ ، وألقت السِتْر بينهم وبين نسائه ، وحَرَّمت أزواجه على أحد من بعده ، وهذه وحدها هى

(١) الأحزاب : ٥١
(٢) الأحزاب : ٥٢
(٣) الأحزاب : ٥٤
(٤) الأحزاب : ٥٥

التى بقيت خاصة به عليه الصلاة والسلام ، أما آداب السلوك ، والمحافظة على حرمات البيوت ، وكف الاختلاط بين نساء المسلمين وغير محارمهن ، كل ذلك شرع مضى على الأمة . وفى هذه الأخيرة الخاصة تميز لرسول الله وتكريم له ، وفيه أيضاً تقدير لأمهات المؤمنين ، رضى الله عنهن ، فلا يُلقى عليهن سِتر مع غير رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

وتأتى هذه الآيات ، فتصف طرفاً من منزلته عليه الصلاة والسلام عند الله ، والملائكة ، وتبدأ الآية كما ترى بالصلاة على رسول الله ، وقد مرَّ بنا المراد بها من الله والملائكة . . والصلاة تنطلق أولاً من قِبَل الله ، وملائكته ، وكل مَن فى الحضرة الرحمانية ، فيعج الملأ الأعلى كله بالصلاة والتسليم على النبى الكريم ، ثم يتنزل الأمر إلى الأرض ، بأن تنتشر الصلاة والسلام عليه فى جنباتها من أفواه المؤمنين الطاهرين ، وبهذا يكون الكون كله أُنشودة صلاة وتسليم على النبى الكريم ، والذين لا تكون منهم الصلاة والتسليم على النبى لا يتجاوبون مع هذا التناغم الجيَّاش ، الذى يتصل فيه الخلق بالخالق ، وتتلاقى فيه أنغام الأرض بأنغام السماء ، وتتعانق فيه أصوات الملائكة بأصوات الناس ، الذين لا يُصلُّون على النبى يعارضون هذا السياق العام : سياق الكون والفطرة .

قال الألوسى : « ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ كالتعليل لما أفاده الكلام السابق من التشريف العَظيم الذى لم يُعهد له نظير » . فصلة هذه الجملة بالكلام السابق صلة السب بالمسبب ، وواضح أن هذه الطريقة شائعة جداً فى الكتاب الكريم ، لأنها تعنى توثيق الأوامر ، والنواهى ، وإقناع القلوب والعقول بها ، ويلحظ الألوسى أن الجملة الشريفة جاءت إسمية وفعلية معاً ، من حيث المدلول . . جاءت إسمية لأنها بُنيت على لفظ الجلالة ، وأفادت معنى الفعلية لأن خبرها جملة فعلية ، فأفاد ذلك تبعاً لدلالة هاتين الجملتين أو الجملة المحتوية على جملة أن الصلاة على النبى عليه السلام من الله والملائكة صلاة دائمة ، ومتجددة . . ثم إن الجملة جاءت مؤكدة ،

وفى ذلك إشارة إلى عناية الله سبحانه بمدلولها ، وملء أسماع أهل الأرض بأنغام الصلاة والتسليم الصادرين من الله وملائكته ، ثم لوحظ فى صياغة الجملة الشريفة شىء آخر هو أن التسليم جاء مؤكداً بالمصدر ، بخلاف الصلاة ، وذلك لأن الصلاة لما كانت من الله وملائكته ، كان بمثابة التوكيد لها ، ولا كذلك التسليم ، ثم لوحظ أن الملائكة عُرِّفت بالإضافة ، أعنى لم يقل : إن الله والملائكة ؛ لأن فى إضافتهم إلى الله سبحانه تشريف لهم ، وإعلاء لمنزلتهم ، وفى ذلك ضرب آخر من التكريم للنبى الكريم .

ثم ترى الأسلوب يرجع إلى الإيذاء كأنه سبب التشريع فى هذه الآيات الكريمة ، والذى تفرّع عنه بيان أن الكون كله يهتف بالصلاة والتسليم على النبى الكريم ، ترى الأسلوب يرجع إلى الإيذاء ، ويلج معناه الآخر ، أعنى الإيذاء الذى يصدر من أهل الكفر والعناد ، وذلك هو الإيذاء الحقيقى ، أما ما جرى فى آية الاستئذان فإنه لم يكن إيذاءاً مقصوداً ، بدليل ما نقلناه عن ابن كثير ، وما رواه أنس رضى الله عنه من أن النفر حين استشعروا أنهم أثقلوا على رسول الله بادروا إلى الباب ، ولأن الآية الكريمة نادتهم بوصف الإيمان ، ولذلك ترى أن صوت التهديد هناك لم يظهر بجلاء ، وإن كان مضمراً بوصف الإيمان ، ولذلك ترى أن صوت التهديد هناك لم يظهر بجلاء ، وإن كان مضمراً فى مثل قوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيماً ﴾ ، ﴿ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً ﴾ . أما الإيذاء الذى يرد فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً ﴾ فإنه الإيذاء الصادر من أهل العناد ، بدليل قوله : ﴿ لَعَنَهُمُ ﴾ واللَّعن هو الطرد من رحمة الله سبحانه ، والعرب يقولون : لعنتُ الكلب ، أى طردته ، وكذلك : لعنتُ الذئب ، ويقال للذئب : اللّعين ، والله سبحانه قد لعن إبليس ، أى طرده من الجنة ، واللّعن يقع من الله على الذين كفروا .

والذين يؤذون رسول الله هنا ملعونون فى الدنيا والآخرة ، أى مطرودون من رحمة الله فيهما ، والطرد من رحمة الله فى الآخرة ، أما فى الدنيا فإنه

طرد من دائرة الإيمان الذى هو قرار وأمن فى القلوب ، وراحة من عذاب الشك واليأس والحيرة ، الطرد فى الدنيا حرمان النفس من المعرفة الذكية فى القلوب ، وهى معرفة الله ، ومعرفة النفس مبدءاً ومعاداً ، ثم إنهم فى الآخرة لا يُعاقبون بالطرد من الرحمة فحسب ، وإنما يجدون عذاباً يهينهم ويستذلهم ، قد أعده الله بجلاله لهم ، غضباً عليهم ، واستنكاراً لموقفهم ، ونلحظ هنا أنهم فى الدنيا يُعاقَبون عقوبة سلبية ، وهى الطرد من الرحمة فحسب ، وفى الآخرة يُعاقَبون عقوبتين ، عقوبة سلبية ، وهى الطرد من الرحمة ، وهذه عقوبة قاسية حين ينظرون إلى الذين فُتحت لهم أبواب الرحمة وهنئوا برضوانه سبحانه ، ثم هناك عقوبة أُخرى وهى العذاب المذل الذى أعدَّه الله لهم .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُواْ فَقَدِ احْتَمَلُواْ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً ﴾ حديثٌ عن إيذاء آخر هو إيذاء المؤمنين والمؤمنات ، والإطلاق فيه وفى سابقه ، يعنى أى ضرب من ضروبه ، ثم تراه هنا يذكر قوله : ﴿ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُواْ ﴾ يعنى من غير أن يكون منهم ما يبرر هذا الإيذاء ، ولم يذكر مثله فيما سبق ، لأنه لا يرد هناك ، وذكر الوعيد لمن يؤذى المؤمنين ، بعد وعيد مَن يؤذى الله ورسوله مؤذن بمكانتهم عند الله ورسوله ، وقوله : ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُواْ بُهْتَاناً ﴾ فيه تشديد من وجوه ، منها ذكر حرف التحقيق ، ومنها مجىء الفعل على صيغة الماضى من غير أن يراعى المضارع فى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ ﴾ ، للإشارة إلى أنهم قد احتملوا فعلاً ، أى كأن الفعل قد وقع ، ثم قوله : ﴿ احْتَمَلُواْ ﴾ بصيغة افتعل ، ولم يقل : فقد حملوا ، للإشارة إلى عظم ما احتملوه ، وكأنه أمر لا يُطاق حمله إلا بمزيد من الجهد ، والمعاناة ، وفرق بين أن تقول : حمله ، واحتمله ، فالبهتان المحمول كأنه حمل ثقيل تنوء به ظهورهم ، وكذلك الإثم المبين ، أعنى البيِّن الواضح ، وكأنه يكون يوم القيامة كالشىء المُعْلَم ، فيقال : هذا بهتانهم فلاناً وكذبهم عليه ، وكأنهم بين خلق الله فى ذلك اليوم المشهود من الله والملائكة والأنبياء وصالحى المؤمنين ، قد تجسدت أكاذيبهم ، وآثامهم ، واحتملوها على

ظهورهم ، إعلاماً بافترائهم ، وبراءة ساحة هؤلاء المؤمنين ، ويتجه الخطاب إلى النبى عليه الصلاة والسلام ليؤمر بأن يُبلِّغ نساء الأمة أمراً من السماء ، يتعلق بما يكنً عليه من صون ، وحفاظ ، يدرأ عنهن أطماع أهل الريبة ، ويُلقى عليهن رداء الجلال والكرامة اللائقين بالمرأة المسلمة الموصولة بالله .

وهذا درء لضرب من ضروب الأذى الذى يقع على المؤمنات بغير ما اكتسبن ، فإن المرأة المصونة برداء الإسلام ، الذى هو شارة صلتها بربها ، ودليل أفقها الروحى الطاهر ، وسموها النبيل ، والذى يرتفع بها عن المستوى الهابط الذى تضع المرأة المتبرجة نفسها فى دائرته حين تعرض جسدها بكل ما فيه من إثارة ، بل وفوق ما فيه مما تصطنعه من وسائل الإغراء ، والجذب الرخيص .. المرأة المسلمة الذى هذا حالها بين النساء اللائى هذا حالهن ، إنما تستخذى منها عيون الشياطين ، وهذا هو معنى قوله : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ .

وتجد الأمر يبدو فى سياق الآية الكريمة أمراً مهماً ، فالله سبحانه وتعالى يدعو نبيه ، ليوجه إليه الأمر فى حسم صادر عن سلطان الألوهية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل .... ﴾ ثم ترى القول يعم نساء الأمة ، وينطلق التعميم من بيته ، بادئاً بأزواجه ، وبناته ، ثم نساء المؤمنين ، على امتداد ساحة وجود هذه الأمة الموصولة بآخر الوجود ، وترى فى هذا السياق القصير : ﴿ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ .. ﴾ ما يُغرى المرأة المسلمة بالامتثال لهذا الأمر ، لأنها تكون فى صحبة أزواجه ، وبناته ، وهذا غاية ما يمكن أن يكون من التكريم ، ثم ترى المارقات المتبرجات ينفلتن من هذه الكوكبة المشرقة بنور الفضيلة ، والتُقَى ، إلى دائرة أخرى لا تتصل بالنبى ، ولا بأهله الأطهار ، وكذلك ترى كل امرأة مسلمة سافرة غير ملتزمة بهذا الأمر السماوى ، الذى ينادى فيه المولى نبيه آمراً له عليه الصلاة والسلام ، بأن يذيع هذا الأمر فى البيئة المسلمة ، بادئاً بأزواجه وبناته ، وترى هنا إشارة ذات مغزى هى أن أهل البلاغ إنما يبدءون فى الأمر بمن حولهم ، فالنبى يبدأ بأزواجه ، وبناته ،

ليكون بذلك قدوة عملية فى إذاعة هذا الأمر ، وهذه هى الخطوة الأولى والضرورية التى يجب أن يخطوها الداعى وإلا كان عمله هدراً .

وقد اختلف المفسِّرون فى معنى الجلابيب ، وإدنائها عليهن ، فقد روى عن ابن عباس أنه الذى يستر من فوق إلى أسفل ، وقيل : كل ثوب تلبسه المرأة فوق ثيابها ، وقيل : كل ما تتستر به من كساء ، أو غيره ، والأمر فى ذلك متروك للاختيار المرتبط بالعُرْف ، والذَوْق ، والمطلوب الشرعى هو ألا يُبرز الثوب منها شيئاً يُشتهَى ، ولا يصفه ، لأن المرأة إذا عرضت من محاسنها ما يُشتهى ، فقد سقطت فى الدائرة الهابطة ، وانسلخت عن الكوكبة الطاهرة فى هذا السياق الشريف .

وقد أثيرت مسألة الحجاب فى أيامنا هذه ولَجَّ الماركسيون والفجرة فى تقبيحه وصرف بنات المسلمين عنه ، وانحاز لهم أصحاب الأهواء ، انحيازاً ظاهراً ، حتى إن بعض الجهات صارت تتحرش به ، وانحاز لهم الإعلام ، وصار يطارد ذوات الخمار ، ويعرض العاملات فيه متبرجات تبرجاً رخيصاً ، كما انحاز إلى هذه الحملة مجموعة من « النسوان » الكالحات اللائى يدافعن عن العرى والقبح ، ويذكرون أنه من مكارم الأخلاق .

وترى فى هذه الوقفات ملمحاً بارزاً فى أُسلوب القرآن ، انظر إلى السياق القريب من هذه الآيات ، وهو سياق متعرج من مَسَارٍ عام قد خطته السورة فى عمق عجيب ، ربما أشرنا إليه بعد ذلك ، والمهم أننا أمام آيات تتواصل فى رفع الحَرَج عن رسول الله ﷺ ، ذلك الحَرَج الذى بدأ بزواج الرسول عليه الصلاة والسلام من زينب بنت جحش - وما كان عليه من حَرَج فى أمر فرضه الله عليه - وتُبيِّن الآيات أن الذى يُرَوِّجه ضعاف الإيمان فى هذا الموقف ليس له أصل فى المعقول ، فما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ثم يمضى الأسلوب مخاطباً المؤمنين آمراً بالذكر ، والتسبيح ، ومشيراً إلى مكانتهم عند الله وملائكته ، ثم يخاطب النبى عليه الصلاة والسلام مشيراً إلى منزلته عند

الله ، والناس ، وفى ذلك تأكيد لرفع الحَرَج عنه فى هذا الأمر . ثم تأتى آيات أخرى فترفع عنه الحَرَج فى الالتزام بقيد العدد المفروض على الأُمة ، وتشير إلى نكاح الواهبة نفسها إذا أراد عليه السلام ذلك ، وهو من خصوصياته كما قدمنا . . ثم يمضى الأسلوب فيخاطب المسلمين ، ويُحدِّد لهم نظاماً فى تعاملهم مع النبى ﷺ فى بيوته ، ويرفع عنه ضرباً من الحَرَج فى هذا الباب ، ثم يتجه إلى مَن يكون منهم الإيذاء ، ويوجِّه إليهم وعيداً مفزعاً .

وهكذا تمضى الآيات فى هذا السياق المتآلف أشد التآلف ، والذى أريد بيانه هو أن الأسلوب يجرى فى سياقه العام ، ثم يلتفت لفتات يقف عندها وقفة طويلة ، يعالج دقائقها وتفاصيلها ، ويمد أسباب القول إلى كل زاوية من زواياها ، حتى إنك ترى هذه اللفتة ، وكأنها غرض أصلى فى سياق الكلام ، وهى فى الحقيقة تعريجة من تعاريج المجرى ، وقف السياق عندها ، فاحصاً ، ودارساً ، وكاشفاً ، ومن هنا ذكروا صعوبة البحث عن مناسبة الآيات ودقة المسلك فى ذلك ، وكثير من الباحثين قد شُغِلوا بهذه المنحنيات التى تمتد ، وكأنها تختط لها مجرى فى سياق السورة ، فحسبوا أن الأغراض المتعددة فى السورة ليس لها ضابط يجمعها ، أو مجرى تتفرع عنه ، وهذا - فى ضوء فهمنا لسياق هذه السورة - خطأ ، وإنما الأمر ما قلناه من أن أسلوب القرآن يقف وقفات طويلة ، عند بعض الجزئيات ، ويُفسح القول فيها ، حتى يُخيل إليك أنها غرض مستقل ، فإذا نظرتَ إلى منبع الكلام ومنطلقه ، وجدته موصولاً بغرض عام ، وظهر لك بوضوح أنها أحد الفروع الكثيرة التى تتصل بالمجرى العام وتتولَّد عنه .

خذ الآية التى ندرسها الآن شاهداً فى ذلك ، فقد قلنا : إن السياق القريب يمضى فى بيان رفع ضروب من الحَرَج عن رسول الله ﷺ ، تولَّدت كلها من قصة زواجه بزينب رضى الله عنها ، وقد شرعت الآيات من بين ما شرعت فى هذا المقام نظاماً ينظم علاقة المؤمنين ببيوت النبى ﷺ كما قلنا ،

وبأزواجه ، وأنهن مُحرَّمات على المؤمنين من بعده عليه الصلاة والسلام ، وترى الأسلوب هنا يقف ، ويُرخى عنان القول قليلاً فى رذيلة الإيذاء ، فيذكر منه ضروباً . . يذكر الإيذاء الذى هو ضرب من الإيحاش لرسول الله ﷺ ، والذى كان يصدر كثير منه عن غير قصد ، ثم يذكر إيذاءً آخر ، هو إيذاء الله ورسوله ، وأن الله جعل جزاءه الطرد والعذاب المهين ، ثم يذكر الإيذاء الذى يكون للمؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، ثم يُشرِّع ما يكون به حسم بعض صوره ، بالنسبة للمؤمنات ، وهكذا صار موضوع الإيذاء بتفاصيله ، وما لزمه من فرض الحجاب الذى يحسم بعض صوره ، كأنه موضوع برأسه ، وهو فى الحقيقة تعريجة فى المجرى ، أو فرع يمتد من الأصل ، لا ينحرف به المسار العميق ، والماضى على خط راسخ ، ولكن كثرة هذه التعاريج أو هذه الفروع ، ربما شغلت الفطر ، فلم يُتبين أصلها الذى تنحدر منه ، أو تتصل به . ثم ترى شيئاً آخر فى هذه الوقفة ، ترى الإيذاء هنا لم يتحدد ضربه ، كما قلت ، وإنما هو إيذاء مطلق ، يصدق على كل ضروبه ، فهو صادق أيضاً على إيذائهم رسول الله ﷺ ، وإشاعتهم قالة السوء فى أمر زواجه من زينب ، فلا يزال القول وإن امتد فى واد آخر ينظر إلى عموده ويلحظ أصله ، وهذا باب من أحفل أبواب البلاغة القرآنية وهو متروك مع أهميته وسخائه .

وانظر كيف ينزلق الأسلوب إلى تحديد الطوائف التى يقع منها الإيذاء ، ويهدد تهديداً حاسماً متوعداً بعقاب قريب ، ونكال عاجل ، فى قوله :

﴿ لَئِنْ لَمْ يَنتَه المُنَافقُونَ وَالَّذينَ فى قُلُوبهم مَّرَضٌ وَالْمُرجِفُونَ فى المَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إلَّا قَليلاً * مَّلْعُونينَ ، أَيْنَ مَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً * سُنَّةَ الله فِى الَّذينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً ﴾ (الآيات : ٦٠ - ٦٢) .

* *

قلت : إن الأسلوب هنا تعلو قعقعته ، وترتفع فيه نبرة الغضب ، مُهدِّدة بنكال سريع ، وهو أكف لهذه النفوس المتمردة .

نعم .. لقد سبق وعيد أشد من هذا فى قوله : ﴿ إنَّ الَّذينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ ولكن التهديد هنا أفعل فى هذه النفوس ، وأكثر إفزاعاً لها ، لأنه ليس تهديداً بأمر مغيب ، وإنما هو تهديد بأمر ظاهر ، يتحقق فى واقع حياتهم ، بل وفى الأيام القريبة المقبلة ، لأنه إجلاء لهم من ديارهم ، وأرضهم ، ثم أخذهم أخذاً شديداً بالأسر والقتل ، وهذا عذاب دنيوى ، وهو أوجع بالنسبة إلى هؤلاء الذين لا تعمر قلوبهم بالإيمان بالغيب وعذاب الآخرة .

* *

وقد جاء التعبير مُصدَّراً بأقوى ما يؤكد به المعنى ، وهو القسم من الله سبحانه ، وفى ذلك من التهديد مَا لا يُقَادَرُ قدره ، ثم تراه يذكر فى هذا الإطار طوائف ثلاثة : المنافقين .. الذين فى قلوبهم مرض .. المرجفون فى المدينة .

وقد ذكرنا أن القرآن يصف المنافقين بمرض القلوب فى كثير من سياقاته ، ثم إن المنافقين أيضاً عُرِفوا بإشاعة قالة السوء فى الجماعة المسلمة .

وقد ذكرت الآيات السابقة طرفاً من إرجافهم فى جيش المسلمين :

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُواْ ، وَيَسْتَئْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ، إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً ﴾ (١) .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ، وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (٢) .

وهذا يعنى أن المنافقين المذكورين فى هذه الآية فى قلوبهم مرض ، ومرجفون فى المدينة ، فكأنهم يطوون خبائث الطوائف الثلاثة ، ولهذا قدَّمهم ،

---

(١) الأحزاب : ١٣ (٢) الأحزاب : ١٨

ثم أردف الذين فى قلوبهم مرض ، وهم ضعاف الإيمان ، أو هم الفَسَقة والزناة كما قال كثير من المفسِّرين . . وإن كنا نميل إلى العموم الذى جاء عليه التعبير ، أعنى مَن فى قلبه مرض سواء أكان حقداً على الإسلام والمسلمين ، أو كان ضعفاً فى الدين ، وظُلمة فى القلب ، وإن تحصل أصل الإيمان ، وهم الجماعة المحجوبة عن نور الحق ، وأدب القرآن ، وإن كانت فى عِداد المسلمين . . . والمرجفون الذين يُشيعون الأخبار المهتزة ، التى لا صحة لها ، ولا ثبات . من قولهم : رجف الشجر ، وأرجفته الريح ، ورجف البعير تحت الرَّحْلِ .

قال المفسِّرون : هم اليهود ، الذين كانوا يُذيعون أخبار السوء عن سرايا المسلمين ، ولكن القرآن عبَّر بهذا التعبير الجامع ليتناول كل مَن يشيع خبراً من أخبار السوء فى الجماعة المسلمة ، وسواء فى ذلك ما يتصل بكيانها الأخلاقى ، أو قوتها فى أى مظهر من مظاهرها ، وذكر بعض المفسِّرين أن المراد بـ ﴿ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ ﴾ : هم المنافقون ، وجاء العطف للتغاير فى الصفات ، وإن اتحدت الذوات كما فى قوله :

* هُوَ الْمَلِكُ الْقَرْمُ وابنُ الهُمَامِ *

وكأن العطف يُشعر باستغلال هذه الصفات ، وكأنهم بلغوا فى كل واحدة المبلغ الذى يبلغه المقصور عليها ، وفى هذا التعميم الذى تراه يستوعب هذه الوجوه وغيرها ، تهديد لكل مَن يقترف واحدة من هذه الخلال ، هو تهديد للفَسَقة ، والزناة ، وضَعَفَة الإيمان ، الذين حُجبوا عن نور القرآن ، وتهديد للذين يبثُّون قالة السوء بين الناس ، وإن كانوا من المُصلِّين .

وقوله : ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ أى نحرضك عليهم ، وعلى قتالهم ، وإبعادهم ، وفيه إشارة إلى أن أمثال هذه الطوائف حين تتمادى فى ضلالاتها ، يُسلِّط الله عليها الجماعة الغيورة على الخير والحق ، والتى لا تخلو منها أرض الإسلام ، والتى لن يُسلمها الله أبداً لأعدائها ، بل إن فى هذه الآية إشارة

إلى أن الله يُمكِّنهم من أعدائهم ، وأنهم منتصرون فى كفاح الضلالات فى المجتمع المسلم .

وقوله : ﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً ﴾ ، واضح أنه تهديد لهم بالتشريد ، والغُربة ، والطرد من أرضهم وديارهم ، وكلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ كما يقول الزمخشرى : « أفادت أن الجلاء عن الأوطان ، كان أعظم عليهم من جميع ما أصيبوا به ، فتراخت حال عن حال المعطوف عليه ، وقوله : ﴿ مَلْعُونِينَ ﴾ تأكيد للرد والإهانة » .

وقال بعضهم : إنه حال من الضمير فى قوله : ﴿ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ ﴾ ورد بأن ما بعد أداة الشرط لا يعمل فيما قبلها ، وإنما هو منصوب على الذم ، أو الحال ، من فاعل ﴿ لَا يُجَاوِرُونَكَ ﴾ ، كما قال الزمخشرى ، وكأن الاستثناء وقع عليه وعلى الذى قبله كما فى آية : ﴿ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ (١) ، والثَّقفُ وجود على وجه الغلبة ، وقد جاء فى قوله : ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ (٢) .

وقال الربيع بن أنس رضى الله عنه : إنها أول آية نزلت فى القتال فى المدينة .. وكأن فى إيثار كلمة « الثقف » على كلمة الوجود ، أو المحاصرة ، أو الظفر ، إشعار بأن هذه الجماعة يجب أن تكون متمكنة فى كل حال ، فإذا لاقت أعداء الله كان لقاؤها لقاء على وجه الغَلَبة والاقتدار ، وكأن الآية تصف اللَّحظة التى تقع فيها المواجهة بين المسلمين وأعدائهم ، وأن قبضة المسلمين حينئذ ينبغى أن تكون قبضة قادرة .. والبناء للمجهول فى هذه الأفعال الثلاثة : « ثُقفوا .. أُخذوا .. قُتلوا » يوحى بشىء من الرهبة والخوف فى هذا اللِّقاء وكأنهم يُختطفون من حيث لا يشعرون .

وقوله : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ وعد كريم لهذه الجماعة ، إذا مضت على طريق الله ، وعلى سُنَّة

---

(١) الأحزاب : ٥٣ (٢) البقرة : ١٩١

الله ، وثبتّت كلمة الله فى أرض الله ، ثم هى إيعاد شديد لهذه الطوائف التى تحارب الحق والخير ، سواء أكانت هذه الطوائف محسوبة من المسلمين ، أو لم تكن كذلك .

المهم أنهم يعوقون مسيرة حزب الله ، ويكافحون نور الله ، ويريدون أن يُطفئوه بأفواههم ، ومقولاتهم فى تنظيم الحياة على غير طريقة الله .. إذن فلتمض هذه الجماعة التى بثّ الله فى قلوبها حب الخير والقناعة به ، واستحكم فى ضميرها أنْ لا إلٰه إلّا الله ، فلتمض داعية إلى الله وحده ، حتى تحقق كلمة الله فى أرض الله ، وهو ناصرهم ، ما داموا يسيرون على منهجه سبحانه ، كما نصر الدعاة من النبيين والصدّيقين .. ﴿ ولَن تَجدَ لسُنَّة الله تَبْديلاً ﴾ .

وأجد شيئاً من المناسبة بين قوله تعالى : ﴿ ولَن تَجدَ لسُنَّة الله تَبْديلاً ﴾ ، وقوله فى فاتحة السورة : ﴿ مَا جعَلَ اللهُ لرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فى جَوْفه ، وَمَا جعَلَ أَزْوَاجكُمُ اللَّائى تُظَاهِرُونَ منْهُنَّ أُمَّهَاتكُمْ ، ومَا جعَلَ أَدْعيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ (1) .. من جهة أن تعدد الجمل التى جاءت متعاطفة ، كأنها تنفى التناقض المخالف لسُنَّة الله ، والذى ترى فيه الحقائق الكونية ، والسنن الربانية ، كأنها تتبدَّى فى صورة الجوف الذى فيه قلبان ، والمرأة التى تكون زوجاً وأماً ، والابن الذى لم ير أبوه أمه ، الجمل الكريمة تنفى هذه الاضطرابات المخالفة لنظام الكون ، وسنن الله فيه ، وهذه الآية هاتفة بأنك : ﴿ لَن تَجدَ لسُنَّةِ الله تَبْديلاً ﴾ .

ثم أشار البيان الكريم إلى واحدة من تلك الأراجيف .

﴿ يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَة ، قُلْ إنَّمَا علْمُهَا عندَ الله ، وَمَا يُدْرِيك لَعَلَّ السَّاعَةَ تكونُ قَرِيباً ﴾ (الآية : ٦٣) .

* *

---

(1) الأحزاب : ٣

وكان اليهود يسألون النبى ﷺ عن موعدها امتحاناً له ، لأنهم يعلمون أن علمها عند الله ، وكان المشركون يسألون سخرية وطنزاً ، فأمر عليه الصلاة والسلام بأن يُخبرهم أن علمها مقصور على الله سبحانه لا يعلمها مَلَك ولا نبى ، وأن ذلك أمر ظاهر فى الشرائع كلها ، وأنه لا ينبغى أن يسأل أحد ممن لهم علم برسالات الله عن هذا الأمر لوضوحه وانكشافه ، ثم فى تغييب أمر الساعة ، وقصر علمها على مالك أمرها سبحانه ، بث للحذر ، والإشفاق ، فى قلوب أهل الشريعة الموقنين بالله واليوم الآخر من أهل الكتب كلها ، لأنهم قد يفجأون بأمر الله بَياتاً أو وهم نائمون ، أو ضحىً وهم يلعبون ، وترى ما يشير إلى هذا فى قوله : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً ﴾ وهو خطاب يلتفت إلى النبى ﷺ بعد تبصيره بجواب السائلين ، والاستفهام معناه الإنكار ، أى لا شىء يدريك ، وكأن هذا المقطع الذى ليس داخلاً فى جواب ﴿ يَسْئَلُكَ ﴾ قرع ، وتنبيه ، وإظهار للربوبية التى تأبى المشاركة ، ومواجهة لمحمد ﷺ بأنه واحد منهم ، ليس فى الأرض شىء يدريه ، ولا يرتفع به إلى درجة العلم بالأمور الربانية ، وهذه واحدة من آحاد كثيرة ، نبهنا إليها تؤكد بَشرية محمد ﷺ فى هذا الكتاب الكريم ، وتضعه فى موضعه بين المخلوقات ، ثم إنها فى موقعها هذا لشاهد صدق على أن هذا الكتاب لم يصدر عن نفس محمد ﷺ ، لأنه يستحيل أن يواجه نفسه فى هذا السياق بهذه المواجهة .

ثم استأنف البيان الشريف حديثاً عن حال الكافرين يوم القيامة ، وهو ضرب آخر من التهديد نزع إلى التفصيل ، وتحليل بعض صور العذاب الذى كان يأتى مجملاً فى مثل قوله : ﴿ لَعَنَهُمُ اللهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ .

وقد قلنا : إنه أبرز لوناً من ألوان الطرد فى الدنيا ، فى قوله : ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً ﴾ وها هو يمد النفس قليلاً ، فيبرز مظهر من مظاهر العقوبة واللَّعنة فى الآخرة .

* * *

﴿ إنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً * خَالدِينَ فِيهَا أَبَداً ، لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا * وَقَالُواْ رَبَّنَا إنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً ﴾

(الآيات : ٦٤ - ٦٨)

* *

وفى قوله : ﴿ إنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً ﴾ إشارة موعدة لهؤلاء الذين يسألون عن الساعة سخرية واستهزاءً ، فقد ذكرت الجملة الكريمة أنهم ملعونون من رحمة الله ، وأنه سبحانه أعدَّ لهم بنفسه ناراً تتقد حرارة واستعاراً ، وهى تريهم يوم الساعة الذى يسألون عنه ؛ ثم أشار إلى أنهم يخلدون فيها ، وأكد الخلود بقوله : ﴿ أَبَداً ﴾ ، ثم هم مخذولون فلا ولى ولا نصير ، وفى ذلك إشارة إلى نبذهم ، وشمول الغضب الحانق عليهم من أهل الموقف جميعاً ، ثم كشف القرآن صورة من صورهم فى جهنم فقال : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ ﴾ .

وقد قلنا : إن المضارع يحضر صورة الحَدَث ، سواء أكانت فى الزمن الماضى أو فى المستقبل ، لأن دلالته الزمنية عند المحققين هى الحال ، لذلك تجد كلمة ﴿ تُقَلَّبُ ﴾ تبعث صورة حية ومثيرة ، صورة وجوه تتقلب فى النار .

قال الزمخشرى : « ومعنى تقليبها : تصريفها فى الجهات ، كما ترى البَضْعَةَ تدور فى القدر ، إذا غلت ، فترامى بها الغليان من جهة إلى جهة » .

ثم ترى فى ذكر الوجوه خصوصاً إهانة لهم ، فهى وجوه مهينة عند الله .. وبعدما وصفت لك الجملة الشريفة هذه الصورة المفزعة ، صورة الوجوه المتقلبة على جمر جهنم ، تأتى الجملة الثانية لتُسمعك صراخاً نادماً : ﴿ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴾ وهذا النداء الممتد فى قولهم :

﴿ يَا لَيْتَنَا ﴾ ، وكذلك هذه الألف التى أضافوها فى آخر صراخهم إلى لفظ : ﴿ رَسُولا ﴾ هذا وذاك يُفرغان الإحساس بالخيبة والندم ، ويُطلقان العويل الذى يمتد به صوت المكروب ، وهذا المضارع مؤذن بتكرار هذا الصراخ المكروب ، وذلك بخلاف صراخهم الآخر : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ فإنه إنما جاء على طريقة الماضى لأنه لم يتكرر بالقدر الذى تكرر به الصراخ الأول ، الذى هو تمنى مكروب ، وندم كئيب على فوات طاعة الله ورسوله ، وهم الآن فى قبضة الله ، وإحساسهم بأهمية طاعته إحساس واضح ، وذلك بخلاف غضبهم على مضليهم ، فإنه لا فائدة من تكراره بنفس الدرجة ، لأنهم يرونهم معهم فى السعير .

ثم إنك ترى فى قوله : ﴿ فِى النَّارِ ﴾ هذه بياناً شافياً لموجب العذاب ، فإن القوم الآن إنما يتكلمون كلاماً يصف الحقيقة لأن الأرض قد أشرقت بنور ربها وكُشِف الغطاء ، وليست هناك زاوية فى الأرض ولا فى النفس مظلمة ولا مظللة بضباب من الشك ، القوم هنا يصفون موجب العقاب وصفاً بيِّناً بعد ما تكشفت لهم الحقائق ، والموجب هو أن تكون طاعة الإنسان فى أرض الله لغير الله ، وطائع الله هو الذى يطوع ويلين وينقاد لكلمة الله ، وما دام قد انقاد إلى الله ، فإنه لا يتأتَّى فى العقل أن ينقاد إلى غيره ، لأن الإنسان يتجه وجهة واحدة ، فإذا اتجه إلى الله ، لم يتجه إلى غيره ، وإذا اتجه إلى غير الله لم يتجه إلى الله ، وهذه قسمة عقلية لا تجد لها ثالثاً .

هناك كما تشير الآية طوائف من خلق الله ، يحاولون أن يوجهوا طاعة الناس إليهم ، ويصرفوها عن طاعة الله ، وهذا يعنى أنهم جعلوا أنفسهم أرباباً من دون الله ، وأنهم يناوئون سلطان الربوبية ، وينصبون أنفسهم فى الأرض لذلك ، هؤلاء كما نصَّت الآية هم السادة . . . والمفسِّرون يقولون فى بيانهم : « الملوك والولاة الذين يتولَّون تدبير السواد الأعظم » وليس هذا يعنى أن كل ملك ، أو والٍ إنما هو شيطان فى الأرض ، يصرف عن وجهة الله ،

وإنما يكون كذلك إذا كان يدعو الناس ، ويسوسهم على مبادىء المخلوقين ومنهجهم ، أما إذا كان يدعو الناس ، ويسوسهم على مبادىء الله وشريعة الله ، فهو من الولاة الصالحين الماضين على طريق النبيين ، ثم تذكر الآية « الكبراء » وهم يأتون بعد « السادة » ، وكأنهم الطبقة الثانية والتى تأتى من وراء هؤلاء الطواغيت لتبرر ضلالاتهم فى الأرض ، وتلبس أمر حربهم الله ، وتمردهم على منهجه ، فلا يدرك الناس أنهم منقادون لطواغيت يسلكون بهم سبيل الضلال ، وإنما يُوهمون الناس أنهم يسيرون وراء قيادات راشدة ، الكبراء هنا كما أشار المفسِّرون : القيادات الفكرية التى تأتى وراء الطواغيت من الملوك ، والرؤساء ، لأنهم قالوا فى بيانهم : المراد بهم العلماء الذين لقنوهم الكفر وزيَّنوه لهم ، ثم إن هؤلاء المعذَّبين يعتذرون بأنهم وجهوا طاعتهم إلى السادة والكبراء ، وكأنهم بذكرهم هذين الوصفين يثيرون الشفقة عليهم ، ولكن هذا عذر مرفوض ، لأن الله سبحانه كرَّم الإنسان حين خلق له عقلاً يفكر به تفكيراً مستقلاً ، فهؤلاء الذين يُلقون قيادات نفوسهم إلى غيرهم ، يستحقون العذاب ، ولا يُعذرون بغفلة ولا غباء . . . الآية من هذا الوجه تحث على النظر المستقل ، والتفكير المفرد ، ومهما كانت درجة المشيعين للأفكار ، والداعين إلى المذهب ، فإن الإنسان لا يكون وفياً بعقله وقلبه إلا إذا نظر فى الأمر نظراً يستقل به ، وكأن الآية تهدم فى نفس المسلم كل عظمة فكرية مُدَّعاة ، لكبراء الفلاسفة ، والحكماء ، الذين يناهضون بأفكارهم ومبادئهم الإيمان بالله ، أو يناهضون بشرائعهم ومناهجهم منهج الله وشريعته ، وتطالب المسلم أن يفكر تفكيراً مستقلاً ، ليست هناك مُسلَّمات فكريَة فى كل ما يؤثر فى سلوك الإنسان وقيادته الأخلاقية والروحية والاجتماعية ، إلا أن تكون مستمَدة من وحى الله . كل أساس فكرى من شأنه أن يؤثر فى السلوك ، لا بد أن يفكر فيه المسلم تفكيراً مستقلاً ، فإن وجده موصولاً بالله انقاد له ، وإلا طرحه ، وهذه هى الفاصلة فى موقف

المسلم يوم القيامة ، لأنه إذا كانت طاعته وقياداته لغير الله يدخل فى زمرة الملعونين ، مهما كان جلال الجهة التى ينقاد إليها .

وبعد هذا الوعيد المجلجل يلتفت البيان الكريم إلى الذين آمنوا ليقول فى توجيه راشد لا يخلو من نغمة تهديد :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ آذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُواْ ، وَكَانَ عِندَ اللهِ وَجِيهاً * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً * إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ ، إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً * لِّيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ .

(الآيات : ٦٩ - ٧٣)

* *

واضح أن الحديث فى آخر السورة ينعطف على أولها ليشير إشارة بيِّنة إلى الغرض الأهم الذى دارت حوله الأغراض فيها ، وهو استئصال خُلُق من أخلاق الجاهلية ، كان يجرى على خلاف طبائع الأشياء ، وفطرة الكائنات ، وهو تحريم زوجة المتبنَّى ، ثم جاءت الآيات تُلفت إلى هذه الفطرة التى فطر الله الإنسان عليها ، والتى تُسبِّح بحمد الله ، وتهتف بوحدانيته ، وتتوق فى كل أحوالها إلى الربانية ، لولا ما يحيط بها من تراكمات حجبت هذه الهواتف .

السورة فى أساسها تقيم اعوجاجاً مخالفاً لسُنَّة الله ، التى لا تجد لها تبديلاً ، وكأن هذا الجمع من المتناقضات الذى برزت نغمته فى أول السورة ، وتميزت : ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ

اللّائى تُظَاهِرُونَ مِنهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ (١) كان تلويحاً بهذا الغرض العام ومفتتحاً خفياً لها ، ثم أحاط بهذا الغرض جملة من توجيهات كثيرة ، تفرَّعت كلها عنه ، وقد أشرتُ إلى أن قصة الأحزاب ، وما تبعها من جلاء اليهود ، وتوريث المسلمين أرضهم ، وديارهم ، وما صحب ذلك من آيات التخيير التى أكدت فى هذا السياق تجردَ القيادات فى هذه الأمة إلا لما فيه صالحها وخيرها العام ، وأنها لا تنشد الترف ، والنعيم الدنيوى ، وإنما لها حظ آخر فى مسيرتها كما بيَّنا فى مناسبة آية التخيير ، وقد جاء هذا وما تبعه فى سياق : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ (٢) ، وكأنه حث على الامتثال فى هذا الأمر المهم ، وهو استئصال واحدة من عوائد الجاهلية المترسخة فى هذا المجتمع ، وقد أخذ البيان الكريم يتحدر من هذا الأصل ويمضى فى شعاب مختلفة فى هذا الوادى ، متخذاً حياة النبى ﷺ فى أكثر المواقع أساساً فى وضع الأُسس التى تُرسِّخ منهج الله فى هذا المجال ، أعنى حياة الإنسان فى بيته ، ورسم طريق الطُهْر ، والتسامى فى المجتمع المسلم ، والارتفاع به عن المستويات الجاهلية وعوائدها من التبرج ، والمخالطة ، وجعل الزوجة أماً ، والمتبنى ولداً ، وغير ذلك مما يجافى الفطرة ، وهكذا تتلاحظ المعانى جلية وخافتة ، وقد أدرك المشتغلون بعلوم القرآن أن آياته الشريفة يرتبط بعضها ببعض ، حتى تكون كالكلمة الواحدة ، قال ذلك العلامة ابن العربى ، وكان أبو بكر النيسابورى يقول إذا قرىء عليه : لِمَ جُعِلت هذه الآية إلى جنب هذه ؟ وما الحكمة فى جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة ؟ وكان يزرى على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة .

ونعتقد أن الذى يُحسن إدراك مسار المعنى فى سور القرآن - وهى جد دقيقة وأكثر لطائف القرآن مودعة فيه كما يقول الرازى - يستطيع أن يدرك تلك الغلالة الرقيقة الخفية الناعمة التى تُوحِّد القصيدة فى كثير من شعر الجاهلية والإسلام . والذين يقولون : إن القصيدة تحتوى على جملة أغراض لا رابط

---

(١) الأحزاب : ٣ (٢) الأحزاب : ٩

بينها كالذين يقولون : إن السورة القرآنية تحتوى على جملة أغراض لا مناسبة بينها ، كِلا الفريقين قد فاته أن يدرك النظام الخاص الذى يجرى فيه البيان فى القرآن والشعر .

والمفسِّرون يذكرون أن هذه الآية التى جاءت فى ساقة السورة نزلت فى شأن زينب وتزويجه عليه الصلاة والسلام بها .

والآية كما ترى تكف المسلمين عن إيذاء رسول الله ﷺ ، وتُحذِّرهم أن يكونوا كاليهود الذين آذوا موسى عليه السلام ، وكانوا لا يكفون عن ذلك ، ولا يقفون فيه عند حد ، وقد أشاعوا عنه الكثير ، وذكروا أن فيه عيوباً فى جسده - وكان صلى الله عليه وسلم حيياً ستِّيراً - وقالوا : إنه قتل أخاه هارون ، وغير ذلك مما كان يؤذيه صلى الله عليه وسلم ، وتشير الآية إلى أن الله لا يدع أنبياءه لقالة السوء ، وإنما يُظهر براءة ساحتهم من كل ما يشيعه أعداؤهم .

ثم يأتى الأمر فى الآية الثانية بالفعل : ﴿ اتَّقُواْ اللهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً ﴾ ويأتى القول السديد بهذا العموم ، ليتناول كل قول يُسدِّده صاحبه صوب الحق ، ويُحكم تدقيقه وتصويبه ، من قولهم : سدَّد سهمه ، إذا وجهه للغرض المرمى ، ولم يعدل به عن سمته ، وهذا أهم ما يتصف به المسلم ، وفى قوله : ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ إشارة إلى أن الكلمة السديدة ، أعنى الهادفة نحو الخير ، والبر ، والحق ، أساس صلاح الأمر كله ، وهذا الربط الواضح بين سداد الكلمة ، وصلاح الأعمال ، لافت إلى أهمية الكلمة فى إصلاح الأمة وإفسادها ، والواقع يقرر هذه الحقيقة ، فليست حركات الإصلاح التى أثمرت وأخصبت ، وحفزت الأمم نحو البناء والعمران ، إلا أثراً من آثار الكلمة السديدة ، التى جاشت بها قلوب مخلصة ، فانتبهت إليها الضمائر ، والتفتت نحوها العقول والقلوب ، وتحرَّكت الهمم ، وكشف الغطاء ، ومضى الركب على الطريق المستقيم ، وإن المرء لتسقط فى نفسه

كلمة يسمعها من مُوجِّه مخلص ، أو يقرؤها فى كتاب ، فتدور فى دواخله ، وقد تتغلغل فى وجدانه ، وتعظم حتى تغلب على نفسه ، فتدير حركته ، وتوجه وجهته ، وتحدد أهدافه ومسيرته ، وربما كانت نقطة انطلاق لطاقته نحو جليل الأعمال ، وهذا كثير .. وليس وراء كل عظيم امرأة كما يقولون ، وإنما وراء كل عظيم كلمة غاصت فى أعماقه ، وكشفت عن معدن خيره ، ونبهته إلى طاقاته ، ووجهت حركته ، وأظن أن عكس ذلك بيِّن ، وأن فساد الأفراد ، وفشل الأمم وانحدارها ، ليس وراءه إلا الكلمة غير المسددة ، الكلمة الطائشة الرعناء ، أو الكلمة الوبيئة التى تفتح فى النفس أبواب الأثرة والأنانية ، وتُسخِّر الجهد نحو هذه الغايات الهابطة ... وقوله : ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ إعلاء آخر من مكانة الكلمة السديدة عند الله ، وأنها محَّاءَة يمحو الله بها الخطايا ، وكأن الكلمة السديدة تفتح لصاحبها بابين من أبواب العطاء : إصلاح الأعمال ، بهذا الإطلاق الذى يشمل الأمور الدينية والدنيوية معاً .. ومغفرة الذنوب ، بهذا الإطلاق الذى يشتمل ما عظم منها وما صغر .

وقوله : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ فيه تأكيد من وجه خفى لما قاله أهل النار فى صراخهم المكروب : ﴿ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴾ .. فأصل القضية هو الإذعان لله ، ولسُنَّته التى سَنَّها لمسيرة خلقه أفراداً وجماعات ، والتى بلَّغها عنه رسوله الكريم ، بلاغاً وافياً أميناً ، وعناصر التوكيد فى العبارة واضحة ، تجد ذلك فى كلمة « قد » ، وفى مجىء الجواب فعلاً ماضياً مُشعراً بأن الأمر قد تم ، لأنه لا محالة كائن ، ثم فى التأكيد بالمصدر ﴿ فَازَ فَوْزاً ﴾ ، ثم بالوصف بالعظمة المشعرة بخطر الفوز ، ثم ترى الفوز مطلقاً غير مقيَّد بزمان ، ولا مكان ، ولا بضرب من ضروب الفوز ، وهذا هو المناسب لطاعة الله ، لأنها تحقق ضروب الفوز كلها ، الفوز فى الدنيا ، والفوز فى الآخرة ، والفوز فى الأوقات كلها ، والأماكن كلها ، والمواقف كلها ، لأن النفس حين تستشعر أنها ماضية على طريقة الله ،

يغمرها شعور بالرضا ، وإن كانت فى موقف غير سار من فشل ، أو مرض ، أو فقد ، أو غير ذلك من ظروف الحياة ، والأحداث التى تجرى على الناس كلهم سواء .

وينتهى الأسلوب فى هذه السورة الكريمة بهذا التصوير الخصب ، وهذه الخاتمة التى تحيط بكل ما جاء فى السورة ، من حيث أن جميع الأوامر والنواهى ، الواردة فى شتَّى سياقاتها وفروعها ، إن هى إلا مظاهر جزئية للأمانة التى عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان .

كل فرع من فروع التكليف فى أى مظهر من مظاهره ، يدخل فى هذه الأمانة الصعبة ، وربما كانت أهلية الإنسان لحمل هذه الأمانة ، هى أساس تكريمه عند الله ، وأساس خلافته لله فى الأرض ، وأساس تسخير هذا الكون للإنسان الذى يتقلب فى الأرض ، ويُفرغ فيها طاقته ، فيزرعها ، ويُغِلّها ، وتمده الرياح ، والسحاب ، والشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار ، والكواكب ، كلها وغيرها من هوام الأرض ، والجبال ، والحجارة ، والأنعام ، والخيل ، والدواب ، والبحر ، وما فى جوفه ، وما يجرى على ظهره ، كل ذلك مُسخَّر للإنسان ، يبذل له من طبائعه ووظائفه ما ينتفع به الإنسان فى الرقى بوجوده المادى ، هذه الأمانة الصعبة التى حملها الإنسان ، هى مناط تكريمه ، وأساس خلافته لله ، وسيادته على كل هذه الموجودات .

وإذا نظرنا إلى الإنسان وجدناه من ناحية خلقه وتكوينه ، هاتفاً بالوجود والوحدانية ، فهو آية دالة على الله ، كالجبال والأرض والسموات ، وغيرها من مظاهر الكون المنقادة لله ، والماضية فى مسارها طبقاً لناموسه . وتجد الإنسان من ناحية أخرى كائناً مدركاً واعياً ، ومفكراً ، يأخذ ، ويدع ، ويتميز بالإرادة العاقلة ، وكأن هذه الموجودات الأخرى رغبت فى أن تظل فى حركتها مُسخَّرة بإرادة الله ، من غير أن يكون لها اختيار .

قلت : إن الخاتمة تلخص السورة كلها ، لأن تقوى الله من الأمانة ، وذكره من الأمانة ، والجهاد ، والكف عن التبرج ، والإفساد فى الأرض ، كل ذلك من الأمانة ، ثم إن أقرب التوجيهات إلى هذه الخاتمة الشاملة قوله تعالى : ﴿ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً ﴾ ، وفيه إشارة إلى عظم أمانة الكلمة ، لأنها رأس الأمر صلاحاً وفساداً كما قلنا ، ولأنها أساس أهلية الإنسان للتكليف ، وحمل الأمانة ، وهى أصل خصائصه التى يتميز بها عن غيره من مخلوقات الله ، وكأنها مناط إنسانيته ، فاحترام الكلمة ، ومراجعتها ، وتصويبها نحو الأهداف السامية ، وتنزيهها عن مجالات النفاق ، والدنايا ، كل ذلك احترام لإنسانية الإنسان .

وقد وقف المفسِّرون عند الكلمات فى هذا التعبير الشريف ، وذكروا أن قوله : ﴿ عَرَضْنَا ﴾ إغراء للسموات والأرض والجبال بالقبول ، لأن المولى خالقها ، يعرضها عليها ، ثم فيه اهتمام بأمر الأمانة ، وفى تسميتها « أمانة » إشارة إلى صلتها - حفظاً وتفريطاً - بالإيمان بالله سبحانه ، ثم فيها إشارة إلى أن جملة التكاليف ، لا يُكتفى فيها بالوفاء الظاهرى ، وإنما لا بد أن تكون وفية وفاءً غيبياً ، أى فى القلب والضمير ، لأن الأمانات إنما يعول فيها على نقاء القلوب ، والحفظ بظهر الغيب ، واختيار السموات والأرض والجبال لأنها أهول ما يرى الإنسان من خلق الله وأعظمها ، والتعبير بقوله : ﴿ يَحْمِلْنَهَا ﴾ فيه إحساس بعظمها وثقلها ، وأنها كالأمر يُحمل .

وقوله : ﴿ وَأَشْفَقْنَ مِنهَا ﴾ إشارة إلى سبب الإباء ، وهو الإشفاق ، والخوف ، وتقدير المسؤولية ، وقوله : ﴿ إِنَّه كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ إشارة إلى جسارته وإقدامه على الأمر ، من غير روية وتقدير ، فهو ظالم لنفسه ، جهول بقدراته ، وما ينطوى عليه من ضعف يجعل أمر وفائه بهذه الأمانة أمراً صعباً ، وجهاداً شاقاً .

وقد أشار الزمخشرى إلى ما ينطوى عليه هذا العرض الكريم من مجاز جاء ليُبرز أهمية الأمانة ، وأهمية الإنسان الذى حملها .

قال : « ونحو هذا من الكلام كثير فى لسان العرب ، وما جاء القرآن إلا على طُرقهم وأساليبهم ، فإن قلت : قد عُلِم وجه التمثيل فى قولهم للذى لا يثبت على رأى واحد : أراك تُقدِّم رِجْلاً وتؤخر أُخرى له ، لأنه مثلت حاله فى تميُّله ، وترجحه بين الرأيين ، وتركه المضى على أحدهما ، بحال مَن يتردد فى ذهابه ، فلا يجمع رجليه للمضى فى وجهه ، وكل واحد من الممثل والممثَّل به شىء مستقيم داخل تحت الصحة والمعرفة ، وليس كذلك ما فى هذه الآية ، فإن عرض الأمانة على الجماد ، وإبائه ، وإشفاقه ، محال فى نفسه ، غير مستقيم ، فكيف صح بناء التمثيل على المحال ، وما مثال هذا إلا أن تشبه شيئاً والمشبه غير معقول ؟

قلت : الممثَّل به فى الآية ، وفى قولهم : لو قيل للشحم أين تذهب ، وفى نظائره مفروض ، والمفروضات تُتخيل فى الذهن كما المحققات ، مثلت حال التكليف فى صعوبته ، وثقل محمله ، بحاله المفروضة لو عُرِضت على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنها وأشفقن منها » .

وهذا التشبيه الذى يكون المشبَّه به مفروضاً أو متخيلاً أصل فى فهم كثير من صور المجازات ، وكل هذا مؤسس على افتراض أن علاقة الكائنات بخالقها كعلاقتها بنا ، ويمكن أن يقال خلافه ، وهو أن الله عرض الأمانة ، وأن السموات والأرض والجبال أبين حملها ، كل ذلك على الحقيقة ، وأسرار الله فى خلقه يعلمها هو سبحانه .

وهناك خيط خفى ولكنه لطيف يربط هذه الآية بأول السورة تستطيع أن تتبينه إذا تأملت هذا الاستفتاح ، الذى كان كأنه استجاشة لرسول الله ﷺ ، ليتحمل القول الثقيل من أمر ربه ، والعمل الثقيل بتكليفه ، سبحانه ، ففرَّغ قلبه ، ووعيه ، بعد أن هتف به : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ ﴾ وأمره بالتقوى ، وتحمل

تبعاتها ، ونهاه عن طاعة الكافرين ، والمنافقين ، ثم توالى أمر آخر بالمعنى الثابت فى طريق الله ، وعلى منهج الله ووحيه : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ . . كل ذلك كان استجاشة لرسول الله ، وحثاً له ، وتهييجاً ، حتى يُقبل على الأمر الخطير بهذه العزمة الماضية فى الله ، مواجهاً القوم بهدم أرسخ عوائدهم ، وأدورها على ألسنتهم ، ثم كان ختام السورة تصويراً ، وتجسيداً لعظم المسؤولية ، التى ألقاها الله على عاتق الإنسان ، والتى أجفلت منها السموات ، والأرض ، والجبال ، وكأنه يقول للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فى نهاية المطاف : إن هذه الجسامة هى مسؤولية الإنسان باعتباره واحداً من عامة ولد آدم ، فما بالك بمسؤولية الإنسان النبى ، الذى هو خلاصة الإنسان ومحضه ؟

نسأل الله سبحانه أن يمحض وجهتنا ابتغاء وجهه .

ولا حول ولا قُوَّة إِلَّا بالله . .

د . محمد محمد أبو موسى

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

مقدمة الطبعة الثانية ٣

مقدمة الطبعة الأولى ٣٣

تمهيـــــد ٣٩

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ اتَّقِ اللهَ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ (الآيات : ١ - ٣) ٤٠

قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ لِرجَلٍ مِّن قَلْبَيْنِ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ وكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ (الآيتان : ٤ - ٥) ٥٤

قوله تعالى : ﴿ النَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ وأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ (الآيات : ٦ - ٨) . ٧٥

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ (الآيات : ٩ - ١١) ... ٩٠

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ .... ﴾ إلى قوله : ﴿ إن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً ﴾ (الآيتين : ١٢ - ١٣) . ١٠٦

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ... ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً ﴾ (الآيات : ١٤ - ١٧) ١١٥

قوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ .... ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (الآية : ١٨) ١٢٧

قوله تعالى : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ .... ﴾ إلى قوله : ﴿ عَلَى اللهِ يَسِيراً ﴾ (الآية : ١٩) ١٣٢

الصفحة

قوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا .... ﴾ إلى قوله : ﴿ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (الآية : ٢٠) ١٤٧

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً ﴾ (الآية : ٢١) ١٥٣

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ (الآيات : ٢٢ - ٢٤) ١٦٣

قوله تعالى : ﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ قَوِيّاً عَزِيزاً ﴾ (الآية : ٢٥) ١٩٣

قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾ (الآيتان : ٢٦ - ٢٧) . ٢٠٩

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (الآيتان : ٢٨ - ٢٩) ٢٤٣

قوله تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ .... ﴾ إلى قوله : ﴿ رِزْقاً كَرِيماً ﴾ (الآيتان : ٣٠ - ٣١) ٢٦٣

قوله تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ لَطِيفاً خَبِيراً ﴾ (الآيات : ٣٢ - ٣٤) ٢٧٦

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ (الآية : ٣٥) ٣٠٠

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ .... ﴾ إلى قوله : ﴿ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً ﴾ (الآية : ٣٦) ٣٢٥

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيباً ﴾ (الآيات : ٣٧ - ٣٩) ٣٣٢

الصفحة

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً ﴾ (الآيات : ٤٠ - ٤٤) . . . ٣٥٢

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً . . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ (الآيات : ٤٥ - ٤٨) ٣٦٣

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾ (الآية : ٤٩) ٣٦٨

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً ﴾ (الآيات : ٥٠ - ٥٢) ٣٧١

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ﴾ (الآيات : ٥٣ - ٥٥) ٣٧٩

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ (الآيات : ٥٦ - ٥٩) . ٣٨٨

قوله تعالى : ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ . . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ (الآيات : ٦٠ - ٦٢) ٣٩٥

قوله تعالى : ﴿ يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ تَكُونُ قَرِيباً ﴾ (الآية : ٦٣) ٣٩٩

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ لَعْناً كَبِيراً ﴾ (الآيات : ٦٤ - ٦٨) ٤٠١

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ آذَوْاْ مُوسَىٰ . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ (الآيات : ٦٩ - ٧٣) ٤٠٤

محتويات الكتاب ٤١٣

* * *

كتب للمؤلف

١ - البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى وأثرها فى الدراسات البلاغية .

٢ - الإعجاز البلاغى . . دراسة تحليلية لتراث أهل العلم .

٣ - التصوير البيانى . . دراسة تحليلية لمسائل البيان .

٤ - خصائص التراكيب . . دراسة تحليلية لمسائل علم المعانى .

٥ - دلالات التراكيب . . دراسة بلاغية .

٦ - دراسة فى البلاغة والشعر .

٧ - القوس العذراء ، وقراءة التراث .

٨ - قراءة الأدب القديم .

٩ - من أسرار التعبير القرآنى . . دراسة تحليلية لسورة الأحزاب .

* * *

رقم الايداع ٨٦٩٩/٩٥
الترقيم الدولى I.S.B.N 977-225-082-0